

طارق علي



المجلس
الأعلى
للثقافة

المشروع القومي للترجمة

الخوف من المراهي



ترجمة:
طلعت السائير

المشروع القومي للترجمة

الخوف من المراه

تأليف: طارق علي

ترجمة: طلعت الشايب



٢٠٠٠

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

FEAR OF MIRRORS

الصادرة بالإنجليزية عام ١٩٩٨ عن

Arcadia Books - London

المؤلف

طارق علي :

- من مواليد "لاهور" - عاصمة ولاية البنجاب الهندية - ١٩٤٣

- تعلم في باكستان ، وأكسفورد (١٩٦٣) حيث درس السياسة والفلسفة والاقتصاد ، وكان عضواً في محكمة جرائم الحرب التي شكلها "برتراند راسل" ، كما زار كمبوديا وقيتنام (١٩٦٧) في إطار نشاط هذه المحكمة وكان أحد رموز الحركة الطلابية العالمية في ١٩٦٨

- في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان رئيساً لتحرير صحيفة "القسم الأسود" والخذ الأحمر" ، وانضم خلال تلك الفترة إلى الأممية الرابعة، وكان أحد الكوادر البارزة لشعبتها في بريطانيا.

- كتب عن التطورات السياسية العالمية لصحف "نيو ستيتسمان" و"نيولفت ريفيو" و"الجارديان" وهو صاحب مؤلفات عدة حول شبه القارة الهندية من بينها :

باكستان: "حكم عسكري أم سلطة شعبية ؟ ١٩٧٠ -

هل يمكن لباكستان أن تبقى ؟ - ١٩٨٣

النهرويون والفانديون : سلالة هندية حاكمة

سنوات حرب الشوارع .

سيرة ذاتية للستينيات.

تروتسكي للمبتدئين - ١٩٨٠

الثورة من أعلى : الاتحاد السوفيتي إلى أين ؟

- طارق على مؤلف مسرحى، ومخرج سينمائى ، وكاتب روائى
صدر له :

* إقتداء - ١٩٩٠

* ظلال شجرة الرمان - ١٩٩٢ - وقد أثارت تعليقات مهمة
فى الأوساط الأدبية ، وترجمت إلى عدة لغات ومنحت جائزة أفضل رواية
مكتوبة بلغة أجنبية فى سنتياجو دى كومبو ستيللا - أسبانيا -
١٩٩٥ -

* الخوف من المرايا - ١٩٩٨ -

المترجم

طلعت الشايب

كاتب ومترجم مصرى من مواليد ١٩٤٢

حاصل على ليسانس فى اللغة الإنجليزية والتربية عام ١٩٦٢

عمل بالتدريس والترجمة والإعلام فى مصر والكويت وقطر

يترجم من وإلى العربية والإنجليزية والروسية .

صدرت له الترجمات الآتية :

دراسات : * حدود حرية التعبير (ترجمة كتاب القصة والرواية فى

مصر فى عهدى عبد الناصر والسادات) تأليف : مارينا

ستاغ

شرقيات - القاهرة - ١٩٩٥

* مثقفون - بول چونسون - شرقيات - القاهرة -

١٩٩٨

* صدام الحضارات - صمويل هنتجتون - سطور -

القاهرة - ١٩٩٩

روايات : * الملك الصامت - هينرش بول - الهيئة العامة لقصور

الثقافة - القاهرة - ١٩٩٧

* البطء - ميلان كونديرا - شرقيات - القاهرة - ١٩٩٦

* فتاة عادية - آرثر ميللر - شرقيات - القاهرة - ١٩٩٨

* الحرير - أليساندرو باريكو - الهيئة العامة لقصور
الثقافة - القاهرة - ١٩٩٨

* عاريا أمام الآلهة - شيف كومار - شرقيات - القاهرة
- ١٩٩٨ .

* الحمامة - باتريك زوسكيند - شرقيات - القاهرة -
١٩٩٩

الخوف من المراه

نحن نعيش فى خواء موحش ، وهذا القرن على وشك الانتهاء ،
خبرت توهجه وخموده ، رأيت الشمس وهى تغرب فوق سهول المنطقة
القطبية الجرداء . أحاول ألا أنظر إلى مصيرى بازدراء ، ولا أفلح دائماً
، أعرف ما يدور بذهنك يا "كارل" ، تعتقد أننى أستحق العقاب الذى
أنزله بى التاريخ .

أنت تظن أن الحقبة التى انتهت الآن كانت حقبة يوتوبيات انتحارية
حولت البشر إلى أحجار بناء وحديد ، إلى مشروعات هيدروكهربائية
عملاقة ، إلى خطط جماعية مجنونة ... وربما إلى ما هو أسوأ .

الهندسة الاجتماعية اعتادت على تقزيم القيمة المعنوية للبشر وسحق
روحهم الجماعية ، لست مخطئاً تماماً .. ولكن القصة ليست كاملة .

وأنا فى مثل عمرك ، كان والداى لا يكفان عن الكلام عن الطرق
الموصلة إلى الجنة ، كان يبنيان طريقاً اشتراكياً خاصة جداً ليصبح
جسراً لصنع الجنة على الأرض ، رفضاً أن يستذلا فى صمت ، رفضاً
أن يقبلا حقارة الفقراء الدائمة ، كم كانا محظوظين يا بنى !! أن يحلما
بمثل ذلك ، وأن يكرسا حياتهما لتحقيقه ! كم يبدو أن الآن مجانيين ليس
بالنسبة لك فقط ، ولا للعالم الذى تمثله ، وإنما فى نظر بلايين الناس
المحتاجين إلى صنع عالم أفضل ، ولكنهم يخافون الآن . حتى مجرد الحلم .

إن الأمل ، على عكس الخوف ، لا يمكن أن يكون عاطفة سلبية .

الأمل يحتاج إلى حركة ، إلى بشر نشطاء ، وحتى الآن ما زال الناس

يحلّمون بإمكانية حياة أفضل ، فجأة توقفوا ، أعرف أنها فاصلة ، مجرد فاصلة وليست نقطة فى نهاية جملة ، ولكن الوقت قد فات لإقناع "جيرهارد" العجوز المسكين ! لقد ضاع إلى الأبد .

هذا زمن يتطلب أحياناً جهداً جهيداً من أناس مثلى لمجرد مواصلة الحياة . والشئ نفسه كان فى الثلاثينيات . مرة حكّت لى أمى أن والدى كان يقول لها قبل أن أن يقتله رجال "ستالين" بعام: "فى أوقات كهذه ، يصبح من السهل أن تموت لا أن تعيش "وها أنذا ، لأول مرة ، أفهم ما كان يقصد . الحياة ذاتها تبدو شريرة . والعذاب الأكبر هو أن أشهد تحلّى الشخصى فى صمت ، والحقيقة أننى كنت أود أن أبدأ بنغمة أكثر تفاؤلاً .. معذرة ! أنا وأمك ، أنا فى "برلين" وهى فى "درسدن" كلانا تحرك صوب الآخر ، بحثاً عن ملجأ من الاختناق الذى أصاب معظم مواطنى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، كنا نتوق إلى الفوضى لأن مركز عالمنا البيروقراطى كان قائماً على النظام ، كان "جيرهارد" وجميع أصدقائنا الآخرين لديهم نفس الشعور . وكنا نحب لقاءاتنا آخر الليل ، نتحدث عن المستقبل مملوئين بالأمل ، نستدفئ بالبخار المتصاعد من فناجين القهوة السوداء . حتى فى أحلك الظروف كانت هناك دائماً لحظات مرح .

شعر . أغان . وكان "جيرهارد" يجيد تقليد الآخرين وكانت لقاءاتنا تنتهى دائماً به وهو يمثل دوره فى المكتب السياسى ، كنا شديدى الحاجة للتحرر .. لدرجة أننا ، لوقت ما ، كانت تعمينا الأضواء المنبعثة من مجال البث التلفزيونى الغربى التى نجحت فى إخفاء كآبة المنظر الذى يواجهنا الآن .

كان النظام القديم يمتلك ميزة واحدة .. إن لم يكن شيئاً آخر . مجرد وجوده كان يحفزنا على التفكير ، على التمرد ، على أن نهدم الحائط كله ،

وإذا فقدنا حياتنا في تلك العملية ، فإن صرعة الموت لنا ستكون سريعة كالبرق ، وسيكون رحيمًا بنا .

أما التوافق الجديد فهو قاتل بطيء يشجع على السلبية ... ولكن .. يكفي هذا القدر من التشاؤم الآن .

هذه هي قصة والدي يا "كارل" لك وللأطفال الذين أتمنى أن تكون أبا لهم ذات يوم ، في طفولتك ، كنت تتغذى يومياً على قصص البطولة . وكان معظمها حقيقياً وإن كانت مكررة .

ولهذا السبب نفسه ، وربما تكره ما أنت مقدم على قراءته بالضبط كما اعتاد الفقراء على كراهية البطاطس!

ومنذ أن أصبحت صبياً مدركاً ، وجدت أنا وأمك أن من الممكن اجتذابك إلينا ، أن نجعلك تتكلم معنا ، ونستمع إلى شكاواك ومخاوفك وأحلامك ، والآن أعرف لماذا لم تستطع أن تقول لنا شيئاً نحن في نظرك، قد فشلنا ، وفشل الكبار بالنسبة للصغار جريمة كبرى ومهما كان حكمك علينا .. أود أن تقرأ هذا للنهاية في مثل عمري الآن ، يبدو مرور الزمن مثل شلال مائي ، لذا أتمنى أن تتعامل مع هذا الرجاء كمعروف أخير ، تسديه إلى البقية الباقية من ذلك الذي كان والدك .

لقد مر وقت طويل منذ كنا نجلس متجاورين ، نضحك على ذكريات من طفولتك ونتبادل البوح ، لم أكن أشعر أننا مجرد أب وابن كنت أرانا أصدقاء ، وكان "جيرهارد" الوحيد الذي وثقت به وأحببته من بين كل رفاقي يلاحظ ذلك ويقول : كم أنت محظوظ يا "قلادي" أن يكون لك شبل مثل "كارل" :

كانت هناك اختلافات بيننا بالتأكيد ، لكنني كنت أفضل أن أعتبرها

فروق أجيال ،... وربما أوديبية ، وفي السنوات الأخيرة كنت تسخر من أفكارى ، ومرة أخبرونى بأنك شبهتني ، علنا ، بالديناصورا .

أنا من مواليد ١٩٣٧ ، لست مسنا ، أليس كذلك يا "كارل" ؟.

لقد كان اختياري لهذا اللقب هو الذى أدهشنى وفاجأنى الديناصورات انقرضت منذ ملايين السنين ولكنها مازالت تسكننا! ولماذا؟ لأن معرفة كيف ولماذا انقرضت تحمل لنا الكثير من الذى يجعلنا نفهم الحياة على هذا الكوكب .

هناك - حتى - كلام عن إمكانية إعادة تخليق الديناصورات عن طريق الجينات ويكلمات أخرى يا بنى أنا فخور بأن أكون ديناصورا . كان تشبيهك موحياً وملهما لى بأكثر مما تظن .

أبى وأمى كانا من الثوريين فى الأيام الذهبية للشيوعية ، كما كانا أيضاً خلال سنواتها الدموية ، كنت طفلاً فى "موسكو" أثناء حرب هى الآن بعيدة بعيدة فى ذاكرة أوروبا عشت معظم سنوات عمرى فى القرن العشرين أنت من مواليد ١٩٧١

ومن حسن الحظ أنك ستعيش معظم حياتك فى القرن الواحد والعشرين كل ما تتذكره هو سكرات موت الاتحاد السوفيتى ، التفسخ النهائى لنظام الدولة الذى كانوا يطلقون عليه اسم الشيوعية، وأنا وأمك عندما كنا نعمل من أجل مستقبل لم يأت أبداً .. ومن أجل إعادة توحيد ألمانيا .

وتتذكر أمك بالطبع ، وهى تحزم حقيبتها وتغادر شقتنا ، وأعرف أنك تحملنى مسئولية انهيار العلاقة ، وقرار أمك التالى ، بقبول وظيفة فى نيويورك ، وتعتقد أن علاقتى بـ "إيفيلين" كانت هى القشة الأخيرة ،

لكنك مخطئ ، لقد كنت أنا و "هيلجا" متباعدين ، ولم يكن ذلك هو السبب ، كيف يمكن لزواج مثل زواجنا أن ينتهى . أنا اعتقد أننا كنا متطابقين حتى فى المزاج ، ومتشابهين فى أمور كثيرة كان زواجنا فعل دفاع عن النفس .

كانت هى فى حاجة لأن تتحلل من قبضة منزلهم اللوثرية الأرثوذكسية ، وكنت أنا فى حاجة إليها لكى أتحلل من أمى "جيرترود" .

وعندما زال الضغط الخارجى أصبحت حياتنا خالية فجأة ..

رغم كل اضطراب الشوارع ! كنا أسرى فخنا الذاتى و "إيفيلين" كانت حاشية لرسالة .. هامشاً على المتن !

وأشعر أحياناً بأنك تعتبرنى مسئولاً - مسئولية شخصية - عن الجرائم التى ارتكبت باسم الشيوعية والآن أراك غاضباً لاتضمامى إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى * " لماذا؟ لماذا؟ " .

ما زلت أشعر برنة الغضب فى صوتك وأنا أبلغك بقرارى للمرة الأولى ، أنا الذى لم أكن فى يوم من الأيام جزءاً من كيانهم الرسمى ، التحق الآن بحزب تراه أنت مجرد غطاء للعملاء القدامى ! هل كان الأمر هكذا فعلاً يا "كارل" ، أم تراك كنت تخشى أن يؤثر ذلك على صعودك السريع بين صفوف الحزب الديمقراطى الاجتماعى وعلى عمك المستقبلى ؟ ، هل أنا غير منصف ؟ ، كل ما أستطيع أن أقوله إنها ستكون مفاجأة لى إذا كان قرارى بالانضمام إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، يمكن أن يبعدك عن حكومة الحزب الديمقراطى الاجتماعى فى القرن القادم ، وتأسيساً على ما أقرأ وأسمع وأشعر ، أنك ستصل إلى مراتب عليا لقد أصبحت خبيراً

* الصيغة الجديدة للحزب الشيوعى السابق الذى كان يحكم ألمانيا الشرقية (المترجم) .

فى أن تجعل الاشتراكية "معقولة" بالنسبة لأعدائها الطبيعيين ، وذلك بتفريغها من أية شحنة مدمرة وهذا أفضل من العودة إلى الدين .

ولو أنك أصبحت لاهوتياً لحرمتك أنا وأمك من الكنيسة الكنيسة التى هى قلبنا .

أرجوك ... أفهم شيئاً واحداً ... وهو أنك فى الوقت الذى تكون فيه جالساً فى غرفة الانتظار فى مكتب المستشار ، ستكون كل ذكريات الحرب الباردة قد تبخرت ، ستواجه بوحوش حقيقية .. مختلفة ، أوروبا وأمريكا مملوحتان بالديماجوجين ، كل منهم مشغول بوضع صيغته الخاصة من "كفاحي" وإن اختلفت الأساليب الوحشية الحيوانية للفاشية القدامى ، تتخلى عن مكانها ويجعل محلها الأبوية المراهنة لخلفائهم ، لقد انضمت إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى احتجاجاً على الموقف التعس الذى نجد نحن الشرقيين * أنفسنا فيه ، لكى أعلن كرامة البؤس ، وأوضح للناس أنه لابد من وجود وسيلة جماعية للخروج من هذه الورطة. فى ألمانيا الشرقية كان عدد حالات الانتحار ، أكثر منه فى أى مكان آخر من أوروبا الشرقية ، إننا لا نتصور جوعاً ولكننا نشعر بأننا مسحوقون معنوياً ، وذلك من شأنه أن يؤثر علينا جميعاً بصرف النظر عن الحروف الأولى من أسماء الأحزاب التى تحكم ولاعنا ، ولصالح من نعطي أصواتنا فى الانتخابات ، وأعرف كثيرين من مؤيدي مستشارنا الضخم ، يشعرون بمثل ما أشعر به بالضبط الغربيون* يعتقدون أن كل

* المقصود بالشرقيين سكان ألمانيا الشرقية وبالغربيين سكان ألمانيا الغربية (المترجم) .

شئ سيكون على ما يرام ، بمجرد تحطيم ماضيها ، وإزالة كل أثر لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، يا لهم من أغبياء أولئك الرجال والنساء فى الغرب ، يعتقدون أن المال كان هو الحل السحري ... إنه اللغة الوحيدة التى يفهمونها وأنا ، لا ألومهم كثيراً على هذا الضعف على أية حال ، فى فترة ما بعد الحرب كان شعارهم المرفوع هو الكد من أجل المال .. والمزيد من المال حينذاك فقط سيقدر الناس قيمتهم ، كما يزعمون. وأصبحوا مشغولين بذلك الهدف لدرجة استخدامه كعلاج طبيعى ، يساعد كثيرين منهم على محو ذكريات تواطئهم مع الرايخ الثالث .

فى حالتنا لم يكن الأمر بمثل تلك البساطة ، ومهما كانت مخيفة ومهما كانت متوحشة ، فإن جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة - هكذا كانت من البداية إلى النهاية - لم تكن هى الرايخ الثالث، المعادلة غبية ، وهى إهانة لذكائنا أنت تعرف ذلك جيداً .. مثلى .. ولذا أرجو أن تتأكد أنه واصل إلى سادتك الجدد .

على مدى أكثر من أربعين عاماً كنا نصنع فلك ثقافتين مختلفتين خذ لغتنا على سبيل المثال ، نحن نتكلم - حتى - على نحو مختلف. فى الغرب نسوا قواعد اللغة تماماً، الحياة فى مدارس ألمانيا الديمقراطية كانت خانقة ، ولكن رياض الأطفال لدينا كانت جيدة بالفعل ، وفى الستينيات والسبعينيات كانتبنى البروسية الستالينية فى الجامعات قد بدأت تتكشف عن صدوع خطيرة.

لن يشاهد أطفالك أبدا "رجل الرمل " ألم يكن أفضل بكثير من تلك النفايات الأمريكية ، التى يعرضونها للأطفال فى الغرب ؟

أم ترانى مجرد شخص مزعج وعجوز خرف ، يبدأ فى إثارة أعصابك ؟

كثيرون منا سعداء ، لأننا عدنا بلداً واحداً مرة أخرى ، ولكنهم أسفون لأن كل شيء هنا يجرى تدميره . برلينهم الجديدة ...

"برلين" القرن القادم الرسمية يجرى تصميمها وبنائها بحيث يتم محو الماضي وإعادة مارد التاريخ إلى القمم ، إلا أنهم فى نفس الوقت يخلقون الظروف ، التى تحى الاستقطابات القديمة. الأغنياء الغربيون يقبلون على شراء كل العقارات لكى يصبحوا أكثر غنى . وعندما يأتون إلى فنادقنا يحضرون معهم صابونهم وفوطهم ، عملية تجانس جديدة يتم فرضها علينا ، لدينا بالطبع الحرية لكى نعترض .. وهذا شيء جيد .

رسالة "جيرهارد" وصلتني بعد أن سمعت خبر انتحاره فى الراديو سطور قليلة ، بروفيسور سابق يشنق نفسه فى حديقة منزله فى "جينا" هذا هو كل شيء .

قرأت رسالة "جيرهارد" أكثر من مرة كان ذلك صوت أقرب أصدقائى. قبل أقل من أسبوعين كنا قد قضينا مساءً معاً ، وكان "جيرهارد" - مثلى - قد طرد من وظيفته لم يبقوا عليه أستاذاً للرياضيات فى "جينا" ، بسبب آرائه السياسية كان مثل غيره قد احتفى بإزالة الحائط .

للأسف "كان والد "جيرهارد" جنرالاً فى الاستخبارات العسكرية . كان الغربيون يستأصلوننا بكافة أساليب الانتقام ، قالى لى يا "كارل" ما الفائدة التى ترجى من ألمانيا ، تحكم على رجل مثل "جيرهارد" بالإعدام ؟ لقد بكيت عندما أريتك رسالته .

هل تتذكر ذلك الوجه الوديع المشرق ، الحالم دائماً المشبع دائماً بعدم اليقين ، دون انطواء أو كآبة ؟

هى فى البداية جنوة ، ثم تبدأ فى الوميض وسرعان ما تصبح

لهباً ، اللهب الذى يخرق العقل والنتيجة ؟ ألم متواصل .
وعندما يعجز عقلى عن احتواء الألم .. عندما يطغى الألم
على كل شئ الأمل ، الحب الذكريات الجميلة ، كل شئ ،
عندما يغتال الماضى بوحشية تنبتق الفكرة ، يرفض الألم أن
يذهب ، ثم فى جو جميل مشمس بعد ظهيرة يوم كهذا أفكر
فى أفضل طريقة للرحيل ، لماذا لا أعلق نفسى فى شجرة
البلوط العتيقة فى الحديقة ؟ عمل شبه على ، سيبلغ الجيران
عن الحادث ، إن تلك يا "فلادى" هى الطريقة الوحيدة المتبقية
لنا للهرب . الغربيون يريدون القضاء علينا تماماً ، لم يكن لنا
وجود أبداً كل شئ كان هراء ، لا أقوى على الحياة فى بلد
ينظرون فيه إلى البشر، مرة أخرى على أنهم قمامة يجب
كنسها .

إن الفقر الروحى أصعب ، من الموت أو التحلل أو
الانتحار .

الصورة الوحيدة لنا عندك يا "كارل" هى أننا جيل مهزوم ، كل تراثه
مسمم ، وعندما أروى لك قصة "لودفيك" فقد تكون فرصة لك لى تعرف
الكثير عن جدتك وعنى ، لا تفزع أمني الشفقة وطيب خاطر ، لن
يكون ذلك محاولة لتبرير الذات ، ولا لفظامك عن الجهاز الذى أصبحت
مرتبطاً به ، هكذا كل شئ نسبى فى هذا العالم اليوم . أنا سعيد لأنك
"ديمقراطى اجتماعى" ولست "ديمقراطى مسيحي" وذات يوم لا بد أن
تشرح ما يفصلك عنهم اليوم ما أريده قبل أى شئ هو أن أخلص
الناس فى هذه القصة من قبضة أولئك الذين لا يهتمون بالماضى ،
سوى من أجل تبرير حاضريهم .

بعضنا ، نحن الذين تشكّلنا ونجونا من العواصف النارية لهذا القرن ، ندين بذلك لأنفسنا إن لم يكن لأى شئ آخر ، وإن كنت لا تريد أن تقرأ ما لابد أن أقوله ، فلتتركه فى مكان ما كى يجده أبنائك أو أحفادك يوماً ما ، وربما قد لا أحبذ إرساله لأحد عندما أصل إلى النهاية ، معظم ما ستقرأ من نسج خيالى ، المساحات الفارغة بين ما أعرف من أشياء ، لا يمكن أن تظل فارغة بكل تأكيد ، لو سمحت لى ، سوف أبدأ بالأسلوب الذى تم الإصطلاح عليه منذ القدم :

فى يوم من الأيام ، فى قرية "بدقوشوليسك" فى إقليم "جاليشيا" فى العقد الأخير من القرن الماضى ،، كان هناك خمسة أولاد تبدأ أسمائهم ، جميعاً بحرف اللام يسبحون فى النهر نفسه ، يذهبون إلى المدرسة نفسها ، يطاردون البنات أنفسهن ،ونشأوا كلهم غير مكترثين بكون قريتهم الحدودية بين الأراضى النمساوية - الهنغارية وممتلكات قيصر الأراضى الروسية كلها كانت دائماً عرضة لأهواء الاستعمار . كانت الأيدى تتغير عليها كل بعض سنوات .

وكان معنى ذلك ، أنهم تعلموا لغات كثيرة بدلاً من لغة واحدة ، وتعلموا أن يقرأوا "بوشكين" و "جوته" باللغة الأصلية ، كانت جدتك "جيرترود" تتحدث دائماً عن صورة رأتها ذات يوم فى موسكو كانوا كلهم هناك خمسة أولاد أبرياء يببلهم الماء من الرأس إلى القدم ، وجوههم عليها ملامح متحفزة ، فاجأتهم الكاميرا وهم فى بنطلونات السباحة القصيرة .

وإلى أن شبوا عن الطوق ، لم يكن "لودفيك" و"لانيج" - كانوا يدعونه دائماً فريدى - و "ليفى" و "ليفيتسكى" و"لارين" قد شجعوا على إنشاء مكتبة وقاعة للاطلاع ، حيث كان يمكنهم قراءة الصحف

والدوريات الصادرة بالألمانية ، وسرعان ما أصبحت قاعة الإطلاع تلك مكاناً للقاء ، حتى بالنسبة للشبان الأقل حظاً من التعليم فى القرية ، وعندما أغلقها الروس عم الغضب الجميع ، وكان بين الأولاد الخمسة الذين تبدأ أسمائهم بحرف اللام ثلاثة من أصل يهودى يتكلمون لغة "الييديش" منهم أبى "لودفيك" بينما كان الآخران من أصول بولندية فلاحية الكل يتكلم لغة الكل وعندما حان وقت الاحتفال بعيد ميلادهم العاشر ، كان جـدك وأصدقائه يتكلمون الألمانية ، والروسية ، والبولندية ، والييديش ، بدرجة متساوية من الطلاقة .

نعرف جميعاً الملامح السلبية للامبراطوريات القديمة ولكنها كانت لا تعد ملمحاً إيجابياً كان وجودها يوجد المجتمعات التى يحكمونها من خلال تزويدهم بلغة مشتركة وعدو مشترك .

الشبان الذين نشأوا فى "بدقوشوليسك" الصغيرة ، لم يشكوا أبداً أن الحرب العالمية الأولى ، سوف تقصف عمر معظمهم خلال سنوات قليلة ، ولم يكونوا غافلين عن الظروف المضطربة ، التى يعيشونها نادراً ما تكون الحياة فى قرية حدودية ، هادئة ومطمئنة ، فهمى تجتذب الأبقين من كل جنس ، مجرمون ، سياسيون منفيون، فارون من جيوش، هاربون من ظلم الأباء ، يحاولون أن يجدوا طريقاً نحو العالم الجديد .

كان وضع أولئك الشبان الذين تبدأ أسمائهم بحرف اللام ، جيداً ، منذ أن امتلك والد "شميلكا ليفتسكى" فندق القرية الصغيرة ، بقفطانه الأسود ولحيته الكثة السوداء المتناغمة معه ، كان منظره يوحى بالخوف ويشير الاحترام، وكان رجلاً طيباً يشمل نزلاء فندقه الصغير بالمودة والكرم، وهنا، سمع "لودفيك" وأصدقائه لأول مرة من المنفيين البولنديين عن قيام ثورة ضد القيصر فى "سان بطرسبورج" كان ذلك فى عام ١٩٠٥ .

ثم علموا بأن الثورة قد تم سحقها عندما مرت بالقرية موجة جديدة من المنفيين ، وكانت القرية قد أصبحت فى أيدي النمساويين مرة أخرى ، لم يكن الخمسة يعيشون فى "إسن" أو "مانشسير" أو "ليل" ، ورغم وجود اتحادات عمالية ودعاة إصلاح ، إلا أنهم كانوا قلقين بسبب سرعة تغير الأحوال .

كانت "بدقوشوليسك" قرية أوربية مهمة ، على هامش امبراطوريتين قويتين وكان ما يقرب من ثمانية بالمائة من سكانها من اليهود، استقبلوا الأخبار القادمة من "بترسبورج" ببهجة لم يخفوها فى البداية ، ولكن سرعان ما عاودا إلى حالتهم العادية ، من التشاؤم الحذر .

وفى يوم مشمس من أيام مارس عام ١٩٠٥ ، ومع بدء ذوبان الجليد ، جاء إلى "بدقوشوليسك" رجل ضئيل الحجم ، فى بداية العقد الثالث ، له عينان متعبتان ويرتدى نظارة طبية لها إطار يشبه قرن حيوان ، كان بولنديا وكان اسمه "آدم" وكان قد أمضى عدة سنوات فى سجون القيصر ، كل ما يريده هو أن يستريح ، صديقة "لودفيك" وقبلوه عضو شرف فى المجتمع السرى للخمسة الذين تبدأ أسمائهم بحرف اللام ، كان يقضى معهم وقتاً طويلاً فى المشى على شاطئ النهر ، يستمع إلى ثرثرتهم حيث كانت بنات القرية، موضوعاً رئيسياً للحكى ، عن الحاخام وكبار شخصيات القرية الآخرين .. ثم يتكلمون عن الممارسات الأبوية ، التى لا تروق لهم .

كان "آدم" مستمعاً جيداً... يبتسم كثيراً ويسأل قليلاً ولا يتطوع بقول شئ ، وعندما بدأوا يسألونه فقط ، أدركوا أن حياته كانت مختلفة عن حياتهم ، حكاياته هزتهم ، ثم بدأ هو يوجه الأسئلة، وسرعان ما بدأت الأحداث التى كانوا يقبلون بها كأمر مسلم به تظهر فى ضوء جديد ،

المذابح المنظمة مثلاً "لودفيك" حكى "لآدم" كيف اصطحبه والده منذ سنوات لحضور زفاف عم له، في قرية مجاورة ، كانت "بدقوشوليسك" كلها تقريباً يهودية، ودائماً تحت الحكم النمساوي، وتشعر بالأمان ولكن عمه كان يعيش في روسيا كان الشارع الرئيسي الذي يعيش فيه في القرية يشبه الوادي الصغير الضيق شديد الانحدار. دكاكين، وبيوت اليهود على جانب ، وكل شئ آخر على الجانب الآخر ، وعندما كان "لودفيك" يتكلم أصابت صوته بحة ، فقد تذكر ما شعر به من رعب في تلك الليلة الخريفية الباردة ، كان يوم سبت الشموع موقدة ، وبينما يسيرون في الشارع، كان وميض سحري ناعم يوترنوا في بيوت اليهود.

وصف له تجمع المصلين وهم يغادرون المعبد ، رجال مسنون بظهور محنية ورؤوس مدلاة وقفاطين مفتوحة ، وآخرون صغار مثل "لودفيك" يحاولون تقليد الكبار، في مشيتهم ، ولا بد من أن يكون بعض كبار السن قد شموا رائحة خطر في لحظة ما ، فصمتوا جميعاً لسبب غير واضح ، فجأة ، دون إنذار إنقضت عليهم جماعة من الفلاحين يقودهم قساوسة ، كان "لودفيك" يتذكر المناجل والمحشات والسياط والعصى ، التي كانت تنهمر من السماء فوق رؤوسهم كالطرر كان السوط في يد فلاح قوى كثر الشارب ، ينهال على ظهر عجوز يهودي في الستين ، وكان "لودفيك" يصف وجهاً شوهه الحقد ، وعينين أصابهما مس الكراهية المسيحية المتأصلة ، ضد اليهودي، ذلك الوحش الذي أرسله الشيطان من السماء ليقتل المسيح ويضطهد الأبرار ، أمسك والد "لودفيك" ابنه في يده وركضوا بعيداً بعيداً خلفين كل ذلك الشر وراءهم ، وفي اندفاعهم هاربين من العقاب ، لم يلاحظوا أن جماعة أخرى كانت تقتحم بيوت اليهود وتضرم فيها النيران بشموع السبت ، كانت مذبحاً صغيرة في تلك الليلة مات يهوديان فقط ، وهما يقطعان

الأميال الباقية حاول والده أن يهدئ من روعه ، كانت الأمور أسوأ من ذلك فى "لومبيرج" و"كيف" صمم "لودفيك" وأصدقائه ، بتشجيع من "آدم" على الهروب من "بدفوشوايسك" كانوا كلهم متفوقين فى الدراسة استطاعت أسرهم تدبر المال الكافى لإرسالهم إلى الجامعة فى "فيينا" كنا فى عام ١٩١١ ، "فريدى" و"ليفى" و"لارين" درسوا الطب "لودفيك" على غير رغبة والديه ، الذين كان يريدان له أن يصبح محامياً ، درس الأدب الألمانى وكان يتكلم بحماس عن "هينه" ويكتب الشعر "شميلكا ليفيتسكى" تخصص فى الرياضيات ، ولكنه كان يقضى معظم وقته فى العزف على الكمان .

وفى البداية ، كانوا يلتقون كل مساء ، يتبادلون الأخبار ويتحدثون عن الوطن ، ويتشاكون عن ارتفاع أسعار كل شئ ، ويتحسرون على انفسهم، وفيما عدا "ليفيتسكى" لم يكن أى منهم قادراً على شراء ملابس جاهزة ، وكانوا يجذبون اهتمام الآخرين عندما يتجمعون حول طاولة فى أحد المقاهى فى صخب ، يشربون قهوتهم، ويتكلمون بالبيديش ، كانوا يريدون أن يتخلصوا من ريفيتهم فى يوم وليلة .

بعد أسابيع قليلة أصبحت لقاءاتهم أقل ، كانوا يعملون بجد وبدأوا يكونون صداقات جديدة، وفى وقت قصير أصبحت اتصالاتهم ببعضهم، مقصورة على التلويح من بعد عبر طاولات مقاهيهم المفضلة "لودفيك" "سحرته" "فيينا" ، أسرته نائمة التاريخ المدهشة هنا يتبدى كل شئ ونقيضيه الاشتراكيون المسيحيون المعادون للسامية ، فى مواجهة الاشتراكيين كان "شوينبيرج" قد أطلق وابل طلقاته المغرقة فى الحداثة، على الفلاس القيينى ، وهكذا تم دفن مؤسسة موسيقية فى الماضى ، وكان فرويد يتحدى التقاليد الطبية الراسخة .

كان "لودفيك" مستثاراً لدرجة بعيدة لم يستطع أن يدرك أن ما كان يشهده ، ليس أقل من تفسخ للنظام القديم ، على العكس من نظرائهم الإنجليز والفرنسيين ، لم تكن النخبة ، البرجوازية النمساوية قادرة على الاندماج مع أرستقراطيتها أو تدميرها .

ولكنها بدلاً من ذلك ، ركعت على ركبتيهما وحاولت تقليد من هم أرقى منها ، لم تواجه سلطة الأباطور أى تحد إلا من أسفل، الفاشيست القدامى من جانب ، والاشتراكيون من الجانب الآخر .

ولأنه عجز تماماً عن فهم ديناميكيات ذلك العالم ، بحث "لودفيك" عن ملجأ في الجانب الثقافى من صحافة "فيينا" ، جذبه أسلوب صفحات التسلية وكتابها كانوا نفرا ممن تخصصوا فى تشجيع المشاعر الخاصة ، وجعل القراء يشعرون بأنفسهم يسبرون أغوار الواقع .

ترك ذلك أثراً عميقاً على "لودفيك" وراق له الحس الأدبى ونرجسيته كان دائم التفكير فى الوطن يفتقد طبعاً أمه ، وفطائر عمته "جالينا" التى كانت تصنعها فى المناسبات المختلفة ، حتى صوت والده المازح كان يحن إليه ، وفى الهزيع الأخير من الليل كان يجلس وحيداً فى غرفته الصغيرة يكتب ما كان يعتقد أنه خطابات ذكية ليسعد والديه ، مقلداً أسلوب كتاب صفحات التسلية والكتابة الخفيفة كانت متداولة لسانه ونغمته الزائفة تحزن والديه ، الأب كان مدرساً خاصاً ، يكسب القليل من تدريس الموسيقى لأبناء الطبقة الراقية البولندية ، أمه كانت تصنع الخبز والفطائر المحشوة بالجبن لمخبز "بدقوشوليسك" وكلاهما كان يعمل بجد لكى يرسلوا ابنيهما المحبوب إلى "فيينا" ، أما شقيق "لودفيك" وهو عكسه تماماً ، فكان يتدرب لدى عم لهم يعمل بصناعة وإصلاح الساعات وكان ناجحاً فى عمله ، إلى أى مدى كان يمكن أن

يستمر ذلك ، وأين انتهى الأمر بالخمسة ؟ لا أعرف حدث شيئان لإنهاء تلك الحالة من الانغماس الذاتى ، ودفعاً بهم فى إتجاه الحقيقة .

الأول هو "كريستينا" والثانى نشوب الحرب العالمية الأولى... دخلت "كريستينا" حياتهم فى سنة ١٩١٣ ، كنا فى يوليو .. والأيام طويلة والسماء زرقاء صافية ، والليالى ساكنة ... رأها "فريدى" ذات مساء على الرصيف ، وهم يشربون عصير الليمون المثلج محاولاته لإشراكها معهم فى الحديث باعت بالفشل ، وعلى نحو يائس لاحظ "لودفيك" أنها كانت تقرأ فى كتيب من تأليف "كاوتسكى" تقدم نحوها وسألها إن كان يمكنه أن يستعيره منها هذه الليلة ، وكان هذا الأسلوب أكثر نجاحاً وافقت على الإنضمام إلى طاولتهم ولكنها أصرت على أن تدفع ثمن الشاى الذى شربته .

كانت أكبر منهم بسنوات قليلة وبإدنية الذكاء الحاد النزاع للصدام ، وجميلة جداً ولكنه جمال من نوع غريب ، وكانت تكره النفاق كانت قد نشأت فى "وارسو" ودرست الفلسفة فى "برلين" وحضرت الدروس التى كان ينظمها الحزب الديمقراطى الاجتماعى الألمانى وعندما عادت إلى الوطن ، أصبحت اشتراكية وانضمت للحزب البولندى السرى ، سلطتها مستمدة من الشهور الأربعة التى أمضتها فى السجن قالت ذلك كله لهم ، ولكن كل محاولة لمعرفة شئ عن حياتها الشخصية كانت تبوء بالفشل ، لم تتحدث معهم أبداً عن أبويها ولا عن علاقاتها الغرامية ، لم يكونوا حتى متأكدين أن "كريستين" هو اسمها الحقيقى ، أحبوها نعم حتى "لودفيك" رغم أن "ليزا" زوجته عندما كانت تسأله بعد ذلك عنها كان دائماً يحتج بشدة ، ويقول .. ، نعم " ! " طبعاً ! ... وكيف لا يحبها إنسان ؟ ولكنى لست فى علاقة غرامية معها هناك فرق .

و ذات مساء عندما كانوا يحضرون دروسها لعدة أشهر ، استطاعت "كريستينا" أن تجندهم جميعاً لقضية الاشتراكية الدولية المدهش أنها استطاعت وبسرعة شديدة أن تغير مفاهيمهم ، عن فيينا ، والعالم علمتهم ألا يقبلوا الحياة على علاتها ، وأن يقاتلوا ضد كل التجاوزات .. بعنف ، لم يكن هناك في قاموسها حقائق راسخة ... كل شئ يمكن أن يتغير ، ولا بد أن يتغير ، لا يوجد مستحيل .

كان الأولاد الخمسة الذين جاءوا من "بدقوشوليسك" قد أصبحوا الآن خلية سرية للحزب الاشتراكي البولندي ، في المنفى أصبحت حجرة "كريستينا" الصغيرة جامعته لم تُغيرهم بتغيير وظائفهم الأكاديمية ، فحركة الطبقة العاملة في حاجة إلى أطباء لعلاج الفقراء ، معنى ذلك أن ثلاثة من اللذين تبدأ أسمائهم بحرف اللام كانوا يصلحون لذلك ، اكتشفت "كريستينا" أن "لودفيك" كان لغوياً موهوباً أقنعت به بترك الأدب الألماني ، لكي يدرس تفاصيل ودقائق اللغات الألمانية ، والإنجليزية ، والروسية ، والفرنسية ، والإسبانية .

كانت تريده أن يتذوق الخصوصية الفريدة لكل لغة ، ولذلك عزم على قراءة أدب كل ثقافة ، وكان يمكن مشاهدته على مدى عدة أشهر ، وهو جالس في مقاهيه المفضلة منهمكا في قراءة روايات أوربية .

لم يلتقوا أبداً في حياتهم بامرأة مثلها ، كانت تحارب من أجل عالم أفضل ، وتخلت عن كل شئ آخر في حياتها لتحقيق هذا الهدف ، علمتهم معنى الالتزام بمجموعة من المثل والقيم ، بعثت في حياتهم روح الدراما فجعلتهم يشعرون بأنهم ليسوا مجرد أفراد ، وإنما ممثلين .. لكل منهم دور يلعبه على مسرح التاريخ ربما يبدو ذلك كلاماً كبيراً الآن عندما ننظر إلى عالم اليوم ، ولكنه لم يكن هكذا دائماً وهذا شئ يريد جيلك أن ينساه ، "كريستينا" غيرت الطريقة التي كانوا ينظرون بها

إلى العالم أجبرتهم على التفكير فى الحاجة لتغيير الحالة الإنسانية ...
غيرت رؤاهم إلى الأبد .

كانت هى التى منحتهم هويات جديدة ، كانت تدعوهم باللامات
الخمسة ، وطواعية ، أصبحوا أصابع يدها الخمسة . ولا شك أن
شخصيتها القوية هى التى دفعت الخمسة إلى الثورة ، أما التفسخ
الاجتماعى الذى خلفته الحرب العالمية الأولى فتكفل بالباقي . فكر فى
ذلك يا "كارل" كل ميسر لزمه . العمل بأناة من أجل الثورة العالمية فى
جاليشيا" كان الخيار دائماً محدوداً . الامبراطور ، أم القيصر ؟
وجهتهم "كريستينا" نحو أفق جديد وفى غرفتهم فى "فيينا" ، كانوا
كثيراً ما يسألون إن كان الأمر كله مجرد كلام ، وما إذا كانت رؤية
"كريستينا" الطوباوية يمكن أن تتحقق ذات يوم كان "لودفيك" قد شاهد
المذابح ، وكان يشك فى إمكانية أن يتجمع المظلومون خلف راية واحدة
، أولئك الفلاحون البولنديون والروس الفقراء كان يوعز إليهم بقتل
اليهود .

وإحراق منازلهم .. هكذا بكل بساطة فهل يستطيعون فعلاً أن
يحرروا أنفسهم ؟ إن الأمر يحتاج إلى معجزة تنتزعهم بعيداً عن ذهول
الانقياد للآخرين وذلك الذهول الذى يغمرهم "كريستينا" تستمع
بصبر وتبتسم ، كان "لودفيك" يعبر عن الشكوك نفسها التى كانت قد
أصابتها منذ سنوات وعندما كانوا يتجادلون سمعوا صوت هياج فى
الشارع الأخبار جاءت من "سراييفوا" صربى قومى ، قتل وريث العرش
النمسوى من ذا الذى كان يمكن أن يتصور آنذاك ، يا وريث "كارل" أن
قرن الحروب والثورات سوف يبدأ وينتهى بـ "سراييفو" ؟

وينشوب الحرب تبددت شكوك "لودفيك" ، منذ اليوم الأول ، كان
موقف كريستينا واضحاً ، لم تشعر بالحاجة إلى استشارة سلطة أعلى ،
كانت حرباً ، من الإجرام أن تنحاز فيها إلى جانب أى طرف لا
الامبراطور ولا القيصر كانت القوى الأوربية تحارب بعضها لتحديد من

تكون له السيطرة على بقية العالم ، وكانوا كلهم يستخدمون عمالهم
علفاً للمدافع !

كانت كريستينا تريد أن تقوم كافة الأحزاب العمالية في أوروبا
بإضراب عام احتجاجاً على الحرب لم تكن تريد للعمال البريطانيين أن
يقتلوا أو أن يقتلهم نظراً أنهم الألمان كانت تصرخ ، بعيون مشرقة في
المهتدين إلى المذهب الجديد "ليس للعمال وطن!"

في البداية لم يكن اللامات الخمس مقتنعين كان القيصر الروسي
بالنسبة لهم هو الشر الأكبر ، وأن انتصاراً ألمانياً من شأنه أن يساعد
الديمقراطيين ويحرر "بولندا" والمستعمرات الروسية الأخرى ، وكانت
"كريستينا" غاضبة جداً ، لماذا يجب استبدال حاكم بآخر ؟ الحرية
الحقيقية معناها سقوط كل العروش وامبراطورياتها كانوا يتجادلون
عدة أيام ، وفازت "كريستينا" والذي أقنع الخمسة في النهاية هو رؤيتهم
لـ "كريستينا" وهي تبكي وفي يدها نسخة من "داي نيوزايت"
الديمقراطيون الاجتماعيون صوتوا في البوند ستاغ لصالح الحرب ،
كان "ليكنشت" هو الوحيد الذي صوت ضدها استولت هيستريا الحرب
على العمال ، وكان حزبهم قد أصبح ضعيفاً لا يستطيع أن يصبح ضد
التيار ربما كان "لودفيك" هو الذي اقترح مبدئياً أن يهدئ من مشاعرها
، وكان ذلك يعنى أن العمال الألمان لهم وطن .. ولكن النظرة المتجهمه
التي استقبلت هذا التجذيف الفكرى .. فرضت تراجعاً فورياً .

كان "لودفيك" شديد التأثير بالناس أكثر منه بالأفكار ، وكانت
فلسفته تعبر عن ذلك دائماً ومن الآن فصاعداً سيصبح التحقق سمة
سائدة من سمات وجوده .

وكان خيارهم هو أن يغابوا "قيينا" فوراً بمجرد صدور قرار
التعبئة العامة ، "كريستينا" أخذتهم إلى "وارسو" .

لندع أبى "لودفيك" وأصدقاءه ينتظرون بعض الوقت "كريستينا" تعلمهم فنون الحرب والسياسة ، وسوف أعود إليهم بعد قليل .. لكن هناك شئ آخر يقلقنى ، ويطير النوم من عينى .

أريد أكثر من أى شئ آخر أن أصلح علاقتنا ، وأن أعيد بعض المرح لحياتنا ، أنا وأنت ، أستطيع أن أدرك مكنى الخطر ، إن المראה الدفينة والتوترات المقبضة أصبحت قارة فينا نحن الاثنين، هل من ترياق لهذا السم ؟ أتمنى أن توافقنى يا "كارل" .

حتى عندما أكتب ، يبدو أمراً مضحكاً أن أعود هكذا إلى الماضى البعيد ، بدلاً من الاتصال مع المستجدات الحاضرة ، أعنى قرار أمك بأن تتركنا ذلك القرار الذى كنت تلومنى دائماً بسببه ربما لو كانت هى التى بقيت ، وتركت البيت أنا كنت ستلومها بدلاً منى .. بالرغم من أن ذلك - وبالدرجة نفسها - لن يكون له أى مبرر على الإطلاق ، بعد موت جدتك "جيرترود" بدا أن كل شئ كان يتجه وجهة خاطئة ، وجدت أنا وأمك أنه لم يبق لنا سوى بقايا كلام وفى الشقة الخاوية ، بدأت أشعر بغيابها أكثر ، وتزايد إحساس بأنها فقدت الاهتمام بى ، كانت تقضى وقتاً طويلاً فى عيادتها .

وذات يوم وأنا أتناول القهوة مع "كلوس ونتر" ، قال شيئاً ما كان ينبغى له أن يقوله هل تتذكر "كلوس" ؟ كان صديقاً قديماً من أصدقاء "جيرترود" ، وكان يبكى فى جنازتها بحرارة ، هو الذى اشترى لك

بنطلون الجينز من "برلين" الأخرى فى عيد ميلادك الرابع عشر ، قال لى "كلاوس" عرضاً ، إنه كان قد شاهد "هيلجا" مع صديق فى حفل موسيقى منذ يومين ، وسألنى لماذا لم أكن موجوداً المشكلة يا "كارل" ليست فى أنها لم تخبرنى بأنها كانت ستذهب إلى الحفل ، المشكلة أنها قالت بوضوح إنها لن تستطيع أن تحضر اجتماع المنتدى فى تلك الليلة بسبب مريض لا تسمح حالته بإلغاء مواعده .

فلماذا كذبت على ؟

تركت "كلاوس ونتر" وحده فى الفندق الذى كنا نجلس فيه ، وعدت مندفعاً إلى المنزل كنت مجنوناً من الغيرة ، ولحسن الحظ ، وربما لسوءه كنت أنت فى الخارج مع أصدقائك . وعندما رجعت أمك واجهتها بالحقيقة ، والدهش أنها ابتسمت وقالت إننى مثير للشفقة ! ضربتها شعرت بالخجل فيما بعد ، توصلت لها أن تسامحنى لم تتكلم ولكنها مشيت بهدوء إلى غرفة نومنا وراحت تجمع ملابسها من الخزانة .

تجمدت فى مكانى لم أستطع أن أقول شيئاً ، أو أن أفعل شيئاً لأثنيها عن ذلك ، كنت جالساً على السرير صامتاً ، بينما تجمع أشياء وتضعها فى الحقيبة الخضراء الباهتة إياها ، تلك الحقيبة التى كانت تخص جدتها ذات يوم منذ ما قبل الحرب تذكرت ذلك اليوم عندما جاءت بها إلى المنزل بعد زفافنا ، وحملتها إلى غرفة النوم .

"لم أكذب عليك يا فلادى ، ولم يحدث أبداً أن فعلت. الرجل الذى كان معى فى الحفل هو أحد المرضى ، وكان ذلك جزءاً من علاجه . أما رد فعلك فهو عرض من أعراض عقلك المثقل بالذنوب ، أنا راحلة نتكلم الأسبوع القادم عندما تهدأ ، وبعدها نتحدث مع "كارل" قل له إننى

ذهبت إلى "ليبرج" لزيارة أمي ، وإذا كنت تود أن تجي "إيفيلين" إلى هنا فليس لدى أي اعتراض .

كان ذلك هو كل ما قالته وهي تغادر بيتنا ، كنت أريد أن أصرخ أن أركض خلفها ، أن أركع على ركبتى متوسلاً أن تبقى وتمنح علاقتنا فرصة أخيرة ... ولكنني لم أفعل شيئاً سوى أن ذرفت بعض دموع ذاهلة وهي تخرج .

ربما كان هناك شيء ما بداخلي يخبرني بأن لا فائدة ! لقد تباعدنا .. لا شيء ، حتى أنت يا "كارل" يمكن أن يجمعنا مرة أخرى والباقي أنت تعرفه عادت وافترقت أنا و "إيفيلين" .

أما القطيعة الكبرى فقد جاءت بعد ذلك ، ولأسباب يعرفها كلانا ، كانت هليجا مخطئة في موقفها من "إيفيلين" لو كنت قد أعترفت لها لغضبت ... ولكنها كانت ستفهم .

لقد اكتشفت بالمصادفة رسالة من "إيفيلين" كان لابد من التخلص منها ، كانت تقول في رسالتها إن هذه الجماع عن الانثى اختراع ذكوري ، ولا ينبغي أن يأس من عجزى عن إشباعها كنت أحتفظ بالرسالة فقط ، لأنها أضحكتني ، أمك قرأتها ، وفهمتها على نحو مختلف ونسبت إلى "إيفيلين" قوة لا تمتلكها - للأسف- تلك المرأة الصغيرة أعتقد أنني لا بد أن أبدأ من البداية .

قد يكون ذلك مفاجأة لك يا "كارل" .. ولكنني كنت محاضراً مشهوراً في "همبولت" والأدب المقارن يسمح بقدر كبير من الإبداع في تدريس ، وكانت "إيفيلين" من بين طلابي في برنامج عن الأدب الروسي .

كان من عادتي مثلاً أن أتكلم عن "جوجل" وهو يقرأ أجزاء من "أرواح ميتة" على "بوشكين"، بينما يكتب الطلاب حواراً متخيلاً بين الرجلين، "إيفيلين" كانت سريعة البديهة وكنا نبتسم للحوار الذكي الذي كتبته، إلى أن وصل إلى نقطة سيرالية، كانت شديدة الحساسية بالنسبة للأفكار السائدة، وعندما اقترب حوارها المتخيل من نهايته ضمنته بعض التلميحات العنيفة عن "هونيكر" والمكتب السياسى، ونظر الجميع إلى لم أعلق بشئ وانتقلت إلى الطالب التالى.

لم أكن أتحدث معها بعد المحاضرات أبداً لم تكن علاقتنا أكثر من تبادل نظرات ودية، وابتسامات عابرة، وخاصة عندما يحاول طالب أن يصعد حزياً بتوجيه أسئلة محرجة.

فى ذلك الأسبوع كان عيد ميلادى الخمسون. قامت "هيلجا" بترتيب حفل ولدهشتى جاءت "إيفيلين"، مع بعض أصدقاء من الجامعة لم تكن قد وجهت دعوة لأى منهم، ومع ذلك رحبت "هيلجا" بهم جميعاً. كانت مناسبة عفوية بعيدة عن التكلف كانت "إيفيلين" هى الوحيدة التى ظلت فى حالة صحو فى تلك الليلة.. وكانت تراقبنا جميعاً من خلف غلالة كثيفة من دخان السجائر، وكان ذلك عندما رأيته لأول مرة.. كامرأة جذابة.. متوسطة الطول، رشيقة، شقراء الشعر، ورائعة القوام صدرها ليس عامراً مثل صدر "هيلجا" ولكنه صغير وقوى... وفوق ذلك كله عينا زرقاوان حادتان ووجه بارز العظام شديداً الذكاء.

بعد ذلك بأسبوع مارسنا الجنس لأول مرة فى شقة صغيرة تطل على

مقابر اليهود القديمة ، كانت شقة عمتها ولم تكن موجودة بالبيت في ذلك المساء لبضعة أشهر تشاركنا في كل شيء ، الأخبار الأسرار ، الهموم ، الأوهام ، الأحلام ، ونما الحب بيننا مثل وردة بريّة ، كنا نمشي إلى الحديقة يداً في يد ، ونتبادل القبلات مثل المراهقين مشبوبي العواطف .. وجاء وقت كنت قد فكرت فيه بكل جدية أن أخبر أمك بذلك ، ماتت العلاقة فجأة ، فما الذي بترها من الوجود ؟ من ناحيتي أعتقد أنه كان سكين العقل ، وبعد ظهيرة أحد الأيام فشلت في ممارسة الجنس معها غيرتني وكانت هازئة وعبّابة ! " من الواضح أننا قد فشلنا ، كلانا قد أنهك الآخر على ما أعتقد .. حان وقت التغيير، تبدو مدهوشاً يا "فلادى" مظهرك ليس سيئاً سيئاً بالنسبة لسنك ، كنت معجبة بك بسبب لسانك اللاذع ، ولأنك كنت مختلفاً عن الروبوت الآخرين في "همبولت" كان ، من عادتك أن تضحكني لم أكن أنوى أن أتوقف طويلاً في محطاتك أيها الغبي العجوز على أية حال .. إشاراتك في حاجة إلى الإصلاح وأنت نفسك في حاجة إلي مهندس أكثر منى خبرة " حينذاك فكرت أنها كانت مدفوعة بطموح شخصي خالص ، رغبته المستمرة في تغيير العشاق كان يقررها أيهم سيساعدها أكثر لكي تتقدم في عملها ،كنت قد قدمتها إلى مخرج سينمائي من معارفي ورأيتهما تشتغل عليه ، ولم يكن لدى أدنى شك في أنه سوف يحل محلي ، وقد حدث .

قد أبدو غير منصف، وربما تكون قد استغنت عني هكذا ببساطة بعد أن انتقلت إلى مرحلة جديدة من حياتها أمضيت وقتاً طويلاً في مراجعة كتاباتها وكنت أبدى ملاحظات نقدية، وأدفعها دفعاً لكي تكتب وتعيد

الكتابة ، إلى أن أشعر بأنه لا أفضل من ذلك، أنا الذى قرأت قصصها القصيرة ، وقصائدها أنا الذى اكتشف أن لها أذناً جيدة للحوار ، ودفعتها دفعاً لكى تكتب للسينما .

بعد أيام قليلة من انتهاء علاقتنا رأيتها فى الطريق مع المخرج السينمائى، أقدمتُ على تصرف سيئ قطعْتُ حديثهما معاً وجذبتها من يدها وكان رد فعلها يشى بأن كل شئ كان قد انتهى بالفعل، احتقرتني، كانت الكراهية تتدفق منها مثل حمم البراكين المصهورة هددت بإبلاغ "هليجا" .

وانصرفت شعرت بالغیظ الشديد ، أحسست بأننى خدعت .. واستخدمت ، حاولت أن أواجهها مرة أخرى ولكنها كانت قد اختفت هربت هى والمخرج السينمائى إلى الغرب ، وأخبرنى أحد أصدقائها أنها قد استقرت فى "هيدلبرج" .

لم يكن ثمة داع لأن أخبر أمك بأى شئ كان كل شئ قد انتهى، ولكن شخصاً ما كان قد سجل الحدث ، على غير علم منى ولا من "إيفيلين" كانت لقاءاتنا الصيفية فى الحديقة ، قد لفتت انتباه "ليلي"، وهى رسامة تركية من "كروز بيرج" كانت مكلفة برسم مجموعة من المناظر الطبيعية فى برلين الشرقية ، وكان فى البورتريه الذى رسمته لنا مسحة سيرىالية شخصان غائبان فى عناق عميق على نحو غير مشروع فى حديقة عامة ، وكان عنوان اللوحة "قبلات مختلسة" ومرت أشهر عدة كانت "إيفيلين" كامنة فى لا وعيى ، وذات يوم عاصف ممطر كانت أمك تبحث عن مكان تحتمى به فدخلت قاعة فنية ، حدث ذلك مصادفة ، ولكن بالسوء الحظ ، رأت اللوحة ، أختزقت القناع السيرالى وتعرفت على وراحت تسأل ليلي باستفاضة كأنها تستجوبها .

لم تكن "هيلجا" تقدر على شراء اللوحة ولكن عندما لاحظت ليلي مدى تأثرها أهدتها لها ، وبعد انتهاء المعرض أحضرت "هيلجا" اللوحة إلى شقتنا ، إعصار فى علاقتنا علاقة محكوم عليها بالنهاية ولكن القبلات المختلطة ختمت مصيرها النهائى ... !.....!

حملت اللوحة معها عندما رحلت وهى تقول رغم أن الموضع كله يصيبها بالغثيان .. إلا أنها تحب التكوين .. وأصبحت صديقه ليلي . يحدث أحياناً فى الحياة أن تستدعى نكسة واحدة انتكاسات أخرى ... فالمصائب لا تأتى فرادى .. مثلما تكون صخرة صغيرة مخلخلة سبباً فى إنهيار كبير .

بعد شهر تقريباً ، التقيت بـ "كلاروس ونتر" على الغداء وأخبرنى أن أمن الدولة كان يتلقى تقارير مفصلة عن اجتماعاتنا القيادية فى منتدى الديمقراطية الألمانية ، وكرر بعض العبارات المنسوبة لى بالحرف ، كان تقريره دقيقاً للغاية حدث ذلك عندما أخبرنى "ونتر" بأنه كان من كبار المسئولين فى الاستخبارات الخارجية ، وأنه كان يعمل هو وجدتك "جيرترود" لحساب الاستخبارات الحربية السوفيتية منذ أواخر العشرينيات وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عينا للعمل لحساب الاستخبارات جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

صعقت يا "كارل" لم أكن أتصور أن "جيرترود" كانت ما تزال متورطة فى مثل تلك الأمور ، لم يكن فى أوراقها التى تركتها أى أثر لذلك ، لم أتمكن "ونتر" من أن يرى أثر الضربة التى وجهها إلى ، كانت "جيرترود" هى التى شجعت على إنشاء هذا المنتدى وهى التى ساعدتنى

بالفعل فى كتابة بيانہ التأسيسى ، وحضرت بعض الاجتماعات كنت قد ناقشت معها بعض أدق أسرارنا بما فى ذلك خطة لسرقة بعض الوثائق من المكتب السياسى ، لأن أحد أعواننا كان يعمل فى ذلك المبنى . وأنا خارج من شقة "ونتر" كنت أتساعل بينى وبين نفسى عن حجم ما نقلته من أسرارنا ، كل شئ ؟ لا شئ ؟ بعضها ؟ وفى تلك الأحوال لماذا لم يلقوا القبض علينا ويحلوا المنتدى ؟ كان من السهل جداً أن يفعلوا ذلك ربما كانوا قد أبلغوا موسكو مباشرة بالأمر ، ونصحهم رجال "جورباتشوف" بأن يتركونا ننمو .

كنت أبحث عن إجابات ، ولكن قبل أن أكون مستعداً لمواجهة "ونتر" ، كان على أن أكتشف جيرترود الحقيقية ، والأشباح التى تسيطر عليها كانت "جيرترود" قد ماتت ... وكان لابد أن أقوم بتجميع الخيوط المتشابكة والمتباينة التى كونت حياتها .

كيف كانت متداخلة مع خيوط "لودفيك"؟ متى التقت "ونتر" لأول مرة ؟ وأين ؟ ومن هى قبل كل شئ ؟ كانت حياتها قد بدأت تطاردنى الآن مثل الشبح .

أتذكرك وأنت تسألها قبل أن تموت بفترة قصيرة ، إن كانت تحتفظ بأى صورة لعائلتها ، أنا أيضاً كنت دائماً أسألها عن ذلك عندما كنت طفلاً ، فكانت تهز رأسها بسرعة وتغير الموضوع وعندما سألتها أنت أخذت تبكى ، هل تذكر ؟ هل تعرف لماذا يا "كارل" ؟ لأنها كانت قد تركت بلدها فى وقت وفى ظروف كانت كل العلاقات بينها وبين عائلتها مقطوعة ، فيها كان والد "جيرترود" من الجيل الثالث لليهود الألمان

جدها الذى كان صاحب تجارة رائجة فى الشاى والكافيار ، بنى بيتاً كبيراً فى "شوابن" التى كانت حينذاك ضاحية حديثة من ضواحي "ميونخ" معظم تلك البيوت القديمة قد دمر ، من زمن بعيد ليس بسبب الحروب ، وإنما بواسطة الذين قاموا بالتطوير .

والد "جيرترود" كان طبيباً محترماً . أمها كانت تعيش حياة فراغ ، لم تعمل . ولم يكن أيهما متديناً كل ما عرفتته "جيرترود" وشقيقها عن الدين فى طفولتيهما - إن كانا قد عرفا شيئاً - جاء عن طريق الطباخ والخادمتين ، وكلهم كانوا كاثوليك طيبين كانت طفولتها سعيدة ، وأحياناً كانت تتحدث عن الحديقة الكبيرة التى كان يوجد فى نهايتها بوابة صغيرة ، تؤدى إلى غابة اعتادت هى "وهينرش" أن يخرجوا إليها ليجمعوا التوت البرى كل صيف ، كانت هناك شجرة أرز عتيقة وأرجوحة وكانت تجد متعة فى أن تدفع "هينرش" عالياً حتى يصرخ من الخوف ومن البهجة .. فكانت الخادمة تندفع من البيت لكى تنقذ الولد الصغير .

نشأ مثل كل الأطفال الألمان من طبقتهم وجيلهم كانت تعاقب فى المدرسة الثانوية لوقاحتها ، فقد كانت ترفض أن تتقبل معاداة مدرس التاريخ للسامية ، أحياناً كتب ناظر المدرسة إلى والدها ولكن الدكتور "مايور" لم يتعامل مع الأمر بجدية ، كان والدها يقول لها: "إنهم جهلة يا جيرتى" وإظهار غضبك معناه أنك تهبطين إلى مستواهم لا بد أن تتعلمي كيف تسيطرى على نفسك "

وكانت هى تقول : "ولكن كيف يسمحون له بتدريس التاريخ لنا إن كان جاهلاً؟"

كان الدكتور "مايور" يبتسم وهو يمشط لحيته بأصابعه ، ولكنه لا يستطيع أن يجيب ، عندما كانت تتذكر ذلك ، تشرق عيناها كانت تلك أول مرة في حياتها تنتصر في نقاش .

"ليس لدى إجابة عن سؤالك يا "جيرتي" كل ما أطلبه منك هو أن تدرسي ما تعلمونه لك ، وأن تجتازي امتحانك بنجاح ، وتستعدي للالتحاق بالجامعة ، هل تعتقدين أنه كان يمكنني أن أصبح طبيباً لو أنني استمعت إلى كل إهانة أو لعنة ؟ إن معادة السامية عميقة الجذور في ثقافتهم رضعوها مع المسيحية ، "لوثر" هو الذي جعل هذا الجانب منها سيئاً ، ولكن ذلك لا قيمة له ، لا قيمة بالمرّة .

نجحت جيرتي في الامتحان ، ولكنها أحببت زميلاً لها اسمه "ديفيد شتاين" في عامها الأول في جامعة "ميونخ" هناك صورة لهما أيام الدراسة ، وجدتتها وأنا أقلب أوراقها منذ أشهر قليلة .

كان شاباً متوسط الطول ، شعره غزير داكن الحمرة ، عيناها لامعتان ، كان والده عامل سكة حديد وكان ذلك شيئاً نادراً في الجامعة وعرضه لكثير من الاضطهاد .. فهو يهودي ومن أسرة فقيرة كانت "جيرترود" مفتونة بثقته الزائدة في نفسه وبقدرته على الارتفاع عن مستوى الإهانات ، والهز الذي يتعرض له باستمرار، قد يبدو ذلك غريباً بالنسبة لك "يا كارل" ، لكن لا تنس أن الجامعات الألمانية كانت قلاعاً للرجعية ، فقبل أن يصبح "هتلر" مستشاراً بفترة طويلة ، كانت أفكاره قد انتصرت وسادت بالفعل في الجامعات .

كان "شتاين" نابغة في الرياضيات ، وكانت "جيرترود" تشعر دائماً بأنها لو لم تشغله لوصل في مهنته إلى أعلى المستويات ، ربما ولكن .. لو لم يتدخل القدر في صورة جدتك "جيرترود" لكان قد انتهى به

المطاف - ببساطة - فى "أوشوتز" أصبح الاثنان لا ينفصلان ،
ويبطء وهىء بدأ كلاهما يستكشف عواطف وجسد الآخر ، كلاهما كان
يستخف بالعقيدة اليهودية ، كانت حياة "جيرتى" فى بيتها علمانية فى
كل شئ تقريباً ، ولكن المطبخ لم يدنس أبداً بلحم الخنزير ، والدا
"ديفيد" كانا ملحدين ، وكانا من نشطاء الحزب الديمقراطى الاجتماعى
.. وهنا أيضاً كان يتم مراعاة التحريم القاطع للحم الخنزير .

"ديفيد" و "جيرتى" دعما حبهما بالذهاب إلى محل جزار غير يهودى
وشراء بعض لحم الخنزير المطبوخ ، ثم يذهبان إلى مقابر اليهود
ليتناولوا طعامهما فوق قبر جد "ديفيد" ويعد أن يفرغا من تناول الطعام
يدعوان الله أن يبرهن على وجوده بأن يميتهما .. ولكن السماء كانت
تظل ساكنة ، كانت دهشة "جيرتى" كبيرة .. فى الطريق تقيأت ، ولكن
بعد أن ساعدها ديفيد على تنظيف فمها بدءاً يضحكان مجدداً ، كانا
قد عالجا نفسيهما من كل الخرافات إلى الأبد ، وكان بعد هذه المرحلة
فقط .. أن سحبها "ديفيد" لمقابلة والديه .

كانت عائلة "شتاين" تعيش فى شقة مكونة من غرفتين ومطبخ
صغير فى أحد الأتوار الأرضية على الحائط صورة باهتة لـ "أدوارد
برنشتاين" كم تغير الزمن يا : "كارل"؟ فى تلك الأيام كان "برنشتاين"
يعتبر الأب الروحى للفكر المراجعى كان رجعيّاً تسالم مع العدو الطبقي
كانت تلك النظرة واسعة الانتشار من عشرين عاماً ، اقرأ بعض مقالاته
الآن يا "كارل" و قارن بينها وبين الأحاديث التى تكتبها لسادتك الجدد
من الديمقراطيين الاجتماعيين "برنشتاين" يبدو الآن وكأنه سياسى
محافظ .. متطرف ... ليس أقل من ديناصور ، لاشك أن الزمن تغير
لماذا أنسى هذه الحقيقة دائماً ؟ إلى جوار صورة "برنشتاين" كانت
توجد صورة أخرى بنية اللون حولها إطار ، يظهر فيها والد "ديفيد"

وستة رجال آخرين يرتدون جميعا ملابس أنيقة تبرز منها سلاسل الساعات بكل كبرياء، اللجنة التنفيذية لاتحاد عمال سكة حديد "ميونخ"

كانت "جيرتى" تخشى والد "ديفيد" جدا أصبحت تزورهم بانتظام كان الموضوع الوحيد للحوار فى المطبخ هو السياسة الاشتراكية ، كان والد "ديفيد" أحد القادة المحليين للحزب الديمقراطي الاجتماعي ، ولكنه كان دائماً مجرداً من الاعتداد بالنفس يتكلم بهدوء ، ودائماً على أهبة الاستعداد للاستماع إلى خصومه السياسيين ، الذين كان عددهم يتزايد فى اتحاد عمال السكة الحديد .

كما فى عام ١٩١٨ وألمانيا تقطعت أوصالها بواسطة الحلفاء كان "لينين" و"تروتسكى" فى السلطة فى "بتروجراد" و"موسكو" التوتر يختمر ... ويجتاح أوروبا ... أوروبا حبلت بالثورة .. كان قد تم إسقاط الامبراطور "اليونكر" * البروسيون يتحاورون مع الديمقراطيين الاجتماعيين ويرون أنهم الطريق الوحيد لتجنب الثورة الألمانية .

وأخيراً جاء يوم شعرت فيه "جيرتى" أنها لا بد أن تأخذ "ديفيد" إلى البيت إن كانا سيتزوجان ، فلا بد من تقديمه إلى والديها ، ولأنها كانت على وعى بالتناقض الحاد بين العائلتين ، كانت تخاف المناسبة لم يحاول والدا "جيرتى" مجرد إخفاء صدمتهما ، لم تترك عينا "ديفيد" اللامعتان الذكيتان أى تأثير عليهما أرعبتهما فكرة أن تتزوج ابنتهما من فقير مفلس ، أمامهما "ديفيد" مختلف تماماً "ديفيد" آخر . شاب يرتدى بنطلونا مبقعاً وحذاء بالياً ، كانت "جيرتى" قد منعتهم من ارتداء بدلتهم الوحيدة ، ولاحظا أنه كان يتحدث بلغة مبتذلة وبطريقة سوقية ... والأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن يشعر بأى حرج لفقره .

* أعضاء الطبقة الارستقراطية الإقطاعية (المترجم) .

الدكتور "مايور" الطبيب ، وزوجته الأكثر طيبة منه ، قررا ، أن الولد كان وقحا .. وكان يقصدان بذلك - فى الحقيقة أنه لم يكن مراعىاً للآخرين ، فقرراً أن يخضعاه لاستجواب شديد القسوة والوقاحة ، لكى يعلماه أصول السلوك المتحضر .! ومن هم والداه ؟ ومن أين جاءوا ؟ هل كان والده اشتراكياً ؟ أين يعيشون ؟ ما حجم شقتهم ؟ كيف التحق بالجامعة .

كانت "جيرترود" مرعوبة لم تستطيع أن تدرك أن والديها كان يعبران عن خوف من الآخر ، وأنهما خائفان أن يفقدا ابنتهما .. رأت أن ذلك كان يعبر عن تفسخ برجوازي عفن، وقالت لى أنذاك إن ذلك هو الجانب ، الذى كانت تحاول دائماً أن تتجاهله فى والديها وأن تكبحه قدر الإمكان.

أما "ديفيد" فأخذ الأمر على أنه تسلية ، كان يجيب عن كل سؤال بكبرياء واضح ، وفى نفس الوقت يغمز بعينه لـ "جيرتى" محذراً أن تهدأ وتحاول قدر الاستطاعة أن تكظم غيظها ، ولكن لافائدة ! عن ذلك كان قد فاض الكيل بجذتك ، كانت شاحبة الوجه ، خجلة من والديها ، خجلة من بيتهم ، خجلة من وجود خادمت فى الزى الرسمى لا يستطعن منع أعينهن من النظر إلى "ديفيد" ، وخجلة من نفسها لأنها تنتمى إلى عائلة "مايور" .

لم تطلب من "ديفيد" أن يأتى لزيارتها بعد ذلك أبداً ، بدأت هى تقضى المزيد من الوقت مع عائلته كان ذلك فى شقة عائلة "شتاين" أن قضت معظم أيام عطلتها فى شهر ديسمبر ، عندما فهمت أهمية الثورة الروسية .

كان والد ديفيد يعتقد أن "لينين" رائع بالنسبة لروسيا التى لم يسبق

لها أن عرفت الأحزاب السياسية والاتحادات العمالية ، ولكنه ليس رائعاً بالنسبة لألمانيا لم يكن لديه وقت طويل للثوار السبارتاكوسيين* الذين شقوا الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني العظيم واتهموا - حتى "كارل كاوتسكى" بالخيانة" .

عندما قال "ديفيد" إن الحزب الألماني العظيم قد صوت لصالح منع الامبراطور حق إعلان الحرب ، بينما لم يوافق الحزب الشيوعي معلنا للعمال أن العدو الحقيقي موجود في الداخل ، كان والده يهز رأسه في أسى .

هو أيضاً لم يكن سعيداً بسياسة الحزب الديمقراطي الاجتماعي لتأييد الحرب ، ولكنه ظل صلباً عنيداً بالنسبة للمسألة الأخرى لم تكن ألمانيا جاهزة لثورة "لينين" كانت أساليب الحزب الألماني القديمة المجربة هي الأمل الوحيد .

قال الهر "شتاين" لـ "ديفيد" و"جيرتى" ذات مساء : "هناك حكمة ألمانية قديمة تقول : لاشك أن قبعة من الحرير ستكون جميلة بشرط أن تكون لدى قبعتى ولكن "كارل" و"روزا" بعيدان حتى الآن"

بالنسبة "لهر شتاين" كان أعضاء حزب سبارتاكوس يعيشون في عالم خيالى ، ولأن "ديفيد" لم يكن يريد أن يزعج والديه ، أحجم عن أن يخبرهما أنه و"جيرتى" كانا قد انتظما في محاضرات عن "السبارتاكية" فى ميونخ .

ولم يكن ذلك بسبب الاختلافات بينهما بالضبط كان "ديفيد" يعرف

* حزب سبارتاكوس الاشتراكي المتطرف الذى ظهر فى ألمانيا عام ١٩١٨ (المترجم) .

كيف ضحى والده لكى يوفرا له تعليماً جيداً ، سوف يقلقهما أن تجد اهتماماته الجديدة بالسياسة تأخذه بعيداً عن الجامعة وعن عمله .

بعد شهر ، فى يناير ١٩١٩ عندما قتلت "روزا لكسمبرج" و"كارل ليبكنشت" عمداً بأيدي القوات الخاصة فى "برلين " أعلنت كل عائلة "شتاين" الحداد ، هل تعرف يا "كارل" أن أحد الضباط المتورطين فى الاغتيال كان رجلاً يدعى "كاناريس" وأصبح أدميرالاً فى جيش "هتلر" بعد ذلك وأحد الذين أعجب بهم بعض القادة الغربيين أثناء الحرب ؟ كانوا يعتقدون أن بالإمكان التعاون معه .

كان والد "ديفيد" ييكى بصوت مسموع وهو يهز رأسه .

كان حزيناً وغازباً كان قد استمع إلى "روزا" و"ليپكنشت" يتحدثان فى عدة اجتماعات قبل نشوب الحرب ، كان قد جمع تبرعات لهما عندما سجنوا لمعارضتهما للحرب ، ولكنه رغم إعجابه الشديد بالثوار المقتولين ، لم يكن يستطيع أن يدافع عن قرارهما بإعلان التمرد .

قال لـ "ديفيد" و"جيرتى" والدموع مازالت تغرق وجهه :

"كانوا مجانين حالمين ! سيفتقدهم العمال فى السنوات القادمة كان يجب أن تفهم "روزا" على نحو أفضل الآن علينا أن نتحرك لا يمكن أن نظل هكذا إن لم نتحرك سيقتلنا "اليونكر"

كلنا سنقتل الاسبارتاكوسيون والمستقلون والديمقراطيون كلنا سواء بالنسبة لهم .

احتضن "ديفيد" والده بشدة ولكنه لم يتكلم كان "شتاين" العجوز مخطئاً كان "اليونكر" يعرفون الفرق بين الجماعات جيداً وكان الفيلد مارشال "فون هندنبرج" يعرف أنه قد وجد فى "فريدريش إيبيرت"

وطنياً ألمانياً لن يتخلى عن الواجب المحدد له ، ولولا تأييد ودعم قادة الديمقراطيين الاجتماعيين : "إيبرت " و "نوسكى" و "سكيد مان" لما تمكن "اليونكر " من إغراق انتفاضة "برلين" فى الدم .

ربما يكون عليك يا "كارل" أن تقنع "مؤسسة" "إيبرت " أن تمول الاحتفال فى سنة ٢٠١٨ بذكرى الانتفاضة والقتلى ، كما يستطيع الحزب الديمقراطى الاجتماعى أن يدعى أن "إيبرت" هو أبو الديمقراطية الألمانية أما حزبي الاشتراكي الديمقراطى ، إن كان سيظل موجوداً ، فسوف يقول إن مأساة "برلين" (١٩١٨ - ١٩١٩) هى التى مهدت الطريق لكارثة ١٩٣٣ ، كان "انجلز" قد أشار مرة فى رسالة إلى صديق له ، أن التاريخ هو نتيجة صراع عدة إدارات فردية تأثرت على أنحاء مختلفة بمجموعة ظروف اجتماعية معينة ، والنتيجة النهائية غالباً هى شئ لم يكن أحد يريده ، وبشكل عام ، أعتقد أنه كان محقاً ، ولكن "هند نبيرج" و "ايبرت" كانا يريدان سحق الثورة فى "برلين" وقد فعلا لقد تربي جيلنا على حكايات عن احتمال اختلاف الأمور، لو أن الثورة فى "برلين" كانت قد نجحت ، ربما تتصور أننى مازلت أحاول التعلق - يأساً - بشئ ما ، أى شئ حتى لو كان حطام الثورات والانتفاضات الفاشلة ، قد تكون محقاً لو نسيت لدقائق قليلة فقط أننى والدك دعنى أتنكر فى لباس أستاذ الأدب المقارن ، واقترح عليك أن تقرأ أحد كتاب الروايات العظام فى هذا القرن العظام فى هذا القرن ، وبالرغم من أن "ألفريد دوبلن" لم يكن الكاتب المفضل لدى قوميسارية جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، إلا أننى كنت أشير إليه فى محاضراتى فى "همبولت" قرأت أجزاء من أعماله ، وكنت أضع ذلك الافتراض مكتوباً على لوحة إعلاناتى :

موضوع الرواية هي الواقع طليقاً الواقع الذي يواجه القارئ مستقلاً عن مجرى ثابت للأحداث تمام الاستقلال ، وواجب القارئ ، وليس الكاتب هو أن يحكم ، أن تتكلم عن رواية ، فذلك معناه أنك تتكلم عن وضع طبقات فوق بعضها تكديس أكوام ، دفع وشق طريق ، أما الدراما فهي دائماً عن فكرة فقيرة ، الفكرة الموجودة دائماً في الدراما تتجه الحكاية دائماً "إلى الأمام" ولكن "إلى الأمام" لا يمكن أن يكون شعار الرواية أبداً

إن "نوبلن" لم يكن مجرد مؤلف "برلين : ألكساندر بلاتس" (١) لقد كتب روايتين كبيرتين أخريين، إن تيسر لديك الوقت فلا بد أن تحاول قراءة "شعب تمت خيانتته : نوفمبر ١٩١٨ : ثورة ألمانية" والجزء المكمل لها "كارل وروزا" : مأساة ألمانية . وليس ذلك رأيي أنا فقط ، شاعرك "جونتر جراس" ، الشاعر الغنائي للديمقراطية الاجتماعية يوافقني تماماً بخصوص "نوبلن" هو نفسه يعترف بدينه الخاص له ويضعه في مرتبة أعلى من "مان" و"برخت" و"كافكا" لست متأكداً إن كان "جراس" : يحب الروائيتين اللتين أريدك أن تقرأهما لم أقرأ له تعليقا عليهما ، ولكن لا تدع ذلك يشغلك كان "نوبلن" ، مثل "برخت" قد وجد ملجأ في "لوس انجلوس" في تلك السنوات الرديئة وعمل بعقد لدى MGM وهو ينتظر بفارغ الصبر نهاية الرايخ الثالث "برخت" عاد إلى الشرق و"نوبلن" إلى الغرب ، ستجد معظم ذلك في مذكراته "شيكسالريز" (٢) التي تأثرت بها كثيراً منذ ثلاثين عاماً .

أقرأه يا "كارل" ، أقرأه سيكون ذلك تغييراً منعشاً بالنسبة لك وأفضل من تقارير "بونديبانك" * المضجرة التي سدت ذهنك لا بد أن تدرسها لكي

(١) برلين : ميدان الكساندر * Berlin Alexander Platz

وهي رواية شهيرة المترجم .

(٢) رحلة قدرية Schick solreise

* البنك الاتحادي Bundes bank

تشعر بقنديل البحر الذى يستخدمك ولكن امنح نفسك فسحة من الوقت.

كانت "جيرترود" وحبیبها "ديفيد شتاين" يرسمان الخطط لكى يهربا معاً ، كان لديهما أفكار كبيرة ، إن جيلك لا يفهم ذلك ، ولكن على مدى معظم سنوات هذا القرن كان هناك ملايين يحملون بمثل تلك الأفكار الكبيرة وفى تلك الأيام كانت أعداد كبيرة من البشر على استعداد للتضحية بمستقبلهم من أجل عالم أفضل كان "ديفيد" و "جيرترود" قلقين على مصير رفاقهما فى "برلين" وكانا يعرفان أن الذين نجوا من المذبحة .. جرحى وكان مطلوباً أن يهرع أناس من مدن أخرى لتقديم المساعدة لإعادة بناء تنظيم برلين ، أناس مثلهم .

حتى عندما كان يرسمان مستقبلهما قامت ثورة أخرى فى "ميونخ" هذه الفكرة غير واردة اليوم "بارقاريا"؟ أى "بارقاريا؟ بلاد مستودعات البيرة حيث كانت تسكر جماهير "هتلر" على الحقد والتى أصبحت فيما بعد حصناً للرجعية؟ أما فى أيامنا بعد الحرب الإقطاعية التى يتحكم فيها "قرانز جوزيف شتراوس"؟ أنا أتحدث عن "بارقاريا" أخرى ... "بارقاريا" أقدم من ذلك .

فى نوفمبر ١٩١٨ أعلن "كورت إيزنر" زعيم الديمقراطيين الاجتماعيين المستقلين جمهورية "بارقاريا" وانتخب رئيساً لوزرائها وبعد ثلاثة أشهر أعدمه "كورت أركو" حتى المعتدلون من أمثال والد "ديفيد شتاين" كانوا يطالبون بالانتقام وكان ينادون مع زعماء الحزب الديمقراطى الاجتماعى بعمل شئ ، ولكن طلب منهم أن يتركوا القرارات للمجربين من أهل الثقة !

"مجربون وأهل ثقة فى القتل !" هكذا صرخ "شتاين" العجوز غضباً وهو خارج من مقر الحزب فى "ميونخ" كان العمال بلا شك فى حالة غضب ، ولكن هل كانوا يريدون ثورة ؟ لم يكن "إيوجين ليفنييه" يعتقد

ذلك كانت الكوميرن * قد أرسلته إلى "ميونخ" للمساعدة في التحضير للثورة وتنظيمها .

كانت "ميونخ" ملأى بالحالمين والواهمين ، لم تكن "جيرترود" و"ديفيد" وحدهما ، ألوف كثيرة كانت تريد الاستيلاء على السلطة فوراً مسكين "ليفيثيه" كان يعرف أن المحاولة محكوم عليها بالفشل وكانت "جيرترود" تحبه ... تقريباً ! كان من عاداتها أن تحكى كيف كان يسهر الليل وهو يحاول أن يفرغ رؤوسهم من الأحلام قال لهم "ليفيثيه" "إنهم كانوا ما يزاولون معزولين وكان يريد تأجيل الثورة ، ولكن "جيرترود" وأصدقائها كانوا أغلبية .

عندما جاءت الأخبار إلى "ميونخ" في مارس ١٩١٩ عن انتفاضة "بودابست" وإعلان "بيلاكون" لجمهورية هنغارية سوفيتية ، قال "ديفيد" لـ "جيرترود" إن تلك كانت فرصتهم الحقيقية الأولى لصنع التاريخ ، والانتقام لقتلى "برلين" ودفع الثورة للأمام ، وقد حدث ، ولرعب الطبقات المتوسطة والفلاحين الكاثوليك ، ظهرت إلى حيز الوجود الجمهورية البارقايه السوفيتية

ظهرت إلى حيز الوجود في الجمهورية البارقايه السوفيتية

* أعلنت المنظمة الدولية الشيوعية الثالثة في "موسكو" في عام ١٩١٩ بمصاحبة ضجة إعلامية كبيرة كان الهدف منها هو الثورة العالمية التي كانت المنظمة بمثابة رئاسة أركان لها وضعت المنظمة مجموعة شروط للعضوية (٢١ شرطاً) ، وكان أهم أهدافها شق الأحزاب الاشتراكية التي كانت قائمة في الدولة الثانية وتكوين أحزاب شيوعية جديدة ، وفي السنوات الأربع الأولى - أوج نشاطها - كان هناك سعى عنيف لتحقيق ذلك الهدف ، أصبحت الكونتينر فيما بعد أداة في يد السياسة الخارجية السوفيتية قام "ستالين" بحلها " من جانب واحد - في سنة ١٩٤٢ ليقنع "تشرشل" و"روزفلت" بأنه كان حليفاً يمكن الاعتماد عليه. (المؤلف) .

كانت موسكو فى حالة بهجة شديدة ، وكانا "لينين" و"تروتسكى" فى غاية العناد ولكنهما كان يأسين كذلك يعرفان ثمن العزلة كان "لينين" على يقين من أن الجمهورية السوفيتية الوليدة لن تستمر طويلاً دون قيام ثورة ألمانيا كان محقاً يا "كارل" أليس كذلك ؟ أعنى أن المساحة التاريخية المحتلة بخمسة وسبعين عاماً ، كانت صفراً لاشئ ، لذلك أرسل "لينين" و"تروتسكى" دعمهما ليميونخ على هيئة مئات البرقيات ، كانا يتمنيان أن تسقط "قيينا" كذلك ، وأصدرا بالفعل تعليمات للمارشال الأحمر "توكاشيفسكى" "توكا" الذى كان والدى يحبه- لبحث الإمكانات العسكرية لعمل ممر من الاتحاد السوفيتى إلى "باقاريا" ولكن رجلهم فى ميونخ لم يكن يعانى من مثل تلك الأوهام ، ودع "ليقينييه" زوجته وطفله الوليد واستعد ليضحي بنفسه من أجل قضية ، لم يكن هناك أدنى أمل فى نجاحها .

كان بالإمكان أن يستولى "اليونكر" على "ميونخ" دون عناء ، ولكن ذلك لن يكون رادعاً كافياً للبلاد الأخرى لا بد من سفك دماء، الشئ نفسه يحدث اليوم ، يمكن أن يستولى الصرب والكروات على قرية بسهولة دون القضاء على المدنيين ، ولكنهم نادراً ما يفعلون ذلك إنها الشهوة للدم غريزة الحيوان ما زال صداها يتردد فى التكوين البيولوجى للإنسان .

الجنرال "قون أوثن" سحق الجمهورية الباقارية بوحشية لا يمكن وصفها كانوا ينتزعون الناس من الفراش وينهمر عليهم الرصاص وطعن الخناجر ... والاغتصاب والضرب حتى الموت "جيرترود" فرت هاربة إلى والديها فى "شوابن" "ديفيد" وجد ملاذاً عند استاذة "ليقينييه" وأختبأ هناك فكر فى زوجته وابنه ، ثم أصبح شاغله الهرب ولكنه وقع ضحية وشاية فقبض عليه وحوكم ، وأعدم كانت محاكمته مهزلة لم تنس

جدتك ، حتى يوم وفاتها - حديثه الأخير أمام المحكمة كانت دائماً
تردده على مسمعى ، وأنا طفل فى ذلك المكان الذى كانوا يطلقون عليه
اسم الاتحاد السوفيتى

نحن الشيوعيين موتى فى أجازة أنا واثق من ذلك
تماماً لا أعرف أن كنت ستقرر تمديد إجازتى أم سيكون
على أن ألحق بـ "كارل ليبكنشت" و"روزا لكسمبرج" على أية
حال أنا أنتظر حكمك بكل رباطة جأش وصفاء داخلى لقد
أدبت واجبى بكل بساطة نحو الدولية والثورة العالمية .

كانت الكلمات قد استمرت فى تعذيبها ومطاردتها طويلاً بعد تحلل
النظام الذى باعت له روحها إلى آخر مدى ، والآن يقولون لنا إن الأمور
كانت دائماً على مثل هذا النحو ، ولكننى لا أصدقهم يا "كارل" أنت
أيضاً لا يجب أن تصدقهم ، كانت هناك نبالة الهدف ربما كان خيالياً ،
ولكنه بالنسبة للغالبية لم يكن ضاراً أبداً وإلا يصبح من المستحيل أن
نفهم دوافع أولئك الرجال والنساء ، الذين ضحوا بحياتهم فى السنوات
الأولى . الناس الذين لا تعنى خريطة العالم شيئاً بالنسبة لهم ، إن لم
تكن الأحلام مرسومة على كل قارة، هؤلاء هم الناس الذين أحاول أن
أعيد بناء حياتهم من أجلك .

أعدموا "ليثينيه" ذات صباح باكر . أجبروا جنديين من فرقة
الإعدام على أن يعبوا الكحول قبل الضغط على الزناد بعد ظهر اليوم
نفسه أخبرت "جيرتى" والديها بأنها أصبحت شيوعية ، لم تنس أبداً
نظرة الرعب الممزوجة بالخوف التى علت وجهيهما ترك والدها الغرفة ،
وبعد دقائق قليلة علمت أنه قد سقط مريضاً ، أما كل ما فعلته أمها فهو
أنها جلست على كرسي فى الصالة وراحت تبكى .

ضابط شاب "أوتو مولر" كان قد جرح جرحاً بسيطاً فى معارك الشارع جاء ليقيم فى منزلهما . وقف خلفها بينما كانت تحقق من النافذة فى شجرة الأرز العتيقة والأرجوحة ، وهمس فى أذنها " لقد سمعت كل شئ أنا معجب بقرارك ، ليتنى كنت مع "ليقيني" رفض أن يستجدى عفو عنه كان وجهه كله كبرياء ، وهو منتصب القامة وهم يطلقون عليه النار..

الصدمة الأولى تحولت إلى دهشة إذا كان هناك فى الجانب المنتصر رجال مثل هذا الضابط يقولون شيئاً كهذا فى وقت كهذا ، فمعناه أن كل شئ لم يصنع غريبة تلك الأشياء العارضة التى تترك مثل هذا الأثر كانت جدتك متأكدة أن كلمات الضابط المشجعة جعلتها تقرر شيئاً . بعد عدة سنوات قابلت "مولر" فى "برلين" حيث كان يدرّب كطبيب ، كان فى عجلة من أمره . كنا فى عام ١٩٣٣ وكان يحاول أن يرسل أثاث واحد من أقرب أصدقائه . إلى الدانمرك كان اسم صديق طفولته " برتولد برخت" عندما أفاق والد "جيرتى" تكلم بصوت خشن لكنه مرتعد: "من الآن أنت لست ابنتى!"

أمها لم تتكلم ذهبت "جيرتى" إلى غرفتها وراحت تبكى "أمى! أمى! لماذا لم تتكلمى؟" كانت تنتحب بعد ذلك حزمت بعض الملابس وصورة لها مع "هينرش" وكتبها وشال أخضر صغير كان لجدها كان شقيقها فى رحلة مدرسية ، جلست إلى مكتبها وكتبت كلمة وداع قصيرة "عزيزى هينى ، لابد أن أذهب الآن سأفتقدك بشدة ، تذكرنى ساكتب لك وأبلغك بعنوانى فى "برلين" قبلاتى " من "جيرتى" التى تحبك .

خرجت من المنزل ،مشت، عندما وصلت إلى ناصية الشارع واختفى المنزل وراءها ، كانت تريد أن تستدير للمرة الأخيرة ولكنها كابت وقاومت تلك الرغبة بعد ذلك كتب إليها يخبرها بأن وجه أمها الغارق فى

الدموع ظل ملتصقاً بزجاج شباك الدور الأول وهى ترى "جيرتى" تغادر منزل الأسرة ، أخبرته بذلك عندما عاد من رحلته المدرسية ، أثق أن لا أحد منهما كان يعتقد أنه سيكون فراقاً نهائياً ، ولكن لا أحد منهما أيضاً كان يعرف ما تخبئه الأيام؟

بعد الحرب بسنوات ، عندما عادت من "برلين" كانت "جيرتى" تود أن تذهب إلى "ميونخ" لترى المنزل مرة أخرى كان ذلك قبل بناء الحائط وكان الانتقال بين المنطقتين سهلاً أخذتني معها ، كنت فى الحادية عشرة أذكر رحلتنا إلى "شوابن" جيداً . كان المنزل مازال هناك كما كان دائماً أخذتني "جيرتى" فى أحضانها وراحت تبكى . كشيوعية كانت قد حاربت النازية وظلت على قيد الحياة ، والدها ، القومى الألمانى المتشدد ، رجل اليمين ، اختفى فى أحد المعسكرات مع "هينى" وأمها وبقية الأسرة لم ينج سوى أنا و "جيرترود" كنا ننظر محدقين فى المنزل ونحن مارون بالسيارة وكانت "جيرتى" تخاف أن تدخله . استدرنا ببطء وعندما تحركنا لا حظنا أن رجلاً عجوزاً على عكازين ... وقف وكان يراقبنا من خارج البوابة .

سأل "جيرتى" من أنت ؟

قبضت على يدي بشدة " أنا كنت أعيش هنا منذ زمن بعيد " اقترب العجوز وحدث فى عينيها "فراولين جيرترود"؟ هزت رأسها .

" ألم تعرفينى؟ أنا "فرائك" عامل الحديقة كنت أحملك أنت "وهينرش الصغير على ظهري " وامتلات عينا العجوز بالدموع احتضنته "جيرترود" وعندما تحركت أخيراً كانت ستسأله عما حدث ، لكنه قرأ السؤال فى عينيها قبل أن تتكلم وهز رأسه .

"جندت فى عام ١٩٣٦ ، كانوا مازالوا هناك كان من بين زبائن

الطبيب بعض المرضى المهمين . نازيون يحترمون ولا يستغنون عن الأطباء بأى ثمن . وعندما رجعت فى عام ١٩٤٢ - كنت من أوائل المصابين على الجبهة الروسية - كانوا قد اختفوا جميعاً "هزنا رأسينا .

"والمنزل يا فرانك "

"هل تذكرى ذلك الطبيب الشاب الذى كان يساعد والدك؟ انضم إلى الحزب النازى.. كانت تلك مكافأته . جاء إلى هنا هو وأسرته وأخذ العيادة والمنزل والأثاث ، كل شئ منذ سنوات قليلة ، خاف وباع العقار المنزل خال الآن . سوف يهدمونه ويبنون مكانه عمارة سكنية الحديقة ستختفى تماماً . أما هو فما زال فى "ميونخ " هو واحد من المواطنين المحترمين نوى الامتيازات أسس دار نشر طبية " .

تناولنا الغداء مع فرانكلين فى مقهى حاولت "جيرتى" أن تعطيه بعض النقود ولكنها تنبعت إلى أنها كانت مفلسة فكرت فى تلك الزيارة يا "كارل" عندما جاء المحققون - منذ عامين - تقريباً - من "بون" ، مازلت أذكر التاريخ لأنه كان يوم عيد ميلاد "هيلجا" السادس من أبريل ، أولئك الرجال الثلاثة الذين جاؤا ليستجوبونى، ويقررون ما إذا كنت شخصاً يصلح للتدريس فى الجامعة . لم يكن يهمهم على الإطلاق أن أكون معارضا للنظام القديم ، أو أننى قد خبأت منشقين . وزعت منشورات ، شاركت فى مسيرات ، أو ساعدت فى هدم الحائط والحقيقة أنهم ضحكوا عندما أريتهم البيان الذى كنت قد شاركت فى كتابته عند تأسيس المنتدى .

كان رأى رجل ذى الشعر الأحمر أنه "لغو ماركسى"! كما قال رفيقه بصوت مهذب : ربما تكون قد جعلتهم يخرجون إلى الشارع ، ولكنهم صوتوا لصالح المستشار "كول" لم يسبق أن تناقشت معك فى ذلك أبداً

يا "كارل" ، لأننى كنت أخاف كنت أعتقد أنك ستتنفق معهم فى رأى ، كنت مخطئاً سامحنى كنت أود أن أصرخ فى وجوه أولئك المنافقين . أن أذكرهم بـ "شوابن" أسأل متى يمكن استعادة منزل "جيرترود" . أسأل لماذا ما يزال النازى الذى سرق منزل أجدادى منزل أجدادى منتعشاً ، بينما يجعلوننا نحن زائدين عن الحاجة ، ولكننى بقيت هادئاً بدلاً من ذلك . شرحت لهم كيف أن الموقف متطايير. ذكرتهم كيف كان الأتراك والفيتناميون يحرقون أحياء فى منازلهم ، بينما يقف مواطنوا ألمانيا الجديدة والمستشار قد غسل يديه . وذات مرة سألتهم : لماذا تحتقروننا هكذا نحن الشرقيين؟

لا توجد حتى معاهدة "پاساو" بالنسبة لنا ؟

تطلعوا إلى بتعبيرات جوفاء . لا أحد منهم يريد أن يعترف ، لا أحد منهم كان يعرف متى ، أو لماذا كانت معاهدة "پاساو" وكان ذلك هو انتصارى الوحيد الذى حققته فى ذلك اليوم .

شرحت لهم كيف أنه عن طريق معاهدة ١٥٥٢ ، كان اللوثريون قد قبلوا تعايشاً مؤكداً ، يحسدون عليه ، مع الكنيسة الكاثوليكية استجوبونى لمدة ثلاث ساعات ، ولكن اتخاذ قرارهم لم يستغرق ربع الساعة استدعونى إلى غرفة التحقيق ، فقد كنت قد واجهت عداءات القوميسارات الفكرية فى الأيام الماضية .

" تفضل بالجلوس يا بروفيسور "مايور" . بعد التفكير فى الأمر جيداً ، رأيت اللجنة أنك لا تصلح لتدريس مادة الأدب المقارن فى جامعة "همبولت" مع الاعتراف بموهبتك فى اللغات الإنجليزية والروسية والصينية ، نحن على ثقة من أنك ستواصل عملك فى الترجمة وهو رفيع المستوى لكن التدريس الآن .. وفى هذه الظروف الجديدة أمر آخر .

كتب لك خطاباً قصيراً أخبرتك فيه أنني قد فصلت من عملي .

كان بودي أن أخبرك كيف كان الخوف يطاردني ويمزقني الإحساس بعدم الأمان ... يأساً من عودة أمك ، كنت أجول في المدينة بالساعات غبار في كل مكان. سقالات منصوبة في كل مكان. كان "هتلر" و "سبير" يريدان إعادة تعميم "برلين" . "جيرمانيا" .. كان الاسم المفضل عندهما "برلين" ستصبح مدينة عاصمة مرة أخرى هي التي ستعيدك على الأقل إلى هنا يا "كارل" بعيداً عن "بون" القديمة الهادئة وسيكون ذلك جميلاً ، لدى إحساس بأن المعماريين يعودون إلى القرن التاسع عشر ويحاولون نسيان أن يكون هذا القرن قد حدث .. وإذا نجحوا فلسوف يدمرون "برلين" .

فكرت أن تصبح مدينتانا مدينة واحدة على مدى زمن طويل كان النصف الغربي منطقة محرمة هل تعلم أن محلات الجنس قد حلت محل الكنائس القديمة والكاتدرائيات ؟ إنها تقدم ما يليق بكل نوق .. يرضون جميع الأنواق في "ودنج" حيث كان يعيش "ديفيد" و "جيوترود" بعد الفرار من "ميونخ" التي كانت قلعة من قلاع الطبقة العاملة ، يمكن أن تجد المستثمرين الجدد يتاجرون في أشياء غريبة طيور استوائية نادرة ، مسحوق قرن فرس النهر .. ، آذان الخنازير المجففة إلى غير ذلك "برلين" مدينة استهلاكية بلا خجل ! .

الفن ، شاسيه سيارة كاديلاك قديمه ، وألواح من الخرسانة ، ومقاعد خشبية محفور عليها أعضاء جنسية ، وأثداء ! .

ولدهشتي الشخصية يا "كارل" بدأت أفقد "برلين" القذرة الحقيرة ... المتزمتة .. التي نشأنا فيها أنا وأنت .

كان "كارل مايور" يقف فى شقيقته فى الدورر الثانى فى شارع "فريتز تيلمان" فى "بون" أحياناً .. يندم على هرويه إلى تلك المدينة الغريبة ، كان فى البداية يتمنى أن ينسى كل شئ عن برلين ، والحائط ، والسقوط ، ووالديه ، و"جيرهارد" ومدرسة جميلة اسمها "ماريان" وجدته "جيرترود" كل شئ كان يحبهم جميعاً ، ولكنه عندما ينظر خلفه ويتذكر نكد والده وعماه عن الحقيقة أو إصرار أمه على أن تقرأ تعقيدات السياسة الأوربية عن وتيرة واحدة ، كان يعود إليه غضبه كان والداه دائماً تأثيرين شديدي الانفعال فى لامنطقيتهم .

الحائط الوقائى الذى أقاماه حولهما وحول أصدقائهما سقط فى الوقت نفسه الذى سقط فيه الحائط الآخر هاهما الآن يشكوان من بؤس وحماقات النظام الجديد ، وكان "كارل" يعتبرهما مسئولين عن فشلهما .

الآن ، وهو قريب من مراكز القوى فى تلك المدينة المحتضرة كان يخشى أن ينسياه. أمه سعيدة هناك فى "نيويورك" ولكنه قلق على حال والده دائماً ، وعلى صحته العقلية .

ارتدى بدلته الزرقاء الداكنة ، وربطة عنق مناسبة ونظر إلى هيئته فى المرآة ، رأى شاباً رشيقاً متوازناً ، هز رأسه فى رضا أغلق شقيقته ونزل بالمصعد إلى مستوى الشارع ، كان المقهى الذى يتناول فيه إفطاره يقع فى نفس المبنى وبينما هو يرتشف "الاسبرسو" راح يقلب صحيفة "فرانكفورتر" أليمن زيتونج "الصباحية هناك شكوك كثيرة حول استمرار

"كول" لدورته كمستشار هذه المرة ، هناك تقارير عن تحالف منشقين بين الصرب والمسلمين فى البوسنة وحزب المحافظين فى بريطانيا يواجه أزمة جديدة .

كان "كارل " غير مبال بشأن البلقان وبريطانيا فى نظره تجربة عملية فشلت .. وحقل التجارب بمجمله كان على وشك ثورة انتخابية وربما أصبح مهما لألمانيا لو جاءت حكومة جديدة. ربما الحقيقة أن "كارل" لم يكن مهتماً بغير السياسة الألمانية ودقائقها ، كان يعرف بالطبع أن الولايات المتحدة والصين واليابان هم اللاعبون الرئيسيون على مسرح الكون ، ولكن حتى هذه المعرفة لم تثر لديه أى اهتمام حقيقى بالبلدين الأخيرين ، كان "كارل" ألمانيا جداً ... يريد أن تقوم ألمانيا بدورها العالمى ، لم يصدق أن جرائم الرايخ الثالث قد ألغت وضع ألمانيا التقليدى فى وسط أوروبا .

من أسابيع قليلة ، وطبقاً لتعليمات زعيمه كان "كارل" قد قضى مساء يوم كامل فى محادثات مكثفة مع عضوين بارزين من الديمقراطيين الأحرار فى البرلمان ، وكان أحدهما قد تحدى تعليمات حزبه ولم يصوت لصالح مرشح الديمقراطيين المسيحيين لمنصب المستشار ، كانت مهمة "كارل" صريحة مثل سلوكه. يريد أن يخلع "كول" من منصبه وأن يتوج زعيم الحزب الديمقراطى الاجتماعى مستشاراً بدلاً منه ، أمطره العضوان بأسئلة كثيرة عن المستقبل ، كم منصب فى الحكومة ؟ نوايا الحزب الديمقراطى الاجتماعى بالنسبة لأوروبا ؟ هل يمكن لهذا الشاب أن يؤكد لهم أن "شارينج" كان أكثر من صنعة من صنائع الجهاز ؟

"كارل " لم يخف شيئاً قال لمحدثيه المدهوشين إن الاستقرار الألمانى يتطلب مستشاراً يخضع لسيطرة الجهاز ، وإن أى شخص قروى ضعيف يمكن أن يكون أفضل من أى مسئول حزبى صخاب ، يثير من

الآمال ما يستحيل تحقيقه ، وإن ألمانيا ، تحت قيادة الحزب الديمقراطي الاجتماعي فقط ، يمكن أن تستخدم عضلاتها الاقتصادية ، وتمارس ضغطاً سياسياً ، يتناسب مع مكانتها الجديدة في عالم ما بعد الشيوعية وأضاف ... أن ألمانيا قوية سياسياً ، وهي التي تستطيع أن تعيد بناء أوروبا الوسطى ، الحماس الشديد والثقة الشخصية التي أبدتها ذلك الشاب الذي ينتمي إلى الحزب الديمقراطي الاجتماعي تركت انطباعاً جيداً لدى عضوى "البوند ستاغ" كان مثلها ، مهتماً بالسلطة فقط ، يمكنهما إذن أن يعقدا صفقة معه ، طلباً منه أن يحضر بعد أيام قليلة ليلتقى بزملائهما .

في الليلة نفسها ، كان "كارل" على موعد في حفل شراب يقيمه الرئيس المحلى لشبكة CNN الإخبارية على شرف ضيف كبير من "أتلانتا" ثلاثة وزراء على الأقل ، سفراء كثيرون ، رئيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي وكثير من العاملين في التلفزيون زميل كبير قدم "كارل" إلى "مونيكا مينراب" سيدة شابة لا يزيد عمرها عن أربعة أو خمسة وعشرين عاماً ، ابتسمت ... وعيناها اللوزيتان تشعان كالمصابيح ، صافحها "كارل" وهو ينظر إليها وجه عريض ، كله حس ، يحيط به شعر أسود قصير ... معقوص ، شفتان رقيقتان . وكانت ترتدى بدلة من الحرير رمادية اللون ، واسعة ... تجعل من الصعب التكهن بشكل الجسم الموجود تحتها ، كانت محطلة نظم كمبيوتر في بنك كبير ودخلها بسيط ، تركت لدى "كارل" انطباعاً جيداً لو أننا في مناسبة أخرى لتمسك بها ، ولكن عيناها بدأتا تجولان من فوق رأسها وهو يحاول أن يلمح المشاهير وأصحاب النفوذ ، كان يريد أن ينتقل لينضم إلى المجموعة الملتفة حول وزير الخارجية .

"إذا كنت تريد أن تذهب لتعلق الأحذية ... أغرب ! أشمئز من الحديث المهذب مع شخص وصولي .. مع السلامة ! .

ذهبت "مونيكا" وتركته في حالة ذهول ، فكر لأول وهلة أن يجرى وراءها ولكنها كانت قد وصلت إلى باب الخروج ، وعلى أية حال ، قال لنفسه بعد أن أفاق من صدمته إنه كان بالفعل يريد أن يسمع ما كان وزير الخارجية يقوله للأمريكيين .

بعد تخرجه ، كان "كارل" يريد شيئاً واحداً : أن يهرب ، أن يترك "برلين" بأسرع ما يستطيع ، كان اندفاع "هيلجا" إلى نيويورك قد ضايقه في البداية ، بعد ذلك جاءت المرارة ، كان غاضباً منها لأنها تركته ، كان بإمكانها أن تنتقل وتنشئ عيادة في "فرانكفورت" لماذا تترك البلد في وقت كهذا ؟ اختيارها نيويورك كان يحيره وفي النهاية أقنع نفسه لابد أنه كان لها عشيق ، ولكن لماذا لم تخبره عرف أنها لم تكن سعيدة عندما ألححت في إحدى رسائلها إليه أنه كان مشروع عميل في "بون" ويعمل لجهاز فاسد مملوء بالأوساخ ، رسالتها جعلته يضحك ولكن رده الحاد عليها أدى في البداية إلى وقف لإطلاق النار بينهما .. ثم إلى توقف تام من جانبها لم تكتب له بعد ذلك ، كان يتبادلان التحية ويتحدثان قليلاً .. بالتليفون مرة أو مرتين في الأسبوع تنهد "كارل" عندما فكر في والده حالة عصية على الإصلاح لافائدة ترجى منها ، يعيش في عالمه .. في شرنقته بعيداً عن الواقع لم يحقق في حياته شيئاً سوى بعض الكتب المليئة بالرومانا الماركسية التي عفا عليها الزمن في السنوات الماضية ورغم قلة عدد الطلاب الذين كانوا يفهمون ما يحاول أن يقوله ، كانت كتبه زينة إجبارية لأرفف الكتب عند مثقفي اليسار ، لم يعد أحد يشتري الآن كتب "فلادي" "كارل" يشعر بأنه غريب تماماً عن والده ويعيد عنه أسلوب حياته فخر - ... ما يزال يرفض أن يرتدى ثياباً جديدة - وأرواه وميوله تترك "كارل" غاضباً وعاجزاً عن الكلام ، لماذا لا يفهم ذلك العجوز الخرف أن كل شيء قد انتهى ؟ كارل " كان قد توقف

عن الجدل معه ، ولكن "فلادى" كانت ما تزال لديه القوة الذهنية الكافية لإزعاج ابنه ، فى آخر مرة ، رد عليه "كارل" بلهجة عنيفة وكان صوته عالياً بشكل غير مألوف .

"قضى الأمر يا "فلادى" . انتهى ، هذه ألمانيا الديمقراطية لن تنهض مثل العنقاء مرة أخرى.. وأنا سعيد بذلك " .

ابتسم " فلادى "

"وأنا أيضاً ! ولكن ما علاقة أى شئ من ذلك بالماركسية ؟ " وفى تلك المرة كان "كارل" على وشك أن يصرخ من الضيق .

"انتهى ! انتهى ! انتهى ! يوتوبيا جرفها ماء التواليت مع كل البقايا ، كيف يمكن أن توجد الماركسية إذا كان البروليتارى النبيل ! موضوعها .. قد تخطى عنها ؟ ألا تفهم أنت و"هيلجا" الماركسيون ليسوا أكثر من بقايا زبد فوق سطح المحيط الأزرق الغامق " هو : الذى كان ذات يوم قريباً جداً منهما ، يريد الآن أن ينسى والديه، كان يبني نجاحه الخاص ، ولديه خطة زمنية لذلك ، أقنع نفسه بأن النجاح هو أسرع الطرق لمحو أى ذكرى ، كانت تؤرقه ، لجمهورية ألمانيا الديمقراطية .

"كارل" كان يريد أن يصبح عضواً فى "البوند ستاغ" فى سنة ٢٠٠٠ ومستشاراً فى سنة ٢٠١٠ ، وكان ذلك شيئاً يدعو للسخرية ، إذ لم يسبق له أن كان قد أبدى أى اهتمام بالسياسة من قبل ! هذا إدمان جديد جداً ! اختار الحزب الديمقراطى الاجتماعى كما يختار أحدهم فريق كرة .. وهناك قاعدة بسيطة ، إن بقيت مع فريقك وتمسكت به فى الظروف الصعبة ، فلا بد أن تحصل على مكافأتك عاجلاً أو آجلاً .

فى صغره ، كان يتجنب الثروة الطويلة فى التاريخ والسياسة كان يحب جدته "جيرترود" التى قضت معه وقتاً طويلاً ولكن ليس مثل الآخرين

كانت لا تضعه فى السرير إلا مع قصص المغامرة وحكايات البطولة فى الحرب الأخيرة ومقاومة "هتلر" فى ألمانيا ، ربما كانت بعض روايب وبقايا ذلك الزمن هى التى جعلته يفضل الحزب الديمقراطى الاجتماعى على الديمقراطى المسيحى ، ربما "كارل" كان يريد أن يبدأ حياته من جديد. قرأ إعلاناً عن وظيفة باحث وتقدم لها ، ولم يكن يتصور أنه سيصل إلى مرحلة المقابلة الشخصية .. ناهيك عن الحصول على الوظيفة ، كانت مؤسسة "إيبرت" قد أعلنت عن حاجتها إلى خريجين وتبحث عن شباب أذكاء فى العقد الثانى يمكنهم استيعاب الكمبيوتر من أجل تلخيص الوثائق السياسية للمسئولين فى المركز الرئيسى للحزب الديمقراطى الاجتماعى فى "أوليناور شتراس" .

نجد فى المقابلة الشخصية ، نقده الواضح والمباشر لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ترك انطباعاً جيداً لدى السيدتين اللتين أجرتا معه المقابلة ، على خلاف بعض منافسيه فى الشرق القديم ، كان أداء كارل هادناً خلواً من الحماس ، لم تتدفق من فمه أى إعلانات مبالغ فيها عن الحرية ، كان أسلوبه رصينا ركز على استحالة إمكانية أن ينجح نظام ملكية الدولة فى تحرير السلع أو توصيلها وفى رأيه ، كان سبب الانهيار هو أن النقص المادى والاقتصاد العاجز قد كشفوا عن أيديولوجية فقيرة ، كان ذلك هو الذى عجل بالسقوط كما قال... ولم يلجأ إلى تعميمات أو تجريد بأن يتكلم عن الديمقراطية والحرية كان انطباع السيدتين عنه جيداً ، كانتا تنظران باهتمام إلى ذلك الشاب طويل القامة الذى يرتدى بدلة كحلية وربطة عنق رمادية يبدو عليه الذكاء ، ومشاعره تحت السيطرة ، كل مافيه - أسلوبه فى تدوين ملاحظاته ، أوراقه فى حقيبته - كل شئ كان يدل على أنه منظم فى عمله .

تركناه يتكلم لمدة ساعتين تقريباً ، وكانت أول مرة يظهر فيها حماسه

عندما سألتاه : هل تكون سعيداً لو أنك عملت مع المسيحي الديمقراطي ؟ فأجاب بصوت أعلى " لا بالطبع " فأنا ديمقراطي اجتماعي " .

السيدة الأكبر سناً ، وكان اسمها "إيفا وولف " ، إحدى قيادات الحركة الطلابية في الستينيات ، كان يمكن أن تفضل لو أن ذلك الشاب أظهر ولو علامة بسيطة على التمرد ولكنه لم يفعل ، فهزت كتفيها ، هؤلاء الأولاد مختلفون ، وفي تقريرها الذي كتبه للمؤسسة عن "كارل" وأوصت فيه بتعيينه وصفته بأنه النموذج المثالي للديمقراطي الاجتماعي قالت: إنه "عبد للسلطة ، تتملكه فكرة واحدة مهيمنة : كيف يشد الحزب الديمقراطي الاجتماعي للسلطة ولو يعنى ذلك تطوير الأفكار المقبولة من البافاريين فهو على استعداد لعمل مسودة مشروع لذلك ، ولو يعنى التخلص من الشعارات القديمة الجوفاء ، فهو مع ذلك بقوة ، حتى لو أدى ذلك إلى غضب أصدقائنا .

"عندما سألتناه إن كان مستعداً للانتقال إلى "بون" في خلال أشهر قليلة، ابتسم وقال إنه على استعداد لمغادرة "برلين" من الغد ، اعتقد أن "تيلمان" لابد أن تكون له جلسة طويلة معه وبعدها نتخذ قراراً نهائياً "كارل مايور" سيضيع إذا عين باحثاً في المعهد لابد أن يأخذ منصباً في جهاز الحزب فوراً .

شخص سريع التفكير ، ولكنه ليس من النوع الذي يقفز إلى استنتاجات بدهية ، يفكر في كل شيء بشكل جيد ، مرفق صورة من الحديث الذي كتبه عندما اختبرناه سوف تلاحظ به قليلاً من العبارات الأصلية لو أن "شاربنج" يستطيع أن يتكلم هكذا .. فقد نفوز ... من يعرف ؟

كان حدس "إيفا" في مثل هذه الأمور ، محل احترام كبير من أصدقائها في قيادة الحزب، وفي ظرف شهر من التحاقه بالمؤسسة، كان

"كارل" قد استقر بأمان فى مكتب الأبحاث التابع للحزب الديمقراطى الاجتماعى .

وكانت إحدى نتائج انتقاله إلى "بون" الصداقة القوية التى نشأت بينه وبين "إيڤا" ولأنها كانت تكبره بخمس وعشرين سنة ، فقد حلت جزئياً محل "فلادى" و"هيلجا" ، فى تلك المرحلة الانتقالية الحرجة من حياته .

كانت هى الصديق الوحيد الذى يمكن أن يحدثه عن ماضيه حدثها عن انتحار "جيرهارد" الذى ألمه كثيراً ، "جيرهارد" الذى كان يفهمه رغم قلقه لعدم اكتراث "كارل" بالأفكار الماركسية ، "جيرهارد" الذى علمه أغنية تبدأ هكذا :

من وراء ظهر الشيطان يهب القلق

ومن وراء ظهر الله ... لا شئ سوى الضجر .

قال لها "كارل" إنه كانت تأتى عليه لحظات يتمنى لو أن "جيرهارد" كان والده . ربما وكان قرب "جيرهارد" من "فلادى" - كانا متقاربين سياسياً - هو الذى أحدث ذلك التشوش فى عقل "كارل" كان قد كتب إلى "هيلجا" عدة مرات عن "جيرهارد" وردت عليه بمودة ودفء ، ولكنه لم يكتب شيئاً إلى "فلادى" ، وكان "فلادى" هو الولد الذى يريد فعلاً أن يتكلم عنه "جيرهارد" وكان "كارل" أحياناً يتساعل بينه وبين نفسه لماذا كان يعاقب والده ... ولكنه لا يسمع إجابة شافية .

كانت "إيڤا" دائماً مستمعة جيدة ، ومتعاطفة وقد فجأها ذلك التناقض بين التشوش العاطفى لهذا الشخص الذى أخذته تحت جناحها ... وثقته السياسية .

فى الليلة الماضية، أثناء العشاء هونت عليه وواجهته "كل شئ" له حدود

يا "كارل" كل شئ . ما يفعله أى شخصين لبعضهما ، أو أب لابنه أو ابنة لأمها ، الواقع أنك تحب والدك كثيراً ، أكثر مما تعترف به ، موت "جيرهارد" هو الذى أجبرك على الاعتراف بذلك لنفسك ، ولكنك متردد لماذا ؟ أنت حزين لأن والدك لم يساعدك عندما كنت فى أمس الحاجة إليه، لكن هل حدث أن ساعدته ؟ هل "ماتياس" يساعدك ؟

ابتسمت "إيفا" كانت دائماً تتكلم عن أمورها العائلية مع "كارل" رغم أنها كانت قد انفصلت عن "أندى" زوجها المخرج السينمائى، عندما عينت رئيسة للبحوث فى القسم الألمانى للمؤسسة ، إلا أنهما ظلّا أصدقاء ، كان ابنها "ماتياس" مغنياً رئيسياً فى إحدى الفرق الموسيقية فى "برلين" .

كان فى نفس عمر "كارل" لم يكن بينهما أى شبه آخر .

ورغم عدم لباقة ابنها ، إلا أن "إيفا" كانت تحبه جداً ثم قالت مجيبة عن سؤال من "كارل" : لا ولكنى لا احتاج إليه كثيراً منذ ذلك قريب جداً من والده ، بينهما عيوب كثيرة مشتركة أحوالهما المالية ليست مستقرة ولكنهما يحاولان ، ليس مسموحاً لى أن أرسل نقوداً لأى منهما كلاهما يساعد الآخر وكلاهما يعتبرنى خائنة ! "ماتياس" كتب أغنية عن أم كانت ثورية ونقية ذات يوم التحقت بالحزب الديمقراطى الاجتماعى والآن تنتابها أفكار ملوثة ، عرفت أن مؤيدى "ستيفان هايم" كانوا يرددونها فى الشوارع أثناء حملته الانتخابية .

على العكس منك يا "كارل" "ماتياس" ابنى يكره "بون" ولذلك فأنا أذهب إلى "برلين" كل شهر أنت أيضاً سوف تعود إلى "برلين" قريباً وسوف أبقى أنا هنا وحيدة !

هل ستذهب "مونيكا" معك ؟

أحمر وجهه ، كيف عرفت بأمر "مونيكا" قيادة الحزب الديمقراطي الاجتماعي سوف تنتقل إلى "برلين" وتستقر هناك كانت "مونيكا" أحد الأسباب ولكن كيف اكتشفت "إيفا" ذلك ؟ سألتها .

"لا يوجد سر في ذلك ، حاولت أن أتصل بك عدة مرات قال زميلك أنك كنت مع "مونيكا" على التليفون هل المسألة جد؟

"لا أعرف ... مركزها كبير في البنك الذي تعمل به كما تعلمين ، ويخشون أن يلعب برأسها خصومهم ويأخذونها ..."

"وهل هي في جانبك؟"

"لا أعرف ليس لها اهتمامات سياسية جميع السياسيين كذابون ، تافهون ، حقراء ، كلماتها عاشت سنة في "سان فرانسيسكو" كان جدها "كولونيل" في القوات الخاصة وأحد المقربين من "هينرش هملر" كانت أمها من اتباع "ماو" وتعمل الآن في مدرسة ابتدائية . أبوها ؟ مات في "ستامهايم" "مونيكا متأكدة أنه لا يمكن أن يكون قد انتحر مصرة على أنه قتل لا أعرف"

"أفهم الآن لماذا هي بعيدة عن السياسة"

"أحياناً تكون في غاية القسوة ، عندما نتشاجر ، فأنا أيضاً حثالة ، عاجر عن الوصول إلى "البوند ستاغ" كذاب ، وأحشو جيبي بالمال ، وعندما أذكرها بأنها تكسب أكثر مما يكسب أي نائب من الديمقراطي الاجتماعي في "البوند ستاغ" تقول إن ما تكسب لا يأتي عن طريق الخداع ولكنها حركة السوق دون مخالفة أي قوانين .

أنا أحبها يا "إيفا" أريدها أن تكون أما لأولادي .

"وهنا كنت قد بدأت أعتقد أنك مجرد "روبوت" وتخشى أن يتضح أن فتاتك كانت "روبوت" آخر فأرا ... أو شيئاً من هذا القبيل فى الجهاز فى "أوليناور شتراس" لقد فاجأتنى بالفعل ! أستغرب.. ماذا ترى فىك ؟ احضرها إلى الأسبوع القادم ... نتناول العشاء يوم الأربعاء ؟

"حسن لن أؤكد نيابة عنها !"

"قل لها إن أبنى "ماثياس" يغنى مع فرقة روك مجنونة ! ربما يجعلنى ذلك أقل جاذبية قل لها ما تريد ولكن لا بد أن تأتى بها إلى هنا "

قضى "كارل" اليوم كله فى إعداد تقرير مختصر عن إمكانية تحالف جديد ، كان يريد أن يصل الديمقراطية الاجتماعى إلى السلطة ويريد أن يصبح "شارينج" مستشاراً ، وأن يبقى فى "بون" حتى عام ٢٠٠٠ ، حينذاك تكون الجراح قد التأمت ، وربما يبدأ فى لقاء "فلادى" ثانية سجل ملاحظة فى مفكرته ، فى العام الماضى ، وفى قمة ابتعاده عن الماضى نسى عيد ميلاد والده ، لا بد ألا يتكرر ذلك ، اكتشف أنه كان مازال يحب "فلادى" وصدمه هذا الاكتشاف.

كان "فلاديمير مايور" سعيداً ، بالأمس نشرت له نيوز دويتش لاند " مقالاً طويلاً عن الاتجاهات الحديثة فى الأدب الروسى كان مقالاً عنيفاً كتبه بسخرية شديدة ، يصف فيه كيف حلت واقعية السوق محل الواقعية الاشتراكية، وخلفت بالدرجة نفسها نتائج بالغة السوء ، كتابات داعرة حلت محل الإشاعة الطقوسية بالرؤساء والوزراء والمسئولين، كان ذلك أول مقال ينشره منذ طرد من وظيفته فى "همبولت" كان سعيداً بالنتيجة انتصار بسيط ، إشارة للعدو على إنه لن يتلقى الهزيمة منبطحاً ! سيرى الصغير "كارل" إنهم لم يكونوا مجرد رغبة، سيرد عليهم بقبضته الأدبية.

كتب إليه عدد كبير من أصدقائه القدامى يهتونه فى ماضى الأيام كان "جيرهارد" أول من يسارع للاتصال بهم ، ولكن "جيرهارد" مات كان "يعرفنى جيداً" كان "فلادى" يفكر فى ذلك وكان يعرف كيف يخرجنى من همومى ... وكانت أحكامه عاقلة ورزينة .. يمكن الاعتماد عليها لم يكن هناك أى أثر للغيرة فى عمله "جيرهارد طيب القلب ، لم يطلب أشياء كثيرة من هذا العالم ولكنه توقف عن المقاومة أمر مهلك طلبه الموت فى قناع النظام الألمانى الجديد .

فى الخارج كان ليل ... وغطاء من الضباب فوق الشوارع قرر "فلادى" أن يبقى بالمنزل من الأفضل أن يظل محاطاً بالأشباح على أن يشارك فى الطيش الاضطرابى فى الخانة هكذا قرر كان يقرأ ، ويمشى جيئةً وذهاباً فى غرفته ، قرأ الرسائل القديمة وراح يكلم نفسه ، ويكلم "كارل" و "هيلجا" و "جيرهارد" وعندما دقت الساعة الثانية صباحاً .. نام

... كان ذلك ما حدث بالأمس واليوم قام من النوم متأخراً النهار صاف ، ولكن ظلال الشتاء كانت قد بدأت تلون المشهد كله ، الضوء سوف يختفى خلال ساعات قليلة قفز من الفراش ارتدى ملابسه بسرعة وخرج إلى الشارع كان يجول بلا هدف ، وبعد ساعة ونصف الساعة ، وفى غمرة شعوره بالحزن والوحدة ، وجد نفسه فى محل لبيع الكتب القديمة على "كو دام " منظر الكتب على الأرفف خفف قليلاً من شعوره الكئيب .

"ماذا تفعل هنا "

"إيفيلين واقفة خلفه ، علت الدهشة وجهيهما ، ابتسمت وعانقته بدفء حقيقى .

"الجاكت القديم هو .. هو ، فلادى " القديم نفسه ! لماذا لم تحلق ذقنك؟ " ابتسم وهز كتفه زايلة الحزن للحظة رؤية "إيفيلين" نقلت قلقه إلى المستقبل ، سارا حتى وصلا إلى قاعة فنون صغيرة ، كانت مشهورة بأنها تقدم أفضل قهوة فى "برلين" "إيفيلين" تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث بينهما أبداً ، عاملته على أنه أستاذها السابق ... لا أكثر من ذلك .. ألحت عليه أن يحضر المؤتمر الصحفى لأول فيلم لها فى نفس المساء ، ثم يحضر حفل عشاء بعد ذلك مع فريق العمل بدا عليه الشك ، وكان حذراً .. لا يريد أن يستعيده أحد بالمرّة .

"سوف تلتقى بزوجى وصديقه ، أرجوك يا "فلادى" لا يبدو أن لديك أى ارتباط الفيلم كوميدى وستضحك كثيراً " .

قبل دعوتها ، وهو يفكر بينه وبين نفسه أنه يغير رأيه دائماً " هل وجدت عملاً جديداً ؟ "

هز "قلادى" رأسه .

ولا سياسة جديدة ؟

هز رأسه مرة أخرى .

"كفى عيشا فى الماضى يا "قلادى" استيقظ .. نلتقى فيما بعد " .

بعد أن انصرفت طلب لنفسه فنجائاً آخر من القهوة وقضى الساعة التالية فى تفكير عميق ، منذ ساعات قليلة كان "قلادى" يتجاهل شمس الخريف الجميلة ، وهو يفكر فى يومه الفارغ الذى يدعو إلى اليأس ، هل يمكن أن تكون "إيڤيلين" هى العلاج لكل ذلك ؟ أغمض عينيه يتذكر الوقت الذى قضياه معاً ، ولكن لافائدة ! كان العالم الذى لا يريد أن يراه مدفوناً فى أعماق رأسه .. ويبدو أنه لن يتركه ، كان الواقع قد كسره ، ولكنه ما زال هناك فى أحلامه وكوابيسه كلها ، لم يمس جمهورية ألمانيا الديمقراطية البروسية الستالينية القديمة ... بكل متاهات نظمها وقوانينها البيروقراطية ، وتقاليدها الغريبة الخاصة ، بكل لا عقلانيتها الدفينة ، وقسوتها المعهودة وعدستها المشوهة التى لا يرى منها المرء سوى عالم مشوه! والآن ... يجبره التاريخ أن يعيش فى عالم جديد جرده من كرامته كمواطن كان هناك كثيرون يفكرون بنفس الطريقة وأحياناً كان يشكولـ "جيرهارد" لم يكن "قلاديمير مايور" هو الوحيد الذى يعتقد أنه كانت هناك جوانب من الحياة فى ألمانيا الديمقراطية القديمة ، أفضل مما هو موجود اليوم ، وكان كثيرون يرون مشاكلهم .

نتيجة مؤقتة لمرحلة انتقال مؤلمة من نظام ملكية الدولة إلى الاقتصاد الحر.

"قلادى" كان مختلفاً كان يرفض أن يعتبر كل شىء كارثة تامة ، وعندما كان يعبر عن تلك الأفكار مع أصدقاء قدامى كان يرددون دائماً : "لاشك أن الأمور سيئة بالنسبة لنا يا قلادى ، ولكننا هنا فى "برلين" لا نقوم من النوم كل صباح لنتساعل إن كنا سنظل على قيد الحياة حتى آخر اليوم أم لا كما يفعل كثيرون فى "سراييفو" و"موسكو"

لم يكن "قلادى" يحب مثل تلك المناقشات ، العبادة العمياء للحقائق الراسخة تقود دائماً إلى السلبية لماذا يتصالح المرء مع الحاضر ؟ إن توجهها كهذا ما كان له أن يؤدى إلى سقوط الحائط كان يرفض الموجود هنا لمجرد أن أحدثا فى أماكن أخرى كانت أسوء ، أصبح التاريخ عذراً ، تاريخ ملعون يخرج من رحمه جمهوريات صغيرة مخلوقات بشعة ! كيف لا تكون هكذا وهى مشوهة بعقود من ولادة غير طبيعية ؟

رجال ونساء وأطفال .. كلهم كانوا يعيشون ويموتون من أجل تلك الدول الجديدة ، كانوا فى الماضى يفعلون الشىء نفسه من أجل الأمبراطوريات الكبرى .. لكن مع فارق: فى الماضى كانوا يحاربون على مضض .. مع شك فى الدوافع ! ولكنهم اليوم يذهبون إلى الحزب بإصرار عنيد .. رؤوسهم وأجسادهم يشوهها تعصب أحرق لا بد أن ينتهى كل ذلك نهاية سيئة ، كان "قلادى" واثقاً من ذلك فى السنوات القليلة الأخيرة كان يتفادى بعض التأكيدات .. كان النظام الاقتصادى البيروقراطى قد انتهى ولكن أقوله لم يكن يعنى أن ما بقى أفضل أو أرقى .. من أسبوع فقط ، ألقى القبض على أحد طلاب قلادى النابهين كان شاعراً تفيض قصائده بالأمل ... كانت جريمة شروع فى قتل ، الضحية رجل تركى لديه كشك تجارى فى "كروزبرج" لم يمت ولكنه فقد

إحدى عينيه ، والآن وبينما هو يفكر فى ذلك ، تذكر "قلادى" أن القصيدة التى أعجبه جداً ، كانت من وحى كونيغزبيرج "القديمة حيث كان يعيش جداً الشاب قبل الحرب ، وهربا منها بعد الهزيمة .. وقبل أن يصبح اسم المدينة "كاليينجراد " حتى ذكرى "إيمانويل كانط " كانت مستلهمة والقصيدة كلها جنوح باللاوعى إلى التخوم القديمة ربما كان قد قرأ كثيراً عنها ولم يكن ذلك كله سوى حالة الاغتراب التى كانوا يشعرون بها جميعاً .. بدرجة أو أخرى بسبب بنية ألمانيا الديمقراطية ! دفع الحساب وغادر المكان ، زيارته المخططة لـ "تاير جارتن" لم ينفذها بسبب "إيفيلن" وعليه فقد استقل "الباص" المتجه شرقاً عندما وصل إلى هناك كانت الساعة الرابعة تماماً ، وجد الشقة غير مرتبة تخلص من المخلفات الموجودة فى المطبخ ونظف غرفة الجلوس ، أما غرفته فكانت مرتبة استلقى على السرير ، كان أحياناً يحسد أولئك الذين ينسحبون إلى عالمهم الخاص ولا يهتمون بأى شئ آخر أولئك الذين لم يشغلهم التاريخ أبداً... عندك "ساو" مثلاً "ساو" الذى ترك التاريخ وتحول إلى التجارة أما "قلادى" ومهما حاول ، فلم ولن يستطيع أن يهرب من التاريخ بالنسبة لأناس مثله ، لا يوجد تراجع أو انسحاب إلى الغابة نشأته ، وبيئته ، كل منطلقاته .. كانت مختلفة تماماً عما عند "ساو" لا شئ ثابتاً ، كان لابد أن يتغير المجتمع غضب الفقراء المكتوم لا يمكن أن يستمر إلى الأبد .

وسط دوامة هذه الأفكار الكبرى .. نام استيقظ بعد ساعة تقريباً "وفوجئ" بالظلام فى الخارج ، ولكن الساعة لم تكن قد تجاوزت الخامسة، لا داعى للخوف قام ببطء وتوجه إلى الحمام شعر بالضوء الخفيف البارد يؤلم عينيه وهو يحلق ذقنه ، كان طويل القامة قوى البنية، بشرته السمراء وعظام وجنتيه والحوّل الخفيف فى عينيه البنيتين .. كلها

كانت دائماً مثار تعليقات ساخرة فى أيام المدرسة ، وفى العام الأخير كان وزنه قد زاد ، إلا أنه كان له مظهر رجل فى جدارية إيطالية ، حال لونها بفعل الزمن منذ سنوات عديدة كان قد اتش اشتعل رأسه شيئاً ارتدى "قلادى" بدلتها القطيفة ذات اللون الأخضر الفاتح ومشط شعره وغادر الشقة فى الواحدة صباحاً ، كان كل الفريق يريد أن يذهب إلى ملهى ليلي جديد خاص بالشواذ يقع فى شارع جانبي متفرع من "كانت ستراس" ولكن "قلادى" كان مرهقاً تماماً ، ألم خفيف يرعش قلبه ، كان يفكر فى "إيفيلين" كثيراً ، وسعيداً باللقاء الذى حدث مصادفة ، ولكنه لم يكن مستعداً للاحتفال .

كان قد توقع أن يكون احتفالاً بسيطاً ، ووقوراً فى أحد المطاعم ، ولكنه - بدل ذلك - وجد نفسه فى حفل عشاء والحضور فى ملابس تنكرية عبثية فى استوديو سينمائى مهجور ، أجلسوهم على مقاعد من طراز العصور الوسطى ، وأمامهم طاولة ضخمة مكدسة بصنوف الطعام التركية والإضاءة ... كأنه مشهد سينمائى وحول المكان نماذج مضاعة لهامات وهياكل عظمية و "ماركس" و "إنجلز" و "ولينين" وفرسان يمتشقون الدورع .. وپروليتاريا ...!

نظر إلى وجوه الناس المهمين من حوله هل كانوا حقيقيين ؟ لماذا لم تكن خزانات وقودهم مفرغة ؟ هل هو فرق السن أم تراهم سكارى بالنجاح المتوهم ؟ وبعد أن ضاق بمن حوله ويعد أن أذهلته "إيفيلين" بدأت عينا "قلادى" تجولان فى أرجاء المكان رآها ... امرأة تنظر إليه وتجفل عندما تلتقى عيونهما ابتسمت ، كانت ترتدى صديرية حمراء من الحرير مطرزة بخيوط ذهبية ، وينطلقون أسود اللون .. فضفاضاً ابتسم ومثله ، كانت هى أيضاً قد رفضت الدعوة

لارتداء ملابس سينمائية تنكزية ، بعد العرض شعرباًنهما التقيا قبل ذلك حاول أن يتذكر اسمها ، كانت ذكريات "قلادى" دائماً انطباعية .. تتكون من كلمات وصور الناس أنفسهم .. ماذا يلبسون .. ملامحهم الجسدية الصفات التى تميزهم .. كل ذلك لم يكن واضحاً فى ذهنه فجأة عرفها "ليلى" ، ليلى كرونبيرج" تلك الرسامة التى دمرت حياته دون أن تدري ، أول معرض بعد الحائط ، بورتريه ليلى من وحى "فريدا كاهلو" كان شعرها بلون العسل الأبيض وعيناها خضراوين أما فى اللوحة فقد رأت نفسها سوداء الشعر بينة العينين لرسومها أوصاف غير حقيقية من المؤكد أنها ليست تزيينية الشخوص والألوان من ذكريات طفولتها فى الأناضول ، ولكن المؤكد أن المحيط والإطار من "برلين" أطفال أتراك وجوههم ملأى باللهفة ، يختلسون النظر ، من وراء نوافذهم ، إلى الأطفال الألمان الذين يلعبون فى الشارع .

سيارتان على الطريق إحداهما ملأى بوجوه تركية قلقة والأخرى يقودها برجوازي ألماني سمين ذو أنف متورم ووجه رابط الجأش .. راض عن نفسه! الراقصون يمرون أمامهم .. ثم كانت "قبلات مختلصة" والتى شاهدها "هيلجا" ذات يوم مطير ، ثم عادت إلى المنزل وخرجت من حياته ، كان لابد أن تكره "هيلجا" تلك المناسبة وضع على وجهه ملامح الاستياء وهو يلمح إليها بالشكل البائس الذى كانت عليه المناسبة هزت "ليلى" رأسها متعاطفة معه ، ربما كانت هى الأخرى ضجرة من كل شئ الضحك الصاخب المرائى ، الأصوات العالية التى تحى نجاح "إيفيلين" الرقة المصطنعة ، المجاملات الزائفة المبتذلة .. لكم تغيرت "إيفيلين" الطالبة الجريئة ذات العينين اللامعتين ، والتى سكنت قلبه زمناً ما ، أصبحت وحشاً كاسراً ، متمركزاً حول ذاته ، أم تراها كانت هكذا دائماً ؟ لعلها كانت تحاول فقط أن تحدث صدمة ، على أية حال .. لم تتغير كثيراً .

وكان التعامل مع "إيفيلين" لم يكن سيئاً بما يكفي ، وجد "فلادي" نفسه يتلقى تحية من رجل حليق بدين كان شكله مألوفاً له إلى حد ما ... رغم ملبسه السخيف ، كان في حالة سكر ، أنفه الحسى المنتفخ ذكرته به ... ! "ألبرت" ذو الوجه الأعجف واللحية السوداء بلون الفحم ، واللذان كان يسيطران على أكثر من اجتماع سرى في الأيام الخوالي ، هذا هو "ألبرت" ذاته ، الذي كان قد كتب نقداً فلسفياً عويصاً لجمهورية ألمانيا الديمقراطية وكل منظومة العلاقات الاجتماعية في أوروبا الشرقية ، تم تهريب المخطوطة إلى "برلين" الشرقية ونشرت في "فرانكفورت" وأمضى "ألبرت" شهراً في السجن .

قلة في الغرب هم الذين فهموه أو فهموا تلك المقولات الماركسية التي كان ينشرها بقليل من المهارة ، ضد من كانوا يدعون أنهم يحكمون باسم "ماركس" ، ولكنه كان قد وقع في مستنقع أموال الغنائم ! كما كان كتابه "أسئلة بلا جواب" صلاة المائدة على كل طاولة في مقاهي أوروبا الغربية في فترة ما لم يسمح له كبار الحمقى الذين كانوا يديرون البلد ، بالعودة من "فرانكفورت" حيث كان محاضراً زائراً - مجاملة - لمؤسسة "إيبرت" كان "ألبرت" قد أصبح مشهوراً .

وها هو الآن قد عاد إلى "برلين" في هيئة جديدة ! أصبح من كبار قادة الفكر في "حزب الخضر" ، مؤمناً بالمهمة الحضارية لقنابل "الناتو" في الخليج والقرن الأفريقي ، ثم أخيراً في البلقان !

"مرحباً فلادي ! ظللنا زمناً طويلاً نغير العالم ، والآن جاء الوقت مرة أخرى لكي نفسره ! موافق أم لا ؟ ابتسم "فلادي" دون أن يظهر على وجهه أي تعبير وهو يوميء إليه بنصف إيماءة ، وكان على وشك أن يستدير لولا أن أغضبته ابتسامه "ألبرت" المستعلية .

"تطلق كثيراً من الهراء يا" ألبرت "طنطنة كثيرة . ، أعتقد أن ذلك يخرج منك فى أى مكان ، سمعنا كلنا أن كبذك قد أصابه التلف تماماً ولكنى لم أكن أتصور أبداً أن عقلك يمكن أن يضممر هكذا "

اندفع "ألبرت " نحو مصدر الإهانة ولكن "فلادى" ابتعد عن طريقه ، بينما راح الخدم يساعدون صديقه القديم الذى كان يترنح الآن ، لم يشعر "فلادى" بشئ لا أسف ولا شفقة ، منذ ثلاثة أيام تم إحراق أسرة تركية حتى الموت فى مدينة صغيرة فى ألمانيا ، بينما كانت الشرطة والناس يقفون ويشاهدون المنظر ، والآن هاهو شخص أحرق ، يرتدى ملابس قائد رومانى يقول له إن كل شئ على ما يرام !

كان "فلادى" يحاول أن يلتقط عين "ليلى" ثانية عندما أسكتت صرخات "إيفيلين" جميع الموجودين كانت النظرة الشرراء واضحة جداً على وجه "إيفيلين" وسط تلك الإضاءة المسرحية الصاخبة والمكياج الوحشى الذى جعلها تبدو قبيحة فظة ، كانت ترتدى تنورة جلدية سوداء وصديرية ... للتدين فقط !

"لماذا تحرق فى " ليلى" هكذا ؟ ليلى ملكى ! ابتعد عنها جميع من هنا هذه الليلة أصدقائى أنا معجبون بى كلهم يعرف أننى أكثر موهبة من جميع المخرجين الذين يروقون لك ، ردوا على كلكم .. هل تحبوننى ؟ ابتسمت وجوه السكارى ولوحوا لها ولكن أحداً لم يتكلم ابتسم "فلادى" ولكن عيناه ظلتا جامدتين صارمتين ندم لأنه قبل دعوتها ، هكذا كانت "إيفيلين" دائماً ، غير متوازنة ، متلاعب ، متوحشة الطموح ، لكنها حادة الذكاء متقبلة للأفكار الجديدة وشديدة الحساسية للجمود ، طاقتها المكبوتة طويلاً فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية انفجرت الآن على الشاشة ، ولكنه للأسف كان فيلماً رديئاً .

والحقيقة أنه لم يكن رديئاً تماماً " فلادى " الذى لم يستطع أن يخرج عن حزنه ، أساء عليهم مغزاه ، وفشل فى تذوق السخرية الادة من الذات ، الكامنة وراء الفيلم .. كان مشغولاً يتخبط فى رثاء الذات لأنه لم يلحظ السخرية الشديدة نظر إلى "إيفيلين" وتنهد ، كانت تريد أن تصمه بهذه الأمسية العبثية ، كان لحنا قديماً .. محاكاة ساخرة لتدهور "ويمر" لوكانت حالته مختلفة لاستمتع بالأمسية ولكنه كان مرهقاً ، ويريد أن يعود إلى المنزل تبادل نظرة حزينة مع "ليلى" كان يفكر بأسى وهو يضع قبعته الروسية القديمة على رأسه ويحكم المعطف حول جسمه .

وعندما استتنشق نسيم الصباح الباكر تنهد بارتياح ، استطاع أن يهرب كان مخطئاً ولكن صوتاً مزعجاً جرح فجر "برلين" "فلادى" .

استدار فرأى "إيفيلين" واقفة فى المدخل ، كانت قد خلعت الصدرية .. ونهداها يغطيها الضباب ، صرخت فيه : "فلادى" أيها العجوز الخرف " ، تردد صدى صوتها وجمع عدداً من المستمعين إلى جوارها ، وعندما كان جمهور مستمعينها فى أماكنهم خاطبت حبيبها القديم :

لماذا هذا الوقار دائماً ؟ ولماذا تنصرف الآن ؟ ماذا؟ ألا تود أن تمارس الجنس هذه الليلة ؟ بالإمكان ترتيب ذلك ! إلا إذا كنت تود أن تكون مع "ليلى" .. وليس معى ! وهكذا يمكن أن "

"لا شكر يا "إيفيلين" لا أنت ولا "ليلى" هذه الليلة !

وشكراً على العرض !

كان لابد أن يعترف لنفسه أنها كانت تبدو جميلة ورائعة وأنها كليوباتره حديثه ، تعشق شهوة الرجال ولكنها تكرههم "كليوباتره" دانتي" وليست كليوباتره شيكسبير كان على وشك أن يقول لها ذلك ولكن الوقت كان متأخراً لمناقشة دوائر الجحيم! كما أن "فلادى" لم يكن فى

حالة تسمح له بأن يستمع إلى وصف "دانتى"

وبدلاً من ذلك راح يودعها بأسلوب ودى .

"أرجوك .. إرجعى حتى لا تصيبك نزلة برد .. أتمنى للفيلم كل نجاح" .

وبينما هو خارج من الردهة الواسعة كان صدى صوتها يتردد غبى .. تافه .. شيوخى ... ضئيل الحجم ! حتى مع استخدام الواقى الذكرى ! ولذلك أصبحت آمنا ... فى ستين "داهية...!!"

ضحك فلادى " كانت تلك عبارة قديمة ترددها دائماً كلما كان يرفض أن ينام معها قبل أن تبدأ علاقتهما .

بدأ يسير بنشاط ، ياله من مساء مرعب ! ليس لأن النطاط والقفشات كانت مرعبة فقط ، وكان ذلك شيئاً سيئاً ، لقد كان المزاج المقتعل كله جزءاً من قناع ، يرتديه كل أصدقاء "إيفيلين" الجدد كلهم كان يحاول أن يخفى تعاسته خلفه ، كلهم يعيشون حياة فارغة .. مجردة من العقيدة .. من الأمل .. من الولاء لم يستطع أى منهم أن يدرك ذلك ، ناهيك عن الاعتراف به ، ولذلك السبب بالتحديد كانوا كلهم يعيشون كل يوم حسب مقتضى الحال .

بدأ تركيزه الذهنى يعود إليه بالتدريج التشتت الذى استولى عليه عندما تسالت ليلى إلى أفكاره أثناء العشاء كان قد بدأ الانحسار، دماغه الآن صافية بدأ يستمتع بـ "برلين" برلينه الخاصة كانت تلك هى المرة الوحيدة التى يحس فيها بالمدينة القديمة فعلاً مدينة خالية شوارعها من السيارات، كان صديق له قد كتب دراسة مؤخراً يطالب فيها بأن يكون استخدام السيارات مقصوراً على مناطق بعينها، وأن يعاد إصلاح خطوط الترام القديمة فى "برلين" وبينما هو عائد إلى المنزل، كان "فلادى" .

يمرح فى وحدته الثانية صباحاً تقريباً ، رياح باردة تهب والأرض مغطاة بالجليد تقريباً يوجد بعض الثلج على الأرصفة ولذلك كان يسير ببطء ابتسم "فلادى" لنفسه " اليوم هو فى السادسة والخمسين ما كان يلوح له من بعيد كقمة جبل من الثلج وصل إليه ولكنه نجا من المواجهة كان ما يزال حياً ورغم كل شئ ، لم يلق بنفسه أمام قطار كان ما يزال موجوداً ... وذلك سبب كاف للفرح .

بزع فجر رمادى عندما وصل إلى "تايرجارتن" بالضبط لابد أنها كانت ليلة كتلك ، عندما قتلوا "روزا لكسمبرج" فى يناير المشئوم عام ١٩١٩ ، توقف ، هز رأسه بأس عندما رأى النصب التذكارى لـ "روزا لكسمبرج" مشرفاً على القناة ثم واصل السير إلى الجسر حتى نصب "كارل ليبكنثت" لم يغفر "اليونكر" أبداً لـ "ليبكنثت" إعلانه على الملأ فى سنة ١٩١٤ أن الوطنى ليس أكثر أو أقل من مأجور دولى ، لا شئ من ذلك كله يعنى شيئاً بالنسبة لجيل ابنه ، ابنه "كارل" الذى صرخ فيه بشكل لا يليق عندما ذكر اسم "روزا" آخره مرة "وما شأنى أنا بالهتك الموتى ، الآن لابد أن يكون قد تأكد لك أن كل شئ قد انتهى إلى الأبد .

كان حلماً مزعجاً .. كابوساً .. حاول أن تنسى أرجوك " الحاضر هو كل ما يهمهم الحاضر اللعين تذكر "فلادى" سطرأ من "هينة" كان قد كتبه فى منتصف القرن الثامن عشر كتب كل ما يريده العالم ويبحث عنه ، أصبح الآن غريباً عن قلبى " المشكلة أن "كارل" الصغير كان فى وسط كل ذلك أصبح غريباً عن قلب والده! عندما وضع المفتاح فى ثقب الباب كان "فلادى" .

ولأول مرة - لا يفكر فى الماضى وإنما فى المستقبل هل سيكون لـ "كارل" أبناء ؟ هل سيكون فلادى "ما زال على قيد الحياة ؟ هل ينتهى الأمر بـ "كارل" وزيراً فى حكومة الحزب الديمقراطى الاجتماعى؟ ارتعد

عند هذه الفكرة بالتحديد ، ولكن ذلك جعله أكثر إصراراً على بذل جهد أكبر ، وبناء جسر يمكن أن يلتقيا عليه ... ولو حتى في منتصفه على خلاف كثير من أصدقائه كان "كارل" يستمتع بقراءة الكتب و"فلادى" يمكن أن يكتب قصة حياته .. اعترافاً جزئياً .. شرحاً جزئياً من أجل "كارل" .. نعم .. كان ذلك هو الحل لا بد أن يجلس ويكتب كل ما يعرف .

وهل كان "فلادى" يعرف كل شئ ؟ كانت هناك بالتأكيد ثغرات مهمة فى التسلسل الزمنى الذى وصله من أمه "جيرترود" وكانت معلوماته عن والده قليلة فيما عدا قصص البطولة وأنه قتل بأوامر "ستالين" قبل أن يولد "فلادى" بشهور قليلة .. فى ديسمبر ١٩٣٧ .

كان دائماً يفكر فى أبيه .. لكنه بخصوص الأجزاء التى لم تذكرها له أمه فى حكايتها كانت تنتمى إلى جيل لا يجد أى صعوبة فى إخضاع الحقيقة لاحتياجات "موسكو" أو حتى لاحتياجاتها الخاصة من أجل حماية هويتها الجديدة فى ألمانيا الجديدة بعد الحرب . لم يصدق أبداً حكاياتها الوردية عن الحياة فى العشرينيات والثلاثينيات الحقيقة .. أو على الأقل جزء صغير منها يوجد فى أرشيف الـ "ك.ج.ب" "كان يريد الوصول إليه، وبين دائرة معارفه كان هناك شخص واحد يمكن أن يساعده .

تذكر "فلادى" صديقه القديم "ساو" الذى كان ذات يوم مقاتلاً فيتنامياً والآن رجل أعمال .. الرجل الذى يرتدى الثياب الفرنسية الآن بكل اعتزاز .. كما كان يرتدى "أوفرول" الفيتكونج الأسود "ساو" له علاقات واتصالات فى روسيا الجديدة حيث كل شئ للبيع الآن! كنوز الأرميتاج الفنية والمقتنيات الخاصة .. وعملاء الـ "ك.ج.ب" ينادون على بضاعتهم - ذكرياتهم علناً فى معرض الكتاب فى فرانكفورت ، كما كان الجنرالات يبيعون المعدات العسكرية قبل انسحابهم من "برلين" حتى

اليورانيوم والصواريخ يمكن شراؤها إن كان لديك الاتصالات والمعارف المناسبة نعم ! ليس هناك وسيلة أخرى ، كان "ساو" هو رجله ، وسيصل إلى "برلين" غذا ليصحب "قلادى" لتناول العشاء معاً .

شاعراً بالإرهاق الشديد ، خلع ثيابه وغرق فى السرير كنا فى الفجر ، وجاء النوم سريعاً لينقذه .. كان يمكن أن يواصل نومه طيلة اليوم التالى ، ولكن جرس التليفون الملح أيقظه عند الظهيرة مثقل العينين ، شاعراً بالبرد الشديد ، الذى يخترق عظامه أدخل رأسه تحت البطانية وهو يلعن نظام التدفئة الذى تعطل منذ أيام قليلة ، الهاتف يدق فكر أنه قد يكون "ساو" فأطلقت الفكرة تياراً كهربياً فى رأسه ، قفز من السرير، أحكم البطانية حوله ورفع سماعة الهاتف :-

"نعم"

"عيد ميلاد سعيد ، جميل أنك هنا ، كنت قلقاً عليك" .

كان "كارل" يتكلم من بون . هزه ذلك من الأعماق ولكن صوته ظل متحفظاً .

"مرحباً يا كارل " شكراً جزيلاً .. أنا بخير .. وأنت ؟ نعم .. نعم ... ما أخبار الشقة ؟ "

"أنا مازلت هنا، ألا تلاحظ ؟ "

"لكن " .

"أعتقد أنهم لابد أن ينتظروا بضع سنوات أخرى قبل أن يستعيدوها ... الحثالة ! لقد عرضوا على مبلغاً بالفعل ! " " كم ؟ "

"خمسين ألف مارك"

"مبلغ لا يمكنك من شراء شقة أخرى في مكان آخر .

" على الأقل نحن متفقان "

" : سأحضر إلى "برلين " في الشهر القادم يا "فلادى " هل يمكن أن أقيم في غرفتي القديمة ؟ "

"تقصد أنك سوف تقيم هنا ، وليس مع رئيسك فى .. "

"فلادى ! أرجوك " .

" طبعاً ... طبعاً ... يا "كارل" ، سيظل ذلك منزلك إلى أن يطردنى المالك . وبالمناسبة ، سوف أتعشى اليوم مع العم "ساو" ... هل تذكره ؟!!! "

كانت ليلة باردة من ليالى فبراير ١٩٨٢ ، وكانت "درسدن" غارقة فى المطر عندما ذهب "قلادى" وزوجته "هيلجا" لزيارة أمها المريضة.

بعد أسبوع قاما فيه برعاية الأم ، التى كانت تعاني من سكتة دماغية حادة ، ومساعدة الأب الذى يبلغ الثمانين من عمره ، أصر "قلادى" على قبول دعوة للعشاء ، تجمع أكثر من اثنى عشر منشقاً فى الشقة الصغيرة ، يتبادلون الأحاديث عن تجاربهم ، وعن الموقف السياسى ، واستهلكوا كمية كبيرة من البيرة .

وفى طريق العودة ، لمح قلادى رجلاً فيتنامياً أنيقاً ، يتأبط ذراع امرأة ألمانية ... شابة جميلة ، ولم تكن "هيلجا" تعرف أن كان طالباً أو عاملاً بأحد المصانع المحلية وفجأة .. ظهر من المجهول ثلاثة أو أربعة أشخاص ، وأحاطوا بالفيتنامى والألمانية ، طرحوا "ساو" أرضاً وبينما كان أحد المعتدين يمسك بالسيدة ، نزلت على "ساو" ثلاثة أزواج من الأحذية! جثم رجلان على صدره ، بينما نزع الثالث بنطلون "ساو" عنه وهو يلوح بسكين !

فى البداية، لم يرفع ساو "ولا صديقه ولا أحد من المهاجمين الثلاثة صوته، أما "قلادى" وهيلجا "فقد تجمدا فى مكانهما وكأنما قد أصابهما الشلل أمام ذلك المشهد الصامت الذى كان يبدو من على البعد وكأنه عرض خرافى من عروض خيال الظل ، بعدها، صرخت السيدة طالبة النجدة ، واندفع "قلادى" وهيلجا فى الشارع يصرخان ويطلبان الشرطة

المهاجمون لانوا بالفرار ساعد "قلادى" فى رفع "ساو" من الأرض بينما كان أنفه ينزف فكت "هيلجا" وشاحها واستخدمته لإيقاف النزيف وكانت السيدة الألمانية تنتحب .

"هل أنت بخير ؟ .

"خصيتاى ما تزالان هناك؟ ، قال "ساو" وهو يحاول أن يبتسم بضعف "أما بالنسبة للباقي فهو كما ترى .. شكراً لك" .

سألته هيلجا "من أولئك الناس؟"

تكلت صديقة "ساو" لأول مرة : "شبان شيوعيون" ثم همست "ظل أحدهم يطاردنى لعدة شهور ، وعندما أكتشف أننى التقى "ساو" هدد بقتله"

رد "قلادى" بقدر من الغرور "أتمنى أن تقول ذلك للشرطة .. هل تعرف اسمه؟"

ضحك "ساو" الشاب الذى حاول إخصائى ؟ طبعاً أعرفه ولكن هل تعلم أن والده هو رئيس الحزب فى هذه المدينة ؟ إن تقدمت بشكوى فسوف أكون أنا الضحية ... سيقومون بترحيلى !"

"كيف يمكن أن تكون هادئاً هكذا ؟

"لست هادئاً بالمرة" قال وهو يحاول أن يسيطر على غضبه .. أنا غاضب جداً .. وأشعر بالمرارة .. وأفكر فى الانتقام ، ولكننى بلا حول ولا قوة فى جمهوريتكم الديمقراطية جداً .. لو فقدت السيطرة على نفسى فلسوف اختفى من على وجه الأرض فى خلال أسابيع قليلة "قلادى" الحائر" ألمح إلى أنه لا يستطيع أن يتبع المنطق الفيتنامى كان "ساو" يبتسم من خلال النزيف أنا جندى مدرب مقاتل ... تعلمت أن

أقتل عدوى فى هدوء كان بإمكانى أن أكسر رقابهم لو لم تصلا إلى هنا وبعد ذلك كان الـ "ستاسى" سيقوم بتدبير حادث فى مصنعى ، أمر ثقيل سيجل ، بى حادث صغير يروح صحيته عامل "أجنبى" آخر وهكذا ترى يا صديقى أنك قد أنقذت رجولتى وحياتى أيضاً والآن من فضلك ، نريد أن نعود إلى البيت هى إلى شقة أمها وأنا إلى المنزل الذى أقيم به "هيلجا" أصرت على تأخذ "ساو" معها إلى منزلها ، وهناك عالجت جراحة التى كان معظمها بسيطاً ، وتغلبت على ترده أن يتطفل عليهم مرة أخرى ، أخذ حماماً ، وبعد وجبة أعدت على عجل أوصله "فلادى" بسيارته إلى المنزل الفيتنامى وهو بناء يشبه السجن على أطراف المدينة اتفقا على اللقاء فى اليوم التالى ، هكذا ولدت الصداقة بينهما .

بعد عام من حادث "درسدن" اختفى "ساو" لا أحد يعرف أين ذهب ! وذات يوم وصل خطاب من "موسكو" كان "ساو" يريد أن يبلغ فلادى و"هيلجا" أنه قد استقر هناك وأنه كان سعيداً كان لديه أقارب وأصدقاء ورفاق منذ الحرب الفيتنامية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، كان على صلة مستمرة بهم جميعاً ، وكان كثير الأسفار ، ويتمنى أن يكون "فلادى" و"هيلجا" و"كارل" الصغير بخير وسوف يراهم قريباً . كان ذلك هو ما جاء فى خطابه .

وعلى امتداد السنوات التالية لذلك ، كانا يتلقيان منه البطاقات البريدية العارضة ، وأحياناً ، كان يحضر زائر ما من "موسكو" يحمل هدية من "ساو" وكانت دائماً علبة "كافيار" كبيرة - لا تحمل أية علامة تجارية - مع رسالة قصيرة من صديقهما تخبرهما بأن ذلك من الكافيار

* جهاز الاستخبارات فى ألمانيا الديمقراطية - "stasi"

الخاص بالمكتب السياسى وبعد تذوقه .. يدرك "قلادى" و "هيلجا" أنه لم يمكن يمزح وكثيراً ما كان يتكلمان عنه ويتساءلان ماذا يمكن أن يكون نشاطه وماذا يفعل فى "موسكو" "قلادى" يتذكر الآن منافشاته الكثيرة مع "ساو" وبعد فترة ، بدأ يتجاهل خيالات صديقه التى لا تنتهى ، والتى كانت تدور كلها حول المال ، كان الرجلان مختلفين تماماً ، وتناقضهما كان يعكس أحوالهما وأصولهما .

"قلادى مايور" كان قد وضع المثالية ، الألمانية ورغم إيمانه لجوانب كثيرة من الفكر الماركسى ، إلا أنه كان رومانسياً معذباً فى الأعماق منه هو مثال حى ، إن لم يكن محاكاة ساخرة لوجود كلمات ألمانية مثل "فلتشميرتس"^(١) ، وأنجست^(٢) "وتسايت جست"^(٢) فى الإنجليزية التى هى لغة عالمية .

كان فى شبابه شيوعياً ، وكاد أن يموت فى الحرب ، وعندما يرى ما يحدث الآن يضيق صدره بالتجريدات! ينحدر من أسرة فلاحية متوسطة، حارب والده فى الجيش الفرنسى ولفترة طويلة كانت لديه زكريات مطموسة عن أصوله ، ولكنه فى ظروف الحرمان والبؤس التى خلفتها الحرب ، كان يتذكر أمه وأخواله ، وكيف أن أفعالاً مثل: يشتري ، يبنى ، يستبدل ، يبيع ، مهمة فى حياتهم اليومية ، ومع تزايد شعوره بالغربة والابتعاد عن الدولة التى حارب من أجلها ، كان ساو "يرحل فى الزمن ، أماما وخلفا بشكل دائم ، والآن تروق له مزايا الاقتصاد الزراعى القديم، والعلاقات الأسرية فى الريف قبل تحضر المجتمعات ، وتلك أشياء

١ - الألم الكونى Wettschmerz

٢ - قلق Angst

٢ - روح العصر . Zeitgeist

لا يمكن إعادتها ولكن الذكريات مهمة ، لكى تساعد على إعادة تشكيل مكانته الاجتماعية الخاصة ، لم يكن يريد أن يقضى على الصدمات التى جاء بها النظام العالمى الجديد وبينما كان "فلادى" مقتنعاً بأن الحقائق الجديدة ، أمور دخيلة ومقحمة بشكل مؤسف ، كان "ساو" كله إصرار على الإفادة منها وكان ذلك الجانب فى شخصية صديق الأسرة ، هو الذى يروق لـ "كارل" أكثر من غيره .

كان "فلادى" معادلاً مفيداً ، تبادلهما المنتظم للأفكار ووجهات النظر ، وضع أساساً لصداقة أصبحت مثمرة لكليهما مرت عشر سنوات ، وفى أحد أيام عام ١٩٩٢ ظهر "ساو" فجأة ليدق باب شقة "فلادى" فى البداية لم تعرفه "هيلجا" ثم صرخت فرحة وهى تنادى "فلادى" و"كارل" كانت مفاجأة لثلاثتهم ، العامل الأجير - سابقاً - ها هو الآن فى بدلة أنيقة كاملة ، على رأسه قبعة سوداء من الحرير .. غير مستقرة .. ومحملاً بالهدايا .

كان يشبه صورة من الخمسينيات للامبراطور القيتنامى المطرود "باو داي" فى منفاه الباريسى .

كان اللقاء بعد زمن ممتعاً ومرحاً ، صمم على أن يأخذهم جميعاً إلى جزيرة قريبة من ساحل البلطيق ، منتجع على البحر كان مقصوراً ذات يوم على كبار رجال الحزب .

"ساو" الذى سبق له أن أمضى أوقاتاً طويلة فى الكازينو فى "باريس" كان يتوقع أن تكون هناك بعض وسائل الترفيه ، ولكنه لم يجد خيبة الأمل التى ظهرت عليه أدهشت ، "هيلجا" ولكنه كان أسبوعاً للاسترخاء على أية حال لم يدرك "فلادى" و"هيلجا" كيف أرهقهما النشاط السياسى المكثف والمتواصل على مدى الشهور الستة الأخيرة

اجتماعات ، مسيرات فى الشوارع ، مناقشات طوال الليل ... كل ذلك سرق حياتهما . كان "كارل" الصغير مهملأً بالفعل ، وهاهم الآن بفضل "ساو" معاً مرة أخرى مواطنوا المانيا الديمقراطية البوساء كانوا مثل الأيتام .. مصابين بالأضطراب العصبى تقريباً ، ولكن قلة منهم هى التى كانت تدرك ذلك فى الأسابيع العنيفة التى سبقت إعادة التوحيد ، وكان "قلادى" واحداً من تلك القلة كان يجد لشكوكه متنفساً فى التليفزيون والصحافة فى تلك الأيام ، كان اللصوص الصغار الذين يحاكون اللصوص الكبار ، قد اعتابوا على الرد بأسلوب ودى ، ولكنه متفضل أنت وأصدقائك يا بروفيسور "مايور" تنتمون إلى العالم القديم ، نعرف أنكم ستظلون اشتراكيين بالقلب ولا نعتبر ذلك ممسكاً ضدكم ، نحن مستعدون لأن نغفر وننسى وأنت مازال بإمكانك أن تقدم خدمات للديمقراطية تعال معنا ! ولنبن ألمانيا الجديدة معاً ! كان "ساو" يعلن أن أفكار "قلادى" فى مكان آخر وكان "قلادى" يبدى اهتماماً مهذباً بقصة تحول صديقه من عامل أجير إلى صاحب أملاك "قلادى" وهيلجا "بدأ يشعران بالذنب بعد أيام قليلة تحت أشعة الشمس ، وفى الليل ، كان "ساو" يسمعها يتهامسان . هو لا يسمع جيداً ما يقولان ، ولكن بعض الكلمات والعبارات توحى بأنهما مهمومان بمستقبل هذا البلد .

أما "كارل" الصغير فكان يتابع كل تفاصيل القصة . كيف استغل "ساو" خطوات التاريخ المتسارعة لكى يغير مجرى حياته ، وكان الجزء الأكثر إثارة فى نظره ، هو كيف صنع رجل الأعمال الثيتنامى المغامر المليون الأول ، كان متباعداً عن والديه ونشاطهما الأخير .

المظاهرات الكبرى فى "برلين" و "درسدن" لم تحرك الشباب وبطبيعته ، كان إنساناً يفضل قاعة اللجنة عن الشارع ، كان التعبير عن العواطف علناً يشعره بالحرج ، مشاعر الجماهير تخيفه وكان قلادى " وهيلجا " لا يملكان سوى نظرات اليأس والاستسلام يتبادلانها ، وهما يرقبان نمو ذلك الشبل الصغير .

ملحمة "ساو" أدهشت "كارل" وكأن "ساو" قد سحره كان ينصت باهتمام ، تلمع عيناه ، ويقاطع الراوى من أجل التفاصيل . كان اهتمام "كارل" هو الذى أزعج والديه وأجبرهما أيضاً على الاهتمام الشديد بالحكايات التى يرويها صديقهما القيتنامى ، وكان ذلك على غير رغبة منهما ، فقد كان كل ما يودان التفكير فيه هو الوضع غير المستقر للمكتب السياسى فى "برلين" .

"ساو" فر إلى موسكو ، وكان يقول - إنها - مقارنة بـ "درسدن" و"برلين" جنة كوزموبوليتانية أقام من فوره علاقات بمجتمع القيتناميين هناك ، ووجد سريراً فى شقة مكونة من غرفتين تشارك فيها مع خمسة آخرين كان اثنان منهما كثير كفيف الاسفار ، ومن بين الآخرين كان هناك شخص قدم من قرية قريبة ، سأل "ساو" عن عمه فى "كييف" والذى لم يكن قد رآه منذ سنوات طويلة لم يكن لديهم معرفة به ، عندما سألهما "ساو" إن كان بالإمكان أن يحمل رسالة منه ، فى رحلتهم التالية فى "أوكرانيا" ضحكا وأخذا "ساو" معهما بدلاً من ذلك ، لم تمثل وثائق السفر ولا النقود أية مشكلة. اتضح بسرعة أن المسافرين كانا رجال أعمال مزيفين متورطين فى جمع الثروة بطريقة بدائية. كانا

يديران سوقاً سوداء للجماعات القيتنامية في أنحاء الاتحاد السوفيتي
أخذة في الاتساع ، وكانت شبكة التوزيع الخاصة بهما ذات كفاءة
ويمكن الاعتماد عليها . كان "ساو" مذهولاً من حجم العملية وأن تكون
العملة الوحيدة التي يستخدمونها هي الدولار أو المارك الألماني وهو في
القطار إلى "كييف" كان يفكر في بلده الأصلي بعد سقوط سايجون في
١٩٧٥ وجد القادة في "هانوي" أنفسهم على رأس بلد خراب ، كانت
الحرب الكيماوية قد دمرت البيئة تدميراً هائلاً والمدن التي قصفتها
القنابل في حاجة إلى إعادة بناء والأيتام في حاجة إلى ملاجئ والجنود
المسرحون يبحثون عن عمل ، والعمالة الزائدة لابد أن تباع للاتحاد
السوفيتي وأوروبا الشرقية في مقابل معدات وسلع ضرورية .

الولايات المتحدة وعدت بالإصلاح ، ولكنها نكثت بكل الوعود
وفرضت حظراً اقتصادياً بدلاً من ذلك كان "ساو" يعرف أن بلاده
تعاقب ، تجرأوا على المقاومة والانتصار ، والآن عليهم أن يدفعوا ثمن
انتصارهم العظيم على أقوى دولة في العالم .

كانت سنوات الحرب ملأى بالتوتر والغضب والخوف .. أثارت فيهم
أيضاً فكرة الانتصار ذات يوم ، وإعادة توحيد فيتنام كل ذلك مضى ، لم
يحقق السلام سوى الفتات لعامة الناس "ساو" بشعر بالمرارة "حارب
بعنف كان يعرف أن الجنة مجرد حلم ولكن المؤكد أنه كان يتصور أن
يحمل المستقبل القريب بعض السلوى .

الأمل ، النضال ، الأمل ، الخيانة ، الأمل ، الثأر ، الأمل ، الانهيار ،
لا أمل! ، قال ذلك كله في اجتماع حزبي في "هانوي" رؤوس كثيرة ...
كثيرة جداً أومأت في صمت موافقة .

بعد ثلاثة أسابيع أرسلوه إلى جبهة جديدة .. جمهورية ألمانيا الديمقراطية ... بلد تحت مسمى خطأ يحكمه بيروقراطيون مضللون ، يا لها من حياة.

"ساو" يشعر أنه وصل إلى مفترق طرق ، كان يسير على أرض متحركة حياته قد تتخذ عدة مسالك ، نظر إلى أبناء وطنه ، كلهم مشغول بما يمكن أن يبيع ويشترى في "كييف" وقرر أن ينضم إليهم . كان يشعر أن الشبكة لابد أن تمتد إلى كل مدينة رئيسية في الاتحاد السوفيتي ، وأن عليهم أن يطوروا علاقاتهم بالعمال القيتناميين في أوروبا الشرقية .

كان "ساو" يضحك وهو يقول "لابد أن يتم تداول السلع ومن أفضل منا ليقوم بذلك ؟ لقد حكّمنا الصينيون عدة قرون ثم جاء الفرنسيون ثم الروس ، والآن فكرنا ... دعنا نعمل من أجل نظام اقتصادي .

"ساو" وأصدقائه جربوا واختبروا شبكة من الوسطاء منتشرة في أرجاء الدولة ، تجمعت الأموال وأصبحت جبلاً مع بداية الانهيار أصبحوا يصرون على أن يقبضوا بالدولار أو المارك الألماني ، وكانوا يسربون جزءاً من الأموال إلى "قيتنام" كثير من الدراجات البخارية وأجهزة الفيديو والتلفزيون في "هانوي" كانت نتيجة لذلك النشاط مرت "هانوي" فعلاً بانتعاشة صغيرة عندما بدأت تلحق بمدينة "هوش منه" التي كانت ما تزال "سايجون"

ويواصل ساو حكايته ... في الأيام الأولى كنا نتقاسم الأرباح مع رجال الحزب صغارهم وكبارهم بدءاً من المسؤولين في الخلايا الصغيرة وانتهاء بأعضاء اللجنة المركزية ، بعد ذلك قرروا أن يغيروا الأسلوب أصابنا الذعر .. هل تكون تلك نهايتنا ؟ كنا أسماكاً صغيرة في بحيرة متوسطة ، والآن سنصبح مثل الأسماك الأوروبية الصغيرة في بحر

القرش سوف يستولى على كل شئ كم كنا مخطئين يا أصدقائي ، كم كنا مخطئين !

توقف هنا وضحك وكان فى ضحكته ماهو أكثر من الهيستريا ! وما المضحك فى ذلك يا عم "ساو" ؟ سأل "كارل" بصوت مرتبك .

"المضحك هو أننا الوحيدون الذين يمكنهم استغلال هذا الانهيار ، لا أحد كان يمكن أن يتخيل أن الاتحاد السوفيتى سوف يتفسخ بهذه السرعة .. ولكنه حدث .

حدث ! كان "يلتسن" فى عجلة من أمره لكى يفرق "جورياتشوف" ولو كان عليه أن يفرق الاتحاد السوفيتى القديم أولاً لفعل وقد فعل ! المافيا الروسية أخذت على حين غرة على أية حال لم تكن علاقاتها ولا اتصالاتها واسعة ، ولا ذات كفاءة مثلنا ، كانوا يعتمدون كثيراً على ارتباطاتهم بمسئولى الحزب أصيب النظام القديم بالشلل ، انهار التوزيع هرعنا نحو القيتناميين للإنقاذ ولكن كل شئ بثمن مثلما جاءوا لانقاذنا أثناء الحرب كل شئ له ثمن نظمنا تسلسلاً قيادياً ، كنا ننقل السلع طورنا نظام النقل الخاص بنا ، من هذه الثغرة تسللنا يا عزيزى "كارل" الآن عمك "ساو" لديه شقة فى "باريس" وزوجة فرنسية "وأستطيع أن أسافر إلى أى مكان ولكن "قلادى" وهيلجا" هما أفضل أصدقائي أصدقاء حقيقيون ليسا لهما مثل فى أى مكان آخر تذكر ذلك دائماً يا كارل " اتفقنا ؟

ثم اختفى مرة أخرى .

منذ أسبوع تقريباً اتصل بـ "قلادى" تليفونياً لكى يخبره بأنه سوف يحضر قريباً إلى "برلين" فى مهمة ضرورية .

اتفقا على موعد للعشاء كان "قلادى" فى الطريق إليه نجوين فان ساو " القيتنامى ابن الفلاحين .. كان مغموراً فى حوض إستحمام ملئ

بالرغبة فى جناح مترف بالطابق الثالث من فندق "كمبينسكى" ولكن حالته النفسية كانت سيئة .

كان يوماً منحوساً . الرحلة من "لندن" تأخرت موظفو الجوازات فى "برلين" فحسوا جواز سفره باهتمام شديد . أما خيبة الأمل الكبرى فكانت فشله فى أول النهار فى الحصول على عازل طبى من القرن السابع عشر ، مصنوع من الحرير ، ومطرز كان لويس الرابع عشر قد استخدمه ، وإن كان الكتالوج المصاحب لم يوضح درجة نجاح استخدامه .. هل نجح فى منع مرض الزهري الذى كان يمكن أن يصرع الملك الشمس ؟

كان "ساو" يريد أن يحصل على ذلك الشئ ليقدمه هدية لوالده فى عيد ميلاده السبعين ، ولكنه خسر فى المزاد العلنى الذى أقيم فى قاعة "سوزبى" ، وفاز به رجل شيشانى ، كان يرتدى سترة من الفراء ، ربما كان يعمل لحساب تاجر أكبر فى "موسكو" أو "برلين" . كان "ساو" مشغول البال وهو خارج فى الحمام ويلف نفسه فى "روب" وثير . . . على الأقل . فإننى قد أجبرت ذلك الوغد أن يدفع خمسين ألف دولار لمجرد الاستمتاع بملمس حرير الملك . وبما أن دولارات كثيرة تطبع فى روسيا هذه الأيام .. أكثر بكثير مما يطبع فى أمريكا فإن "ساو" كان يتمنى أن تكون "سوزبى" قد حصلت على دولارات مزيفة ! .

"ساو" كان يشعر بأنه غريب ويعيد عن العالم الذى أصبح نجاحاً فيه .

وبقيت المشكلة ماذا يشتري لوالده ؟ فى السنوات السابقة كان يرسل للرجل العجوز قمصاناً حريرية وأحذية مصنوعة يدوياً ، وعباءات فيتنامية أثرية وصناديق كونيكا ... وأشياء أخرى كثيرة ، كان معظم تلك الهدايا ينتهى به الأمر فى السوق السوداء فى "هانوى" وهذا العام عبر والده لأول مرة عن رغبة خاصة كان قد قرأ فى مجلة ما أن العازل

الطبي الخاص بالملك لويس الرابع [عشر معروض للبيع وليسبب غامض وعميق ومجهول بالنسبة لـ "ساو" كانت تلك رغبة والده "ساو" يشعر بالذنب ربما كان عليه أن يواصل صراعه مع الشيشاني حتى يهزمه كانت تلك أول مرة يطلب منه والده شيئاً ويفشل في أن يحققه له كان يحو والده ، والد "ساو" حارب في "ديان بيان فو" في سنة ١٩٥٤ ، وهي مدينة صغيرة في فيتنام الشمالية أحتلها الفرنسيون وكانوا يتصورنها منيعة والد "ساو" حارب في صفوف الفرنسيين رغم أن تلك الحقيقة قد نسيت تماماً ولم يعد يذكرها أحد ، أما تاريخ الأسرة فيزعم أنه كان عميلاً شيوعياً ، ولم يكن صحيحاً .

لم يكن سوى خادم يرتدى بزة نظامية ويلقى معاملة طبية من كولونيل فرنسي أرسقراطى يمتلك مزرعة كبيرة بالقرب من "نيم" الملابس المستعملة والأحذية المستغنى عنها ، ويقايا الكونياك والبقيش السخى والكلمات الطبية من وقت لآخر كانت تجعل الجندى القيتنامى الصغير سعيداً وذلك كله لأن القيتنامى الحلاق الماهر ، كان يحلق ذقن سيده كل صباح بعناية شديدة.

أما الكولونيل فقد كان سعيداً به أيضاً لدرجة أنه طلب أن يأخذه معه إلى فرنسا ، ولا بد أن يكون الأمر هكذا أن لم يتضح أن التاريخ غريب جداً .. ذات صباح في عام ١٩٥٤ استقيظ "ساو" في مدينة "ديان بيان فو" المحاصرة وأدرك رغم أنه لم يكن عسكرياً متمرساً ، أن المستحيل كان على وشك أن يحدث كان الجانب الذى يعمل لديه على وشك الانهيار، كان الجنرال "فونجوين جياب" قائد جيش المقاومة القيتنامية - جنرال الشجيرات الكثيفة كما كان يدعو الفرنسيون - كان قاب قوسين أو أدنى من انتصار كبير وكانت القوات الرئيسية للجيش الفرنسى أمام خيارين .. إما الاستسلام الذليل أو الفناء .

وحدث تحرر من الوهم ، فر والد "ساو" إلى الجانب المنتصر ، لم

يمكن الوحيد ، وبعد يومين استسلم الجيش الفرنسى .

وانتهت حرب فيتنام الثانية .

كان "ساو" العجوز " على ثقة من أن سيده السابق يفضل الموت على الاستسلام ورغم التحول المتأخر .. اتضح أنها كانت خطوة مأكرة .. سياسياً وعاطفياً هزم الفرنسيون ، وانسحبوا من شبه الجزيرة الفيتنامية بلا عودة ، أما الكولونيل فاكد إحساس خادمه الفطرى وأطلق النار على رأسه ليقتل نفسه .

الأهم من ذلك أن والد "ساو" التقى بأُم "ساو" كانت تكبره بعشرين عاماً ، رفاقها يعتبرونها مقاتلة فدائية وكانت قد شاركت فى حصار "ديان بيان فو"

كانت هى التى رأت زوجها المستقبلى بين صفوف محاربى الجيش الفرنسى المرهقين ، وهو يزحف تحت الأسلاك الشائكة ويرفع منديلاً أبيض ، ولسبب ما ، جعلها منظره تضحك قامت باستجوابه وأبلغت عن استسلامه وسلمته لضابطها السياسى وعادت إلى خط الجبهة ، بعد الاستسلام لم يمنحها لحظة سلام واحدة ! كان يتبعها فى كل مكان حتى اعترفت لنفسها أنها كانت تحبه كانت "ثو فان" شيوعية شديدة الالتزام تعهدت التربية السياسية لزوجها بمنتهى الجدية وبعد أن شعرت بأن تربيته اكتملت ... وأنه قد صار إنساناً كاملاً ، هنا ، فقط تنازلت وحملت بطفل "ساو" . الصغير .

بعد اتفاقية عام ١٩٥٦ عندما تم تقسيم البلد ، وتم تعليق اقتراع عام ، بقى والد "ساو" فى الشمال مع "ثو فان" والشيوعيين ، تاركاً للقساوسة الكاثوليك ومسكنه لأحد أبناء العم .

ورغم أن والد "ساو" كان يشعر بالندم لأنه خدم فى الجيش

الفرنسي، إلا أنه كان يفتقد أساليب حياة الفرنسيين ، وإن شئنا الدقة ، فإنه كان يفتقد بقايا كونيكا الكولونيل والمعلبات ، كان يفتقد الأغاني التي يغنونها ، كما كان يفتقد صور الفرنسيات الجميلات والأطفال ذوي الشعر الملفوف .

افتقد الحقبة الاستعمارية الفرنسية ، وجميع الهدايا الثمينة والمواد الغذائية التي كان يرسلها إليه ابنه من "باريس" لم يكن لها نفس الطعم ! كانت نكهتها المعنوية منفرة لحواسه ، لم ينفذ الاقتراح في فيتنام لماذا ؟ لأن الأمريكيين الذين حلوا محل الفرنسيين كانوا يخشون أن يفوز الفيتناميون .

بدأت حرب فيتنام الثالثة ، تركت "ثوفان" زوجها وأبناها الصغير في "هانوي" لتنظم لجبهة التحرير الشعبية التي نظمت حديثاً في الجنوب كانت معرفتها الجيدة بطبيعة الأرض هناك قد جعلتها في غاية الأهمية .
"لابد أن تأكل جيداً وأنا بعيدة" يا ساو" وأنت طفل كنت ممتملي الجسم يانعاً مثل فطيرة حلوة ، انظر إلى نفسك الآن تبدو هزيلاً ناحلاً .. عدنى بأنك سوف تتناول كل وجباتك " وعدّها "ساو" حملته عن الأرض وقبلته في عينيه .

امتلات عينها بالدموع وهي تودع زوجها وطفلها شعرت لشيء ما داخلها كأنه يقول لها إنها لن تراهما ثانية همست في أذنه : أهتم به جيداً.

"ثوفان" قتلت بعد شهور قليلة في عام ١٩٦٢ ، أثناء معركة "آب باك" حيث واجه الأمريكيون أولى انتكاساتهم الخطيرة كانت المواجهة نفسها بسيطة ولكنها قررت مستقبل الحرب وذات يوم جاء "ساو" الصغير إلى دكان الحلاقة القذر في "هايفونج" حيث كان يعمل والده ، كان معظم زبائن المحل من البحارة أثناء إجازاتهم ... الوقت متأخر ولا يوجد زبائن الآن نظرا "ساو" في المرأة المعتمدة فجأة انهارت نظرة والده المجاهدة واستسلمت للدموع احتضنه "ساو" في هدوء .

قال الرجل بصوت هادئ : الأمريكيون أغبياء بالفعل " واضح أنه كان يفكر فى "ثوقان" إذا كان الفرنسيون قد فشلوا فى أن يهزمونا أفلا يعنى ذلك أن غيرهم لن يستطيع ؟

كان "ساو" يحمل معه دائماً صورة لأمه ، إحدى الصور الرسمية المصممة خصيصاً للأجيال القادمة بغرض الدعاية السياسية ترتدى فيها بيجامة سوداء ، وقبعة من القش وتحمل بندقية .

وجهاً مشرق يملأه الابتسام هى آخر صورة تلتقط لها وكان يحملها معه وطوال حياته ، وعندما ذهب لينضم إلى صفوف المقاومة كان يريها لرفاقه بكل زهو وفخار .

كيف كانت مملوءة بكل ذلك الأمل ؟ كان "ساو" يحسدها على ذلك أكثر من أى شئ آخر . حياته ، حياة مستقرة مستريحة لرجل غنى ولكنها خالية من أى رؤيا جميلة عن المستقبل .

كان الآن جافاً تماماً تناول ساعته اكتشف أنه تأخر فبدأ يرتدى ثيابه على عجل .. وبينما يضع حافظة نقوده فى جيبه دق جرس الهاتف .. تركه يدق للحظات وهو يربط حذاءه .

"عفواً يا هر ساو" يوجد شخص يقول إن إسمه البروفيسور "مايور" ينتظرك فى صالة الاستقبال "دعه يصعد ... دعه يصعد .. ! رد "ساو" بلهفة وهو يضحك ، بينما يحكم أزرار أكمام القميص الذهبية كان "فلادى" قد قطع المسافة إلى "كو - دام" سيراً على قدميه وكانت الريح الباردة قد جعلت وجنتيه حمراوين قليلاً وكان يشعر بالانتعاش جسداً وذهناً.

وبينما المصعد فى طريقه إلى الطابق العلوى ، كان "فلادى" يبتسم

وهو يفكر فى التغيرات التى حدثت فى السنوات العشر الأخيرة والتى حولت حياة "ساو" وحياته منذ ليلة لقائهما مصادفة فى "درسدن" فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية منذ اثنى عشر عاماً تقريباً .

كان "ساو" ينتظر خارج باب غرفته المفتوح تعانق الصديقان "ساو" يتكلم وبريق خبيث فى عينيه : أول سؤال لك يا بروفيسور "مايور" هل العمال راضون الآن ؟

وضحك كلاهما .

" ليس بإمكان كل العمال أن يعيشوا مثلك يا "ساو" للأسف " ضحك القيتنامى وهما يهبطان إلى الطابق الأرضى ويتجهان نحو مطعم المأكولات البحرية طلب "كافيار" : و"جمبرى" وشمبانيا وهو يتحسر لأن المأكولات البحرية فى "هالونج باي" أفضل بكثير واكتفى "قلادى" بقطعة من "الاستيك" "والسلطة" : وجبتان طيبتان خلال يومين لابد أن وزنه سوف يزيد فى هذا العالم الجديد .

بعد ذلك تشاركاً زجاجة كونياك فى جناح "ساو" وهو ثمل ، عرض "ساو" على صديقه مالاً ، شقة فى "برلين" أو باريس " ، معهداً خاصاً به فى "درسدن" ، دار نشر جديدة فى "ميونخ" أو فيينا " أو أى شئ كان "قلادى" يريده .

ابتسم "قلادى" شاكراً وهو يهز رأسه .

"استمع إلى جيداً يا "قلادى" لقد أنقذت حياتى وهل أنس لك ذلك أبداً ؟ وأنا الآن غنى ، لدى أكثر مما كنت أحلم به من مال وسيكون لدى أطفالى وزوجتى ما يكفيهم بعد أن أرحل والمال ما زال يتدفق أود أن أساعدك ما هى المشكلة فى ذلك يا "قلادى" ورطة أخلاقية ؟ نعم؟ لماذا ؟

"الورطة وجودية وليست أخلاقية " كيف تعيش ليس هو السؤال المهم،
أهم من ذلك بكثير هو إن كان من الضروري أن تعيش على الإطلاق
"جيرهارد " حل المشكلة بأن شئق نفسه فى حديقة منزله فى "جينا " أما
أنا " .

"ولكن ليس أنت يا "فلاديمير مايور " وقبض "ساو " على ذراع
صديقه وكأنه أسير حرب ... " لا ليس أنت ! .

لا أستطيع أن أصدق أنك يمكن أن تستسلم هكذا ، فصلت من قبل
مجموعة أوغاد من الغرب ، لابد أن تقاومهم بكل ما تملك من قوة ،
سأقوم بتمويل هجومك المضاد هل تذكر عبارة "برخت " التى قلتها لك
منذ عدة سنوات : : "إن هبت الريح سأضع شراعاً .. وإن لم يكن هناك
شراع سأصنع واحداً من الخيش والعصى .

ابتسم "فلادى " .

المشكلة ليست فقط فى عدم وجود رياح .. المشكلة أن البحر كله
محتل بسفن ضخمة .. وبحار واحد يغنى ... ليس "برخت" وإنما المارك
الألماني ... المارك الألماني .

"فوق الجميع " هل تعرف ماذا يقول بعضهم ؟ يقولون إن لم نكبر
أكثر من ذلك سنصبح أصغر "

ابتسم ساو " ابتسامة عريضة سعيداً بأن يرى "فلادى" غاضباً مرة
أخرى سأل " وماذا عن القواقع ؟ يقصد الحزب الديمقراطي الاجتماعى .
"كارل" أموره تسير سيراً حسناً ، وهذا جيد بالنسبة لى ، لو كان
لى صديق فى المستشارية سوف تنتعش أعمالى وتزدهر أكثر مما هى .

أهدأ أنت يا فلادى . ألمانيا الجديدة ليست جينا للرايخ الرابع قد

يحلم بعض الأغبياء بذلك ، ولكن البراجوازية الألمانية لم تقع فى الخطأ نفسه مرتين أبداً أنا واثق من أن الحزب الديمقراطى الاجتماعى سيفوز ثانية.

" ليس لبعض الوقت أنهم فى حاجة إلى زرع مخ لإيقاف الانهيار ولكن كفى سياسة ميته وسياسيين أحياء أموات أريد أن أعرف .. من أين يأتىك المال يا "ساو" أريد الحقيقة "

ابتسم "ساو" هل يعنى ذلك أنك قد نسيت ؟ لقد أخبرتك بكل شئ .. عني وعن عائلتي وعن ثروتى ... كل شئ هل تذكر الأسبوع الذى قضيناه معاً ؟

قبل إعادة الوحدة نسيت كنت ثملاً بالحرية والديمقراطية وعلى العكس من ذلك كانت حياتى تبدو تافهة لا يهم أن كنت على حق هى فعلاً تافهة لن أستمّر طويلاً قليل من الكونياك .. تفضل .. هناك أشياء كثيرة لابد أن أخبرك بها .

كان "قلادى" ناقماً نظراً فى ساعته سبع وثلاثون دقيقة بعد منتصف الليل .

"يمكن أن تجرى مكالماتك التليفونية القذرة فيما بعد" .

أريد أنا أولاً أن أعرف الحقيقة وبالمناسبة .. لم أنس شيئاً كأن سيرة حياتك فقط قد حدث فيها فصل جديد ، هل أنا محق أم مخطئ؟

تراجع "ساو" فى مقعده وهو يتنهد "حسن" ،

قال القيتنامى وهو يملأ كأسه .

"مازلت فى إنتظار إجابة يا "ساو" من أين يأتى كل ذلك الآن ؟

مخدرات أم سلاح ؟

نظر كلاهما إلى الآخر ولمح "قلادى" نظرة اضطراب تعبر عيني صديقه ، ثم كان صمت ثقيل وبعد دهر .. بدأ "ساو" يتكلم .

"أنا لا يمكن أن أتورط فى تجارة المخدرات يا "قلادى" أبدا رغم أنه من الثابت أن شركائى السابقين كانوا يقضون أجازات طويلة فى "باكستان" و"كولومبيا" .. ولكن ليس أنا .. ليس أنا "

"تجارة سلاح" و"انفجر"ساو" فى الضحك " هذه موضة قديمة يا قلادى " تهريب دبابات ، تهريب صواريخ ، تهريب طائرات مقاتلة ، نعم أما تهريب مدافع فلا ! أنا أبيع أو أشتري الصينيون يريدون صواريخ ، فأطير إلى "آلما - آتا -" وأعقد صفقات مع الكازاخستانيين ، صفقات الصرب يريدون دبابات ، العراق يريد قطع غيار لطائرات "الميج" أو من لهم الحصول عليها ، عرض وطلب يا "قلادى" .

قوانين السوق الرأسمالية التى كنت تكرهها من كل قلبك غزت العالم .

"عالمك أنت ربما ، ولكن هناك عالم آخر " يا ساو " كان "قلادى" يحاول كل جهده أن يكبح اللهجة الموجهة فى صوته ربما كان غارقاً لفترة ولكنه سوف ينهض مرة أخرى .

"أنا فى دهشة لأنك ، دون الجميع ، يمكن أن تنسى بعد كل التضحيات التى بذلها الناس العاديون " .

"عندما تجرى الرمال ضد الناس لا بد أن يبتعد الناس "حكمة صينية قديمة يا "قلادى" تضحيات ؟نحن القيتناميين نعرف عن ذلك أكثر مما يعرف غيرنا عندما كنت فى السادسة عشرة التحقت بلواء الشباب

الشيوعى فى "هانوى" وبعد عام كنت أحارب فى الجنوب ، رأيت كل رفاقى المقربين يموتون ، أنا نفسى أشرفت على الموت ، ونجوت مصادفة لأن أسيرة من الفلاحين كانت تبحث عن أى شئ وسط القمامة ، فوجدوا أننى كنت ما أزال حياً أتنفس حملونى وأبلغوا أقرب وحدة من وحدات جبهة التحرير الشعبية ، نقلونى إلى مستشفى فى كمبوديا " ولكننى عدت لكى أشهد سقوط "سايجون" كنا نستحق ذلك الانتصار ، اليس كذلك ؟ تضحيات ؟ "أتساءل أحياناً إن كان ذلك يساوى ما بذل فيه لقد فقدنا مليونين من البشر يا قلادى .. ومن أجل ماذا ؟ لكى نبنى مستقبلاً أفضل ؟ حتى الأطفال لا يصدقون ذلك الآن وقليل من المعلمين يعتقد أنه جدير بالتكرار أتذكر وأنا فى الثانية عشرة ، كانت الطائرات الأمريكية ، تدك مدننا وقرانا بالقنابل ليل نهار ، كنا نشعر بالزهو عندما كان معلمونا يقومون بتصحيح واجباتنا المدرسية فى هياكل طائرات أمريكية محطمة كنا فخورين يا "قلادى" .. جداً .. لماذا كنا فخورين وربما سعداء رغم كل ذلك الموت والدمار ؟ كنا نؤمن بشئ ما ، لم يكن اعتقاداً بأن الأمر سوف ينتهى بنا عمالاً أجراء فى أوروبا الشرقية السابقة ، ناهيك عن السوق العالمية الجديدة ، أقصد أننا لو كنا نعلم أن الأمر سوف ينتهى هكذا ، لكنا قد عقدنا صفقة مع "واشنطن" قبل ١٩٧٥ بفترة طويلة .

جميع المضاربين والطفلتين الذين فروا مع الأمريكان يعودون الآن بالتدريج نفس المستغلين الذين حاربناهم لمدة ثلاثين عاماً لذلك أسألك : هل كان الأمر يستحق ؟

كان قلادى يدرك أنه لا طائل من أى دفاع بلاغى ، لذا قرر أن يعاود الهجوم .. "وماذا عن تهريب البلوتونيوم يا "ساو" ؟ من المؤكد أنه ليس لديك أى موانع أخلاقية ، أقصد .. إذا كانت المسألة كلها هى قوانين السوق فلماذا لا تعرض البلوتونيوم إذا اتضح أن هناك طلباً شديداً

عليه؟ أعط قنبلة لكل شخص .

"أنت غاضب يا صديقي أرجوك لا تسيء فهمي يا "قلادي" أنا لست بدعاً في ذلك ولست مسخاً ، أنا أعمل لكي أعيش ، وأعيش بشكل جيد هذا كل ما في الأمر هل كان يرضيك أن أذهب إلى "هانوى" أو "هيو" وأفتح دكاناً صغيراً للكتب أو أن أصبح موظفاً في الحزب أو قواداً أو بائعاً جوالاً؟

"لا تقل لي إنه ليس هناك مساحة للحياة دون أن تلوث يديك وأن تسفح دمك ! ثم لا يا صديقي .. أنا لا أتاخر في البلوتونيوم ولا الأسلحة الكيماوية عملي في السلاح بالتأكيد لا علاقة له بالذرة ولا بالكيماويات " حذق فيه "قلادي" ببرود "

"نعم " أجاب قلادي كان يشعر بشدة أن "ساو" يقول الحقيقة ولكن لماذا أنت هنا الآن؟

"الجيش الأحمر القديم مازال هنا أليس كذلك؟ الجنرالات يريدون أن يبيعوا وأنا أريد أن أشتري هناك طلبية كبيرة من العراق والدفع بالدولار

أحد الجنرالات الروس على الأقل سيبقى هنا في "برلين" أعدك بذلك وإلى هذا الحد .

ثم توقف "ساو" فجأة عن الكلام ، صديقه جنح بعيداً كان "قلادي" يتساءل أن كان كل ما حدث في هذا القرن يستحق كل ذلك العناء الثورة الروسية والمقاومة القيتنامية البطولية ... انتهت أخيراً منبطحة أمام بورصة المال في نيويورك كان يعد الأرواح التي أزهقت في روسيا عندما قطع عليه صوت "ساو" حبل أفكاره "الآن وقد قلت لك كل شيء يا "قلادي" ، لماذا لا تتركني أشتري لك دار نشر ؟ لا توافق ؟ الكتب الآن

سلعة مثل السمك المملح هل تريد أن تذهب لتعيش في الولايات المتحدة مثل صديقك "كريستا وولف"؟ يمكن ترتيب كل شيء لي أصدقاء في جامعة كاليفورنيا ... لا "كريستا" طورت أيها الوغد كانت ممثلة بالنسبة لهم عندما كانت ألمانيا الديمقراطية على قيد الحياة كانوا في حاجة إليها حينذاك وكانت وحشاً نبيلاً ، والآن لابد من تحطيمها ، لكي ينعوا أنفسهم بأن كل شيء في ألمانيا الديمقراطية كان ملوثاً! كل شيء! وهذا بواسطة رجال استأجروا نازيين سابقين بالآلاف لكي يديروا دولتهم الجديدة بعد الحرب أبطال الحزب النازي ، مازال يحتفي بهم في "لوفت واف" *كل ما يفعلونه هنا يزكم الأنوف بالأزواجية والنفاق .

ماذا تنوى أن تفعل بحياتك يا قلادى ؟

"لا أعرف يمكن للمرء أن يواصل العيش في الحاضر إلى أن يسقط ميتاً ، معظم الناس يفعل ذلك هذه الأيام بالنسبة لي .. هو شيء يشبه الحياة في غابة ، "جيرهارد" الذى كنت تعرفه قرر أنه لن يستطيع أن يواصل العيش في هذه الظروف ، وأنت قد تغيرت كثيراً يا "ساو"

"لم يكن ينقصك أصدقاء أبداً يا "قلادى"

"ولكن الصداقة كان لها معنى فى تلك الأيام ، الآن يلتقى المرء بأناس ثم يلقي بهم .. كما تسقط أشجار الخريف أوراقها .

ابتسم "ساو" كان معجباً بـ "قلادى" ، بدرجة ما ، لأنه كان يدرك عبث وضعه السياسى عبثى لكنه عجيب !

منذ أن طرد "قلادى" من عمله الأكاديمى ، تحول حلمه بألمانيا شرقية ليست غربية ولا سوفيتية ، إلى كابوس. كان الأمر يبدو بالسنة لـ "ساو" وكأن صديقه يواصل معركته الجدلية التى وضع لها التاريخ نهاية مؤخراً .

* سلاح الطيران Luftwaffe (المترجم) .

لم يستطع أن يقول "لـ فلادى" إنه - ساو - كان يريد أكثر من أى شئ آخر أن يحطم تلك المرأة التى ظل يحدق فيها .. لا لشئ سوى أن يحدق لمدى أبعد فى المرأة الموضوعة خلفه ! كان يريد أن يجعل "فلادى" يفعل ذلك بنفسه .

"دعنى أساعد يا فلادى" أرجوك .

مر صمت طويل أن يتكلم فلادى " مرة أخرى بعد تفكير عميق ، ولكن نبرته الآن كانت أقل حدة .

" هناك شئ واحد يمكن أن تفعله من أجلى يا "ساو" ما هو ؟ "

"أبى أريد أن أعرف كيف مات ومن الذى قتله عن طريق علاقاتك بـ "موسكو" هل يمكنك أن تحصل على ملفه من أرشيف ال "ك . ب . ج" ابتسم "ساو" سعيداً .

" بكل تأكيد : المارك الألمانى يمكن أن يشتري كل شئ مدن بكاملها .. تباع وتشتري أحياناً وكل ما تريده أنت ليس سوى بضعة أوراق لا مشكلة بالمرّة شراء التاريخ أسهل من شراء العقارات والارشيفات والسجلات لا تهتم المافيا فى شئ سوف أحضر لك ما تريد مهما كان ذلك الذى تريد ! فقط اعطنى البيانات هل لديك صورة له ؟

هز "فلادى" رأسه .

"حسن قال "ساو" احضرها غداً

وقال فلادى " وهو يتنهد إذا كان الأمر بهذه السهولة هل يمكنك أن تحضر ملف أمى كذلك ؟ ربما أمكننا أن نعرف القصة كلها ! .

ضحك "ساو" هى صفقة إذن ، ولو طراً على ذهنك أى شخص آخر دعنى أعرف ، وأرجوك يا "فلادى" دعنى أساعدك بوسائل أخرى "

وقف "قلادى" ، وانحنى هائلاً أمام "ساو" "إلى اللقاء غداً نهض" ساو "وعانق صديقه ، كان قلادى يخلص نفسه من بين ذراعيه بهدوء عندما همس "ساو" فى إذنه " لقد أنقذت حياتى ذات يوم .. أعطنى الفرصة لكى أنقذ حياتك "

ابتسمت عينا "قلادى" وأوماً برأسه قليلاً كانت علاقة عرفان وامتنان ثم غادر غرفة "ساو" وأمام فندق "كيمبينسكى" فاجأ نفسه واستقل سيارة أجره إلى المنزل كانت الساعة الثانية والنصف صباحاً دخل شقته خلع "قلادى" ملابسه ولكن صداً شديداً كان يطحن رأسه ، وجافاه النوم .. النوم الذى لا يرحم .

راح يفكر فى أصدقائه السابقين فى الاتحاد السوفيتى السابق وتشيكوسلوفاكيا السابقة ، لم يسمع عنهم منذ وقت طويل كم منهم سقط ؟ أغنياء جدد أحرار من جديد .

هل يستطيع أى من أصدقائه القدامى أن يكون فى طليعة نهاية القرن .. تلك النهاية البغيضة الفوضوية ؟ أم تراهم مثله يبحثون عن ملجأ من ذلك المشهد كله ، ويعيش كل منهم فى منفاة الداخلى ؟ كان أهم شئ هو البقاء على قيد الحياة .

أن تغطى رأسك ببطانية وتنتظرحتى يتوقف مطر التلوث ! راح الآن يعيد التفكير فى رجائه لـ " ساو " ..

هل كان بالفعل يريد أن يعرف أكثر ؟ ربما كان من الأفضل أن يظل الماضى بعيداً .. مجهولاً .. مطوياً ! وما الفرق إذا كان الرجل الذى تعتبره والده قد أصبح شخصاً مختلفاً بالمرّة ؟ إنه لن يغير شيئاً . نعم .. قد يغير ! قد يضع نهاية لذلك العذاب .. عذاب الذكريات المؤلم . هذا القرن ملعون ، ولكنه مازال يريد أن يعف . ومهما حاول فإنه لن يستطيع أن يمح الماضى بسهولة .. أو أن يفصل نفسه تماماً عن الحاضر . وأخيراً استهلكت التناقضات نفسها فى رأسه ... ونام .

نحن فى عام ١٩١٣ ، قيينا عاصمة امبراطورية على وشك الانطفاء ، ولكنها تبدو كما هى ، كأن لم يصبها أى تغيير . أهلها لا يظهر عليهم أى أثر للذعر ، الاحتفالات بالعام الجديد تسير كالعادة على قدم وساق . قالسات شتراوس منتشرة بين الأوساط البرجوازية والعامية على السواء . موسيقى « شوينبرج » الجديدة لا يستمع إليها إلا قلة ولا يستسيغها سوى طليعة بعيدة تماما عن واقع الحياة اليومية ... أو هكذا كانت تبدو الأمور . الصراع القادم بين القوى الكبرى سوف يغير ذلك كله . ولكن فى قيينا بداية القرن فإن عقول الكثيرين لا تفكر فى وقوع حرب مدمرة ... ولا تتصورها . الجامعات ما زالت تقبل الطلاب القادمين من أقاصى الامبراطورية . وهكذا التقى « لودفيك » بـ « ليزا » . كلاهما لم يكن قد احتفل بعيد ميلاده التاسع عشر بعد . كانت جالسة فى مقهى مع بعض الأصدقاء عندما رأى ابتسامة تشكل ملامح وجهها ، ثم سمع نوى ضحكة عالية . وجه قوى حسن الطلعة ، جبهة عريضة ، وجنتان بارزتان ، عينان زرقاوان ... نفاذتان ، شعر بنى غزير غامق اللون ملموم فى ضفيرة واحدة فخمة ! كانت ترتدى فستانا أسود وتضع وشاما من الحرير و« بروش » من الفضة .

أما هو ، فكان يبحث عن شخص آخر ، ولكنه لم يستطع أن يسترد عينيه من عليها ... إلى أن لمحت نظرتة .. فعبست . لا يبدو جذاباً من النظرة الأولى له عينان وديعتان ولكنه قصير القامة وبدين إلى حد ما .

نموذج الكمال عندها كان يفضل الشخص الناحل .. المنحوت . أما شعره الأسود القصير فكان قد بدأ يتساقط وكانت تعتقد أنه سوف يصاب بالصلع خلال سنوات قليلة ... وتشاغلت عنه . أما هو فكان مثابرا . كان صوته هو الذى جذبها .. وعندما تكلم شعرت بقوة شخصيته ، إلا أنها كانت ماتزال تقاوم . هو أيضا لن يقبل الهزيمة . بدأ توددا مرهقا كان يبدو أنه سوف يستمر إلى الأبد ... وكل أسبوع كان يتركهما مرهقين تماما مجردين من الطاقة والمشاعر . أصبح لكل شوارع « قيينا » معنى بالنسبة لهما . كان يسيران معا بالساعات صامتين من فرط العاطفة ، ينتظر كلاهما أن يكسر الآخر الصمت إلى أن يحين وقت الفراق ولم ينطق أحدهما بكلمة .

كان بعد ذلك يستعيد فى ذهنه زكريات ذلك اليوم الضائع فتعود الشوارع للحياة مرة أخرى . هنا ضحكت ... هنا تشابكت أيدينا ، وبمجرد أن وصلا إلى مقهى « السنترال » دب بينهما شجار جديد . تستبد به المشاعر فلا يستطيع أن يأكل شيئا ، أما هى فقد طلبت لنفسها بعض الفطائر مع القهوة .

باح لها بحبه فى الأسبوع الأول بعد لقائهما . قاومت . كانت أحساسيتها الداخلية تحذرهما وتنذرهما أن ذلك الحب سيكون طاغيا وخطرا . قالت إنها لم ولن تحبه . شحب وجهه ، ولكنه لم يقل شيئا . نهض وانصرف وهكذا كل ما حدث . اختفت لمدة أسبوعين وكانت تتجنب جميع المقاهى التى قد يلقي فيها أحدهما الآخر وأمضت أياما تعسة مع صديق قديم . لم تدرك أنها كانت تفتقد « لودفيك » إلا عندما حاول صديقها القديم إغواءها . كانت تفكر فيه طول الوقت .

لافائدة من القمادى فى المقاومة ، تركت صديقها وذهبت لتبحث عن
« لودفيك » .

مارسا الجنس فى غرفتها بعد ظهيرة أحد الأيام .. دخل المساء وحل
الليل ... بدأ وهو مستلق بين ذراعيها يتكلم ليقول شيئاً ولكنها وضعت
يدها على فمه .

« ش .. ش .. ش .. لا كلام هذه الليلة عن الألم ! »

« لماذا ؟ »

« أعتقد أن الأيام المشحونة بالأحزان قد انتهت بالنسبة لكينا . »

كان « لودفيك » قد شبع ، ولكن نزعة الحزن تفجرت بداخله .

« ومن يدري ماذا يجيئ به الغد ؟ »

« هذه الليلة هى كل ما يهمنا يا « لودفيك » . دعنا نتخيل أننا آلهة
فى السماء ! » .

محيا كل الذكريات المؤسسية ، أزالا الخط الفاصل بين الأمس واليوم .
لا دموع ولا حسرات على الماضى . أدهشه مزاجها الرومانسى وانتقل
إليه فى الوقت نفسه . أخذ يضحك مستمتعا بكل شئ . سحبتة « ليزا »
من خلف النافذة عندما كان يهدد بأن يعلن للعالم كله عن سعادته .
قبلها فى عينيها ... وهى كانت تشجعه وتسرى عنه .

« لماذا الانشغال بما يمكن أن يحمله القدر أو لا يحمله ؟ هل تجد
متعة فى ذلك ؟ » .

كلاهما كان يشعر بالارتياح . كلاهما ثمل بالآخر . كلاهما كان لا يزال فى ريعان الشباب .

شئ ما تغير . ولكن فى الوقت نفسه ، عندما كان يعتقد أن علاقتهما قد وصلت إلى مرحلة جديدة ... أبعد ، وضعت هى حواجز عاطفية بينهما وانطوت على نفسها . لم تكن تريد أن تكون مدينة بالفضل له أو لغيره . مازال الوقت طويلاً وكانت تحتاج لوقت لكى تفكر .. اقترحت أن يفترقا عدة شهور ليختبر إمكانية أن يعيش كلاهما دون الآخر .

« أخشى أن أقع فى حبك يا « لودفيك » . لا أعرف لماذا . أصبر أرجوك ... ! » .

فى البداية انفجر غضبه . أطلق اللعنات .. سبها بعبارات « باليدش » * لم تفهمها . ثم بالهولندية والألمانية وفهمتها ... ثم عاد الهدوء . قرار الابتعاد . بذل « لودفيك » جهداً فوق مستوى البشر وأبعد نفسه عنها .

و ذات ليلة ، بعد أن كان الآخرون قد غادروا الاجتماع فى غرفة « كريستينا » صارحها « لودفيك »

« لقد أقمت سوراً من الحجر حول قلبى ، ولا بد أن أقوى دفاعاتى قبل أن تطلق نيران مدفعيتها . إنها لا تريد أن تستولى على قلبى . أتفهمين ؟ كل ما تريده هو أن تحطم السور » .

* لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر بها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى دول الاتحاد السوفيتى السابق وأوربا الوسطى وتكتب بأحرف عبرية .

وكانت « كريستينا » تفهم جيداً . نصحته بالراحة التامة . بتغيير الهواء وبالمزيد من العمل السياسى المركز . كانت « كريستينا » مؤمنة جداً بنظرية أن الحماس الثورى يتغلب دائماً ويطغى على ما عداه . وهكذا انتقل « لودفيك » إلى « وارسو » .

وهنا سوف يقوم طباع يهودى عجوز بتعليمه فن تزوير الوثائق وجوازات السفر ... ولكن ليس أوراق البنكنوت . فذلك - كما قال له معلمه - كان يتطلب مهارة خاصة ، ومن أسف أن « لودفيك » لم يكن يمتلكها ! بكل أسف ! بعد شهر من التدريب المكثف عاد « لودفيك » إلى « قيينا » عاد بتعليمات ... ومجموعة من الجوازات المزيفة ، كانت « كريستينا » قد طلبتها من « ديرجينسكى » .

كان يريها الجوازات التى صنعها بنفسه مزهوا . هنأته كريستينا ، ولكنها قررت أن تجعله يظل مشغولاً فكلفتة بمجموعة من المهام العاجلة ، أما « لودفيك » فقد انخرط فى العمل السياسى السرى ممتناً لها ، شاكراً للجميل !

وذات يوم سألته : « هل يحقق العلاج نتائج يا « لودو » ؟ » وكان يهز رأسه فى صمت .

اكتشفت « ليزا » بعد أسابيع قليلة أنها كانت تريده أكثر من أى شئ آخر . بدأت تحن إليه . كأن ضوئاً قد اختفى من حياتها . كانت تضحك لنكاته القديمة . وتستعيد مناقشاتهما . وتعيد قراءة رسائله وتكتب له رسائل جديدة كل يوم . ولارد شئ ما جعلها تشعر ذات صباح أحد

أيام الجمعة أنه كان قد رجع إلى « قيينا » بدأت تذهب إلى مقهى « السنترال » يوميا . كانت تعرف مواعيد ذهابه إلى هناك وتتقأنها سوف تعد له كمينا ، ولكنها لم تكن تعرف أن « اللامات » الأربع كانوا قد توقفوا عن المجئ إلى المقهى نهائياً .

وذات يوم كانت تجلس فى ساعة متأخرة بعد الظهر فى حالة قنوط . جلست أطول مما اعتادت ، محاولة أن تغرق أحزانها فى فناجين القهوة السوداء . ربما مايزال فى « بولندا » وربما كان خيالها يفوق الواقع . كانت السنترال مبنية على طراز الكاتدرائيات ، أعمدة فى كل الأرجاء . وكانت « ليزا » معتادة على الجلوس على طاولة فى أحد الأركان بالقرب من المدخل الأمامى والذى كان مسيجا عن بقية المقهى بعمودين . من هذه البقعة الممتازة كان يمكنها أن ترى الطاولة التى كانت تحتلها « كريستينا » عادة واللامات الخمس . كانت تراها بوضوح . الذى يرى أو يلاحظ « ليزا » من على البعد ، إنما يرى سيدة جميلة .. متوترة .. تدون أشياء على عجل ويتصورها كاتبة . والحقيقة أنها كانت تشخبط بالقلم بطريقة نصف واعية : كان قلمها الحبر يتحرك فى دوائر معبرا عن الاكتئاب الذى يحتل عقلها .

وعندما أفاقت من شرودها نظرت فى ساعتها وكتمت لعنة كادت أن تفلت منها . التاسعة إلا خمس دقائق . ظلام فى الخارج . وبينما هى على وشك أن تغادر المكان ، دخل معتمدا على ذراع « كريستينا » ومعهم « اللامات » الأربع ، وكانوا كلهم يضحكون . شحب لون « ليزا » . وانهمرت دموعها على وجهها . غضب وإحباط وغيره . ممزوجة كلها

بشعور بالارتياح . كانوا مشغولين ببعضهم . لذا لم يرها أحد منهم .
جلسوا إلى طاولتهم المعتادة .

كانت تحلق في ظهر « لودفيك » بينما ترى جانبا من وجهه في مرآة
الحائط . لماذا يبدو حزينا ؟ ماذا قالت « كريستينا » الآن جعلهم
يضحكون جميعا ؟ كان الغضب قد بدأ يزيح الحب مرة أخرى ، وفكرت
« ليزا » أن تنصرف دون أن تجذب انتباهه عندما التفت - فجأة - ونظر
إليها مباشرة . واللحظة كان كلاهما يصدق في الآخر غير مصدق .
ثم وقف كما لو كان في غشية ... أسرع نحو طاولتها وجلس في
مواجهتها . وجهان متوتران بالمشاعر . لا يستطيع أحدهما أن يتكلم .

تملكت الحمى الإثنين . خرجا معا ، و« كريستينا » و« اللامات » الأربع
يراقبونهما . ذهبا إلى غرفتها . بدأ الثقل ينزاح عنهما . هبت عاطفتها
مثل عاصفة استوائية فأزالت هواء الاتهامات المتبادلة وراحا يضحكان
لغبائهما : وعندما كان أيهما يحاول أن يبدأ الكلام في شبه اعتذار ،
أو تفسير أو تبرير للمد والجزر في عواطفهما .. كان الآخر يقاطعه قبل
أن يشرع في ذلك . تفعل ذلك « ليزا » بأن تقبله . حركات شفيتها
ولسانها تجعل الكلام أكثر من ذلك لا لزوم له . وقرر « لودفيك » أن
يقلدها . كان قد استيقظ في الصباح وهو يشعر بالوهن أكثر من
العادة . مسد شعرها ثم قبلها ، مسده وقضم حلمتيها برفق « أحبك
يا ليزا » .

نظرت إليه وهي تبتسم ذاهلة . غاص قلبه في قدميه .. هل هما
مقدمان على . دورة جديدة من الصراع العاطفي ؟

« أنا قلق بعض الشيء بسبب مقالى كما تعلمين . كان لابد أن يعيده إلى البروفيسور « لويو » . عن الجهاز العصبى و - « ثم صرخ : « ليزا ! جهازى العصبى لا يمكنه أن يتحمل المزيد من تمنعك ! » . جعلهما ذلك يضحكان .. ثم مارسا الجنس مرة أخرى . أنسابت الذكريات الحلوة هادئة مثل « الدانوب » !

« اللاندمان ... هل تذكر يا « لودو » ؟ »

ابتسم وهى ابتسمت . كان أول لقاء بينهما قد تم فى عام ١٩١٣ ، لم يكن « الأرشيديوك » قد زار « سارايفو » بعد ، وعلى السطح كانت « قيينا » تبدو صلبة كسابق عهدها . تحت السطح .. كانت الصدوع والتشققات قد بدأت تظهر .

« ليزا » تجلس مع عاشق . زميل فى دراسة الطب ، فى مقهى « لاندتمان » . فنجانا القهوة ممثلتان حتى المنتصف وأكواب الماء موضوعة على الطاولة لم تمتد إليه يد . شاب متجهم يرتدى جاكيت ممزقا وقميصا مربعات وينظرون قصيرا عليه وجوريا أسود اللون .. دخل ممسكا بنسخة من جريدة « أربيتز زيتونج » . يبدو من مظهره أنه طالب ولكن لم يسبق لهما أن شاهداه فى « لاندتمان » . ينظر إليها محذقا وهو يبتسم . « ليزا » مدهوشة ، كيف يمكن لابتسامة أن تعيد تشكيل وجه على هذا النحو ؟ تعيد تشكيله تماما !

صديقها العاشق يهمس فى أذنها : « يحاول أن يعلقك ! كيف تتوقعين أن تكون محاولته وكيف سيبدأ حديثه معك ؟ »

وقبل أن ترد عليه « ليزا » ، كان « لودفيك » قد وصل إلى طاولتهما . كلمها بالألمانية ولكن ولكنه بولندية حادة .

« أسمحى لى يا « فراولين » * .. فى طقس كهذا .. حتى النسور ذات الرأسين يمكن أن تنوب ! » .

لا شك أنها افتتاحية مبتكرة ! « ليزا » تنفجر فى الضحك وتجده صعوبة فى أن تتوقف . ابتسامه « لودفيك » تختفى . « ليزا » الآن فاقدة السيطرة . وفجأة يقتحم لقاكما الأول صوت من طاولة مجاورة .

استدار « لودفيك » كأنما أصابته رصاصة . امرأة فى أواخر العقد الخامس ترتدى بلوزة سوداء من القطن وتتنورة طويلة وشالا من الحرير الأحمر يغطى كتفها وقبعة من القش ، وكانت تدقق النظر فى « لودفيك » جيدا . عيناها تحفران فيه ثقوبا . يحمر وجهه . (فعلا أحمر وجهه) ، يعتذر « ليزا » وصديقها بسرعة ويصحب السيدة ويخرجان من المقهى .

الآن يضحكان على حدث وقع من فترة قصيرة ولكنه يبدو وكأنه قديم . « لوكان الأمر هكذا دائما ... فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » .

ردت عليه برقة : « والثورة ! نسيتهما ؟ أتمنى ألا تكون متقلبا هكذا معى ! »

وفى الخارج كان الظلام قد بدأ يخيم . أمضيا النهار كله فى الفراش . جعلهما الإدراك يشعران بالتحلل .. وبالسعادة !

* آفة Fräulein .

كنت فى الرابعة من عمرى عندما غزا « هتلر » الاتحاد السوفيتى .
أنا وجدتك « جيرترود » كنا فى « موسكو » فى ذلك الوقت ، وكانت هى
التي طلبت أن تبقى فى العاصمة السوفيتية لكى تساعد بالعمل فى
القسم الألمانى بالإذاعة ، كثير من الأصدقاء رجوها أن تتركهم يأخذونى
معهم خارج المدينة ، وكانت على وشك الاستسلام لرجاءاتهم ولكننى
رفضت بشدة . تملكنى الغضب فكسرت الأكواب وهددت بالقفز من
النافذة وهكذا ... مارست كل تلك التصرفات المرعبة وأفلحت خطتى ،
فخافوا وتركونى معها فى « موسكو » .

هل تعلم يا « كارل » أن معظم الذين عرفناهم فى « موسكو » لم
يكونوا خائفين بالمرة ؟ « هتلر » وُحْدَنَا ، ونسينا رعب حملات التطهير ،
وعمليات القتل الجماعى . ورغم صغر سنى آنذاك ، إلا أنى أذكر نظرات
الرعب على وجوه الناس . قد لاتكون كلها ذكريات ، فربما كانت
ذكرياتى قد اختلطت بما روته لى جيرترود فيما بعد ، أى بعد هزيمة
النازية . أثناء سنوات الحرب كانت هناك أشياء فى « موسكو » لا تخلو
من المرح ، وقد يبدو ذلك غريبا فى نظرك . كان الأمر يبدو لنا وكأننا
من خلال تلك الكارثة الأكبر يمكن أن نتجاوز العذاب الذى يفرضه
علينا حكامنا .

كان الألمان على أبواب المدينة ، وكان على « ستالين » أن يسلح الناس . كان لى أصدقاء فى العاشرة أو أكبر قليلاً ، وزعت عليهم الأسلحة وألحقوا بقوات الدفاع الشعبى . تمنيت أن أذهب معهم ، ولكن أمى لم تكن تريدنى أن أبتعد عن عينيها .

كانت تأخذنى معها إلى محطة الإذاعة وأجلس رغماً عنى بالساعات استمع إلى الأحاديث الطويلة المملة « إلى الشعب الألمانى ... إلى كل الوطنيين الألمان » .

نعم ! وطنيون ! إذاعات ستالين ذاتها كانت الآن « وطنية » فى لهجتها ، ولكن الأغبياء لم يفهموا أن معظم « الوطنيين » الألمان كانوا - سواء بإرادتهم أو بدونها - يؤيدون النازى ، ويتمنون انتصاره فى « موسكو » . القيادة الألمانية العليا كانت تعتقد أن « هتلر » لابد أن ينجح فيما فشل فيه « نابليون » ! ستالين « أيضاً كانت تنتابه هواجس « نابليون » .

انتصار القيصر على الجنرال الفرنسى ، الذى كان يريد أن ينشر التنوير عن طريق القتال ، كان ينظر إليه كسابقة بطولية ووطنية . جنرالات الجيش الأحمر الذين لم يكونوا قد أعدموا بعد ، أُطلق سراحهم وأرسلوا إلى الجبهة .

وعندما كانت « جيرترود » تعود إلى المنزل ليلاً ، كانت تحدثنى عن طفولتها وعن سبب هروبها من ألمانيا ، فى المرات العادية كنت أنام منها ، ولكن إثارة الحرب والجو المشحون ، والبطولات الحقيقية للناس العاديين الذين كانوا يعيشون معنا فى المبنى نفسه ... كل ذلك كان يجعلنى مستيقظاً .. أريد أن أسمع بعد سنوات ، وكنت قد نسيت

طرفاً من حكايتها ، كنت أسألها كثيراً ، حتى غدا ذلك جزءاً من ذاكرتى .

أعتقد أنها إعتادت أن تتكلم معك أيضاً فى السرير ، ولابد أنك كنت فى السابعة أو الثامنة تقريباً فى ذلك الوقت ولكنها كانت تضحك وهى تقول : « كارل » ابنك سيصبح برجوازيّاً ، يغلبه النعاس دائماً فى التوقيت الخطأ .

كانت بالطبع تعرف كل شئ عن معنى أن تكون برجوازيّاً .

روائح الصيف كانت هى التى تجعلها تتكلم عن طفولتها وعن « ميونخ » ، تلك المدينة التى كانت تحبها ، تحكى عن الحديقة الكبيرة فى بيت العائلة القديم فى « شوابن » ، وعن فرحها عندما ترى بشائر التوت البرى ، وعن رائحة أوراق الصنوبر المنعشة .

قبل ليال قليلة من رحيلها هى وحبيبها « ديفيد » إلى « برلين » كانا قد ذهبا لمشاهدة مسرحية « أرنست توالر » الثورية « ماس منش » * التى كانت بمثابة دعوة للسلاح .

« جيرتى » ... على نحو خاص ، فتنتها القصة أكثر من العرض ... كأنها نومتها مغناطيسياً !

أنا قرأت المسرحية يا « كارل » وهى مروعة فعلاً ! قرأتها كمواطن فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية وشعرت بالنفور الشديد .. أما جدتك .. فلا !

* الإنسان الجماهيرى Masse Mensch .

حتى النهاية ، كانت تتذكر الإرادة الثورية الحديدية المجسدة فى
كلمات « الكورس » ، والتي كانت قد تملك قلبها وعقلها هى
و« ديفيد » فى نفس الوقت :

منذ الأزل ونحن سجناء ،

فى هاوية المدن الشاهقة .

نحن الموضوعين على مذبح الأنظمة الميكانيكية ،

الساخرة ،

نحن ، نوى الوجوه الغارقة فى ليل الدموع

الذين منذ الأزل بلا أمهات

من هاوية المصانع نصرخ

متى سنعمل فى حب ؟

متى سنعمل بإرادتنا ؟

متى الخلاص ؟

مسرحية « توالر » قوت عزيمة « جيرترود » . لن تصبح أبدا مثل
تلك المرأة فى مسرحية « توالر » . . لن تحجم أبدا عن العنف . لن
تسمع أبداً للعواطف الإنسانية أن تكون صاحبة اليد العليا .

كان ذلك فى « برلين » عندما التقت والدى للمرة الأولى . روت لى
القصة مرارا دون أن تضيع منها التفاصيل . ودائما بالضبط ! صوتها
يرتفع قليلاً أو يتكلف قليلاً عندما تروى الأحداث .

كنت أتساعل أحيانا بينى وبين نفسى ، ماذا وراء ذلك الألم
المبرح ؟!

« جيرترود » التقت « لودفيك » لأول مرة فى « بار فورستنهوف » .
فى « بوتسدامر بلاتس » . ليلة باردة من ليالى نوفمبر فى « برلين » : ٧
نوفمبر إن شئنا الدقة . والسبب ما ، كانت تلك العبارة الأخيرة تزعجنى
دائما . « ٧ نوفمبر إن شئنا الدقة » . أقصد أنها لا يمكن أن تكون ٧
نوفمبر ، إن كنا لا نريد أن نتوخى الدقة ... هل يمكن ؟ كنا يعرف أنها
ذكرى الثورة الروسية . ربما كانت هى المسحة الدينية التى كانت
تزعجنى ! كانت « جيرترود » متوترة ومستتارة . كان « لودفيك » مبعوثا
من قبل الدولية الشيوعية ، والشعبية الرابعة فى الجيش الأحمر .
المخابرات العسكرية . أما هى فكانت واحدة من ستة اختارتهم قيادة
الحزب الشيوعى الألمانى فى « برلين » للعمل السرى . الستة جميعاً
تخلوا عن كل شئ آخر . هوياتهم الشخصية ، جنسياتهم ، عضويتهم
الرسمية فى الحزب أوقفت ، كانوا يعتبرون أنفسهم عيون وأذان الثورة
العالمية التى تعمل خلف خطوط الأعداء . سمح لها « لودفيك »
بالاحتفاظ باسمها الأول فقط ، لأنه لم يسبق له أن كان قد التقى فى
حياته شيوعيا باسم « جيرترود » . هكذا كان . ابن نكتة ، مراوغاً ،
ووفيا لأصدقائه حتى عندما كان يتعارض الوفاء مع خط الحزب . قال
« لودفيك » وهو ينحنى تحية لعاملة البار بشكل مبالغ فيه : كأسان من
نبيذكم الفاخر ، لو تكرمت يا « فراولين » . اليوم هو السابع من
نوفمبر ، عيد الميلاد السادس لطفلنا ، وأرجوك انضمي إلينا

وشاركينا ! « شكراً جزيلاً يا « لودفيك » ... ما اسم ابنك ؟ « بقي
« لودفيك » مرتبكا للحظات ، ثم ابتسم ورفع كأسه . « فى صحة «
« فلاديمير » .. ! ندعوه بـ « فلادى » ... تعرفين ... على اسم والده ! «
كانت « جيرترود » متوترة فلم تبتسم . على أية حال ... ألم يكن ذلك
عدم انضباط منه عندما يسخر من « لينين » والثورة ؟ عاملة البار لم
تفهم ، ولكن جيرترود أدركت لهجة الاستخفاف ! كانت التعليمات لديها
أن ترتدى ثياباً أنيقة . لم تكن ملابس البروليتاريا الخادعة محبذة
فى مجال عملها الجديد . ولم يكن فى ذلك أى مشكلة بالنسبة
لـ « جيرترود » .

فى أول لقاء لها مع « لودفيك » كانت ترتدى جاكيت مربعات لونه بنى
، وتنورة مناسبة ، وبلوزة « بيچ » مقفولة عند الرقبة بـ «
بروش » من حجر الأمايست الأرجوانى ، كان لجذتها ذات يوم .
شعرها الأسود الناعم ملموم فى حزمة واحدة مستقرة فى دعة على
رقبتها الرخامية البيضاء . نظارتها ملقاة على الطاولة ... كانت قبيحة
الشكل كان يحاول أن يرشدها إلى فنى بصريات آخر !

لاحظ « لودفيك » أنها كانت تتكلم بطريقة صريحة ولطيفة ،
ويابتسامه فى عينيها المظللتين بحزن دفين . ما هى ياترى
الهموم التى تعيشها ؟! قرأ ملفها جيداً . عرف كل شئ عن حياتها
فى « ميونخ » وقطيعتها مع العائلة . عرف عن الزواج القصير من
« ديفيد شتاين » فى « ورنج » ولكنه لم يعرف شيئاً عن الأحران التى

تظل عينيها والتي لم يفلح المكياج ولا النظارة في إخفائها . ومن جانبها ، كانت « جيرتى » تتعجب كيف أصبح « لودفيك » ، الذى لا يبدو أكبر منها بكثير ، قد أصبح على تلك الدرجة من الأهمية فى « الكومنتيرن » ؟ هل يمكن أن يكون مفكرا أو مثقفاً كبيراً بالفعل ؟ شكله عادى ! وجه المثقف عندها تمثله « روزا لكسمبرج » ، « إيوجين ليفينيه » ، « كارل راديك » ، « ليون تروتسكى » .

توقفت وسط مجرى أفكارها . كان « لودفيك » شلاقيا ، ولم يكن يهوديا من وسط أوروبا . كان استنتاجها صحيحا إلى حد ما . كانت أمه روسية وأبوه يهوديا من بولنده ورث عن أمه الجبهة العريضة والشعر الأشقر . عيناه زرقاوان مثل والده ، وعندما يضحك يمتلئ وجهه بالتجاعيد . لاحظت « جيرتى » أن يديه غليظتان مثل أيدي الفلاحين ، ولكن الأظافر مشذبة . لا أثر للتبغ عليها ، ولا حواف مشوهة . أثناء العشاء ، أصبح « لودفيك » صارما فجأة . تجهم وجهه ، وبدت عيناه باردتين حادتين قال لها إنه قد تم تجنيدها لسبب واحد : وهو قدرتها على التحدث بالإنجليزية والفرنسية والروسية التى جعلها باللغة القيمة والأهمية .

شرح لها كيف أن عملها لن يكون سهلاً ، وأنه سوف يتضمن تنقلات وأسفارا كثيرة فى داخل وخارج ألمانيا ، وأنها سوف تسافر إلى « موسكو » فى خلال أسبوعين من أجل تدريب فنى ، بعدها سيعطونها جواز سفر جديدا . وعليها أن تقطع كل صلاتها بالحزب الألمانى فوراً وتعيد بطاقة العضوية . كما أن عليها ألا تظهر مع المتعاطفين مع الحزب .

« هل لديك علاقة حب ؟ »

« أنا لا أرى علاقة لذلك بأى شئ ! »

« هل هو رفيق ؟ »

« لا »

قالت بصوت لا يخلو من تحد .

« حسن » ، قال « لودفيك »

« هو مصور ، إن كان لابد أن تعرف . ديمقراطى اجتماعى ولكنه غير نشط .. أعنى أنه »

« رائع ! ممتاز ! وهل هو محل ثقة ؟ »

« من أجل ماذا ؟ » .

« يلتقط بعض الصور التى قد نحتاجها من وقت لآخر . »

« وهل سيتقاضى أجراً عن ذلك ؟ »

« بالطبع »

« يمكن إذن أن نتق به . »

« لماذا انفصلت عن « ديفيد شتاين » ؟ إنه إنسان رائع ، ورفيق جيد

. لماذا ؟ »

« وهل لذلك صلة بأى شئ ؟ »

« كل ما أسألك عنه له صلة بكل شئ »

« حسن ! إذا كان لابد أن تعرف ... فإن « ديفيد » أحب امرأة أخرى . طيبة . ديمقراطية اجتماعية » .

« أعرف »

وأخذت « جيرترود » تضحك . أما وجه « لودفيك » فبقى صارماً كما هو . « متأسفة ! ... إنها طريقتك فى قولك « أعرف » .. امرأته الجديدة اسمها « جيردا » . كان يريد دائماً أن يصبح طبيباً . ولكن الثورة الباقارية عطلت ذلك . وكانت « جيردا » هى الطريق الذى يعيده إلى الطب . هما الآن فى « هيدلبرج » وهى التى تتحمل نفقات دراسته . حب حقيقى .

يقال إنه لم يعد نشطاً سياسياً .

قال « لودفيك » بهدوء : « معلوماتك خاطئة ! » .

هكذا بدأ كل شئ . فى اليوم السابع من نوفمبر عام ١٩٢٣ . لو أن أحداً كان قد انبأها آنذاك إلى أين تمضى الأمور ، وكيف سيلقى « لودفيك » حتفه ، لضحكت فى وجهه وأعتبرته مجنوناً . ورغم ذلك ، كان هناك حتى حينذاك - أمثال ذلك العجوز المنكود « كارل كاوتسكى » الذى كان يحذر مراراً وتكراراً من أن التجربة البلشفية بانعزالها عن واقع العالم ، لا يمكن أن تؤدى سوى إلى كارثة .

« لينين » و« تروتسكى » وهما من سادة المحاججة ، رداً عليه . جميع أعضاء الحزب فى ألمانيا كلها عبروا عن استحسانهم ووبخوا الديمقراطية الاجتماعيين وكانوا يصفونهم بـ « كاوتسكى المرتد » و« ثورة البروليتاريا » و« الإرهاب والشيوعية » . نعم ! حدث ذلك بالضبط وكان أمراً حسناً !

«لوردفيك؟» ، تماما كما اكتشفت «جيرتي» - نكاته ، تقلباته
المزاجية المفاجئة ، ذكاؤه الحاد ، نفاذ بصيرته ومعرفته بمكامن القوة
والضعف في القادة الشيوعيين في «موسكو» و«برلين» ، بدأت تقدر
كيف ولماذا صعد هكذا بسرعة . كان نوعية خاصة جدا من البشر ،
نصف شاعر ، نصف قوميسار . طيب القلب . شديد الاندفاع !

أتذكر يوما جميلا من أيام الصيف في «پوشكينو» . كنا بصحبة
أصدقاء . العمة «يلينا» وزوجها العم «ميتيا» . كان ابنيهما «ساشا»
في نفس عمري تقريبا وكنا نذهب معا إلى المدرسة نفسها في
«موسكو» . كان العم «ميتيا» عالم فيزياء يبحث في إنشطار الذرة
ولذلك كان لديه تلك «الداتشا» * حيث يستطيع أن يعمل في هدوء .
وبينما كنت أنا و«ساشا» نلعب ، ونحفر اسمينا على أشجار «البتولا»
سمعنا صوت «جيرترود» متهللا وهي تجري نحونا ، وخلفها والدا
«ساشا» يرقصان في بهجة .

«الجيش الأحمر يزحف نحو «برلين» . هل تعرف ماذا يعنى ذلك
يا «فلادي» ؟ لقد كسبنا الحرب !»

حملت أن و«ساشا» في الثلاثة الكبار . «صحيح ياماتي؟» .
«صحيح يابني» ، قال العم «ميتيا» بصوت أجش وهو يمسد لحيته
بشكل ينم عن الرضا «لقد انتهى الألمان . المطرقة والمنجل سوف
يرفرقان فوق «برلين» !»

* . منزل ريفي صغير - Dacha

أتذكر أننى قلت « ولكن نحن ألمان » ، وغضبت عندما ضحكوا كلهم ، مثلما اعتدت أنت أن تغضب عندما كنت أضحك أنا وأمك على بعض أسئلتك . « ساشا » اضطرب لما قلت . « هل سيقوم جنرالنا بقتل الألمان ؟ »

وردت عليه أمه موبخة « لا يا جاهل ! سيقتلون النازيين فقط » .

بعد أن سئمنا الاستماع لحديث الكبار ، هرعنا إلى المكان الذى كان يحلو لنا أن نختبئ فيه فى الحقول القريبة من النهر . هنا ، كان من عادتنا أن نستلقى على بطوننا ، وجوهنا مستندة على أيدينا ونحن نحدق فى النهر المنساب بالساعات ، سارحين فى خيالنا .

كانت الأصوات الوحيدة التى تتناهى إلى مسامعنا هى أصوات الطيور وهمهمة الجدول الصغير وهو يتدفق على الصخور القديمة فى طريقة إلى النهر المنخفض عن مستواه .

كان من عادتنا أن نتسلق الصخور الزلقة التى يكسوها العشب الأخضر القاتم الذى يتحول إلى اللون البنى المحمر عندما تشرق عليه الشمس ، ثم نقفز فى الجدول رغم أن ذلك كان محظوراً لضالته .

كان ذلك شيئاً رائعاً ! هنا كنا ننسى أن الاتحاد السوفيتى فى حالة حرب ، وأن الملايين يموتون ، وأن مئات المدن والقرى كانت قد تحولت إلى أطلال ، وعندما كنا نقف فوق تلك الصخور كنا ننسى حتى أن الجيش الأحمر فى طريقة إلى « برلين » .

لم أنس أبداً ذلك المساء فى « پوشكينو » . أبداً ! .

وبعد سنوات كنت مازلت أتذكر ذلك المنظر الطبيعي الخلاب ! وكيف كان كل شيء يبدو هادئاً . بعد عدة سنوات ، قالت لى « جيرترود » إنها كانت تشعر بنفس الشعور .

كل ذكرياتها السيئة كانت مجمدة مؤقتاً . تملكتهأ أفكار كبرى ، طموحات خيالية ، أحلام بمستقبل وهى طافية مع النهر ، كانت دائماً تذهب إلى هناك بمفردها .

كانت « جيرترود » تعرف كيف ستبدو « ستالينجراد » و« ليننجراد » . كانت قد أجرت مقابلة مع الجنرال « فون باولوس » وجنود جيشة السادس المهزوم لبثها من راديو « موسكو » . بدأت تتسائل بينها وبين نفسها كيف ستبدو ألمانيا عندما تعود إليها .

عادت ذكريات « شوابن » تتدفق . وبكت عندما تذكرت « هينى » ووالديها . اندفعت أحتضنها . كنا قريبين من بعضنا ، أقرب مما أنت بالنسبة لوالديك . أستغرب دائماً لماذا الأمر هكذا ! ما الخطأ الذى ارتكبناه يا « كارل » ؟ على الأقل لم يكن أينا مدافعاً عن النظام القديم ! كلانا كان يقاتل من أجل التغيير ، ولكن ليس من أجل العلاج بالصدمات ... ولا من أجل تجميعنا على ذلك النحو القسرى الذى لا يعترف بنا كبشر ! حتى أنت وأصدقائك فى « إبيرت ستيفتونج » لا بد أنكم ترون أن ذلك كان يمكن أن يتم بأسلوب مختلف .

أتذكر « جيرترود » عندما أرسلتنى عائداً إلى « الداتشا » لأحضر بعض العصائر المثجة ولا شيء أكثر . كان يوم ذكريات جميلة بالنسبة

لى ، ولكن « جيرترود » بعد ذلك روت لى كيف أنتهى ذلك اليوم .
عدت إليها بدون العصير وأنا أصرخ .. « ماتى ! ماتى » وعندما اقتربت
منها رأت وجهى. الفارق فى الدموع وأخذتنى فى أحضانها .

قلت : « هناك ثلاثة رجال يريدون مقابلتك » وكنت أحاول أن أتمالك
نفسى « رجال من الجيش يريدون مقابلتك » .

« أهذا ... أهذا .. أنا قادمة .. لماذا أنت خائف هكذا يا صغرى
« فلاديمير » ؟ »

« أحدهم له شعر أسود وشارب مثل شارب الرفيق « ستالين » ،
أمسك بى بشدة حتى لا أهرب . ثم قذف بى فى الهواء فضحكوا
جميعا . كانوا يتكلمون بلغة غريبة ، ثم قال لى : أذهب وأحضر أمك ،
أبلغها أنها إذا لم تحضر فوراً فسوف نقطع رأسها الألمانى » .

شحب وجه « جيرتى » ، كانت تعرف . أمسكت ذراعى بشدة لكى
تمنع ارتعاشة يدها وعادت إلى « الداتشا » . كانت تعرف من هو ،
لماذا يمسك بـ « فلادى » بقبضته الأشبه بقبضة وحش . وكانت
تشعر بالغثيان .

لم أدخل البيت مع أمى . من الخارج ... كنت ألاحظ ظل حركتهم
وأسمع صدى أصواتهم العالية ، وكنت سعيدا لأن « جيرترود »
أيضا كان يبدو عليها أنها ليست مستريحة للرجل ذى الشارب !

لمحنا الرجل نتجسس فرفع قبضته نحونا متوعدا . هرعت أنا
و« ساشا » إلى الغابة واختبأنا هناك . لم نخرج إلا بعد أن سمعنا
صوت سيارة عسكرية وهي تتحرك من هذا الرجل يا أمى ولماذا جاء
إلى هنا ؟ »

« اهدأ يا « فلادى » ... اهدأ يا حبيبى .. كنا نعمل معاً قبل
سنوات . »

« إنه فظ يا أمى ! فظ ! »

جفلت « جيرتى » . فوجئت بصدق الإحساس الفطرى لطفل !

« أتمنى ألا تلتقى مرة أخرى ! »

فى يناير ١٩٢٤ كانت موسكو تشهد أبرد شتاء فى تاريخها .
أربعون درجة تحت الصفر يوم وفاة « لينين » . كل شئ متجمد .
أضاعوا المشاعل فى الميادين . تجمع الناس مع انتشار الخبر .
الرفيق « لينين » مات .

الرفيق « لينين » مات . من كل فج بالمدينة وضواحيها كانت الجموع
، بطيئة .. متشحة بالأسود والأحمر تزحف فى اتجاه بهو العمدة حيث
الزعيم مسجى !

الدخان المتصاعد من المشاعل محمل بالقطران ويعوق الرؤية لدرجة
أن عربات الترام وهى تدق أجراسها كانت تتحرك بسرعة السلحفاه .
المركبات مغطاه بالجليد وتبدو كأنها ساكنه فى أماكنها لأن المشاه
أسرع منها .

كان « لودفيك » يسمع الموسيقى من ميدان « لوبيانكا » . المارش
الجنائزى تتخلله انفجارات الديناميت . حتى فى موته ، لم يكن
« لينين » ينعم بالسلام ! كانوا يشقون بطن الأرض ليجهزوا قبره .
الظلام مخيم . موسكو وسكانها يلفهم ليل قطبى .

كانوا يتحركون نحو جسده فى صمت تام . فى التابوت المرتفع الذى
تحيط به الزهور والأعلام الحمراء كان يظهر وجه « لينين » .

انثالت الدموع على وجه « لودفيك » . أمسكت « ليزا » ذراعه بشدة
وهما يمران أمام الرجل الميت ذى الجبهة البارزة واليدين الصغيرتين .

كانا قد استمعا إليه عدة مرات وهو يتكلم . و«لودفيك » شاهده عن
قرب فى اجتماعات « الكومنتيرت » وتحدث معه فى بعض المناسبات .

وضعت « ليزا » يدها على بطنها المنتفخة وكلمت طفلها الذى لم
يولد بعد . « هذا هو محور التاريخ ... هل تفهم ؟ »

وهما خارجان ، لحها « لودفيك » ، كانت جيرتى ترتدى السواد
وعلى رأسها وشاح أحمر ، ووجهها مغطى بالدموع ، يكسوه الحزن .
أخذها من ذراعها وسارا مبتعدين عن الميدان الأحمر .

أى جيل آخر ربما مروا به ؟ الحرب ، والثوره ، والحرب الأهلية .
فى غرفتهما الصغيرة التى تضيئها الشموع ، شربوا القودكا وتحدثوا
عن « لينين » .

« لودفيك » أخبر « جيرتى » و« ليزا » أن هناك شائعات مغرضة .
« ستالين » أهان « كرويسكايا » رفيقة عمر « لينين » ، « لينين كان قد
قطع كل علاقاته بـ « ستالين » « لينين » لجأ إلى « تروتسكى » لتكوين
جبهة مشتركة ضد « ستالين » « لينين » ترك وصية أخيرة يطلب فيها من
الحزب أن يزيع « ستالين » من منصب السكرتير العام . « ستالين »
دس السم لـ « لينين » . وكانت جيرترود تسأل لاهثة من شدة التأثير
« وهل ذلك صحيح ؟ » ، و«لودفيك» يهز كتفيه .

وفى اليوم التالى لم يكن « تروتسكى » موجودا فى الجنازة . كان
يرقد متوَعك الصحة مصابا بحمى شديدة وكان بعيداً عن « موسكو »

. المكتب السياسى نصحه بالآ يعود إلى العاصمة قبل أن تتحسن صحته .

« نعاهدك أيها الرفيق « لينين » » ، هكذا بدأت بخطبة « ستالين » فى الجنازة . كانت تلك اللغة غريبة بالنسبة لـ « لودفيك » ومعظم أعضاء الحزب .. وكان « لودفيك » نافرا ومنزعجا من التلميحات الدينية والخرافية . ولكن لماذا « ستالين » ؟

كان يقبل أن يكون « تروتسكى » غائبا ، « تروتسكى » الذى كان يستطيع أفضل من أى شخص آخر أن يحث الجنود على القتال ويحفزهم عن طريق الإقناع وتقديم النموذج كقوميسار للحرب وكقائد للجيش الأحمر ... ولكن أى شخص آخر كان يمكن أن يكون أفضل ، « بوخارين » ، « زينوفييف » ، « كامينييف » . كلهم حاضر هنا وقادر على ذلك . لماذا « ستالين » ؟ حتى العاديين من الناس كانوا فى حيرة من الأمر .

فى تلك الليلة قال « لودفيك » لـ « ليزا » إن حربا جديدة قد بدأت . حرب على الخلافة وأخشى أن يكون صديقنا قد فقد الأمل فى الفوز . كان لابد أن يقوم من فراش المرض ويستقل قطارا . رأيته عندما كان يقود الرجال فى المعارك وحرارته مرتفعة .

لم يكن « لودفيك » قد سبق له أن تكلم مع قوميسار الحرب ، ولكنه حارب تحت قيادته فى الحرب الأهلية وفتن بشخصيته .

سألت « ليزا » : هل تعتقد أنه سيكون هناك المزيد من سفك الدماء ؟ هل ستاكل ثورتنا نفسها كما فعلت الثورة الفرنسية ؟ .

باحث عينا « لودفيك » بالقلق ! لم يكن سعيدا عندما قرر الحزب ،
بضغط من « لينين » و« تروتسكى » ، عبور المياه المتجمدة والاستيلاء
على « كرونشتاد » بالقوة وحل لجان البحارة واعتبار الثوار « عملاء
للتورة المضادة » ، الأمر الذى يعنى أن الدولة كان من حقها أن تعاملهم
كما تعامل أعداءها الحقيقيين ، بصرف النظر عن أهدافهم . كان ذلك
هو « الثيرميدور » * كما شرح « لينين » . تذكر مصير « رويسبير » و«
سان جوست » . هذه هى مأساتنا . كان « لودفيك » يعتقد أن كل ثورة
يؤرقها مصير سابقتها .

وكان « لينين » لديه هاجس « الثيرميدور » . لا بد من الاحتفاظ
بالسلطة بأى ثمن . نشاط المنشقيك والصوار الاشتراكيين اليساريين
وصحفهم محظور ، الفصائل المنشقة داخل حزب البلشفيك تم حلها
وذلك كله باسم « الثيرميدور » اللعين !

وتذكر ما رواه لهم « راديك » عن حوار مع « روزا لكسمبرج » قبل
مقتلها بثلاثة أيام . « روزا » كانت قد قالت له فى « برلين » :
« لم ينجح الرعب الذى مارسوه فى أن يسحقنا أبدا . كيف لنا أن
نعتمد على الرعب ؟ » .

* « ثيرميدور » هو شهر فى التقويم الثورى الفرنسى يبدأ فى ١٩ يوليو عندما أطيح
بـ « رويسبير » فى سنة ١٧٩٤ والإشارة هنا إلى أنها مرحلة تميزها دكتاتورية تركز على استفادة
النظام وفرضة وتخفيف التوترات مهما كانت الوسيلة (المترجم) .

أما « راديك » فكان ينفث غليوته فى صمت منتظرا أن يسأله لودفيك أو الآخرون كيف كان رده ، ولكن أحدا منهم لم يتكلم .

وبعد أن شعر بالضيق ، وبعد أن فرغ صبره يتكلم « راديك » .

« قلت لها هكذا مباشرة ... روزا » ... الثورة العالمية فى خطر هنا . لابد أن ننتظر بعض السنوات . الرعب لا يكون فعلاً عندما تستخدمه طبقة محكوم عليها بالفناء ضد المد العالى لطبقة جديدة ، ولكنه يصبح قويا ومؤثرا إذا استخدمناه نحن ضد طبقة محكوم عليها بالموت تاريخياً .

لم تعجبهم المغالطة ... فقطاعته خمسة أصوات فى نفس واحد « وماذا كان ردها ؟ » .

حملق فيهم « راديك » غاضباً . كان يعرفهم جميعاً . يعرف أنهم من المتمرسين فى العمل السرى فى بولندا ، وأمضوا فترات فى السجون ويحبون « روزا » . لم ينطق « راديك » ، وقف فى هدوء وغادر المقهى .

كان وجه « ليزا » يلمع فى ضوء المصباح الخافت . عندما نظر إليها « لودفيك » لاحظ القلق فى عينيها . تعانقا . كان عناقاً يعبر عن اليأس أكثر مما هو عن الحب . جمع خديها فى كفيه وقبل شففتيها ثم عينيها . كان ابنيهما سيولد هذا الشهر . فهل يجد دفئاً فى « موسكو » ؟!

كان قلقا بخصوص المستقبل ، حتى فى تلك المرحلة الباكرة من الثورة . كانوا يعولون على انتصار فى ألمانيا ولكنه ظل مراوفاً ، وأصبح

« لودفيك » مقتنعاً تقريباً باستحالة الثورة في ألمانيا . الأوضاع سيئة . الاشتراكيون مطوقون تماماً في المصانع . الريف معاد . الجامعات تحت سيطرة القوميين الألمان . المثقفون منقسمون والطبقات الوسطى مفزعة من الثورة الروسية ، وفي عام ١٩٢٤ كانت تلك الأفكار أشبه بالهرطقة .

ولكن ماذا عن « جيرتي » ؟ في القطار بين « برلين » و«موسكو» ، قررت أنها كانت تريد « لودفيك » ، ليس من أجل الرحلة فقط وإنما إلى الأبد . كانا قد استقبلا العام الجديد لتوهم مع بقية المسافرين في القطار . والآن عادا إلى المقصورة الخاصة بهما . الجوازات تقول إنهما رجل وزوجته . اقترحت أن يكونا حبيبين . ويلطف شديد رفض العرض متعللاً بالتزامات عاطفية - زوجته حامل بطفلها في موسكو - وقواعد مهنية .

كان يعتبر مسلكا سيئاً وخطراً أن يستمر أناس مثلهما في ذلك الارتباط في هذا الميدان من العمل . الحياة تصبح عرضة للخطر . وكل ما يستطيع أن يقدمه هو الرفقة ! حاولت « جيرتي » أن تخفي إستيائها بذلاقة اللسان .

« تقصد أنك حتى لست « رجل كوب ماء » ؟

ابتسم « لودفيك » . كان لينين قد قال لـ « كلارا زيتكين » - أم ترى كانت « كوللونتاي » - إن الجنس مثل شرب كوب من الماء . لا شيء أكثر ولا شيء أقل . وبين عشية وضحاها أصبحت تلك الملاحظة العابرة عقيدة مناسبة لكثير من الشيوعيين في كل أوروبا . والنتيجة ... أن كثيراً من الماء بات يستهلك في أرجاء العالم .

« لا » ، رد عليها « لودفيك » وهو يتسم ، « على أية حال ، كان « فلاديمير إيليتش » يشير إلى علاقته بـ « كروبسكايا » .. لم يكن الأمر أبدا مجرد كوب ماء مع « أنسيا » أو أى واحدة أخرى يمكن أن أخبرك عنها » .

« جيرتى » تأملت لهذا الصدد ، وغضبت من نفسها لأنها تأملت . وبمجرد أن وصلا إلى « موسكو » انغمست فى برنامج تدريبى مكثف وبدأت عاطفتها نحو « لودفيك » فى الإنحسار .

ظلا أصدقاء . وبعد أن قابلت « جيرتى » حبيبته « ليزا » ، أصبح من الواضح لها أن أى علاقة جادة معه كانت مستبعدة تماما .

أصبحت « جيرتى » من الموالين لـ « كومنتيرن » . تابعة لـ « جريجورى زينوفيف » ولا تطيق أى تحد للعقيدة السائدة . كانت تتشاجر بعنف مع « لودفيك » على انفراد وفى اجتماعات الحزب التى تناقش « الوضع فى ألمانيا » . وتنقض كالنمرة على أى مظهر ولو ضئيل لما كانت تستنكره وتسمية « تشاؤم البرجوازية الصغيرة » . وكان « لودفيك » يستثيرها بقوله : « وهل تعتقدين أن البروليتاريا متفائلة دائماً ؟ » . ولكن « جيرتى » كانت ثمة ... سكرى بالآمال والتوقعات ، يدفعها لذلك طاقة لم تكن تدري أبدا أنها تمتلكها . كانت تعيش فى عاصمة الثورة العالمية ، تلتقى بالرفاق من كل أركان الدنيا ، سعيدة بالرعب الذى ألقى به الثورة فى قلوب البرجوازية والقادة الإمبرياليين فى الغرب . لم يكن لديها وقت كبير للأمور العادية .

وذات يوم جاء صحفى إنجليزى من جريدة ثورية ليجرى مقابلة مع « زينوفيف » بخصوص خطاب من المفترض أنه كان قد كتبته إلى اتصالات العمال فى بريطانيا . كانت الوثيقة المعروفة برسالة « زينوفيف » قد تم تزيفها بطريقة مكشوفة من قبل الاستخبارات البريطانية لإحراج حكومة الأقلية ... حكومة العمال . لم يكن « زينوفيف » غاضبا ، بل كان يضحك على ذلك ، والحقيقة أن الحدث أشبع غروره الصحفى ، وكان ناحلا طويل القامة واسمه « كريستوفر براون » أعجب كثيرا بمهارة « جيرترود » ك مترجمة . دعاها للعشاء . ظلت تتكلم وتتكلم . وهو يستمع . انتقل حماسها إليه .

قدمته لأصدقائها . اصطحبته ليستمع إلى الشاعر « ماياكوفسكى » الذى كان يحلوه أن يترنم بقصائده . كان فى تلك الليلة متألقا .

فى بوتقة الانصهار السوفيتية ،

ترقد طبقة رقيقة من العفن ،

ومن خلف ظهر الاتحاد السوفيتى ،

يطل خلصة ... أنف البرجوازية البشع !

وبعد أن كان « براون » قد لان بما فيه الكفاية ، جاء دور « لودفيك » قضى معه وقتاً طويلاً . سألته بالتفصيل عن الأوضاع فى بريطانيا والهند . « براون » الذى كان قد عزم على قضاء أسبوعين فى « موسكو » بقى بها ثلاثة أشهر . تقاريره إلى جريدته كانت تزداد سخونة يوما بعد يوم .

ثم حدث شيئان . « جيرترود » اتخذته عشيقا ، و«لودفيك » جنده عميلاً سرّياً . كان « لودفيك » يقول له « نحن لسنا الجنود المشاة للثورة العالمية ، نحن عيونها وآذانها . عندما تعود لابد أن تقطع صلتك بنا علناً .. وتقول إنك نفرت من بعض الجوانب التي شاهدتها . معنى ذلك أنك لن تكون مضطراً للكذب . بإمكاننا أن نساعدك ببعض المواد . أريدك أن تترك عملك في « المانشستر جارديان » وتحصل على وظيفة في « التيمز » « براون » ذهل ! لم يكن ممثلاً جيداً ، وكان متوتراً بخصوص أسلوب تعامله مع أصدقائه . لم يكن مستعداً لتلك الازدواجية على هذا المستوى . « جيرتي » أقنعتة أن ذلك كان ضرورياً . أحبها . عرض عليها الزواج واقترح أن تعود معه إلى «لندن» .

درس « لودفيك » الفكرة جيداً ولكنه رفضها ، كان يحتاج « جيرتي » في ألمانيا .

كانت « جيرتي » والإنجليزى يمارسان الجنس يوميا ، ولكن عندما اعترف بحبه لها لم تستطع أن تكبح عواطفها . كانت قد نسيت دلالها الرومانسى مع « ديفيد شتاين » من زمن ، والآن تتظاهر بالنفور من النزعة الرومانسية والعاطفية فى العلاقات الشخصية .

« الحب ! » قالت لـ « براون » وهما يتأهبان للفراش ذات ليلة ، « ماذا يعنى الحب ؟ إنه مرض يضع سياجا حول العقل .. ويجعلك كائنا لا عقلانيا ! أنا احتقر هذه الكلمة . يا لها من مزحة ! الحب بالنسبة لأناس مثلك يعنى بيتا جميلاً وأطفالاً وحساباً ضخماً فى البنك . الحب فكرة برجوازية .

يبدو أنك قد قرأت شعراً رومانسيا كثيرا... إنه مرض ألماني قديم !
لذلك أفهمك . إنه لعنة يا « كريستوفر » .. أطرحه عن تكوينك !
أرجوك ! الشعراء والروائيون الذين يكتبون فقط عن الحب والمشاعر
الرقيقة ، إنما يفعلون ذلك لأنهم يغمضون أعينهم بون حقارة وزيف
هذا العالم . والآن ... انقلب لكى أمارس الجنس معك .

هيجانها صدمه ! ورغم أنه كان الآن مملوءا بحرارة اغتصاب جديد ،
إلا أنه كان يعرف أنها مخطئة ! وكان يتساعل بينه وبين نفسه عن خلفيات
هذا الانفجار ، ولكن لامبالاتها أثارتها ، وهكذا فعل ما طلبته منه .
فى الأسبوع التالى عاد إلى « لندن » .

حاولت « جيرتى » بإصرار أن تصبح صديقة لـ « ليزا » ونجحت .
كانتا يتحدثان معا عن كل شئ . حياتهما الأولى ، أسرتيهما ، القطيعة
مع الماضى .. وعن العشاق .

سمعت « جيرتى » لأول مرة حكاية « لودفيك » وأصدقائه الأربعة من
« ليزا » عندما كانت فى أشهر الحمل الأخيرة .

يوم « أحد » هادئ كان الجو فى الخارج شديد البرودة تحت سماء
زرقاء صافية ، درجة الحرارة انخفضت ثانية . كان من المفترض أن
يعود « لودفيك » من « براغ » بعد الظهر . كان طفل « ليزا » قلقا كثير
الحركة فى بطنها . لديها إحساس بأنه ولد ، وتخيلته « لودفيك »
مصغرا محبوسا فى بطنها . ضاعفت الفكرة من رقتها وراحت تمسح
بيدها على بطنها بهدوء وهى تغنى أغنية أوكرائية كانت أمها تغنيها
لها وهى طفلة .

شعرت بالارتياح عندما جاءت « جيرتى » مرتدية معطف الجيش الأحمر وقبعة من الفراء تحمل كمية من المواد التموينية . خبز أسمر وجبن وشوكولاته . وسرعان ما تحول الحديث إلى « لودفيك » اعترفت لـ « ليزا » : « عندما رأيته لأول مرة لفت نظرى ، أنه شخص عادى » . ضحكا لغرابة ذلك المفهوم .

وهذا هو سبب تفوقه فى عمله . رجل أعمال صغير .. من الحجم العادى فى وسط أوروبا . تعرفين .. أنه يقابل عملاءه فى « براغ » فوق حانة تستخدم أيضا كماخور .. وصاحب الحانة مقتنع بأنه قواد » .

فجأة انتبهت « جيرتى » لوجود صورة صغيرة فى إطار كانت فوق المدفأة . خمسة أولاد مبللين بالماء من رؤوسهم حتى أصابع أقدامهم ، وجوههم يكسوها البؤس ، فاجأتهم الكاميرا وهم فى سراويل السباحة الغريبة التى تصل إلى الركبة .

سألتها « ليزا » : « هل يمكنك التعرف على « لودفيك » بينهم ؟

« أيهم » ؟

« خمنى !

خمنت « جيرترود » وضحكت « ليزا » .

« هل التقيت بالآخرين » ؟

هزت « جيرتى » رأسها .

« اعتقد أنك لابد أن تلتقى بهم . إنهم معك فى نفس الشعبة »

« مستحيل ! كلهم » ؟

هزت « ليزا » رأسها . وهنا بالضبط شعرت بتقلصات وأمسكت
بطنها بشدة . وضعت « جيرتى كوب الشاي وراحت تمد رقبة « ليزا »
وكتفها برفق .

« يبدو أن الوقت قد اقترب يا « جيرتى » ! أنا فى حاجة إلى
« لودفيك » فعلا ! أريده الآن : هل أنت واثقة أنه سيعود اليوم ؟ » .
« نعم ... بالتأكيد ! أين التقيت به لأول مرة ؟ هل أنتما من نفس
القرية » ؟

« لا » ، أطلقت « ليزا » ضحكة مجلجلة « أنا من « ليمبرج » ،
قابلته فى فيينا ، فى الجامعة . كانوا كلهم الخمسة هناك ، وكان كل
منهم يدرس شيئا مختلفا . « لودفيك » كان يدرس الأدب . أكثرهم
مرحاً ، وكان يضحكنى كثيرا . كانت أياما خالية من الهموم ، قبل
الحرب مباشرة ... كنا نعيش فى عالم آمن ... أو هكذا كنا نعتقد . كانت
الملكية الثنائية هناك إلى الأبد . لو أن أحدا كان قد قال لنا إن حربا
ستقوم وتفجر ثورة تقضى على القيصر والإمبراطور لضحكنا ،
وأرسلناه ليرى الدكتور « فرويد » .

« وهل « لودفيك » هو اسمه الحقيقى ؟ »

ابتسمت « ليزا » ولكنها لم تجب . كانت « جيرترود » تعرف أنها لن
تستطيع أن تسترسل .

أحد الدروس الأولى التى تعلمتها فى الشعبة ، كان ألا تكشف عن
هويتها الحقيقية ولو إلى أقرب الأصدقاء . ذلك مهم جدا بالنسبة للأمن
والسلامة فى هذا المجال . وكان عليها أن تنسى الماضى .

« وماذا حدث لـ « كريستينا » ؟ »

« ماتت فى « باكو » فى العام الماضى . تيفوس . « لاماتها »
الخمسة حملوا النعش . كان لابد من رؤيتهم ذلك اليوم . أولئك الرجال
هم جنود الثورة . أربعة منهم من أبطال الحرب الأهلية .

كانوا يكون كالأطفال بصوت عال .. ولفترة طويلة . لم أر « لودفيك »
أبدا فى مثل تلك الحال . اعتقد أنه كان موت البراعة ، كان وداعا
لشبابهم . مسكينة « كريستينا » .

« لم تحبها يا « ليزا » ! »

« ليس بالضبط ! كانت سيطرتها شديدة على « لودفيك » . »

وكنت أغارة وأعرف أن صداقتهم لم تكن مادية ... ولكنها كانت
عميقة . ولكى أكون أمينة ... لم أشعر بشئ كثير عندما ماتت . ما
أحزننى هو أننى كنت أراهم مضطربين كلهم ، ولكن فى قرارة نفسى
كنت أشعر بالراحة . وهكذا تخلصت من كل ما كان بصدري . وأعتقد أنه
كان شعورا متبادلا . كانت تضع مسافة بينى وبينها دائما . اعترضت
على علاقتنا . لأنها كانت تشبه الزواج إلى حد بعيد .

« امرأة كوب ماء ؟ »

« ربما ! أعرف أن لا أحد من رجالنا الخمسة نام معها . »

كانوا ينظرون إليها كإنسان كامل الأوصاف ، ويؤلهونها ! « مريم »
بلشفية حقيقية ! أشك أنه كان من الممكن أن نتفق على إنجاب طفل

لو أن « كريستينا » كانت ماتزال على قيد الحياة . عندما قالت لها ذات مرة إن وجود طفل فى حياتنا قد يكون مفيدا طالما أنهم يمكن أن يقبلونا أنا و« لودفيك » فى أى مكان فى أوروبا كأى زوجين من البرجوازية ، نظرت إلى بغضب شديد لدرجة أننا خسرنا تماما لعدة دقائق . ثم قالت ووجهها شاحب من شدة الغضب . « أنتم ثوار ، متورطون فى عمل خطر ، ونحن نحاول أن نبعد الخوف عن قلوبنا ، وجود طفل يمنعنا من ذلك ، يجعلنا قلقين ... فنصبح جبنا » .

توقفت « ليزا » فجأة عن الكلام ووضعت يدها على رحمها وقبضته فاض ماؤها . كان هناك قابلة فى نفس المبنى أرسلنا إليها على عجل ... ولكن أين « لودفيك » ؟ وبينما كانت « جيرتى » تستدعى القابلة سمع الباب الرئيسى يفتح ويدخل « لودفيك » مبتهجا محملا بصناديق مختلفة الأحجام . ابتسم عندما رآها . سألت عيناها إن كان قد تأخر ولكن « جيرتى » ابتسمت .

« ليس بعد ، ولكن حالا ... لقد جئت فى وقتك يا لودفيك ! » .

« هكذا أنا دائما ! » وابتسم .

وولد « فيلكس » الصغير قبل أن تعلن الساعة منتصف الليل بدقائق .

بعد الولادة بقليل ، وقبل أن تطلب قدحا من الشوكولاته الساخنة قالت « ليزا » : كنت أعرف أنه كان لابد أن يكون ولدا ، وأثناء شرب

الشوكولاته كانت تشرح لهم لماذا . « لو كانت بنتا لأصر على أن يسميها « كريستينا » ، وأن لا أحب الأشباح » .

قال « لودفيك » وهو يترنم بصوت خفيض متجاهلا تعليقها : « انظروا إليه ! انظروا إلى فيلكس ! إنه يشبه الثورة بالضبط .. قبيح ووقح ! » .

« جيرترود » التي كانت تعيش على بعد كيلو مترات محدودة من التكنات القديمة حيث كان يقيم « لودفيك » وأفراد الشعبة الرابعة .. كانت عائدة إلى غرفتها .. وفي الخارج ... بجوار أشجار البتولا السوداء كان القمر مكتملا ... يتحرك في السماء . الأرض يغطيها الثلج . وهي تسير ببطء شديد وحذر .. ! تحاول ألا تتخلف عن القمر أو أن تسبقه ...

عندما رأت الفرح في عيني « لودفيك » استيقظت فيها عاطفة كامنة . لم تشعر بأي ذنب . وهل يشعر البركان بالذنب عندما يدرك أنه قد توقف عن الفوران ؟ !

فى سنة ١٩٢٨ منح « لودفيك » نوط العلم الأحمر ، أعلى درجة من درجات التكريم فى الجمهورية السوفيتية . البيان الذى صدر أشاد بالخدمات التى قدمها للثورة العالمية ، وهى خدمات لا يمكن ذكرها لأسباب تتعلق بالأمن القومى . كانت « ليزا » تعرف أنه أنشأ شبكات فى دول أوروبية كثيرة ، ولكن النوط الأحمر كان من أجل عمل بعينه .

فكرت لحظة . ربما كان قد قام بتصفية عدو مهم ! ولكنه أنكر ذلك بشدة . كان حتى الآن يقول لها إنه لم يقتل أحدا . أو إن عملية واحدة لا تعنى الكثير . كان ذلك جيلا عرف الحرب العالمية الأولى التى فقد فيها الألمان وحدهم قرابة مليونين من البشر .

الحرب العظمى جعلت الموت أمرا سهلاً ، جعلت حياة البشر رخيصة إلى حد بعيد ، لدرجة أن يصبح قتل فرد لا يمثل مشكلة أخلاقية لأى من الجانبين فى السنوات التى تفصل بين الحروب .

إن لم تكن عملية تصفية استراتيجية ... فماذا تكون إذن ؟

كانت « ليزا » بالفعل فى حيرة شديدة .

ماذا فعلت يا « لودفيك » ؟ قل لى ... أرجوك ! هل كان شيئاً خطيراً ؟ ولكنه لم يخبرها أبداً . كان دائماً يخفى عنها معظم المهام الخاصة التى يكلف بها . كان لا يريد لها أن تتورط ، لو حدث أن ألقى

الطرف الآخر القبض عليهم . وكانت « ليزا » تفهم أسباب حرصه ، ولكن ذلك لم يمنع ضيقها بتكتمه .

وفى وقت ما - كانت تقول لنفسها - لم يكن بينهما أسرار . فى سنوات الحرب الأهلية ، لم يشعر أيهما بالحاجة لإخفاء شئ عن الآخر ، وكثيرا ما كانت تثقل عليه طلبا لتفاصيل عن العمل الذى أدى إلى منحه ذلك النوط ... ولكنه كان يرفض أن يتكلم .

بعد سنوات ، اكتشفت أن الأحداث وقعت عندما كانوا فى «امستردام» فى سنة ١٩٢٧ ، المرة الأولى عندما كان ثلاثتهم قد اقتربوا من العيش بشكل عادى ، كان « لودفيك » قد افتتح محلا لبيع الأدوات المكتبية كغطاء لنشاطه . وكانت « ليزا » تديره بكفاءة لدرجة أنه حقق ربحا وكان ذلك مفاجأة لهم ، ومفاجأة أكبر لـ « بيرزن » وبقية الجماعة فى « موسكو » .

كان « هانز » الرسام ، أحد رفاق « لودفيك » القدامى و الذى أخبرها فى الشتاء الماضى عندما كان فى زيارة إلى « باريس » . وكان « هانز » مندهشا لأنها لا تعرف . فقد كان الافتراض أنها دائما على علم بكل شئ .

« تريدان أن تقولى إنه لم يخبرك بذلك ؟ »

هزت « ليزا » رأسها مقطبة . أشعل « هانز » غليونه ، ويلكنة مشوبة بالألمانية أخبرها بالقصة كاملة .

« لودفيك الذى تعرفين ، يجعل كل شئ يبدو بسيطا دائما » .

جاعنى ذات يوم فى الاستوديو وقال : احزم حقائبك يا صديقى ، نحن ذاهبان فى رحلة » . ما عرفته بعد ذلك هو أننا كنا فى « لندن » حيث أقمنا مع « أولجا » ..

تعرفينها ؟ لا ؟ لايهم ! مكثنا ثلاثة أيام .

وفى اليوم الأول اصطحبنى « لودفيك » لنتمشى معا : ميدان « ترافالجار » ، قصر باكنجهام ، مجلس العموم ، تعرفين تلك الجولة السياحية المعتادة . ثم أرانى وزارة خارجيتهم .

« أنظر إلى هذا المبنى جيدا يا « هانز » . ونظرت .

يبدو مثل غيره من المباني . عمارة امبريالية . هزرت كفى !

« أنس الجانب الجمالى أرجوك للحظة يا صديقى . هذا هو مركز منظمتهم الدولية . من هذا المبنى تدبر وتنفذ الثورة العالمية المضادة . علينا أن نزرع شخصا ما هنا .. »

ضحكت للمزحة كما ضحك هو . نسيت كل شئ عن الموضوع إلى أن عدنا إلى « امستردام » .

فى الأسبوع التالى كنا نتناول العشاء معا فى منزلكما . قال لى .. « تعال ... أنا لم أكن أمزح » . لم أتذكر عم كان يتحدث . كنت بالفعل قد نسيت القصة كلها . ذكرنى . ظننته قد فقد عقله . كيف أستطيع أنا الرسام الألمانى بإنجليزيتى الرديئة جدا ، أن أدخل أى شخص أى مكان فى « لندن » .. ناهيك عن وزارة الخارجية ؟ ولكن « لودفيك » - كعادته دائماً - كان لديه خطة . كان من الممكن أن تتحول ، بكل

بساطة ، إلى كارثة . والحقيقة أنني كنت مقتنعا بفشلها .
ولكنها نجحت .

هل أنت متأكدة أنك لا تريدين الخروج لتناول الطعام الآن ؟
صرخت « ليزا » في وجهه ... « لا ! أكمل أيها الأحمق ... أكمل
القصة أولاً » .

« كانت خطة ساذجة ، تبدو غبية ! . ولكن « لودفيك » صديقك لم يكن
غبيا . هل كان ؟ وراء ساذجة الخطة هناك دائما لمسة عبقرية . أكبر مما
يكن أن يقال عن لوحاتي » .

توسلت إليه « ليزا » « هانز !...! خبرني أرجوك ! »
« كانت عملية من ثلاث مراحل . الآن أبدو مثله . كان على أولا أن
أذهب إلى « جنيف » وأنشئ ستوديو هناك .

بالنهار يمكن أن أمارس الرسم ... أو الجنس . أو الاثنين معا !
المساءات كانت في خدمة الشعبية الرابعة . تتسائلين .. ولماذا
« جنيف » بالذات ؟

« عصابة الأمم ؟ »

« بالضبط ! وفي العصابة وفد بريطاني . وضمن الوفد البريطاني
عدد قليل من الذين يكتبون بالشفرة . كان على أن أجد أحدهم وأقيم
صداقة معه . ولم يكن ذلك أمرا سهلا بسبب إنجليزيتي الفقيرة ،

ولكن « لودفيك » ظهر ، وعلى الفور حصلنا على وصف لأثنين من كتاب الشفرة وأين كانا يشربان فى المساء .

« ظلت أسبوعين أتابعهما متابعة لصيقة . قررت ، ولا تسألينى لماذا ، هكذا بالفريزة ، أن أتوجه إلى أكبرهم .. وكان رجلاً ذكياً من شريحة دنيا فى الطبقة الوسطى . يجيد الألمانية والفرنسية والروسية . وذلك حل مشكلة التواصل بيننا . أصبحنا أصدقاء . أنجزت المرحلة الأولى . بعد أشهر قليلة اعترفت بميولى الشيوعية ، ناقشت الثورة الروسية وكل تلك الأمور . ثم قدمته إلى « لودفيك » .

بعد ثلاثة أسابيع يا « ليزا » كان زوجك قد جند الصديق الإنجليزى فى صفوف الدولية الشيوعية .

كان رجلاً ذكياً ، سريع الاستيعاب ، وكان بالفعل يعرف الطبقة الإنجليزية الحاكمة . كانت القصص التى رواها عن « كيرزون » مضجكة وفاسدة . وكان يكن احتقاراً حقيقياً لحاكم بلاده .

وذات يوم طرح « لودفيك » المسألة عرضاً ، هكذا ببساطة .

ووافق « ديفيد » أن يعمل لحسابنا . والآن أصبح لنا رجلنا فى قلب عملياتهم الدولية . لم يكلفنا ذلك شيئاً بالمرة . العملية كانت سياسية كلها .. ذلك كله انتهى الآن ... ولكن فى تلك الأيام ... » .

وتوقف « هانز » عن الحكى لينظف غليونه ويعيد حشوه .

« والمرحلة الثالثة يا « هانز » ! .

« بسيطة ! » قال وصوته يخلو من الحماس « بعد أن أنهى « ديفيد » مهمته المكلف بها فى « جنيف » ، عاد إلى وزارة الخارجية فى « لندن » ، نقلنى « لودفيك » إلى هناك ، ولكنه كمصور هذه المرة . أنشأت محلاً صغيراً وستوديو فى « فليت ستريت » متخصصاً فى بيع البورتريه ، ربحت أكثر مما ربحت من الرسم . كان « لودفيك » يقول لنا دائماً الغطاء الذى نستخدمه ومهما كان نوعه ، لابد أن يكون غطاء حقيقياً . وإن المخاطرة تكون شديدة لو أن هناك أية درجة من الغش أو التزييف .

ضحكت « ليزا » عندما تذكرت محل الأدوات المكتبية فى « امستردام » و« هانز » خمن سبب ضحكها .

« محلكم ؟ نعم .. بالضبط ! كنت دائماً مغرماً بالتصوير الفوتوغرافى وحولنى « لودفيك » إلى مصور محترف . بدأت أبيع الصور الفوتوغرافية للصحف فى بريطانيا وأوروبا وغالباً للصحف البرجوازية الجادة . أخبرنى ألا أتصل أبداً بأى من الصحف اليسارية . كان بعض الصور التى التقطتها على درجة عالية من الجودة ولذا أصبح لى مكانة فى « فليت ستريت » .

كان الجميع يعرفون وسيلة كسبى للعيش . مرة فى الأسبوع يحضر « ديفيد » كاتب الشفرة من وزارة الخارجية . نلتقى فى مطعم أو مقهى . يخرج حزمة من الأوراق . أعود بها إلى الاستوديو حيث أقوم بتصوير كل صفحة ثم أرجع مسرعاً إلى المقهى لأعيدها إليه . يلتقط أنفاسه وينصرف .

وفى المساء نفسه ، أقوم بتظهير المادة وفى المساء نفسه أيضا يحملها مندوب وترسل إلى « موسكو » على الفور .

أحيانا كانت « موسكو » تطلع على الوثائق قبل أن تصل إلى وزير الخارجية أو « دوانج ستريت » .

ومن أجل هذه الخبطة الكبرى ، منحوا « لودشيك » نوط العلم الأحمر .

« وماذا حدث لـ « ديفيد » كاتب الشفرة ؟

« لن تصدقنى ! » واختفت عينا « هانز » فى وجهه الذى غمره الضحك . « نقلوه إلى السفارة البريطانية فى موسكو » .

« لماذا يتأخر هكذا .. دائماً يا أمى ؟ » .. كانت هناك نغمة يأس فى صوت « فيلكس » وهو واقف بشعره الأشقر الطويل المغسول المصفف . هذا يوم عيد ميلاده العاشر . كان قد طلب - ووعدوه - أن يخرجوا لتناول الطعام بهذه المناسبة فى مطعم « ساشر » ، وكانت « ليزا » قد طلبت كعكة خاصة بالمناسبة أيضاً .

« فيلكس » يرتدى بذلة كاملة ، لونها بنى غامق مكونة من ثلاث قطع - أصبح يتقن ربطها على النحو والأسلوب الذى يريد رغم أنه وقف ساعة أمام المرأة .

كان « فيلكس » متوتراً ، ولكن أين « لودفيك » ؟ .

« ليزا » أيضاً كانت متأنقة فى بلوزة من الحرير ، لونها أصفر فاتح وتنورة « بيج » طويلة وجاكت مناسب ، وعلى المقعد كان يوجد معطف الفراء استعداداً للبرد خارج المنزل .

« هل سيأتى اليوم يا « ماما » » .

ابتسمت لابنها وهى تمسد رأسه برفق محاولة أن تخفف قلقها . هكذا كان الأمر دائماً عندما يتأخر تتوقع الأسوأ .

الموت ، قبر مجهول ، عذاب ... ألا تعرف إن كان على قيد الحياة أو مات . أثناء الحرب الأهلية ، وعندما كانت الفصائل الحمراء والفصائل

البيضاء فى قتال متلاحم ، كان الموت أمرا قليل الأهمية مقارنة ببقاء الثورة . والأهم من ذلك أنها قوميسار على الجبهة . كلاهما واجه الأخطار نفسها ، وكان ذلك يجعل الانفصال أمراً محتملاً . الحقيقة أن المشكلة التى كانت تواجهها مع فصيلها كانت تعنى أنها لم يكن لديها وقت للتفكير فى « لودفيك » والآن ، من واجبها أن تحتفظ بمظهر الأم الجيدة والزوجة الجيدة أيضا . ثم أن هناك « فيلكس » .

تذكرت كيف كانت « كريستينا » تحذرنا كيف يمكن أن يكون للأطفال تأثير عكسى على التزامات الشخص الثورية . سمحت « ليزا » لنفسها بابتسامة بسيطة ... ساخرة ! « كريستينا » كانت ذكية . صار كل شئ أسوأ بعد انتصار الفاشية فى ألمانيا .

و « برلين » ، تلك المدينة التى ظلت تعلق عليها آمالا وأحلاما كثيرة لزمنا طويلا ، أصبحت فى أيدي الأعداء . « لودفيك » و « جيرتى » كانا هناك لمدة استمرت أكثر من أسبوعين . كان هناك ليتعرف على الشبكات التخريبية ويحاول أن يعرف عدد عملائه الذين دخلوا السجون ويلتقى بأولئك الذين لم يقبض عليهم بعد ، وليتأكد بكل وسيلة إن كان أى منهم قد تأثر بالفيضان البننى الذى كان يجتاح البلاد .

« ليزا » تفتقد « لودفيك » أكثر مما كانت تتوقع . وكان يجتاح كيائها أحيانا شوق جارف وحنين له ، حركاته ، إيماءاته ، تشعر بلمسة يده على وجهها ، تشم رائحة القهوة فى « السنترال » حيث كانا يلتقيان فى أيام الغزل الأولى . وفى لحظات كتلك ، كان يصيبها الشلل وتعجز عن عمل أى شئ ولا ينتزعها من تفكيرها فيه سوى صوت ابنها .

« ماما »

« اسمعنى يابنى ، سننتظر عشر دقائق أخرى ! بعدها ستصحبك أمك إلى المطعم . سناكل ونشرب نخبك ونستمتع . » امتلأت عينا « فيلكس » بالدموع . جثت « ليزا » على ركبتيها وعانقته وضمته إليها بحنان .

« أينما كان والدك ، وأنا واثقة أنه فى قطار يقترب من « فيينا » .. لا بد أن تثق أنه يفكر فيك . دعنا لا ننتظر أكثر من ذلك .. هيا بنا » ! .

خرجت الأم والابن من البناية ذراعا فى ذراع . كان الجو فى الخارج مظلما وباردا .. انتظرا بعض الوقت حتى جاء الترام .. وكان كلاهما يرتعد من البرد . وعندما فتح لها البواب باب المطعم شعرا بارتياح . كان الدفء يرحب بهما . نظر « فيلكس » إلى « ليزا » مبتسما . أعطيا الجاكتات للخادم ودخلا .

وبينما كان النادل يصطحبهما إلى الطاولة المخصصة لهما والمحجوزة باسم « فيلكس » أشرقت عينا الولد . اختفى التحفظ . « بابا بابا ! » .

وضع « لودفيك » الجريدة وقام ليعانق أبنه ويقبله . بينما « ليزا » تحديق فيهما وتحاول بكل جهد أن تسيطر على مشاعرهما . كان بخير . لم يحدث له مكروه .

« حسن إذن ! » قال « لودفيك » بصوت أبوى « كنت متأكد من أنكما سوف تتأخران . ظننت أننا سنكون هنا فى الثامنة تماما . جلست انتظر . »

« فيلكس » يضحك سعيداً . أعطاه والده علبة صغيرة ، فتحها فتفجرت سعادته . ألبوم طوابع جديد وعدد من المغلفات البنية الصغيرة مليئة بالطوابع . سقوط « الهابسبورج » أدى إلى ظهور دول جديدة ، وكان ذلك يعنى طوابع بريد جديدة .

كان « فيلكس » متخصصا فى أوروبا الوسطى والشرقية . سفريات والده التى لا تنتهى كان لها ملمح إيجابى واحد ، مساعدته على تنمية هواية جمع الطوابع البريدية . بدأ « فيلكس » يتأمل الصلبان المعقوفة والقمصان البنية على الطوابع الألمانية الجديدة .

« كيف وجدت « برلين » ؟ » كان سؤال « ليزا » غير عادى مع أنها سألته بصوت عادى .

« ليست جيدة ! معظم أصدقائنا اختفوا » .

لم يقولوا أكثر من ذلك . كان واثقين أن « فيلكس » رغم أنه سأل أسئلة قليلة ، قد فهم أكثر مما كان يعرفان . لم يعد طفلاً ، .

وهكذا كانت محادثتهما فى حضوره على مدى السنوات الأخيرة كانت تصبح كأنها مشفرة يوما بعد يوم .

انحنت « ليزا » ومسدت وجه « لودفيك » . ابتسمت عيناها . تناول يدها وقبلها . كان لهما فى « قيينا » أكثر من عام بقليل وكانا يتجنبان معظم أصدقائهما السياسيين القدامى . بيد أنه كان من المستحيل إغلاق الماضى تماما . كان لهما ذكريات كثيرة قديمة فى « قيينا » . كلاهما كان يفكر فى الأيام السابقة ويبتسم . « فيلكس » هو الذى أعادهما إلى الحاضر .

« ماما ! هل يمكن أن أطلب آيس كريم مرة ثانية ؟ »
« بالتأكيد ! » « قال والده ، « هذا يومك ، أطلب ماتشاء » ! قالت
« ليزا » : « هل أخبرتك يا « لودفيك » لماذا كنت دائماً أتناول قهوتي
في « لاند مات » ؟ .

« لأنها كانت قريبة من الجامعة ، لأنك لم تكونى مهتمة بالسياسة ،
لأن صديقك الغبى كان يصر على ذلك . لأنك كنت تريد أن تعرفى
كيف تحافظ « آلاماهلر » على جمالها . » .

« فيلكس » يضحك .

« لا ... يا غبى ، بل لكى أخطف نظرة سريعة إلى « سيجموند
فرويد » قالت « ليزا » وهى تضرب « لودفيك » برفق على مفاصل
أصابعه بملعقة الحلوى .

« لودفيك » قال لابنه : « فى السنترال » يابنى كان يمكن أن نشاهد
ما هو أهم بكثير من دكتور « فرويد » . كان من عادتنا أن نرى هناك
« أدلر » و « تروتسكى » وهما يلعبان الشطرنج .

سأله « فيلكس » ! « ومن الذى كان يفوز ؟ »

فى تلك الليلة ، بعد أن نام « فيلكس » ، أفضى « لودفيك »
بهمومه . قال لـ « ليزا » إن الموقف فى ألمانيا كان من المتعذر إصلاحه
أو استعادته فى المستقبل القريب . « لقد منينا بهزيمة سوف تغير
خريطة أوروبا . أنا واثق من ذلك . كان بالإمكان تجنب ذلك لو أن
الأغبياء فى « موسكو » قد فهموا أن

قالت « ليزا » وفي صوتها غضب باد « لقد كان تروتسكى محقا »
« نعم ! وهذا ايضا ! الآن أصبح الوقت متأخرا » .

الشيوعيون والديمقراطيون الاجتماعيون يحملون فى الشاحنات
إلى معسكرات الاعتقال . والآن سوف يتحدثون ضد « هتلر » .. وحدة
فرضتها المقبرة ! » .

« وجيرترود ؟ هل مازالت فى برلين ؟ »

« لا ! أرسلتها إلى « ميونخ » لكى تعرف إن كان تنظيمنا ما يزال
سليما هناك . وقبل أن أرحل تلقيت منها رسالة واحدة .

رجالنا مازالوا فى مواقعهم ، ولكن والدها يفقد معظم مرضاه غير
اليهود رغم أنه يؤيد هتلر »

« لودو ... »

« ماذا ؟ »

« هل حدث أنك أنت و« جيرترود » ... ؟ »

« ماذا ؟ »

« واضح أنها تراك جذابا ، ظننت أنك لابد أن تكون »

« ظننت ماذا أيتها الغبية .. هل تعتقدين أنها من صنفى ؟ ربما
سألت أيضاً إن كنت قد مارسست الجنس مع باذنجانة ترتدى نظارة
طبية ! »

« المسألة ليست مسألة صنف يا « لودو » . رفقة . شعور . أشياء كثيرة تصبح مهمة فجأة بالنسبة لمن يعملون معنا . أنت تعرف ذلك جيداً . كل ما أريده هو أن أعرف الحقيقة . »

غير « لودفيك » لهجته عندما أدرك أنها كانت جادة .

« كان لابد أن تكوني قد عرفتيني جيداً . أنا لست « ريتشارد سورج » ، أم تعقدين أننى هو ؟ »

ابتسمت « ليزا » . كان نشاط « سورج » الجنسى موضوع الثرثرة لا تنتهى فى رئاسة الشعبة الرابعة فى « موسكو » . كان رؤساء أجهزة الاستخبارات يعتبرون « سورج » أقدر عملائهم ، ولكن جنوحه الجنسى إلى جانب عادة القودكا كل ليلة قد يكشفاه للعدو ذات يوم .

« لودفيك ... لا تلعب على ! »

« قدمت لى عرضاً ... »

« ظننت ذلك »

« رفضت »

« لماذا ؟ »

« لأنه كان يعنى لها أكثر مما يعنى لى . ومن ناخيتى ليست هناك ما يجذبنى إليها . لاشئ بالمرّة . هل هذا واضح ؟ أم تراك تريدين الاستمرار فى التحقيق ؟ »

أقترح عليك أن تستعيني بمحققين قانونيين آخرين . سيكونان أفضل
منك فى هذا الشأن ! » .

« أحبك يا « لودفيك » .

« أعرف .. لذا كفى عن ذلك الآن ! »

حتى بعد ذلك ، وبعد أن مارسا الجنس ، و«لودفيك » منهك .. وسعيد
... عادت « ليزا » إلى نفس الموضوع .

« استيقظ يا « لوجو » ، لم أراك منذ أسابيع ، يمكنك أن تنام فى
الصباح كما تريد ... » .

تأوة وفرك عينيه وعلى وجهه علامات الضيق . سعيدة لأنه أطاعها .
سألته « ليزا » بأسلوبها البرئ .. المخادع ...

« عندما يكون شخص ما فى بلد غريب ، يعمل كثيرا ، ويشعر فجأة
بالعطش ... من المؤكد أن يسمح له بتناول كوب من الماء » « عدنا
لذلك مرة أخرى ... ! »

« أجبنى ! »

« نعم ... مسموح ! »

« والنساء كما هو للرجال ؟ »

« بالطبع ! »

« دون قيود ؟ »

« قليلة .. إذا كان الماء ملوثا يصبح من الضروري استخدام فلتر! »

ضحكت « وهذا هو كل شيء ؟ »

« أعتقد ذلك »

« وماذا لو تحول الشرب بانتظام من نفس الكوب إلى عادة ؟ »

« فى هذه الحالة لابد أن نعرف إن كان من يشرب يطفى ظمأه أو أنه قد أدمن الكوب ! » « شكراً .. يا « هر لودفيك » . والآن دعنى أعرف إن كنت أدمنت كوباً ! اتفقنا ؟ »

« لودفيك » قال مقلداً « ستالين » : « أعاهدك أيتها الرفيقة «ليزا» .

« كف ! لست فى حالة تسمح بمناقشة أى شئ جاد هذه الليلة .

هيا لننام . »

تأوه قائلاً : « كنت نائماً ! »

بعد أن أرسلنا « فيلكس » إلى المدرسة فى اليوم التالى ، جلس « لودفيك » أمامه الآلة الكاتبة ، أمام كتاب الشفرة ، وبدأ يكتب تقريراً مفصلاً ، ولكنه دقيق . تقرير عن الوضع فى ألمانيا .

الترم بالحقائق المجردة . متجنباً إغراء المحافظة على الروح الطائفية المجنونة التى أطلقتها « موسكو » فى المؤتمر السادس للكومنتيرن . أعلن قادة الثورة العالمية أن الديمقراطية الإجتماعية هى العدو الرئيسى وطالبوا بنضال شرس ضد منظماتها . « والفاشية ؟ » هتلر « أولاً ثم

يأتى دورنا « ، كانت تلك هى الإجابة الجاهزة . أى تلميح إلى ما كان يشعر به ، كان يمكن أن يؤدي إلى استدعائه وطرده وربما تصفيته جسدياً ! كان هناك عمل لابد من إنجازه فى أوروبا ، خاصة وأن « هتلر » كان الآن فى السلطة . وكان من المحتمل أن يكون الاستقلال النمساوى هو الخسارة الأولى .

كان الموقف يزداد سوءاً . « لودفيك » كان يعرف أنه لابد من التحرك إلى مدينة أخرى قبل نهاية العام .

كانت السماء خالية من السحب ولا توجد نسمة هواء ، دفء الشمس يوحى بأن الربيع ليس بعيداً . التقرير تم تسليمه بأمان إلى السفارة السوفيتية لينقل سريعاً إلى « موسكو » .

تنفس « لودفيك » نسيم الصباح وسار منتعشا نحو السنترال حسب موعد له هناك . « تيدى » أحد الهنغارين التابعين له المزروعين فى « قيينا » كان قلقاً .

« يستحسن أن تقابله أنت يا « لودو » . إنه سيعمل تحت قيادتك ، وإذا كنا على وشك الوقوع فى خطأ ، فمن الأفضل أن يكون خطؤك . وإلا فإن « بورتنوتسكى » سيقول : يعنى أنك تثق فى كلام الهنغارين ؟ »

ابتسم « لودفيك » . الخصومة بين البولنديين والهنغارين الذين كانوا يعملون لحساب الشعبة الرابعة أطلقت التشنيعات من الجانبين كليهما . تساعل بخصوص الرجل الإنجليزى ، ولماذا كان انطباعهم جميعاً جيد هكذا .

عندما دخل « السنترال » رأهم جالسين على طاولة فى ركن .
تجاهلهم « لودفيك » ومضى ليجلس على مسافة تمكنه من رؤيتهم دون
أن يلاحظوه . من الواضح أن المرأة هنغارية ، كان لها عيتان مجريتان
شرستان وربما كانت إحدى عشيقات « تيدى » . معظم الرجال أمامهم
أكواب ماء . كان تيدى يفضل الشرب من الأبريق مباشرة حتى يفرغ .
ولكن الأبريق يبدو مملوءا إلى المنتصف المهمة لم تنته بعد .

تفحص الرجل الإنجليزى بدقة وكان فى قرارة نفسه سعيدا بما
لاحظه . النمط التقليدى . يرتدى بدلة من ثلاث قطع . ويبدو قليل الكلام
.. وكان ذلك أيضا شيئا حسنا .

هل هو التحفظ الإنجليزى المعهود .. ؟ أم تراه شخصية انسحابية
منطوية ؟ كم هو غريب ! بذلك كان « لودفيك » يحدث نفسه . أحيانا
تخطئ الأحاسيس . فقد لا يكون الرجل شيئا من ذلك على الإطلاق .
ربما كان سكيما صخبا فى أحسن حالات سلوكه ! من المستحيل
الحكم عليه من أول نظرة ، ولكن المظهر إيجابى !

عندما نظر إليه « تيدى » ، هز « لودفيك » رأسه وسار نحو
طاولتهم . تعانق الرجلان .

« أنا لودفيك » .. قال وهو يصافح المرأة وينظر مباشرة فى عيني
الإنجليزى .

« هانا » .. قالت مبتسمة عن أسنان جميلة .

« فيلبى » ... قال الإنجليزى متلعثما بعض الشئ وهو يمد يده إلى
« لودفيك » .

« كانوا صفاراً » ، ظلت امرأة من « هانوى » ، متوسطة العمر ،
تردد تلك العبارة « الكراهية الشديدة مرسومة على وجوههم .. كانوا
صفارا وكلهم شر !

أمرأة حامل ، لا يزيد عمرها عن خمسة وعشرين عاما أخبرت «ساو»
كيف كانوا يركلونها فى بطنها . كان طوال الوقت يتكلم عن الأيام
الماضية .

« لابد من إحراقكم جميعا أيها الأجانب .. بالغاز ... مثل اليهود . ! .
لم ينسوا الماضى كما تعرف ، كانوا يفكرون فيه طوال الوقت ويتأثر
شديد .

كانت الأصوات تتردد فى رأسه .

كان « ساو » يشرب الشاي فى مطبخ « فلادى » . التوتر على وجهه
الوسيم .

على مدى يوم كامل كان يستمع إلى حكايات مرعبة . أبتة عمه ،
أصدقائها ، نساء صغيرات وكبيرات ، طلبة المدارس .. كلهم كانوا
يروون له بالتفصيل ما حدث فى تلك الليلة منذ أكثر من عام ، عندما
قامت جماعة من الغوغاء الفاشست بإشعال النار فى المنزل الذى كانوا

يقيمون به . كان « ساو » قد قرأ عن ذلك فى « الليموند » ولكن ذلك لم يمهد للحكايات التى سمعها فى « روستوك » بالأمس .

« لا أستطيع أن أحكى لك أكثر من هذا يا « قلادى » . تكلم أنت » نظر « قلادى » إلى صديقه « ولماذا تستغرب ذلك ؟ أنت نفسك كنت على وشك الإخصاء فى « درسدن » ذات ليلة .. وكان ذلك أيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية ياله من أسم غريب . جمهورية ألمانيا الديمقراطية . لو استطاعوا أن يفعلوها آنذاك .. كانت مسألة وقت فقط قبل الانفجار . « روستوك » لم تكن أسوأ حالا ، على الأقل لم يقتل أحد . فى « سولنجن » كانوا يحرقون الأتراك .

صرخ فيه « ساو » . صوته حاد ، علامة على أنه كان متعبا وفاقد السيطرة على مشاعره . « ماذا تحاول أن تقول أيها المضلل .. ؟ إنهم فى الغرب أكثر وحشية منهم فى الشرق ؟ بمحض الصدفة فقط أن أحدا لم يقتل فى « روستوك » . روح التضامن بيننا هى التى أنقذتنا . كل واحد كان يساعد الآخرين » .

« أعرف ، وليس الفيتناميين فقط ، كانت الأسر الألمانية تقدم المأوى . أهدأ يا « ساو » أرجوك ، أنت هنا بعد طول غياب ومصدوم .. أما أنا فمقيم هنا . لا شك أن الأمر مرعب ، ولكنه ليس أسوأ من فرنسا أو إيطاليا .

هناك .. يحرقون الأفارقة . الفاشست الجدد ظاهرة أوروبية . الشئ نفسه فى انجلترا والسويد . هذا لا يعنى أن الأمر هنا أقل سوءا ،

ولكن ... أرجوك ... لا تشترك فى الجوقة الألمانية على مشارف الرايخ الرابع ! نحن لسنا بعيدين بعقود قليلة عن الفاشية . لم يعودوا فى حاجة إليها . التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى كمهزلة !»

« هذه فى حد ذاتها مزحة ! عبارة ماهرة من الفيلسوف القديم ، ولكنها خرقاء ! » كارل ماركس، يحاول أن يكون « أوسكار وايلد » . عبارة شاردة تتحول إلى حقيقة خالدة ! بواسطة أعضاء الحزب المخلصين . « فلادى » ... وفر علينا مواعظك ، كما يردد دائماً عمى المقيم فى « لويز يانا » . ليس اليوم أرجوك ... ! دعنا نتحدث عن أى شئ آخر ! »

صمتا دقيقة . « فلادى » يتنهد ولكنه لا يقول شيئاً .

سأله ساو : « هل تفتقد إلقاءك للمحاضرات ؟ »

« كنت أجد أحياناً أن إلقاء محاضرة واحدة فى اليوم ، أكثر إرهاقا من ممارسة الجنس ثلاث مرات »

« وماذا لو مارست الجنس أربع مرات أو خمس أو ست ، هل كنت تشعر بأنك أقل إرهاقا ؟ » من المؤكد أن اللسان يكون مشغولا فى الحالتين . إن الإشارات الصادرة من المخ هى التى تختلف . أحيانا لا أفهمك بالمرّة يا « فلادى » ! .

ضحك « فلادى » . الخدمة العادية استؤنفت ! عاد « ساو » إلى طبيعته العادية ، ولكن من الواضح أن زيارة « رستوك » قد أثارت أعصابه .

« ما هو الشيء الذى ضايقت وأفسد مزاجك بالفعل يا « ساو » ؟

« النار »

« أفهم ذلك »

« لا ! أنت لا تفهم يا « فلادى » . عندما كنت فى السادسة عشرة ، كنت فى علاقة حب مع فتاة .. أسمها « دوا » وكانت تكبرنى بعام واحد . أبوها كان يحارب فى الجنوب ، كنا قد أجلىنا من هانوى إلى قرية صغيرة تبعد عن « هايفونج » بمسافة عشرين كيلومترا . بعد أن ينتهى عملنا فى القرية ، كنا نمشى لمسافة عدة كيلومترات ونجلس على صخرة ، نرى الشمس من تحتنا وهى تغرب فوق خليج « هالونج » . كانت الصخور التى تشبه القنين تعكس ضوء الشمس فى لحظات سحرية وتبدو كأنها قد أصبحت تينا حقيقياً . ثم تختفى الشمس ، ولعدة دقائق كنا ننعم بحمرة الشفق بينما الماء يغير لونه ، فتهمس « دوا » إنها لوحات الطبيعة . ونغيب فى عناق !

كانت الحرب على أشدها ولكنها كانت أجمل لحظات حياتى ... كل شئ كان يبدو نقيا . بعد الحرب كان من الممكن أن أقول لنفسى : « سأجوب معها العالم ! »

صمت « ساو » متأثراً بتفجر الذكريات ، ثم استأنف حكايته . ذهبت إلى « هانوى » لزيارة والدى بمناسبة العام الجديد . كانوا قد أعلنوا وقف القتال لمدة يومين . سمعت القاذفات فى طريق عودتى . وليومين كاملين كنت لا أستطيع الاقتراب من القرية .

كنا نختبئ في الكهوف . وتمكنت من العودة في اليوم الثالث .

لم يكن هناك أى شئ يا « فلادى » . لا شئ سوى بقايا منازلنا وأصدقائنا المتفحمة ! « بوا » أحرقت حية . كانت تجلس في سيارة « جيب » مع بعض الأصدقاء . كان الرماد البشئرى مازال هناك ويمكن التعرف عليه . لحمها متحجر ، ولكننى تعرفت عليها يا « فلادى » ... تعرفت عليها ! «

كان « فلادى » يريد أن يضم صديقه إليه ويخفف عنه ويخبره كيف أختفت كل عائلة « جيرترود » في المعسكرات . كان بيننا أنا و«ساو» هموم مشتركة كثيرة ... أكثر مما يتخيل . هكذا كان « فلادى » يفكر ولكنه كان عاجزاً عن الكلام .

أمتلأت عيناه بالدموع ، قام من مكانه وسار ببطء إلى النافذة . كانت شجرة الكمثرى العتيقة اللتوية ... الوفية ، ماتزال هناك في مكانها ، الشجرة نفسها التى كان فى طفولته يجدها تواسيه عندما يضايقه شئ ... أمر غريب ، الذكريات أعادت لوجهه ابتسامة . فعاد إلى الطاولة كان « ساو » يبتسم ثانية .

« لا أظن أن الآلهة كانت تريد السعادة للإنسانية أبداً ! »

« وهل الأمور حقيقية على هذه الدرجة من السوء يا « ساو » ؟

« بل أسوأ ! أسوأ بكثير يا « فلادى » . أنظر إلى مثلاً ، عندى ثروة ، وزوجة فرنسية غنية ، وطفلان . أستطيع أن أذهب إلى حيث أريد وأن أفعل ما أشاء .

النقود هي جواز سفرى الكونى . لادى ما يكفينى .. لكن هل أنا سعيد ؟ لا «

« ولم لا ؟ »

« أنت الذى يسأل هذا السؤال ؟ »

« نعم ! لم تكن أبدا رجل سياسة ألا ترى أن حياتك نعيم مقارنة بحياة معظم مواطنينا فى الشرق والغرب ؟

لو يملكون قدرا يسيرا مما تملك لما حدث أى حريق فى «روستوك» وهناك شئ آخر يا «ساو» ، تبدو أفضل مما كنت فى السابق ، هذه الحياة الجديدة تناسبك . شكاواك كلها لا شئ ! خزعبلات ! أنت محتال كبير يا «ساو» ، تظن أنك لو اعترفت بأنك تحيا حياة سعيدة ، فإن قوة ما سوف تصرعك ! «ضحك» «ساو» . «إذن دعنى أعطيك بعض أموالى ولتطبق هذه الملاحظات البصيرة على نفسك» .

« خطأ يا صديقى ! إنك لا تمتلك الرؤية الماركسية – اللوثرية للخطيئة لتجادل بها مثلى . إنها تقاليد مختلفة ! »

« مازلت ماديا يا «فلادى» ، وغيباً ! أنا واقعى ، ولدى رؤية .. وهذا هو الفارق . عرضت عليك كل شئ لكى تكون سعيداً . إن كنت تريد أن تنشئ دار للنشر ، فلسوف يجعلنى ذلك أقل تعاسة بدرجة قليلة . »

« مال مدفوع لإراحة الضمير ؟ »

« سمه كما تشاء يا « قلادى » ، ماذا يمكن أن تأخذ بدلا
من ذلك ؟ »

« أبا ! »

كلاهما كان مأخوذا بسبب حدة لهجة الحوار . « قلادى » نفسه كان
مدهوشا لإجاباته عن أسئلة « ساو » . و « ساو » متأثر جدا . على مدى
سنوات صداقتهما كانا يناقشان أشياء كثيرة بما فى ذلك علاقاتهما
الجنسية ، ولكن لأشئ آخر عميقا . مثل ما يقوله « قلادى » الآن . حاول
« ساو » أن يمسك به بنظرة محدقة ولكن « قلادى » أشاح بعينه حرجا
وخجلا !

« لا أعرف لماذا قلت ذلك ؟ أعتقد أنها مسألة مؤلة ... وبعمرى .. ! هم
ثقل .. ألا يعرف شخص أباه ! » .

« فى بلادنا .. التجربة عامة تقريبا ، أنا أحد قلة محظوظة . ثلاثة
حروب يتمت شعبنا ! جنود أطفال ... كانوا كلهم يسيرون بشجاعة نحو
حقفهم . إلا فى المرة الأخيرة . ثم ، ليس عليك سوى أن تنتظر ، والموت
يهبط مثل الصواعق من السماء . »

« زاينج » الكونج ! هل تتذكر ؟ أحيانا تكون الذكرى أهم من
الشخص نفسه . »

« ليس بالنسبة لى ، الشئ الغريب بالنسبة لى هو أن الأب الذى لم
أعرفه أبدا ، أصبح موضوع عبادة ! كانت « جيرترود » تتكلم عنه وكأنه
إله .. أعتقد أننى قلت لك ذلك من قبل ، ولكن كان هناك دائما شئ

غريب فى الطريقة التى تشير إليه بها . تعلو وجهها نظرة غير عادية ،
ربما كنت أتخيل ذلك ، ولكن كان لدى شعور بأنها تكذب !

« تقصد أنها لم تكن تحب والدك ؟ »

« لا ! أعتقد أنها كانت تحبه كثيرا ، لكن هل كان ذلك حبا حقيقيا ؟ »

« ماذا ؟ »

هز « فلادى » كتفيه .

« سألتها ذات مرة إن كان « لودفيك » بالفعل اسمه الحقيقى .

قالت إنها لا تعرف . كانت تقول الحقيقة وذلك هو الذى أقنعنى
بوجوده . ذات ليلة ، عدت من اجتماع حزبى أو ربما من مكان آخر
لا أذكر .. وكانت سكرانة . وجدتتها تصرخ بلا تحفظ . شديدة الانتقاد
لـ « هونيكر » والنظام .

وكانت تشجعنى على تكوين شبكة سرية من الاشتراكيين المنشقين .
وتتكلم عن الماضى وعن « الكومنتيرن » .

تشجعت بأسلوبها فسألتها عن أشياء كثيرة فى تلك الليلة .. وبالتفصيل .
كان ذلك قبل وفاتها بثلاث سنوات . لابد أننا كنا فى عام ١٩٨٩ ، عندما
أخبرتني أن « لودفيك » كان على علاقة بامرأة أخرى وأنها - جيرترود -
لم تعيش معه أبدا .

مرة أخرى شعرت أنها كانت تقول الحقيقة ، وفى تلك المرة كان ذلك معقولا . إذا كنت أنا نتاج تجربة فاشلة لم تستمر سوى ليلة واحدة .. فليكن ! لم أصدم ! قليل من خيبة الأمل ولا أكثر ! »

تساعل « ساو » بصوته الهادئ « إذن ليس هناك لغز ! » قال فلادى « بل أظن أن هناك يا « ساو » . وذهب إلى الغرفة المجاورة وأنزل صورة « لودفيك » من على الحائط ووضعها على رجل « ساو » . كانت نسخة بالأبيض والأسود حال لونها ، يظهر فيها رجل وامرأة منكمشين تحت مظلة فى شارع مزدحم .

ورجل آخر أكثر نحولا يجلس على طاولة فى مقهى يدخلن سيجارا . « أنا بالكاد أتعرف على « جيرترود » فما بالك بأن أرى نفسى فى لودفيك ؟ »

تأمل « ساو » وجه « لودفيك » بدقة وضحك ، ثم نظر إلى صديقه . « عندك حق ، ولكنها صورة غبية . يمكن أن يكون هذا الرجل أبى . شئ غريب ! هذه الصورة لا تثبت شيئا . لا شئ بالمرة ! » « أو ربما كل شئ ! »

ابتسم « ساو » . « وهل أنت مقتنع بأن الحقيقة مهما كانت ، مدفونة هناك فى أرشيف الـ « ك . ج . ب » ؟ » « نعم ! »

« فى هذه الحالة لن يكون عليك أن تنتظر طويلا . أنا ذاهب إلى «موسكو» الشهر القادم .. فى عمل . لو الملفات موجودة هناك فسوف

تحصل عليها . سأزور « أولان باتور » و« بكين » كذلك . اعطنى شهرين إذن !

« شكراً » !

كنا فى بداية الظهيرة . الشمس فى الخارج ساطعة . « فلادى » يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهابا . هل يتصل بإيقلين تليفونيا ؟ هل يخرج ليتمشى ، كان « ساو » قد انصرف منذ ثلاثة ساعات ، بينما فلادى غارق فى مقعده يفكر . كان الماضى بالنسبة للبعض مثل البلد المهجور . ولكن ليس بالنسبة لـ « فلادى » . الماضى يؤرقه ، يضغط عليه بشدة ، يقص أحلامه ، كان قد طمس أياما بكاملها . الماضى أصبح كابوسا ثقيلًا . كانت وسيلة « جيرهارد » للخروج من ذلك هى الانتحار ، لكنه كان مخطئًا . كان فعلاً ، مخطئًا . الموت ليس المهرب الوحيد . الماضى يمكن أن تعاد كتابته ، يمكن اعتناقه . اكتشافه ، نسيانه ! ذلك ما يفعله الناس معظم الوقت .

كان « فلادى » شديد الولع بالجدل ، وشديد الفضول ، ولا يفكر فى الموت بشكل جدى . وكان الانتحار العالمى التاريخى يعتبر عملا من أعمال الغطرسة لا يمكن تصديقه .

واليوم ، وفى حضور « ساو » لم يكن قادرا على كبح قلقه وإخفاء همومه الخاصة بأبيه ، والتي كانت تمزقه منذ أن كان طفلا . أحيانا يفكر ... كيف يمكن أن يكون شكل علاقته بأب ؟ كان يتصور حوارات كاملة . كانت أفكاره عن الأبوة مستمدة فى معظمها من الروايات ،

ولذلك لم تكن ثابتة . كانت الصفحات الأولى من رواية « جوزيف روث » : « رادتكسى مارش » كفيّلة بأن تتركه فى وضع قاس وتطرد كل الأفكار العاطفية ويشكر التاريخ الذى حرّمه من أب ! ولكن حالته اليوم مختلفة . سخرية « روث » المزعجة لم تتسلل لأفكاره أبدا . كان يفكر فى ابنه « كارل » ، يتخيل إلى أى مدى كان فشله كأب له علاقة بكونه ليس له أب !

جلس إلى مكتبه ، جهز الآلة الكاتبة وقرر أن يكتب رسالة إلى « كارل » . قد يكمل المذكرات وقد لا يكملها . من المحتمل أن تظل مجموعة ذكريات مفككة ومشوشة عن حياته . ولكن « كارل » يمكن أن يفهم . كان دائما قادرا على فك الألغاز . وفى الوقت نفسه ، هكذا فكر « فلادى » ، أنه مدين له برسالة .

عزيزى « كارل » .

بعد أن اتصلت بى تليفونيا فى عيد ميلادى ملأنى الندم . لماذا لم أكن ودوداً ؟ نحن الذين كنا قريبين يوما ما ، كنا نتكلم معا بطريقة رسمية وبأسلوب متحفظ . إن ذلك يؤلمنى ... ولذلك كانت هذه الرسالة يابنى . ماذا يمكن أن أكتب لك بعد جفوة أربع سنوات ؟ هناك الكثير الذى يجب أن أقوله ومع ذلك لا أعرف من أين أبدأ .

هل أبدأ من الأكم الكبير ؟ أنت تعتقد أن أمك قد تركت البيت لأننى كنت على علاقة بإيفيلين .

هذا ليس صحيحا . لم يحدث أبدا أن كانت « هيلجا » تُؤثر
الشخصى على السياسى ، هذه حقيقة يا « كارل »
وكانت تلك مادة أولى فى عقيدتنا .. أمك وجدتك وأنا .

على أية حال ، أنا أود أن تعرف شيئا . كان رحيل أمك
أكبر كارثة شخصية حلت بى . كانت شيئا ثميناً فى
حياتى . بعد موت « جيرهارد » كانت « هيلجا » أقرب
أصدقائى ورفاقى إلى . كنا نتحدث معا عن كل شئ ،
(نعم ! بما فى ذلك إيفيلين) . كلانا كان يواسى الآخر
ويخفف عنه بسبب الخسائر السياسية والشخصية التى
لقيناها . قرارها بالرحيل إلى نيويورك كان مفاجئاً وغريباً
وأصابنى بالخرس ، كان بوى أن أركع أمامها على
ركبتى وأتوسل إليها أن تبقى ، أن أقول لها إن الحياة
بدونها مستحيلة . ولكن قبل أن أفيق من الصدمة كانت
قد ذهبت .

مرة واحدة ، شعرت بالحزن الشديد وبالاكتئاب لدرجة
أننى فكرت أن أحتذى مثال « جيرهارد » . ولكنه فارق
الحياة لأسباب تتعلق بالكرامة .. أما أنا ، الأقل احتراما
لذاتى ، والشديد الإحساس بالوحدة ، فقد أشعر
بالأسف لحالى .

عندما كنت أنت فى العاشرة أو الحادية عشرة ،
اصطحبك لمشاهدة أوبرا « البنسات الثلاثة » لبرخت .

أعجبك الممثل الذى كان يقوم بدور « ماكهيث » . كان صديقا قديما « لجيرترود » ، وعندما ذهب إلى غرفة الملابس كان يغنى لك خصيصا . هل تذكر ذلك ؟ لن يغنى بعد ذلك أبدا ... ! فقد وضع نهاية لحياته مثل « جيرهارد » كان فى حالة اكتئاب منذ عودة النظام القديم . لم يكن لديه أية مشكلات شخصية . بالعكس ... كان لديه عروض تمثيل فى « هامبورج » ولم يكن يعوزه المال . لم يكن له صلة بجهاز الاستخبارات ولم يتهمه أحد بذلك . ولكنه لم يكن سعيدا باختصار لم يكن قادرا على الحياة فى ألمانيا الجديدة .

كان أكثر شئ يكرهه هو تلك الحقيقة غير المنكورة أن شعبنا قد صوت لصالح الديمقراطيين الاجتماعيين ، وأن كل شئ قد تغير بسرعة ، ولم يعد هناك مكان - على الأقل فى حياته - لمجرد الأمل . لذا اكتشف أن لامعنى للحياة ! حتى فى أشد سنوات هذا القرن حلقة ، عندما بدأ أن الرايخ الثالث سوف يسيطر على أوروبا ، أقدمت قلة من اللذين لهم نفس الأفكار مثلنا على تلك الخطوة المتطرفة .

لكن لماذا الآن ؟ لأن كآبة ثقيلة تنخر أرواحنا ، وبعضنا يجد من الصعب أن يغنى أغنية البجعة لهذه النهاية المرة . كان هذا القرن قرن ألم وقبح وكرب !

الميثولوجيا المسيحية تعتبر الانتحار خطيئة . الأنظمة العلمانية اليوم تتعامل معه كجريمة .. وهذا غريب ! لأن الجريمة إذا نجحت فإنك لا تستطيع أن تعاقب مرتكبها الحمقى المسيحيون أكثر اتساقا ، فهم على الأقل يؤمنون بارتحال الأرواح .

أكثر شعرائهم موهبة ، يضع « غابة المنتحرين » فى الدائرة السابعة من جهنم ، بالقرب من مركز « الجحيم ، فى هذه الغابة ، أزهرت الأشجار والشجيرات من أرواح المنتحرين على الأرض ، حتى الأرواح عند « دانتى » ملوثة ،

لأن غابته لا يوجد فيها أوراق خضراء ، ولا أفرع سليمة ، ولا فاكهة .. وإنما أشواك سامة .

لماذا ينبغى علينا أن نصدق هذا الهراء ؟ إن وضع الإنسان نهاية لحياته ليس إلا خطوة متطرفة ، وهناك بالطبع أمثلة كثيرة لأناس يندفعون نحو تدمير الذات فى حالة جنون لحظية ، أو صدمة شديدة يتخيلون ألا مخرج منها . إنهم فى حاجة إلى مساعدة ، إلى علاج من أى نوع ، ولكن هناك غيرهم ... « جيرهارد » و« كهيث » مثلا ، اللذان فكرا فى الأمر طويلا وبجدية ، ثم توصلا إلى نتيجة : أن الموت أفضل من الحياة فى هذا العالم ، ومهما كان الأمر مؤلما بالنسبة لنا ولمن يخلفهم ،

إلا أن من حقهم أن يختاروا مستقبلهم . إنه تقرير مصير
فردى . هل توافق على ذلك ؟

هل يوافق أطفالك فيما بعد ؟ من يعرف ؟!

هل يدهشك أن أفكر على هذا النحو ؟ الآن ؟

هلى ترى أن الأساس المنطقى لتفكيرى أساس أساسى
وجودى إلى حد بعيد ؟ هل تراه يسير عكس إتجاه
ميولى الاشتراكية التى يجب أن تلزمنى بأن أعتبر الناس
جزءاً من مجتمع ... من شبكة ؟ ربما ! ولكن هذا ظرف
اضطرارى يا « كارل » . لقد دمرنا احترامنا لأنفسنا عن
عمد ، ودمروا كرامتنا كبشر ، وذلك أيضاً مزق مجتمعنا
إربا . أحياناً تكون الخيارات الوجودية هى الحلول
الوحيدة أمام الأفراد .

حاول ... وأفهم والديك يا « كارل » على الأقل أنت مدين
لنا بذلك ، . هو حقنا عليك !

أعرف أنك غاضب . شاعر بالخرج ! تعتقد أننى « وهيلجا »
كنا مسكونين بفكرة مستحوزة علينا ، وأنها قد انفجرت
من داخلها ، لذلك أصبحت فى ريبة من كل الأفكار .
إلا أنك تعرف جيداً أن « جمهورية ألمانيا الديمقراطية »
لم تكن هى فكرتنا . يمكنك أن توجه نقداً كثيراً
« لـ » ماركس ، ولكن أن تعتبره مسئولاً عما يسمى

بالتجارب الاشتراكية لن يكون عدلا ! دع ذلك
للدهماء !

أتخيلك وأنت تقرأ هذا ! « جمهورية ألمانيا الديمقراطية »
... تجعل الآن من هذا الإسم ، ومع ذلك كان هناك
كثيرون على استعداد لأن يجعلوا ذلك النظام فاعلا !
أمك « جيرترود » ، ولكن ليس هي فقط !

مئات الآلاف من البشر الذين يحلمون ببناء بيت جميل
بأثاث جميل ... بعد انتهاء أهوال الحرب . ومن أسف أن
ذلك لم يتحقق ! أساسات جمهورية ألمانيا الديمقراطية
وضعت على اكتاف الجيش الأحمر ، والأثاث الذى وجده
« أولبرشت » و« هونيكر » كان قطع خردة قديمة من
مخلفات سجن لوبيانكا فى «موسكو» . ومع ذلك أسائل
نفسى " هل كانوا يسمحون بإحراق الفيتناميين أو
الأتراك أحياء ؟ لا أعتقد ! ولو حتى لمجرد الحفاظ على
القانون .. والنظام الخاص بهم . لقد اشتهر وطننا الحزين
بإرسال الملايين إلى غرف الغاز أثناء الفترة الفاشية .

إحراق العمال الأجانب وأسرهم ترف ديمقراطى جديد !
أعتقد أننا لابد أن نعتاده مثل أى شئ آخر ، قسادتك
يقولون إنها جريمة . ولكن ماذا عن الشرطة التى تركت
ذلك يحدث ؟ والأسوء من ذلك ... ماذا عن مواطنينا الذين
يقفون متنطعين أو يعبرون الطريق تماما كما كان

يفعل أجدادهم فى « كريستال ناشت » فى الثلاثينيات
أو عندما كانوا يشاهدون اليهود وهم يشحنون فى
القطارات إلى المعسكرات ؟

عندما يفقد البشر العاديون إنسانيتهم ، ينعكس ذلك شيئاً
على الدولة التى هم مواطنوها .

عندما بدأت المظاهرات فى « درسدن » و« برلين » ملأنا
الفرح أنا و« هيلجا » . كنا نعتقد أننا نستطيع أن نزيل
الخبث من هنا ، بدلاً من استيراد الروث من حيث أنت
الآن ، ولكن ذلك كان محض خيال .

هيمنه « بون » الحتمية كانت مقرة سالفاً بسبب قوتها
الاقتصادية ، وفشلنا نحن دون بقية شعوب العالم فى أن
نسجل هذه الحقيقة ، كان دليلاً على أننا قد التصقنا
بالسماء السابعة .. نحب العالم كله . كانت أمك باستمرار
دعامة قوية وسندا لى ، جذع شجرة أستند إليه . كنا
نتكلم فى كل شئ . لم يكن هناك أسرار سوى سر
واحد ، وذلك هو الذى دمرنا فى النهاية ، وبعد أن عدنا
أصدقاء .. سوف أخبرك به . ولكن أن أقوله لك الآن ،
يعنى أن أفقدك إلى الأبد وأنا لا أريد ذلك . أشعر
بالضياع بدون « هيلجا » ، بالشلل ، أعمل بمحرك واحد
فقط وقد أسقط وأتخطم فى أى وقت ! هل تفهم ما
أقول ؟ أحياناً أتساءل .. هل كان بإمكانى أن أكون لك

الأب الذى تحتاج أو تريد ؟ أذكر أننى ضربتك ذات مرة بعنف على وجهك . الآن لا أذكر كيف كان رد فعلك ، وهذا وحده يدل على أنه كان شيئاً بسيطاً بالتأكيد .. بعض التمرد الأحمق على سلطتى الأبوية . ولكننى أستطيع أن أتذكر الرعب الذى ارتسم على وجهك . كنت فى الثانية عشرة تقريباً . وكان عنفى الذى لم تتوقعه دليلاً على الخيانة التامة على قدر ما كنت تعتقد !

لم تكلمنى لمدة أسبوع . وكان على أن أرجو عفوك عنى وكنت أستغرب من أين جاءت تلك الضربة . وهكذا ترى .. حيث إننى لم أعرف لى أبا ، أن مراجعى محدودة .

القسوة الأبوية تنتقل من الأب للابن حتى تنكسر السلسلة . ولكن أحداً لم يعاملنى بقسوة فى طفولتى . كانت « جيرترود » تعتقد ، وبإصرار ، أن جدك « لودفيك » هو أطيب وأحن إنسان عرفته فى حياتها . يوماً ما سأروى لك هذه القصة عندما أعرفها كلها . عمك « ساو » يساعدنى على تتبع التفاصيل الأخيرة عن طريق اتصالاته بموسكو . وربما يكون ابنك هو الوحيد الذى يستطيع أن يفهم هذا القرن من مسافة بعيدة فى القرن التالى .

لقد دعوتنى بالتليفون لزيارتك فى « بون » . ليست
مدينتى الألمانية المفضلة . لماذا لا نلتقى الشهر القادم
فى « ميونخ » ؟ « ليقينيه » مدفون هناك .

أود أن أراك ، وأن أزور مقابر اليهود . تعبيراً عن احترام
يجئ متأخراً ، لرجل أهمله التاريخ . أعرف كيف يكون
الإحساس بذلك . لولا اختلاف الزمن . كان « ليفاين »
يعيش عندما كان هناك أمل . « جيلى فقد الأمل فى رؤية
الجنة .. لن يراها أبدا . « أصبحنا مقودين » فى ظلام
أبدى ، تلج ونار « رغم يقينى .. أنك لا ترى الأمور هكذا
من مشقتك فى « بون » . هل ترى ذلك سراباً آخر من
سراباتى الرومانسية ؟ هل هى يوتوبيا ضائعة فى حقبة
ماضية ؟ ربما تظن أنك محق ... والحقيقة أنك مخطئ !
هل تضحك ؟ أنا أضحك . اكتب لى بسرعة .

مع حبى يا « قلادى »

(والدك)

وبعد أن كتب عنوان « كارل » على المغلف البنئى ، كان يفكر فى
« قلادى » مرة أخرى . ربما أزعج الخطاب ابنه أكثر مما هو منزعج ،
ولكن « قلادى » لم يكن فى حالة تسمح له بالاعتراف بكل شئ . ليس
بعد ! ربما بعد عام . هل يمزق الخطاب ؟ هل يرسل بطاقة عادية بدلاً
منه ؟ من أسف أن « ساو » كان قد سافر بالفعل . كان يمكن أن

يستشير في الأمر . في مثل مواقف اليأس هذه ، كان « فلادى »
يستشير أرفف المكتبة ، وينفس الأسلوب ، تقريبا ، الذى يلجأ إليه
أصحاب التفكير اللاعقلانى .. البحث عن عراف يقول لهم ما يريدون
سماعه . « فلادى » اختار شاعرا . « پوشكين » ! وقف على مقعد
خشبي وتناول نسخة من الأعمال الكاملة من فوق الرف العلوى حيث
كان يعيش الشعراء الروس .

جلس على حافة مكتبه وفتح الكتاب . اليوم هو حسن الحظ . وبدأ
يقرأ بصوت عال :

حشد من الأفكار الظالمة

ترحم على الكروب ، وفى صمت ،

أمامى ، تفتح الذاكرة لفيقتها الطويلة ،

وباشمئزاز ، أقرأ تسلسل حياتى ،

أرتعد وأنا ألعن كل شئ

وأسفح الدمع المرير ..

ولكننى لا أستطيع أن أمحو تلك السطور الحزينة !

اتبع نصيحة « پوشكين » . أغلق الملف ووضع طابع البريد عليه

وأرسله . وبينما هو عائد من صندوق البريد ، تحولت أفكار « فلادى »

إلى أمه .

« أمى ! متى وقعت فى غرام أبى ؟ »

فاجأها السؤال . ولكنها استعادت طبيعتها على الفور .

« فى برلين على ما أذكر .. نعم ... بالضبط .. فى البار ، بالقرب من
« فورشتنهاف » فى « برلين »

« هل سافرتما كثيراً معا ؟ »

« أسئلتك كثيرة يا « فيلادى » ، يبدو أننى لن أستطيع أن أشبع
فضولك . سافرنا إلى كل مكان . « موسكو » .

« باريس » « برلين » . و« فيينا » بالطبع . أذكر أننى كان على أن
أقوم بتوصيل رسالة مهمة إليه فى « فيينا » فى سنة ١٩٢٤ .

والتقىنا فى « السنترال » رغم أنها كانت ملأى بالجواسيس ،
جواسيس النازى وعملاء « موسولينى » . وكان « لودفيك » يعتقد أنه
مكان آمن ، لأنهم أساسا كانوا يتجسسون على بعضهم ويحاولون
معرفة إن كان الوطنيون النمسيون سيختارون إيطاليا أو ألمانيا .

نعم ، فكر « فيلادى » ، كان لديها دائما حكايات طريفة لتحويل
تفكيره عما يريد أن يعرفه . وذات يوم قالت له بعد أن ظل يلح عليها
بأسئلته ، إن والده مارس الجنس معها لأول مرة فى « فيينا » فى غرفتها
بالفندق ، ذات صباح بارد من شهر فبراير ، وكان يقفان عاريين خلف
النافذة يشاهدان الثلج على الارصفة .

التفاصيل أشبعت فضوله في ذلك الوقت ، وأقنعتة . ولكن الآن ..
لا ! هو الآن يشك في كل شيء سبق أن قالت له . عقله مشغول
باستمرار في محاولة لفرز ما هو حقيقى من بين الأكاذيب التى أصبح
يعرف الآن أنها كانت تغلب على أحاديثه مع « جيرترود » .

العالم الذى يجعل أمه تروى الأكاذيب ، العالم الذى عرضه للشبهة
الأخلاقية جعله يشعر بالغثيان ! هذا العالم تحول الآن إلى أطلال !
وهذه الحقيقة وحدها .. كان لابد أن تجعله يشعر بالسعادة . لكنه لم
يكن سعيدا ! .

كنا فى شهر فبراير من عام ١٩٣٤ ، وفى ذلك العام كانت « جيرترود » قد أمضت عدة أشهر وهى تعمل مباشرة لحساب « لودفيك » و« تيدى » .

لم تنس أبدا شيئا مما حدث هناك ، ومن بين كل حكاياتها ، كانت تلك الحكاية التى لم تتغير أبدا .

كانت « فيينا » قد بدأت فى التحول لتصبح مدينة مقرفة ! الألمان يمزحون قائلين : النمساويون نازيون سيئون ولكنهم معاون جيدون للسامية « وذات يوم روت لى « جيرترود » كيف أمسكت جماعة من نوى القمصان البنية بعضوين من الحزب الاشتراكى ، أحدهما يهودى والآخر غير يهودى وحبسوهما فى غرفة صغيرة . وكل نصف ساعة تقريبا كان الجناه يندفعون إلى الغرفة ، يقفون فوق الطاولة يتبولون على أيدى الرجلين . كان اليهودى الاشتراكى يجبر على أن يردد باستمرار « أنا يهودى نتن » ، بينما يرد عليه صديقه فى كل مرة بقوله : « وأنا أريد أن أكون ألمانيا » . وهكذا طوال الليل وبعد ذلك اطلقوا سراحهما .

أما « ديفيد فروهمان » فلم يكن حسن الحظ مثلهما . كان يعمل بصناعة الساعات مثل والده وجده من قبله . وذات صباح ، لاحظ جماعة من نوى القمصان البنية يحومون حول دكانه ، بينهم بن صديق قديم صاحب محل قريب . فى ذلك الوقت كان « فروهمان » يتأهب لفتح

الدكان . وقبل أن يتمكن من ذلك كان أحدهم قد ركل الباب الزجاجى واندفع هو وزملاؤه إلى الداخل . حطموا صناديق العرض وأمسكوا بـ « فورهام » من رقبته وفركوا وجهه فى الزجاج المكسور .

كان أحدهم ، يملأه الحقد والكراهية يصيح « فلنقتل اليهودى ! » أما « فروهمان » فكان وجهه ينزف وهو يتلوى على الأرض من الألم ويحاول أن يتفادى ركلاتهم . وفى النهاية أعطى أحد المراقبين إشارة خاصة ففر السفاحون الصغار . سرقوا ما سرقوا وحطموا ما لم يقدرُوا على حمله .

« فيلكس » الذى كان يلبس قبعة من الفراء غطى أذنيه ، ويغطى جبهته بلفاع قديم بنى اللون عاد من المدرسة إلى البيت فى اليوم التالى لذلك الحادث وهو فى حالة قلق بالغ .

كان صديقه الأثير « ايريك فروهمان » الذى تخلف عن المدرسة بالأمس قد حضر اليوم متأخرا وكان يبكى طوال ساعات الدرس . وعندما استفزه أحد الأولاد المشاغبين ضربه بعنف . « فيلكس » الذى كان حزينا من أجل صديقه ذهب لإبلاغ المدرس . وأثناء استراحة تناول الطعام ، حكى « ايريك » لزميله « فيلكس » ما حدث لوالده فى اليوم السابق . وما حدث فى المستشفى حيث أجروا له فحصا بالأشعة وضمود جراحه وكيف أصيب بأزمة قلبية وكانت حالته خطيرة .

أم « ايريك » صممت ألا يتخلف الولد عن مدرسته بينما بقيت هى إلى جوار والده فى المستشفى . وفى ذلك اليوم ، بعد انتهاء الدروس ألح « فيلكس » على صديقه أن يذهب معه إلى منزله ، ولكن « ايريك » رفض لأنهم كانوا يحتاجونه فى المستشفى .

ولأول مرة ، أدرك « فيلكس » أن الصليبان المعقوفة ، المزروعة فى كل شوارع « قيينا » تقريبا ، كان معناها الخطر والموت !

عندما فتحت « ليزا » باب شقتها ليدخل ، وضع « فيلكس » ذراعيه حولها وانفجر فى البكاء . تركته يبكى وراحت تمسح رأسه بحنان . وعندما هدا نحيبه سألته برفق ، وفى انفجارات قصيرة قليلة ، روى « فيلكس » لها المأساه التى حدثت لصديقه .

ارتدت « ليزا » المعطف ولبست القفاز ، فى مجال العمل الخاص بـ « لودفيك » كان من بين القوانين الصارمة ألا تلفت النظر إليها أو أن تتورط فى صداقات محلية ، ولكنها كانت تشعر بضرورة أن تتصرف أمام « فيلكس » مثل إنسان عادى وألا تخفى مشاعر الأمومة .

إن سنوات التكوين فى حياة ابنها لا يمكن أن تقررها تماما مقتضيات الشعبة الرابعة . أخذت « فيلكس » من ذراعه . « هيا ! نحن ذاهبون لزيارة « إيريك » ووالده فى المستشفى » كان الوقت قد فات . والد « إيريك » مات ! الولد وأمه كانا قد غادرا المستشفى وعادا إلى المنزل . واستقلت « ليزا » و« فيلكس » الترام إلى « هيلنجشتاد » .

كان « إيريك » وأسرته يعيشون فى « كارل ماركس هوف » ، وهى مجموعة عمارات سكنية للعمال ، أقامتها الإدارة الاشتراكية فى « قيينا » . الناس هنا مرتبطون ببعضهم ، يراعون شؤون بعضهم البعض ، وبينهم شعور قوى بالانتماء إلى مجتمع واحد ، تضامن ضد العالم الآخر ، عالم المستغلين والصليبان المعقوفة ، عالم الأعداء . كان الزعيم

الاشتراكي « أوتوبادر » يتباهى دائما بتلك الواحة الصغيرة في الصحراء النمساوية الاشتراكية ، في موضع واحد . كان انتشارها بين الطبقة العاملة يزعج الفاشست الكيركيين .

وكانت البرجوازية تعتبر « قيينا » الحمراء تهديدا . لو حدث أن ذهبت إلى « قيينا » يا « كارل » أحرص على رؤية تلك الشقق وسوف تدرك أن الإسكان الشعبي لم يؤد بالضرورة إلى فساد مديني ، أو تضخم اشتراكي متخم بتمائيل هائلة لـ « ماركس » أو « لينين » .

كان الخبر قد انتشر ، وجماعات قليلة من العمال يقفون عند مدخل البلوك الذي يسكن فيه « إيريك » ، وكانوا يتحدثون همسا والحزن يكسو وجوههم . صعدت « ليزا » و« فيلكس » السلم إلى الطابق الثاني حيث كان يعيش صانع الساعات .

المدخل أشبه بمحطة السكة الحديد أجساد في كل مكان . شقة « إيريك » مزدحمة أيضا .

في الزحام وجه مألوف . في البداية تصورته « ليزا » أحد أصدقاء « لودفيك » القدامى . ولكن عندما اقتربت منه ، جفقت . إذ لم يكن سوى « جوليوس نويتش » قائد « الشوتز باند » . قوة الدفاع التطوعي في الحزب الاشتراكي النمساوي . كانت صورته تظهر دائما في صحف الجناح اليميني ، حيث يوصف بأنه الوحش اليهودي البلشفي !

ليته كان وحشا ! هكذا فكرت بينما هو يودع الجميع ويغادر المكان . عندما رأى « إيريك » صديقه « فيلكس » اندفع مخترقا زحام الغرفة ليعانقه . كانا في زى المدرسة ...

القميص الأبيض وربطة العنق والبنطلون القصير الذى يصل بالكاد إلى الركبة والجاكت الذى يغطى البنطلون ومن الطرف الآخر ، الجورب الطويل الذى يصل قريباً من الركبة . دخل الولدان غرفة « إيريك » وجلسا على السرير محدقين فى الحائط . صامتين .

قدمت « ليزا » نفسها ، كما قدمت العزاء لأم « إيريك » . كانت زوجة صانع الساعات فى حالة ذهول ووجهها قد شوهته الأحزان .

كانت ترد على عبارات العزاء بإيماءة واهنة ، لا تقوى على فعل أى شئ سوى تكرار عبارة واحدة ، وهى أنها لا تصدق أنها لن تراه بعد ذلك أبدا ! سألتها « ليزا » إن كانت تسمح لابنها أن يأتى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهم ، تأثرت السيدة بذلك كثيراً ولكنها هزت رأسها .

« أنا أريده إلى جوارى الآن ، الأمور ستزداد سوءا ، لا أريد لابنى أن يعيش هنا أكثر من ذلك . لى أخت تقيم هى وزوجها فى « لندن » ويبدو أنهما سعداء هناك ، كانت تكتب لنا طوال العام وتتمنى أن نلحق بهما هناك ، ولكن زوجى كان عنيدا .. » ولدت هنا وسوف أموت هنا .. » وراحت تبكى ! طفرت الدموع من عيني « ليزا » . احتضنت السيدة المكومة وهى تمسح على رأسها بهدوء .

« سأذهب إلى لندن من أجل « إيريك » . هذا البلد ليس له مستقبل هناك شائعات تقول إنه بمجرد أن يستولى البروسيون على « قيينا » ، سيصبح من الصعب على اليهود أو الاشتراكيين أن يحصلوا على جوازات سفر . » هزت « ليزا » رأسها !

لم يكن هناك ما تستطيع أن تفعله فى ذلك اليوم أكثر من ذلك .
أخذت ابنتها من صديقه ، وكان وداعا آخر كله دموع !

وهما يغادران الشقة ، كان الناس مازالوا يتوافدون . كان «فيلكس»
يمسك بيدها وقبض عليها بشدة وهما فى طريق عودتهما إلى المنزل ..
حتى وهما فى الترام .

« أين أبى اليوم »

حركة يديها الاثنتين كانت تعنى أنها لا تعرف .

« ما نوع العمل الذى يقوم به ؟ »

« أنت تعرف جيدا ماذا يفعل . يسافر . يبيع أقلام الحبر فى كل
أوروبا . يتلقى طلبيات جديدة تمكننا من الاستمرار فى هذا المحل
الخاص بالأنوات المكتبية هنا وفى امستردام »

« كيف إذن لم يستطع أن يخبرنى بثمان قلم الحبر منذ أيام ؟ ..
لست غيبا ، وأنت تعرفين ذلك . فما سبب إخفاء الحقيقة عني ؟ »

نظرت إلى عينيهِ اللامعتين وابتسمت .

« يجب أن تسأله أنت .. والليلة إن شئت .. هذا إذا لم يتأخر
طويلاً . »

« أنا متأكد أنه فى « السنترال » ، يتكلم مع أحد أصدقائه . هل
نذهب إليه هناك ؟ »

أومات « ليزا » برأسها . « الجو شديد البرودة ، ولا نستطيع أن نخرج مرة أخرى . أذهب ، لو سمحت ، واغتسل ثم راجع دروسك ! سأقوم بإعداد الطعام ، والدك وعد بأنه سيعود الليلة على العشاء . »

كانت أحاسيس « فيلكس » يقظة ودقيقة . كان « لودفيك » فى « السنترال » بالفعل حيث تدور مناقشة ساخنة . خبر موت صانع الساعات كان قد انتشر وأصبحت تلك المسألة الأخيرة متداخلة مع الموقف السياسى المستقطب بشكل دائم فى النمسا . كان « لودفيك » يصفى فى هدوء بينما الإنجليزيان يسألان « إيرنست » الكاتب فى « أرييترزيتونج » جريدة الحزب الاشتراكى . كان « فيلبى » يتكلم بهدوء .

صوته شديد الوقار . مهتم بالتفاصيل . راح على مدى ساعة كاملة يسأل ويطلب معلومات من « إيرنست » عن علاقات القوى الحقيقية فى داخل قوات الشرطة والجيش .

أعتقد أن ما أسأل عنه يمكن اختصاره فى الآتى : « هل توجد خلايا للحزب الاشتراكى فى الشرطة ، أم أن عملها العسكرى مقصور على قوات الدفاع المعروفة بالشوتز باند ؟ » ابتسم « إيرنست » . ابتسامة مستفزة من شخص لديه شعور بالأهمية . كان هدفها أن يظهر بمظهر من يعرف الكثير ، ولكنه لن يقول . شعر « فيلبى » . بالغريزة ، أنه لا يعرف ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن هناك شئ لكى يعرفه .

الاشتراكيون ، متعمدين ، نأوا بأنفسهم عن الشرطة والجيش خوفا
من استئثار القمع . كان « إيرنست » يحاول أن يخفى هذه الحقيقة .
تبادل « فيلبي » مع « لودفيك » نظرات قصيرة سريعة .

إنه يسأل الأسئلة التي يجب أن أسألها . هكذا كان يفكر « لودفيك » .
عقليته تحليلية . كان رفيق « فيلبي » وابن بلده شابا اشتراكيا درس
فى « اكسفورد » فى ثلاثينياته . هو أكثر حدة وإن كان أقل وضوحاً .
كان قد جاء إلى « السنترال » مع الكاتب الذى يعمل فى
« أرييتريتونج » ، وكان النمىوى يحاول أن يقنع صديقه الإنجليزى أن
التكتيكات التى يتبعها الحزب الاشتراكى النمىوى هى البديل الوحيد
للنازيين والفاشست والكيركيين .

« تلك أراؤك يا صديقى ، غيرك لديه آراء أخرى » . كان « هيو جيتسكل »
الديمقراطى الاجتماعى الإنجليزى وكان هناك فى زيارة ، تكلم بصوت
عال ويانفعال « أنت تتكلم وكأن هناك احتمالاً واحداً ، ولكننى أعتقد أنك
على الطريق الخطأ » .

« جيرترود » التى كانت قد وصلت إلى « فيينا » هذا الصباح
بمعلومات جديدة .. مهمة .. من « برلين » ابتسمت وعيناها على
« لودفيك » .

كانت متأثرة بعدم كياسة « جيتسكل » .

تعال .. تعال يا « إيرنست » ! كفى كلاماً تافهاً !

لم يكن لدى « جيتسكل » النية للتوقف عن الجدل « دعنا نحصل على إجابات محدودة عن بعض الأسئلة البسيطة . واحد : إذا كان الفاشست مسلحين ، ويعاملون العمال بوحشية ... ألا تكون قوة السلاح هي الوسيلة الوحيدة لمقاومتهم ؟ أم تراك تعتقد أنت و « أوتوباور » أن الخطر سوف يختفى بمجرد استعراض القوة ؟ »

« نحن متورطون في مباراة شطرنج دقيقة يا أصدقائي الإنجليز ، الأعزاء .. » تكلم « إيرنست » بايتسامه واهنة ، « وأنتم تريدوننا أن ندوس على الرقعة كلها . لن نستطيع أن نفعل ذلك ، لأن العمال لن يقبلوه .. » .

كان جميع الجالسين حول الطاولة يفهمون مغزى الإشارة إلى الشطرنج .

« أنت أيضا سوف تفعل ذلك يا « كارل » ، رغم أن الذين يستخدمونك قد يظنون أن « باور » راديكالي أكثر من اللازم » .

مقالة الافتتاحي بعنوان « شطرنج » في « أربيتزر زيتونج » أصبح مشهورا وكان يثير جدلا واسعا في أوروبا كلها . كانت « موسكو » بالطبع تستنكره ، وتعتبره استسلاما ذليلاً للبرجوازية ، ولكن في أماكن أخرى كانوا يأخذونه على محمل الجد .

الفاشست النمسيون ، كقطب معارض لموسكو ، كانوا ينظرون إليها باعتبارها خطرا داهما ، واتهموا « باور » بأنه كان يحاول أن يحدث ثورة .

فى الافتتاحية كان الزعيم النمىوى ىرى الديمقراطية مباراة شطرنج، بقواعدها التى من أهمها أن الخصم المهزوم لابد أن يأخذ فرصته لى يهزم المنتصر . المشكلة كانت فى اللعب مع النازيين ، لأن لاعبهم كان ىقول « لا أومن باللعة ولا بقواعدها ، ولكنى سأشارك فيها حتى أفوز . بعدها سوف أركل رقعة الشطرنج وأحرق القطع وأقتل خصمى أو أسجنه وأعلن أن لعب الشطرنج مرة أخرى خيانة عظمى ! »

إن السماح للاعب كهذا بالمشاركة فى اللعة أمر لا ىقل عن الانتحار كان الحفاظ على الديمقراطية ىتطلب استبعاد النازيين ، كان ذلك ما كتبه « باور » . ماذا ترى يا « كارل » ؟ ما رأيك ؟ ىسارى متطرف ؟

أم تراه واقعى يفهم التطورات الألمانية جيدا على عكس « ستالين » وأتباعه فى الكرملين ؟

قال لى « جيتسكل » وبكل إصرار : « المشكلة ليست فقط فى أن الموالين للنازيين الألمان هم الذين يهدودنكم ، إنه ذلك المحتال الصغير « دولفوس » . فهو ، ومعه أعوانه من الفاشست الكيركيين ، كما تشير إليهم على نحو طريف ، لن يلعبوا طبقا لقواعدك . « دولفوس » ىكره الألمان. ىعرف أنهم ىعتبرونه أداة تستخدم ثم ىستغنى عنها . ولكنه ىخشى جانبنا بالدرجة الأولى . ىريد أن ىظهر للكل أنه زعيم قوى ... مثل « موسولينى » . سوف ىزيح الملك والحصان والطابية وىترك لكم البنادق قليلة الشأن . أى شطرنج بعد ذلك ؟ هه ! »

كان « إيرنست » يشعر بالضيق لتلك المقايضة . كان يظن أن صديقه البريطاني سيدعمه . عبس ، نظر فى ساعته وقال لـ : « جيتسكل » إنهما كانا مرتبطين بموعد على العشاء . قاما ، وفعل الآخرون مثلهما . اتفق « لودفيك » و« فيليبى » على لقاء . فى اليوم التالى وتصافحا فى مودة . تبعته « جيرترود » عند الباب تاركة « فيليبى » منهما فى قراءة عدد الأسبوع الماضى من « التيمز » .

فى الخارج ، كان السماء الليلية ملبدة بالغيوم . الجليد الذى كان قد بدأ فى الذوبان قبل ذلك تحول الآن إلى ثلج . الليل شديد البرودة ، والسير على الرصيف مخاطرة . أمسكت « جيرترود » من ذراعه . كانت تعرف بالغريزة أنه كان متجها إلى « باكر شتراس » حيث تقيم زوجته وابنه . سارت صامتة بجوار عدة دقائق . بعدها بذلت محاولة ضعيفة لكى تجله يحول وجهته .

« هل نذهب لتناول الطعام فى مكان ما ؟ »

« لا ! ليس الليلة . لقد وعدت « ليزا » و« فيلكس » بأننى لن أتأخر . صانع الساعات مات اليوم وابنه أقرب أصدقاء « فيلكس » إليه ، ولا بد أن الولد فى حالة نفسية سيئة ! »

كتمت « جيرترود » خيبة أملها . « هكذا هو دائما » .. كانت تقول بينها وبين نفسها .. فى كل مرة أحاول أن أسحبه ، لا بد أن يجد عذراً . ثم قالت بصوت عالى : طبعاً ... طبعاً .. أنا أفهم ذلك .. تحياتى لهما .. آه ..! نسيت .. أعتقد أنه يحبها ..

ثم فتشت فى حقيبة يدها وأخرجت علبة شوكولاته صغيرة مغلفة على نحو أنيق .

ابتسم وهو يتناول الهدية وقبلها فى وجنتيها وقال : « نصفها على الأقل سوف ينتهى به الأمر فى معدتى ! »

كان « فيلكس » الباكي ينتظره عندما دخل الشقة . حملة « لودفيك » وضمه إليه .

« لماذا يابابا .. لماذا تكره اليهود هكذا ؟ »

قالت له إن ذلك كله كان من أخطاء الديمقراطية . قالت له لو أن الإمبراطور كان ما يزال على العرش ، لما وقعت مثل هذه الأحداث أبداً . قال « لودفيك » : « ربما ..! ربما ... ! ولكن الأمر كان أكثر سوءاً تحت حكم القيصر فى أوروبا . هل أحكى لك حكاية هذه الليلة ؟ ليست من حكايات جدتى ، وإنما هى عن شئ رأيتُه بعينى فى « جاليشيا » .

« ماذا ؟ ماذا يابابا ؟ هل نحن يهود ؟ »

« كان والداى من اليهود الأصليين ، ولكن أمك ليست يهودية . معنى ذلك أنك ، فى نظر اليهود الحقيقيين ، لست يهودياً أصيلاً . ولكن لا فرق بالمرّة عند النازيين والمعادين للسامية . بالنسبة لهم أنت يهودى ! » .

شعر « فيلكس » برعدة خفيفة .

« لا تفزعوه يا اجناتى ! » . زل لسانها بالإسم الحقيقى لـ « لودفيك »
قبل أن تسيطر على نفسها . حذق فيها « لودفيك » ولكن « فيلكس » -
وقد لاحظ - لم يقل شيئاً . كل ما كان يريد أن يعرفه فى تلك الليلة هو
لماذا كان زميله « إيريك » بلا أب ! والآن ... يريد أن يعرف كذلك ما إذا
كان الرجال نوى القمصان البنية سيقتلون والده ذات يوم !

« ليزا » فعلت المستحيل لكى تحمى ابنها من أهوال ورعب العالم
الحقيقى ولكنه الآن يواجه التاريخ مباشرة . ويبحث عن بعض الإجابات .
« ماذا رأيت فى « جاليشيا » يا يابا ؟ بابا ! »

« عينا » لودفيك « يملأهما الحزن . ضم ابنه إليه وراح يحكى له عن
المذبحة التى شاهدها وكيف كان اليهود يقتلون .. لا شئ إلا لأنهم
يهود !

سأله الولد : « وماذا فعلت يا أبى ؟ »

« فى ذلك الوقت .. لا شئ .. بعد سنوات قليلة ، وكنت فى السادسة
عشر ، أصبحت اشتراكيا . أمعن النظر فى المستقبل بدهشة وشغف ..
كنا فى شوق للتغيير . وكما ترى يابنى ، كانت طريقة اختيار الموت
محدودة بالنسبة للفقراء - عن طريق اللامبالاة والإهمال فى وقت
السلم ، ومن خلال العنف فى وقت الحرب .

لقد كبدت الحرب العالمية الأولى كل واحد ملايين القتلى . لم تكن حياة الإنسان تساوى شيئاً عند أولئك الجنرالات ، الذين كانوا يستعرضون بقبعاتهم الجميلة وتؤدى لهم التحية ويتناولون أفخر الأطعمة ويشربون أجود الكونياك .

كان « سينيك » أول من أثار السؤال فى روما القديمة « ماذا لو أحصى العبيد أنفسهم ؟ » ، وبدأنا نفعل ذلك بالفعل . كان مئات الآلاف ، بينهم يهود ليسوا عبريين مثلى ، كانوا يبحثون عن ملجأ فى الثورة . كنا نظن أن تلك هى الطريقة الوحيدة لوضع نهاية لهذا العار . « لكن لماذا يا أبى ... لماذا كل هذه الكراهية ؟ »

« لا توجد إجابة واحدة . منذ بدأت الحياة على الأرض ، والناس لديهم طاقة لا حدود لها على إيذاء بعضهم الآخر . والحكاية مستمرة إلى يومنا هذا . فى أعماقنا نحن أسرى البيولوجيا . إنه الحيوان فىنا . تعرف كيف يطرد القطيع أحيانا أحد أفرادة أو يقتله عندما يبدو مختلفا أو يشكل خطرا ، وغالبا ما يكون ذلك الخطر متوهما . لماذا يحدث ذلك ؟ هو الخوف الغريزى بالنسبة للحيوانات ، وهو نفس الشئ تقريبا عندما يصاب البشر بالسعار والجنون ويبدأون فى تقتيل بعضهم الآخر . »

قاطعته « ليزا » : « باستثناء حقيقة واحدة بسيطة .. للبشر عقول تفهم . قوة العقل هى التى تميزنا عن مملكة الحيوان . »

« هل تميزنا فعلا ؟ قولى ذلك للألمان الذين يفرون من هتلر . »

« هل نرحل إلى لندن مثل « إيريك » ؟ »

قال والده : « ربما ، لكن عليك أن تذهب للنوم أولاً » ظل «لودفيك» صامتا فترة طويلة فى تلك الليلة . كان يجلس مثل الكتلة فى مقعد قديم يحدق فى المدفأة . وكانت « ليزا » تعرف تلك النوبات القديمة ولم تحاول أن تكسر الصمت .

تعرف أنه سوف يتكلم قبل أن ينقضى الليل ولكنها كانت متعبة وتتمنى ألا يطول الانتظار . وعندما قام ليصب لنفسه كأسا كبيرة من البراندى تنهدت بارتياح .

« أصبحت أكره هذه الشقة ... انظر .. ! ستائر قذرة ، كراسى مهترئة ، ، »

قاطعته : « لودفيك » ... ! هل حان الوقت لمغادرة « شينا » ؟
« نعم » أجابها بصوت مجهد .

« هل أوقع الرجل الإنجليزى الكأبة فى نفسك ؟ »

« لا ! كان جادا جدا ، أما أنا فكنت سبب الكأبة » .

« موسكو » مكتئبة ! « الكومنتيرن » مكئب ! سألنى بالتفصيل عن الانهيار فى ألمانيا ، وعن دور « الكومنتيرن » فى تمهيد الطريق لانتصار « هتلر » . وافقت معه ، ولكن كان لابد أن أدافع عن الخط . الخط دائما ! سألته : هل قرأت كتابات « تروتسكى » عن ألمانيا ؟ . لكى أضعه فقط فى موقع الدفاع . أنكر تماما . كنت أود أن أخبره « لابد أن تقرأها ... » « تروتسكى » فهم ، و« موسكو » لم تفهم . ولكن لابد أن الصدمة كانت قوية .

« هل رأيت » جيرتى « ؟ »

« وكان ذلك مكثبا أيضا . تريد أن تترك الحزب وأن تتبرأ من «موسكو» . إنها فى حالة أشبه بالانتحار »

« ولكن ذلك قد لا يكون له علاقة بموسكو ، ولا بالسياسات المجنونة للكومنتيرن » .

« معنى ذلك » ؟

« معناه أنها تريدك . إن رفضك أن تنضم معها ، هو الذى يدفعها نحو الانتحار » .

« شئ قاسٍ ، ربما تكون الأمور مختلطة بداخلها ، ولكنها فى ورطة . وهى سياسية . لا تنسى أنها شيوعية ألمانية وحزبها على شفا حفرة من الإنقراض ! لا أحب لأحد من عملائى أن يكون فى مثل تلك الحال . هذا خطر على الكل ! »

« وهل نجحت تهدئتها ؟ »

« سياسيا ! قلت لها إننى متفق معها .. لكن ... »

« لكن ؟ . »

« لكننا لا نستطيع أن نبصق فى بئر ماء قد نحتاج أن نشرب منها ذات يوم » .

« إذن أنت تعتقد أن « تروتسكى » كان مخطئا عندما تخلى عن الكومنتيرن ودعا إلى بولية جديدة » ؟

« التوقيت خطأ . ستكون هناك حرب أوربية جديدة . أنا متأكد من هذا . الاتحاد السوفيتي سوف يتورط فيها . » ستالين « لن يبقى . الحزب نفسه سيجد أن من الضروري إزاحته . »

« هل هذا تفكير الشعب الرابعة ؟ »

أوماً « لودفيك » برأسه وحاول أن يقوم من مقعده ولكنه غاص فيه ثانية . رجل متعب . ضحكت « ليزا » وساعدته على القيام .

« وقيينا » ؟

« السفاحون الكيركيون يعلنون العدة للتخلص من الاشتراكيين . بعد أن دمر « دولفوس » و« هيموهر » اليسار ، سيتخلص النازيون من « دولفوس » ويستولون على النمسا . »

« ولكن الاشتراكيين مسلحون على عكس « الكومنتيرن » في ألمانيا « الشوتزباندا » سوف تقاوم . »

« تكتيكات الشوتزباندا كلها دفاعية . ينتظرون أن تختار الحكومة توقيت المعركة . لكي تحقق النصر لابد أن تكون قادرا على اللجوء للدفاع . ولكنك تعرف ذلك جيدا ، أليس كذلك يامستشاري العزيز ؟ أولئك الناس تنقصهم القدرة الطبيعية على تحقيق النصر . يمكن أن أعطيهم ستة أشهر على أكثر تقدير . بعد ذلك سيعلم اليمين « أوتو باور » كيفية لعب الشطرنج ! »

هل مازلت هناك يا « كارل » ؟ أم ترى معدتك قد انقلبت بعد الحديث الذى انتهيت من قراءته لتوك ؟ هكذا كان الأمر دائما عندما يكون السياسيون من الجانب نفسه على سجيبتهم . كان « لودفيك » و « ليزا » يعيشان فى ظروف شديدة التوتر . يعيشان كذبة مزبوجة يعملان لحساب الاستخبارات السوفيتية ، ويتظاهران بأنهما يديران عملا تجاريا صغيراً . كان يتلقيان الأوامر من « موسكو » التى كانت تحت سيطرة الطاغية الذى يكرهان .. وكانت هناك قلة قليلة من البشر يمكن أن يكونا صريحين أمامها فقط ، وذلك هو الشئ الوحيد الذى أبقى عليهما متمسكين كلاهما بالآخر .

« جيرترود » كانت تؤكد على هذا العامل ، وإن كنت عندما أراجع مذكراتها أجد أنها لم تخبرنى . كان « لودفيك » و « ليزا » يحبان كلاهما الآخر . وكانت علاقتهما وثيقة . حتى عندما أكتب ، أشعر فى الصميم منى بأن « جيرترود » لم تكن عشيقة « لودفيك » وأنه ليس أبى . « لماذا كذت على ؟ لست متأكدا » .

أنا فى انتظار معلومات من الأرشفة فى « موسكو » ، والتى قد وعدنى « ساو » بإحضارها .

أعطاهم « لودفيك » ستة أشهر على الأقل . أخطأ قليلا فى التوقيت . وبينما هو يسير إلى دكانه بالقرب من الجامعة فى الصباح التالى ، لاحظ طابورا من عربات الترام المتوقفة فى « رنج شتراس » فى البداية ظن أن هناك عطلا فى الكهرباء ، ولكن عربة ترام فارغة أخرى وصلت . غادرها سائقها وانضم إلى بقية الرفاق .

« هل أنتم فى إضراب يا رفاق ؟ »

كلهم ردوا بهزة كتف جماعية .

« لا تعرفون »

« لا » أجاب أصغرهم « سمعنا أن الفاشست قد أعدموا عمالاً فى
« لينز » . وهناك إضراب عام . نحن فى انتظار تعليمات من الحزب » .

صافحهم « لودفيك » ثم واصل سيره بهمة ونشاط . على نواصى
الشوارع كان يرى جنودا فى ملابس وعدة الميدان وعلى الجانبين رجال
شرطة على رؤوسهم الخوذات الصلب ويحملون أسلحتهم . كانت وحدات
« هيموهر » فى طريقها إلى « راتهاوس » للقبض على رئيس البلدية .

تقدم « لودفيك » صوب أحد الضباط وقال ، وهو يحاول قدر
استطاعته أن يقلد لكنه « قيينا » البرجوازية : عفوا ! ماذا هناك ؟ .

« ومن أنت ؟ »

« رجل أعمال »

« الاشتراكيون قاموا بثورة والحكومة أعلنت قانون الطوارئ » ، من
الأفضل أن تعود إلى منزلك « قبل » لودفيك « النصيحة واتجه عائدا
إلى المنزل . رأى سائقى الترام . كلهم كانوا منكمشين خائفين . فوقهم
تقف وحدة من رجال « هيموهر » تركلهم وتضربهم بنهايات البنادق .
شعر « لودفيك » بالغثيان . وبينما هو مسرع فى طريقه كان يرى

الجنود يقيمون الموانع ويمدنون الأسلاك الشائكة حول « رنج شتراس » ،
وحدات مدافع الماكينة تتخذ مواقعها على مسافات منتظمة .

« أوتو باور » أنتظر أكثر من اللازم ، والثورة المضادة قامت بالهجوم
... هكذا كان يفكر وهو عائد إلى شقيقته . كان متأكدا أنها ستكون مذبحة
دامية وكان ، بالدرجة نفسها ، يثق أن « هتلر » سوف يلتهم النمسا ،
وأن البروسيين سوف يصلون إلى « فيينا » حالا .

بعد ذلك ، وهم جالسون لتناول العشاء . كانت تتناهى إلى اسماعهم
أصوات انفجارات مكتومة من ناحية الضواحي العمالية . لقد انتهت
مباراة الشطرنج . كان « فيلكس » يحدق من النافذة متمنيا ألا يكون «
إيريك » قد أصيب بمكروه . وفي الخلفية كان يستمع إلى والديه وهما
يناقشان مصير النمسا .

وكان « دولفوس » يخtal ، محاولا تقليد « موسولينى » ولكن ذلك لن
يدوم ! فتدمير الاشتراكيين ، وهم الحزب الوحيد الذى كان الممكن أن
يتصدى لمقاومة « هتلر » ، يعنى فعلا أنه قد حكم على نفسه بالإعدام .
وكان « لودفيك » مقتنعا بأن « هتلر » سوف يضرب بسرعة ويضم
النمسا إلى الرايخ الثالث .

قالت « ليزا » وهى تتنهد : « على الأقل فإن تلك هزيمة لا يمكن
اعتبار روسيا مسئولة عنها » .

« ربما ليس مباشرة ، ولكن لو أننا لم نسلم ألمانيا لهتلر ، هل كان
يمكن أن يحدث ذلك هنا ؟ »

« كم واحد ، فى رأيك ، يتكلم هكذا فى « موسكو » كما نتكلم الآن ؟ »

« كثيرون . طالما أن الأمر يتعلق بـ « ستالين » .

ثلاثة أيام من العنف فى « قيينا » . ثلاثة أيام . لم تكن قوات « الشوتزباندا » قادر على المقاومة المؤثرة . ثلاثة أيام و « قيينا » الطبقة العاملة بين الخرائب والأطلال ، وزعمائها فى السجون أو المنفى . كانت « أربيتريزيتونج » تصدر سرا . السجن خمس سنوات لمن يلقي القبض عليه وهو يقوم بتوزيعها . بولفوس منتصر ! أما « هتلر » ، فبعد أن أزعجته الأعيب « موسولينى » الانقصالية فى النمسا ، وانتصاره الظاهر ، فقد بعث بالرسالة التالية للعمال المهزومين :

« أنا واثق الآن من أن العمال النمساويين سوف يقفون وراء القضية النازية ، كرد فعل طبيعى على العنف الذى تستخدمه الحكومة النمساوية ضدهم . »

صرخ « لدوفيك » غاضباً ، واستأنف عمله فى هدوء . هذا الرجل يتمتع بخمس أو ست خواص مطلوب توافرها فى الجاسوس العظيم : ذاكرة فذة تحفظ ملامح الوجوه ، والأسماء ، والحادثات . موهبة اللغات . قدرات خارقة على الابتكار . السرية . القدرة على الدخول فى حوار مع أى شخص غريب مهما كان . أما الخاصية السادسة - التحرر من الضمير - فهى أنه كان يحاول دائماً أن يضلّل « لدوفيك » . وكانت الجماعة فى « موسكو » تعرف ذلك ، وهى نقطة الضعف الوحيدة فى جاسوسهم الكبير .

فى الأسبوع التالى التقى « قىلبى » . كان لقاء طويلاً . « لودفيك » كان سعيدا بالنتائج ، وقام بإبلاغ الشعبة الرابعة بالشخص الجديد الذى جندوه . لم يكن يفضى بأدق أسرارهِ سوى لفكرته التى كان يدون فيها أفكارهِ بشكل غير منتظم .

لفترة طويلة من حياته ، ظل « لودفيك » يقاوم فكرة أن يكتب مذكراته . كان يعتبر ذلك نوعاً من النرجسية والسلوك الفردى .

ولكن « ليزا » عبرت أن ازدرائها لتلك الفكرة وحذرت قائلة إنه كان فى خطر لأن يفقد أدميته . كم كانت محقة هو الآن يستخدم المفكرة كوسيلة لعزل نفسه عن ضوضاء الطاولات المجاورة فى مقهى ما أو صخب المسافرين فى لقطار .

كان منظر الصفحة البيضاء يدعوهُ للدخول إلى عالم هادئ ، إلى جزيرة العزلة الاختيارية فى بحر صاخب .

٢٠ فبراير ١٩٣٤

قابلت « ف » اليوم مرة أخرى ولكننا اتفقنا على ضرورة تجنب المقاهى التى كانت تمتلئ بالدخلاء والمكائد . وبدل ذلك أصبحنا نلتقى على الجسر بالقرب من « سكوتن رنج » . اقترحنا أن نتمشى على شاطئ « الدانوب » . كان الجو بارداً ولكنه مشمس وبعد ثلاثة أرباع الساعة وجدنا دكة يمكن للجالس عليها أن يرى المواجهة الحجرية

لـ « كارل ماركس هوف » . جلسنا نرقب الأطلال التي كانت « قيينا » الاشتراكية . الأحداث هنا أقنعت « ف » بقضيتنا .

كان هادئا . لا أثر للعاطفة أو الاستغراب في صوته . وكان قراره نهائيا . هو معنا . سألته عن « ج » ، الإنجليزي الآخر فابتسم . قال إن « ج » كان انطباعه على النقيض تماما . تدمير الاشتراكيين أقنعه أن الدولة لا يمكن تحديها بشكل مؤثر . كان تعليق « ف » على الأمر أنه رد فعل إنجليزي قح قال « ف » إنه التقى قائدا سريا للشوتزباند ، وكان يتباهى بانضباط رجاله . لا سلب ولا نهب ولا غنائم . منتهى الانضباط . « ولذلك خسروا ! » ، ضحك عندما قلت ذلك . رويت له قصة سمعتها من أحد الشيوعيين من « قيينا » . عندما كان جنود « هيمويهر » يتقدمون صوب إحدى الحدائق ، أعطى قائد « الشوتزباند » الأوامر بالاستسلام . لماذا ؟ لأنه كان لابد أن يطاء الحشائش في الحديقة ويخالف القانون الذي يحظر السير على الحشائش .

ضحك « ف » لذلك ، واتهمني باختلاق القصة ولكنها كانت حقيقية . بعد ذلك أخبرني « ف » أنه حضر حفل عشاء في « لندن » منذ سنوات ، حيث كان أحد الجنرالات النمساويين المتقاعدين لا يكف عن الكلام عن جرائم الاشتراكيين النمساويين . كان « ف » يتذكر كلماته بحذافيرها : « ذات يوم كنا سنضع حدا لكل ذلك الهراء بالطريقة السلمية أو الشريرة . أرضيات « باركيه » وحمامات حديثة للعمال ! وربما وضعنا السجاد الفارسي في حظائر الخنازير وقدمنا الكافيار للحيوانات » .

كان تعليق « ف » أنهم كانوا لا يفرقون بين العمال والخنازير وهذا شئ غريب . قال لى إن « بيرك » كان قد أشار إلى ما أسماه ب : « الجماهير الخنزيرية » وإن الراديكاليين ردوا على ذلك بقبول التصنيف وكانوا يطلقون على صحفهم أسماء مثل « الخنزير » و « رجل الخنزير » ... إلخ .

بعد ذلك تكلمنا عن انهيار القيم البرجوازية الليبرالية فى « النمسا » . وكان مندهشا لقولى إن ذلك كله كان يرجع إلى نظرة نخبوية للثقافة . وبعد ذلك أعطيته محاضرة مختصرة عن « برجوازية قيينا » . استعدت كل ذكريات المناقشات مع « ليزا » وأصدقاء آخرين قبل الحرب . عندما كنا طلبة ، كنا نقف بالساعات ننظر إلى السقف ونناقش معنى لوحة « كليمت » : الفلسفة .

هل كانت تعنى فعلا انتصار النور على الظلام كما كانت تصر وزارة الثقافة ؟ أم تراها كانت شيئا أكثر غموضا ؟ كانت الأرض ذائبة فى انصهار الفريوس والجحيم . والبشرية المعذبة طافية فى الكون دون هدى . الرسم أثار « ليزا » كانت غاضبة . إنه يعبر عن عقل الإنسان يقظ . هذا الوجه - كما قالت لنا - كان هو القلب الحقيقى للوحة . كان « كليمت » يقول إن « داس قيسن » * ضرورة لكل الجنس البشرى . وهكذا استمر الجدل ، نحن أيضا كنا نتكلم عن تجاوزات البرجوازية النمساوية .

المعرفة * Das wissen

ضحك « ف » ولكنه قال إن ذلك لا يبدو تفسيراً مادياً لنقاط ضعف الانتلجنسيا النمساوية . ووضع على وجهه سميت ناظر المدرسة وتكلف صوته وقال : حاول مرة أخرى . وضحكنا نحن الاثنين .

أخبرت « ف » أن البرجوازية في النمسا لم تكن قادرة مثل نظيرتها في فرنسا أو إنجلترا ، سواء على تدمير الأرستقراطية أو الاندماج معها ، ولذلك ظلت معتمدة على الإمبراطور والبلاط ، بعيدة دائماً ، ولذلك حرمت من أي نصيب في احتكار حكم البلاد . وبعد أن تنازلت عن السلطة ، بحثت عن الملجأ في الفن الذي اكتسب وضعه الديني . ذكرته بتعليق « كارل كراوس » الصاعق عن مجال العمل بالنسبة للبرالية « قيينا » ، وكونه محدوداً بالباركية في المسرح ليلة الافتتاح .

التنازل الليبرالي ترك الطريق مفتوحة أمام الفاشست الكيركيين . الإمبراطور كان يدافع عن اليهود ضد الحملات الكاثوليكية المعادية للسامية . وفيما بعد ، كان الاشتراكيون يدافعون عن القيم الليبرالية التقليدية . الآن ، لا سبيل لتحجيم الفاشست .

أوروبا يمكن أن تقاوم فقط لو أنها ردت بالحرب .

سألني « ف » : « حرب أهلية باتسع أوروبا كلها ؟ »

أومات برأسي .

بعد ذلك سألني بالتفصيل عن الانهيار الألماني ، ولماذا لم يقاوم قادة الحزب الشيوعي الألماني التعليمات الانتحارية التي جاءت من «موسكو» ؟ ولأول مرة كنت أرى « ف » قلقاً بدرجة كبيرة . حكيت له عن مناقشة دارت بيني وبين أحد الزعماء الرئيسيين للحزب الألماني وأحد

مؤسسى « الكومنتيرن » . كنت أعرف أن ذلك الزعيم شديد الانتقاد لسياسة « موسكو » سرا . « لماذا لا تقول ذلك علنا ؟ » سألته . « دع العالم يعرف لماذا تم تسليم العمال الألمان صراحة لـ « هتلر » بأيدي « الكومنتيرن » مازال رده مطبوعا فى ذاكرتى كما لو كان بالأمس : « لا أستطيع أن أفعل ما تريد بسبب وجود الاتحاد السوفيتى . أعرف جيدا أننا ضحينا بالحركة الألمانية لكى نتجنب الصراع مع « ستالين » . وربما نضطر للتضحية بالحركة فى نول أخرى كذلك . وفى النهاية سوف تنتصر الفاشستية على العالم الرأسمالى ، وحينئذ سيكون هناك صراع هائل بين الفاشستية والاتحاد السوفيتى » .

« ف » كان مندهشا : « هل قال ذلك فعلاً ؟ » هزئت رأسى « ألا يفهم ذلك المجنون أن الفاشستية قائمة فى كل أوروبا ، ناهيك عن أمريكا ، وأنهم سيكون لديهم الموارد الكافية لتدمير الاتحاد السوفيتى خمس مرات وربما أكثر ؟ »

بعد ذلك سأل إن كان من الممكن أن يذهب إلى « موسكو » . قلت له إن ذلك مستحيل . واجبه هو أن يعمل فى الغرب . كنا فى حاجة إلى معلومات من الدوائر العليا فى كل من ألمانيا وبريطانيا . وبناء عليه ، كان يجب أن يتخلى عن كل ما يربطه باليسار . كان لابد أن يكون شخصية جديدة : متغترسة ، متفوقة ، مهيمنة ، وكذلك بعض الفأفة فى الكلام ! كان عليه أن يختلط بالدوائر الصحيحة ، وإلا فإنه لن يكون له فائدة بالنسبة لنا . يقول إن ذلك أسهل مما أتصور . والذى له صلات ممتازة . سوف نرى .

أبلغته أن تلك كانت آخر مرة تلتقى فيها فى مكان عام .

قامت « إيفيلين » من النوم وهي تشعر بالغضب . كانت غاضبة لأن « فلادى » لم يعجب بفيلمها . غاضبة لأنه لم يكن لديه الشجاعة ليقول ذلك فى وجهها وقبل كل شئ ، غاضبة لأنه رفض - ويكل إصرار - رغبتها فى أن تنام معه .

قفزت من السرير وسارت نحو الحمام بنشاط ، أضاعت النور وتأملت جسدها العارى فى المرآة الطويلة . همهمت عابسة : « ليس شيئاً بالمرءة ! » ماذا حدث له ؟ هل يعتقد حقاً أننى لم أعد أصلح للرجال ؟ حمقاء بلغت سن اليأس ؟ أم لأننى لم أعد أهتم بذلك ؟

شعرت ، فجأة وهي تنظف أسنانها بالرغبة فى مواجهة « فلادى » فى عرينه . فكرت فى البداية أن تتصل بالتليفون ، وأن تنذره ، ولكنها وضعت السماعة قبل أن يرد . لا ! لم تكن فكرة جيدة !

لا بد من مفاجأته !

الأحد . والساعة فى منزلها المكون من ثلاث طوابق تعلن السابعة . ارتدت بنطلونها واسعا من الحرير لونه رمادى وسويت من الكشمير الأسود . توقفت وهى مارة من أمام المطبخ . جذبتها رائحة القهوة النفاذة . تعرف ماذا يمكن أن يقدم لها فى شقة « فلادى » ... فهل تتناول بعض القهوة قبل أن تخرج ؟ ولكن ذلك قد يستغرق وقتاً طويلاً ...

الرغبة الجنسية غلبت الرغبة فى القهوة . نزلت مسرعة إلى سيارتها . « إيفيلين » كانت تحب « برلين » فى مثل تلك الساعة من الصباح . الشوارع خالية بالفعل . لو لم تكن غاضبة من « فلادى » لفضت المشى . ولكنها كانت تقود سيارتها المرسيديس عبر « الكودام » بسرعة ثمانين كيلو مترا . وبعد عشر دقائق تقريبا كانت أمام عمارة « فلادى » . لم تقفز من السيارة لتندفع على السلم . جلست قابضة على عجلة القيادة . لماذا جاءت إلى هنا ؟ أجابها صوت داخلى : لكى أطرده شبحا لكى أطرده شبحاً .

ضحكت « إيفيلين » . أحيانا كانت تتصور علاقتهما غليانا مندفعاً قبل الأوان ، ولكن ليس اليوم . على أية حال ، لم تعتبر علاقتها بـ « فلادى » ميتة بشكل دائم . هل يمكن أن تكون مخطئة ؟ هل كانت تخذع نفسها ؟ هل كان « فلادى » شبحاً إذن ؟ هل كانت ذكريات خمس سنوات مازالت تطاردها لأنها اتخذت وجهة خطأ لدرجة الكارثة ؟ ماذا كانت تفعل هنا ؟

فى البداية كان الأمر مختلفاً . وكان هو أيضاً مختلفاً لدرجة كبيرة . كان مرحاً . تتذكر أول يوم تحدثا فيه معا .

« دعيني أسألك عن شئ يا « إيفيلين » .. هل تريد أن تدمرى حياتى الزوجية ؟ » .

« لا ! » ، وكانت مأخوذة ومدهوشة لمباشرته .

« حسن ! يمكن إذن أن تنشأ بيننا علاقة ، ولكن لا بد أن أشرح لك قوانين اللعبة » .

بعد عدة أسابيع قالت له إنها كانت تريد طفلاً !
سألها « لماذا ؟ .. إنها فكرة مجنونة ، هل تدركين كيف سيؤثر ذلك
على حياتك ؟ »

« أريد طفلاً ! سيكون ذلك ثورة في حياتي ! »

« ثم ثورة مضادة فيما بعد ! »

في تلك الأيام ، كان التوتر بينهما يجد متنفسا له في الضحك . ترى
هل يكون ذلك هو السبب ؟ هل كانت تريد أن تعيش الذكريات الجميلة
مرة أخرى ؟

تدخل صوتها الداخلي ثانية ... « إنه « ساو » أليس كذلك ؟ « ساو »
الثرى الذى يعيش فى « باريس » . أنت تريدين الحصول على المال من
أجل فيلمك القادم . و « فلادى » ليس سوى قناة توصيل ... أليس ذلك
صحيحاً ؟ »

ثم قالت لنفسها : لا ! لا ! لست شكاكة إلى هذا الحد !

« إننى أشعر نحوه بشئ ما . ولكننى لست متأكدة من كنهه ، ولا من
سببه . »

وبمجرد أن فتحت باب السيارة وهمت بالنزول اجتاحتها ذكرى معينة
فراحت تقهقه . كانت قد مارست الجنس معه مره ... ثم .. لا شئ لمدة
أسبوعين . فشلهما فى تكرار التجربة جعلهما منزعجين ، حادى
الطباع . كلاهما مع الآخر . كانت « إيفيلين » قد كسرت ذلك الإخفاق
بأن دخلت مكتبه فى « همبولت » مرتدية معطفا عسكريا بنى اللون على

الحم : أغلقت الباب بالمفتاح وخلعت المعطف وسألت بأنعم صوت يمكن تخيله : هر « مايور » ! هل أنت قادر على فعل شئ أكثر من انتصاية ليلة واحدة ؟ نظرة عدم التصديق الممزوج بالرعب التي ظهرت على وجهه جعلتها تضحك حينذاك كما كانت تضحك الآن ! انتعشت علاقتهما لفترة بعد ذلك الحدث كما كانت تطلق عليه ، وتعلقت به .

مازالت تفتقد « قلادى » القديم . الزعيم المنشق نو العين السامة واللسان الحاد ، المجادل العنيف الذى يشرع قلمه كالسيف ويصدر كراسات تصيب النظام بالفزع ، البروفيسور المتحمس الذى يستطيع أن يفرس فى نفوس طلابه حب الأدب الروسى والأدب الصينى .

وبعد أن شحنت نفسها بدأت صعودها الطويل نحو الطابق الثالث . ضغطت على الجرس . لا أحد ! بدأت تطرق الباب . كان « قلادى » قد قضى معظم الليلة السابقة فى مراجعة بروفة ترجمة صينية لمقال « أدورنو » ، عمل يتقاضى عنه أجرا ويستمتع به . لذلك كان فى سبات عميق منذ ساعات فلم يسمع الجرس ولا الطرقات ، « إيفيلين » مستقته على الباب ، تدق بيد وتضغط على الجرس بالأخرى فى الوقت نفسه . اخترقت الدقات العالية المتواصلة لوعيه ببطء .. من ؟ ماذا ؟ نظر فى ساعته الملقاة على الطاولة الجانبية المجاورة للسرير .

السابعة والنصف ! كان « قلادى » يلحن ويسب ذلك المزعج وهو يقوم متثاقلاً من السرير ويسير مترنحا نحو الباب .

« إيفيلين ! لماذا بحق الله ؟ »

« لا تحاول ألا تكون كريماً معى يا فلادى .. تبدو مرهقا .. محطماً !
أنا فى حاجة ماسة لقليل من القهوة ! »

« إيفيلين » جاء صوت « فلادى » هادئاً مراوفاً « ماذا تفعلين هنا فى
السابعة صباحاً ؟ »

« شعرت برغبة فى أن أراك .. أليس ذلك سبباً كافياً ؟ » هذه
المرّة ، اخترق الغضب هدوءه الظاهرى فصرخ : « ليس فى مثل هذه
الساعة ! اللعنة ! ألم يكن بوسعك الانتظار إلى ما بعد الظهر ؟ أرجوك
... انصرفى ! »

« لا ! »

« لماذا ؟ »

« لأن الدافع الملح الذى جاء بى إلى هنا غلاب . أنا سعيدة لأنك
غاضب ! أكره تظاهرك بالهدوء . مازلت كما أنت . لماذا لا تعود إلى
السريـر وتتركنى أصنع بعض القهوة ! »
« ليس لدى قهوة »

« لا أصدقك . » شهقت وهى غير مصدقة .. « ماذا تشرب فى
الصباح إذن ؟ بولك ؟ »

كشر غضباً واستهزاء وخرج من الغرفة . تبعته فى الممر حتى غرفة
النوم . عاد إلى السريـر وأحكم حوله اللحاف .

« ساعاود النوم . أما أنت فبإمكانك البقاء إن أردت . إقرأى ،
استمعى إلى شئ من الموسيقى ، مارسى العادة السرية .. أى شئ
ولكن أتركينى أنام . سوف نتحدث فيما بعد . أو يمكنك الذهاب إلى
منزلك والعودة بإبريق من القهوة ، أو خذى حمام أو أذهبى للتمشية ثم
عودى بعد ذلك ... أى شئ .. أى شئ ... لكن اتركينى أنام »

« أهذا أرجوك ! فقد بدأت تكرر نفسك . لن أدعك تنام . أنا نفسى
لم أنم تقريبا »

« لماذا ؟ وبمفردك ؟ »

« أنا دائما بمفردى تغيير ... ! »

خلعت ملابسها ودخلت معه تحت اللحاف . « قلادى » تجمد ! أدرك
أن هناك مواجهة لا محالة . منذ حفل العشاء المزعج إياه ، لم يكن قد
كتب لـ « إيفيلين » أو فكر فيها ، ولم يكن يريد أن يراها ... ولو
للحظة ! كانت تنتمى إلى ماض فقد بريقه .. ماض كالح ، مختلط
بأمالهم وأوهامهم وبرحيل « هيلجا » ، رغم أنه كان يعرف أن
« إيفيلين » لم تكن المسئولة عن ذلك ، نظر إلى وجهها الغائم . القناع
اختفى . عادت الطالبة النزقة التى لمست شغاف قلبه منذ خمسة أعوام .

كان منزعجا ومستاء لأنه يعرف أنها مزيفة .. غشاشة ! هذه
المسعورة المتهورة ، الساعية دوما لأن تحدث صدمة .. كانت حكاية
طويلة . جزء من طموحها تكوين الثروة . وأن تنشئ مهنة جديدة فى
هذا البلد المفتوح على مصراعيه حيث الصناعة الأكثر نموا ورواجا هى
صناعة الفحش والفن الداعر ، ولكنه لم يكن يريد أن تجرب
ذلك كله عليه .

أما « إيفيلين » فكانت هي الأخرى منزوعة ومستاءة لاستقامته الأخلاقية والرغبة الدائمة في أن يكون كل شيء كما ينبغي ! من داوغي السخرية أن يكون يهوديا ولد ونشأ في أوروبا ويصبح ألمانيا إلى هذه الدرجة ! هروب « هيلجا » إلى أمريكا صدم « فلادى » صدمة شديدة . جرح لا يندمل . وكانت « إيفيلين » تعتقد أن من الأفضل أن تتركه وحده يعالج كبرياءه الجريح . ولو رأى أنها كانت مخطئة في ذلك لكان من واجبه أن يقول لها ذلك . لماذا لا يسمح لها بممارسة أخطائها الخاصة الآن ؟

لم تعد طالبة عنده . كانت تقول لنفسها أحيانا إن الرفض هو أقوى مشاعر ذلك الرجل المنغلق .

كانت الأشهر الثلاثة الأخيرة قبل انفصالهما موجعة . كان يتأمان معا ولكن كجثتين ! لم يمارسا الجنس أبدا . وأصبح ذلك طقسا غريبا وشاذا . « إيفيلين » تشعر بتقلصات شديدة في معدتها بعد كل ليلة تقضيها معه على هذا النحو . وأخيرا هربت .

عندما راقبت مزاجه الصارم انسابت منها الذكريات التعسة مرة أخرى فلعنت نفسها . وبدون كلمة واحدة قامت من السرير وارتدت ملابسها . كان « فلادى » يراقبها صامتا .

« لا تذهبي يا إيفيلين ! سأخلق ذقنى وأرتدى ملابسى ونخرج للنزهة بعض الوقت . »

عبرت وجهها نظرة حزينة . « ماذا حدث لنا يا « فلادى » ؟ لقد كنا قريبين من بعضنا الآخر ! »

ويدل أن يرد عليها ذهب إلى مكتبه وعاد بنسخة من طبعة
« سوهو كامب » الصادرة في عام ١٩٨٠ : « جيساميلتي شريفتن » *
لـ « أرنو » .

« كنت أراجع الترجمة الصينية لهذا الكتاب الليلة الماضية .

انظري أي جوهرة نفيسة قد وجدت . حذفوها من الطبقات السابقة ،
الله وحده يعلم لماذا . ربما كانت تلمس وتقرأ حساسا في حياة
« أرنو » الخاصة »

وتركها ممسكة بالكتاب بينما ذهب إلى الحمام . شيء غامض . لماذا
يترجم « أرنو » إلى الصينية ؟ لابد أن هناك أشياء أخرى أكثر عملية
كان بإمكانه أن يقوم بها . فقدان وظيفته في « همبولت » يمكن أن يكون
مفيدا إن كان ذلك سيخرجه من الجيتو الخاص به . يمكن بكل سهولة
أن يصبح كاتب رأي في جريدة ، أو متحدثا في إحدى الإذاعات ، أي
شيء يجعله يتوقف عن تفحص أمعائه !

« إنتهيت ؟ مارأيك ؟ »

استلقت على السرير وراحت تقرأ الجزء الذي حدده لها .

« إن الألم الناجم عن انهيار العلاقات الجنسية ليس كما يبدو
بالضبط . فهو ليس خوفا من انحسار الحب ، وليس نوعا من الحب
الترجسي الذي وصفه « فرويد » بعمق .

يدخل هنا أيضا الخوف من سرعة زوال مشاعر الفرد . ولذلك تظل هناك مساحة صغيرة للنزوات العفوية التي قد تبقى ، ويعتز بها الفرد ويشعر معها بالفرح حتى وإن سببت له الألم . إنه فى الواقع يشعر بالآثار الأخيرة والتي تكون موجعة عندما يدافع عنها حتى لا يصبح هو مجرد شئ .

والخوف من حب شخص آخر يكون أقوى من الخوف من فقدان ذلك الشخص . والعزاء هو أننا بعد سنوات قليلة لن نكون قادرين على فهم عواطفنا ، ويصبح بإمكاننا أن نلتقى المرأة التي نحب بلا شئ أكثر من دهشة وحب استطلاع عابر يمكن أن يصيب الطرف الآخر بالدهشة كذلك .

إن العاطفة التي تخترق العقلانية ، وتبدو أنها تساعد النفس على كسر سجنها الضيق تصبح تجديفا كاملا إذا دخلت حياة الفرد ثانية عن طريق سبب مخز .

ومع ذلك ، فإن العاطفة ذاتها ، وبشكل لا مفر منه ، عندما تعبر الحدود الثابتة بين شخصين تصبح مضطرة للتفكير فى تلك اللحظة ، وعندما تخضع لها مضطرة كذلك للاعتراف ببطلان ذلك الخضوع . والحقيقة أن الفرد كان يشعر دائما باللاجئ وأن السعادة تكمن فى الفكرة اللامعقولة لإنجراف العاطفة أو الحماس وفى كل مرة يفشل فيها يعتبرها المرة الأخيرة ، يعتبرها الموت !

إن سرعة زوال الشئ الذى تتركز فيه الحياة بكاملها ، تخترق ذلك التركيز نفسه . وقبل كل شئ ، فإن المحب غير السعيد عليه أن يعترف بأنه لم يكن يحب سوى نفسه عندما كان يعتقد أنه ينسى نفسه . لا صراحه تقود إلى خارج دائرة الذنب لما هو طبيعى ، وإنما التفكير فقط فى كيف أنها دائرة مغلقة .

كانت تقرأ ذلك للمرة الثالثة عندما ظهر « فلادى » يرتدى « سويتير » برقبة وبنطلون جينز حائل اللون وحذاء رياضة قديما .

« حسن ؟ »

« إنها صعبة يا فلادى » .. مثلك تماما ! ما هى الفكرة التى تزعجك فى ذلك ؟ »

« الخوف من سرعة زوال مشاعر الإنسان »

« وصلتني الرسالة ! »

ضحك « فلادى » المشكلة معك يا « إيفيلين » أنك تأخذين كل شئ بشكل شخصى »

« والمشكلة معك يا « فلادى » هى أنك منذ سقوط جمهورية ألمانيا الديمقراطية أصبحت ميالا للحزن إلى حد ما . »

« فى أشياء وأشياء »

« معنى ذلك ؟ »

« فى الذكرى الأولى لوفاة الحائط كانت هناك سلسلة أحداث مؤسفة » .

« ليس » قلادى « الذى يمكن أن يكون خجولا هكذا ! حتى فى حالتك الراهنة »

« حاولت أن أمارس الجنس و »

قاطعته « إيفيلين » : « مع من ؟ »

« مع واحدة لا تعرفينها بالتأكيد » .

« واحدة من متحولات « أنورنو » ربما ... ! على أية حال .. ماذا حدث ؟ »

« تلك هى النقطة الأساسية . لم يحدث شئ . لا تضحكى يا « إيفيلين » . الأمر لا يدعو للضحك ! »

« هل حاولت مرة أخرى منذ ذلك ؟ »

هز « قلادى » رأسه .

« تعنى أنك على مدى السنوات الثلاث الماضية كنت تعيش كالراهب ؟ »

« ليس بالضبط ! فالرهبان كما تعرفين يعيشون دائما حياة جنسية كاملة ومتنوعة . على خلافهم .. أصبحت عزبا . وهذا يقلقنى . فكرت فيك كثيرا ولم تكن لدى رغبة فى أن أراك » .

« وهذا يؤكد فكرتى يا « فلادى » . أعتقد أننى أعرف مشكلتك يا صديقى . لقد توقفت عن حب نفسك ونسيت كيف تتلقى الحب . فرط الجنسية يصيب بالمرض ، ولكن عدم وجودها بالمرّة ... ؟ شئ غير طبيعى . لقد غصت فى بركة رثاء الذات . « فلادى » ! عقدة الاستشهاد .. أحكمت قبضتها عليك . كل ذلك يمكن أن ينتهى بنوبة من ممارسة الجنس ممتعة ... وطويلة ... ومهدئة ! وأنا أقبل التحدى ! فلادى ! حائط « برلين » أو لاحائط « برلين » هيا ... اخلع ملابسك ! »

ضحك « فلادى » « وهو كذلك ولم لا ؟ »

وسقطت الملابس وكان السرير يصرخ تحت ثقل الجسدين .

« كنت قد نسيت جسدك » همهم وهو يداعبها ويتحسس دفئها الذى كان قد نسيه .

بعد ذلك نظر إليها مترقبا .. جلست وضحكت .

« هه ! لم يكن شيئا ! أليس كذلك ؟ ثلاثة من عشرة للأداء وعشرة من عشرة للمجهود ! سنفعل ذلك كثيرا ! » ابتسم « أعتقد أننا لا بد أن نخرج لنتمشى يا « إيفيلين » ...

ولو لنرى ضوء الشمس ! »

« لا بد من ارتداء شئ ثقيل .. الجو بارد فى الخارج » لبسا ثيابهما بسرعة . تناول المعطف الأخضر القديم من على المقعد وألقاه على كتفيه . « إيفيلين » ضحكت .

« مازلت تحتفظ بهذا الأثر القديم من ألمانيا الديمقراطية ! لماذا لا تبيعه لأحد الباكستانيين أصحاب المحلات الصغيرة بالقرب من بوابة » براندنبورج « ؟ يمكن أن تحصل على ثمن أكبر من ثمن صور « أولبرشت » و « هونيكر » وأعلام جمهورية ألمانيا الديمقراطية ! »

ابتسم « فلادى » مرة أخرى .

« لا تسخرى يا « إيفيلين » . أنا أقف أحيانا وأتكم مع أصحاب تلك المحلات نتناول الشاي معا . مرة سألت أحدهم وكان شابا فى الثلاثين ... لماذا يبيعون كل تلك الأشياء . هل تعرفين ماذا قال ؟ أمى ضاعت ، وأنا ضعت ، فماذا بقى لنفعله سوى أن نبيع بقايا هذا البلد الضائع ؟ » وانفجرت « إيفيلين » فى الضحك موافقة على ذلك .

« ورغم أنك قد قررت كل شئ ، أقول أيضا إن المعطف قد ضاع ! »

« أنا لم أقرر شيئا ولا كلمة ... ودعك من المعطف . هناك أشياء يجب ألا يفرط المرء فيها ... هذه الخرقه البالية لا تقينى البرد ، ولكنها تعيد لى كثيرا من الذكريات الدافئة ! »

الآن تراه « إيفيلين » كما رآته أول مره . قاعة محاضرات مزدحمة ذات مساء بارد من نوفمبر . كان ذلك منذ سبع أو ثمان سنوات . رغم أن القاعة كانت مزودة بالتدفئة إلا أن البروفيسر « مايور » لم يخلع المعطف . مايجعل ذلك اليوم ماثلا فى الذاكرة ليس ملابس « فلادى »

ولا سلوكه ولا حركته الجسدية وإنما الموضوع . كان يتكلم عن « هينى »
بحميمية فاجأت المستمعين ، ثم بعد ذلك أدهشتهم ليس « هينى »
الشاعر ، وإنما « هينى » المؤرخ للثقافة الألمانية . « هينى » مؤلف
« الدين والفلسفة فى ألمانيا » ، الكتاب الذى كان يعتبره « قلادى »
نصه المدرسى .

إحدى نتائج النزعة المحافظة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، هو
أنها حفظت التعليم فى مرحلة ما قبل الفيديو ، مع عادة الاهتمام
بالكلمات الطويلة . أما إحدى المزايا الجدية للانتصار الغربى فهو أثر
الفيديو فى كسر الاحترام القديم للثقافة الراقية فى وسط أوروبا ، بما
فى ذلك التقليل من شأن أولئك الكتاب الذين كان الغرب يحترمهم طالما
أنهم كانوا منشقين عن الأنظمة الشيوعية .

أولئك المؤلفون أنفسهم ، يستجدون الآن أن تترجم أعمالهم ، وبدأوا
يفهمون أن تمردهم الطويل ضد الواقعية الاشتراكية قد تركهم بلا
سلاح ضد العدو الجديد ... واقعية السوق .

« قلادى » يتذكر كيف أنه بعد أن انتهى ، ران صمت طويل ، ثم
فجأة نوى تصفيق غير عادى ، أدهشه وكان مفاجأة له .

ابتسم ، وهى أيضا لا حظت كل شئ آخر عنه بما فى ذلك المعطف
الأخضر .

« قلادى » . كانت تفكر بصوت عال ، « ألا زلت تذكر تلك القطعة من
« هينى » ؟

« أية قطعة ؟ »

« عن التقشف الألماني . تعرف ... عندما فسر بداية الإصلاح كتمرد على بيع الانغماس الذاتى ، مما يدل على أن الليبيدو الجمعى لدينا قد تجمد »

ابتسم « قلادى » . أخذها من ذراعها وهمس فى أذنها بكلمات « هينى » .

« نحن الشماليون ، دمننا أكثر برودة ، ولا نحتاج لكثير من الانغماس فى خطايا الجسد كما أرسلها « ليو » فى اهتمامه الأبوى بنا . مناخنا يجعل من السهل علينا ممارسة الفضائل المسيحية ، وفى ٣١ أكتوبر من عام ١٥١٦ ، عندما علق « لوثر » أفكاره ضد الانغماس الذاتى على باب كنيسة القديس أوغسطين ، ربما كان الخندق المائى الذى يحيط بـ « ويتنبرج » قد تجمد ، وكان بالإمكان التزلج فوقه ، وهذا نوع من المتعة شديد البرودة ، وبالتالي فليس ثمة خطيئة » .

راحت « إيفيلين » تمسد شعره .

« على الأقل فإن ذاكرتك ما زالت موجودة ! »

« هل قرأت الكتاب ؟ »

« لا ! » اعترفت « إيفيلين » . « لم يكن هناك سبب لذلك . محاضرتك قالت كل شئ . شعرنا بأننا عرفنا ما فى الكتاب ، .. وبدقة .. » .

كانت الإجابة " « حمقى . ! أغبياء ! كيف يمكن أن أنقل جمال اللغة ؟ كان لابد أن تلتقطوا ولو بعض العبارات لبث الحيوية فى سيناريوهات أفلامكم »

« قلادى .. هل تكره أفلامى ؟ »

« لا ! ولكنها ليست قوية بما يكفى لكى أكرهها ! وتلك هى المشكلة . ما زلت مبتدئة . تقلدين الموضة الغربية لجذب اهتمامهم . أريدك أن تبدأى الاستماع لصوتك الخاص . أصواتنا يا « إيفيلين » هذا ما نحتاجه . وأعتقد أنك قادرة عليه . أنا متأكد ! »

« إيفيلين » لم ترد . تملكها غضب شديد فى البداية . ياله من متعصب أبله . هكذا كانت تفكر . كم أكرهه !

سارا فى صمت قرابة ربع الساعة إلى أن أدركت هى أنه كان على حق ! وبقي ذلك الإدراك يزعجها للحظات قليلة . ثم عانقته ! « شكرا يابروفيسور ... نصيحة مفيدة ! »

دهش « قلادى » واستراح لرد فعلها . وللحظة كان يتصور أنها سوف تبدأ دورها مرة أخرى وتفضحه أمام المارة . وقبل أن يهدئها أكثر من ذلك فاجأهما صوت مألوف .

« إيفيلين » ... و « قلادى » ! أليس صباحاً جميلاً ؟ ! كانت « ليلي كروزبيرج » متدثرة بشال أحمر ، تضع على وجهها صندوقاً من الألوان والأصباغ ، وقفت أمامهما منتظرة رداً . لا رد ! وأخيراً هز « قلادى » رأسه قليلاً ، وافتعل ابتسامة باهته . « إيفيلين » عانقت « ليلي » .

« ليس بعيدا عن المكان الذى رسمت فيه » القبلة المختلسة .
كنتما تستلقيان دائما على الحشائش .. تحت شجرة الصفصاف
بالضبط .

وكان وصفا نموذجيا بالنسبة لى . كل مساء من أغسطس فى ذلك
العام . كأنكما تتخذان وضعكما أمامى لكى أرسمكما . نفس حركات
الجسد .. ثم أطول قبلة رأيتهما فى حياتى " هل هى زيارة لهذه البقعة
إحياء للمناسبة ؟ سألتكما عدة مرات قبل ذلك إن كانت اللوحة قد
أعجبتكما ولكنكما لم تردا على ! »

تسألت « إيفيلين » فى غير حماس « لو أنها لم تعجبني ... فلماذا
أعلقها على جدار غرفة نومى ؟ »

« أعرف ذلك يا « إيفيلين » ، أنا أسأل « فلادى » .

اعتراف « إيفيلين » فاجأ « فلادى » .

« موجودة على الحائط طوال الوقت ؟ »

« نعم »

« ولماذا لم تخبرينى ؟ »

« الهر .. البروفيسور « مايور » .. هل خذلتك ذاكرتك تماما ؟ »

هلنى نسيت فعلا كيف خرجت من غرفتى وأنت تقول إننى قد أصبتك
بالقرف وإنك لا تريد أن ترانى بعد ذلك ؟ فى اللحظة نفسها تقريبا التى

كنت أبلغك فيها بأننى قد حصلت على عمل فنى يصور جسمك المستلقى
بطريقة رائعة ؟ !

« عمل فنى ؟ »

فجاء صوت « ليلى » حزينا : « لم يعجبك إذن يا « فلادى » ؟ »
« لست ناقدًا فنيا يا « ليلى » ، ومع ذلك فقد كنت أرى أن أسلوبك
مرتبك . لا يمكنك أن تتزوجى من « سكيلية » و « بيكاسو » فى وقت
واحد . إنهما ... »

صرخت « إيڤيلين » : « اسكت يا « فلادى » ! إنك تقول ذلك فقط
لكى تعاقبنى . لماذا تؤلم « ليلى » ؟ ما زلت أتذكر انطباعك الأول عن
الرسم . « م ... م ... م ... غير عاوى ! ألوان ثرية ! الخطوط
تنقصها الرقة إلى حد ما ، ولكنه جيد ! يعجبنى ! « فماذا غير رأيك ؟ »

« لا أستطيع اليوم أن أتكلم فى ذلك عفوا يا « ليلى » ! عن
إذنك . »

وانصرف على مهل !

كان « كارل » قد قرأ رسالة « فلادى » عدة مرات ، ولكن على انفراد دائما ، كان يفعل الآن فى غرفته بالفندق . كان فى « ميونخ » للقاء أحد الناشرين . و « كارل » سوف يلحق به فيما بعد لتناول العشاء معا .

انتابته فجأة رغبة ملحة لتبرير نفسه ، الأمر الذى لم يحدث من قبل . لماذا كان يريد أن يدافع عن تاريخه أمام « فلادى » ؟ لماذا يريد أن يبرر نفسه ؟ هل شعر فجأة بعدم الأمان ؟ لقد حدث تغيير فى زعامة الحزب ولم يكن « كارل » يستريح للرجل الجديد .

كان صخابا ، قلقا ، مندفعاً ولا يصلح لأن يكون مستشارا . وكان « كارل » يخشى أن تجعل السلطة الحزب الديمقراطى الألمانى يضل طريقه . كان يشعر أنهم فى حاجة إلى القوة لكى يناضلوا ضد نسيان الزمن . كان يود أن يوضح أفكاره . وفى أوقات كنتك كان يفتقد « فلادى » ، لديه ساعة قبل العشاء فتح أوراقه وكتب . :

عزيزى « فلادى » ،

سعدت لأنك كتبت إلى . وها أنذاك أكتب لك لأؤكد أننى لا اعتبرك ولا أمتى مسؤولين عن الانفصال . أزعجنى ذلك كثيرا ولكن ذلك كان فى الماضى . هل تذكر كيف كنت تسخر من فتور حماسى وعدم قدرتى على اتخاذ قرار بشأن مقصدى النهائى ؟ حسن ! الآن .. قررت ..

ولكنك ما تزال غاضبا لأنك لا توافق على قرارى . هل تريد أبنا أم ذيلا ؟
إن ما يصيبنى بالجنون من جيلك هو رفضك قبول حكم التاريخ .
فى وقت ما ، كان التاريخ يتحرك إلى الأمام باندفاع .. نحو أفكارك
الخيالية . ثم بعد ذلك كنت تنظر إليه كعملية موضوعها . بروليتاريا
العالم التى لا تقهر والتى جمعت بينها الطبقة ضد عدوها . والآن أصبح
التاريخ بغيا .

أنظر إلى العالم من حولك يا « فلادى » . أنظر فقط !

المزارعون الفقراء فى « رواندا » يقتلون جيرانهم الفقراء باسم
القبيلة . الصرب الروس الأرثوذكس يقتلون مسلمى البوسنة ،
والكروات الكاثوليك يقتلون ويقتلون .. بأيدي الطرفين الآخرين . تقدم ؟ !
أنا لا أنكر عليك ذكرياتك وماضيك يا أبى ، لكن ، أرجوك ، لا تنكر
على مستقبلى ! لا أريد خيالات وميثاليات لا تتحقق . أريد حياة هادئة ،
حكومة معقولة ، امرأة أحبها وتحبنى ، طفلين ، ونظام نقل عام يعمل
بكفاءة ، ودراجة قوية - بهذا الترتيب . هل هو شئ مضجر ربما ؟ !
ولكنى أفضل أن أشعر بالضجر وأن أعيش حياة عادية ، على أن أكون
فى حالة استشارة دائمة وأرى الملايين من حولى يختفون . العقل لابد أن
يحل محل الجمود الفكرى والأيدىولوجيا . أرفض أن أنافس من أجل
تاريخ يدمر كل تاريخ « أقل » منه .

أنت غاضب ! وتعتقد أنني عنيد . وتعتبر أفكارى عملا طفوليا ضدك
وضد « هيلجا » . تعتقد أن الكائنات الغريبة قد اغتصبت عقلى ! تعتقد
أننى مستهلك تماما بدوافع عملية .

وبسبب ذلك كله أصبحت تحتقر أفكارى وأرائى السياسية .

أنت تظن أنك .. وأنت أنت وحدك على حق . وترفض أن تتحمل أية
مسئولية عن هذا القرن اللعين الذى سيطرت عليه « الفكرة » .

والحقيقة يا عزيزى « فلادى » أن الأفكار الخيالية التى حاربت من
أجلها أنت وجدتى « جيرترود » وجدى « لودفيك » (الذى تقول الآن إنه
قد لا يكون جدى) - الوحيد الذى ناضل ومات من أجل أهداف حقيقية
قد لا يكون لها علاقة بنا - كانت طواحين هواء . أعرف أن ذلك
سيزعجك كثيرا ، ولكنه ما أشعر به . ماضيك ليس عديم الأهمية
بالنسبة لى ، لكنه لا يعلمنى شيئا . ورغم ذلك أشعر بأننى قريب جدا
منك ، وبأننى فى حاجة إليك ، ويمكننا أن نتناقش وجها لوجه .

سأكون فى « برلين » قريبا . وأنا سعيد لأن الشقة القديمة مازالت
موجودة هناك . فلا تقلق من فضلك بهذا الصدد . يمكن أن نذهب معا
ونبحث عن شقة جديدة .

« هيلجا » كتبت تقول إنها قد تعود إلى ألمانيا . بدأت تكتشف أن
نيويورك « صعبة جدا » - أخيراً !

أنا مسرور حقاً ! وأنت ؟ أرجوك .. اكتب أو اتصل تليفونيا .
والأفضل أن يكون لديك جهاز « فاكس » وجهازا للرد على المكالمات

التليفونية . ذلك سوف يجعل الاتصال أكثر سهولة . عندما انتشر استخدام التليفون ، ظن الناس أن زمن كتابة الرسائل قد ولى ، ثم ظهر « الفاكس » ، وعدنا مرة أخرى ، أقصد بقية أوروبا فيما عداك . من أين تحصل على أشرطة ألتك الكاتبة هذه الأيام ؟ سمعت أن المصنع قد توقف !

مع حبى !

« كارل »



فى سبتمبر ١٩٣٦ ، كان قد مضى على الحرب الأهلية الإسبانية عدة أسابيع . أرض " سرقانتس " أصبحت ساحة للصراع الأوروبى . كنت بين رأيين يا " كارل " : أكتب أو لا أكتب عن إسبانيا ، بدا ذلك وكأنه ينتمى إلى ماضى بعيد وكنت أخشى أن أستنفذ صبرى : ثم ذهبت وشاهدت " الأرض والحرية " لـ " كن لوتش " المخرج الإنجليزى . مفارقة غريبة : انجلترا هى أكثر البلدان تخلفاً وعزلة فى قارتنا الأوروبية ، ومع ذلك هى التى تقدم لنا مثل " كن لوتش " .

ولاحظت بعد ذلك فى شهادة التقدير أن معظم الأموال قد جاء من أوروبا ، الأمر الذى يدعو للأطمئنان . إلا إننا لابد أن نعبر عن أمتنا لهم لأن الفكرة قد نبتت فى انجلترا .

كانت السينما مزدهمة بالشباب وتمنيت لو أنك جالس جوارى .

الفيلم ضعيف ، ولكنه أعاد كل الذكريات القديمة والمناقشات التى كنت قد سمعتها من " جيرترود " وأصدقائها فى " برلين " ، وكان معظمهم قد حارب ضمن لواء " تايلمان " .

كانت " جيرترود " تتحدث دائماً عن " كولليور " وهو منتج على البحر .

ذات مرة ، وكنت فى السابعة عشرة ، كان هناك صديق قديم لجدتك اسمه " والتر " .. يعمل فى " باريس " ضمن البعثة التجارية . كنا سنقيم عنده وذهبنا جميعاً إلى " كولليور " كنقطة لقاء . كانت قريبة جداً

من إسبانيا ، دون أن تكون مدينة حدودية بكل ما يعنيه ذلك . هادئة جداً حتى فى ذروة فصل الصيف عندما جاء " لودفيك " إلى هنا مع " ليزا " و " فيلكس " لقضاء عطلة قصيرة . كان " فيلكس " يعتبرها جنة الله على الأرض .

والآن ، كانت " ليزا " و " فيلكس " قد عادا إلى " باريس " وأصبحت " كولليور " مهجورة ، باستثناء السكان المحليين و " لودفيك " والرجلين اللذين جاءا من " موسكو " ، أصدقاءه القدامى ، " فريدى لانج " و " شميلكا ليقيتسكى " . قدموا أنفسهم للمحليين كأصدقاء يعملون بالتجارة وكان كل همهم صيد السمك والطعام الجيد . الغرباء دائماً يعتقدون أن من السهل خداع السكان المحليين . لكن ذلك لا يحدث دائماً ولم يكن الصيادون فى " كولليور " استثناء . فقد أحبوا " اللامات الثلاث " .

قبلوا أن يكون " لودفيك " وأصدقاءه مغرمين بالصيد ويقبلون على النبيذ المحلى والمطبخ الفرنسى - القطالونى ، ولكنهم لم يصدقوا أبداً أن رجال الأعمال الثلاثة كانوا هناك لمجرد قضاء وقت سعيد . كانوا يعرفون أن أولئك الأجانب كانوا على علاقة ما بالحرب الأهلية الدائرة فى البلد المجاور .

" كولليور " التى يحتضنها هلال من التكوينات الصخرية الخلابة، كانت مغطاة بكتل صغيرة من السحب فى ذلك اليوم .

كان روتين " لودفيك " بسيطاً . " اللامات الثلاث " يخرجون من الفندق فى الصباح الباكر . يسيرون حتى الشاطئ ثم يجلسون فى صمت يراقبون الصيادين وهم عائدون بمحصولهم الليلى . مجموعة متنوعة من الأسماك. كان ذلك الصيد يحدد طبيعة ونوع الحساء الذى

سيقدم مساءً . " فريدي " يشعل غليونيه ، وهي إشارة لهم جميعاً فيقفون ، يتبادلون مزاحاً سريعاً مع الصيادين ثم يمضون بنشاط نحو حافة الشاطئ لبدء تمشيتهم المعتادة بحذاء المرتفعات الصخرية . وبعد ساعة تقريباً ، كان يمكن أن تراهم يتناولون إفطارهم في المقهى المواجه للفندق وهم منهمكون في قراءة الصحف الصباحية . بعد ذلك يهتفون طوال النهار في سيارة " لودفيك " الستروين السوداء . كان عادة يأخذهم إلى " بورت بو " لتكليفات محددة مع عملاء من إسبانيا . واليوم كانوا في طريقهم إلى قرية في البرانس الفرنسية ، حيث كان السكان وهم أقل من ثلاثمائة شخص ، موالين لقضية الجمهوريين في " أسبانيا " مهارات " لودفيك " التنظيمية حولت القرية الجبلية الصغيرة إلى مركز قيادة سرى ، على درجة كبيرة من الأهمية ، متصل بميادين القتال في " قطالونيا " .

هنا كانت توجد ورشة متوسطة الحجم ، لإنتاج جوازات السفر السويسرية والفرنسية ، والبريطانية وبطاقات الهوية الألمانية والإيطالية وكذلك العملة . وبالقرب منها ، خياط متخصص في تفصيل الزي الرسمي ، وفي الغرفة المخفية على السطح ، عامل لاسلكي ، يتصل " لودفيك " عن طريقه بـ " إسبانيا " والشعبة الرابعة في " موسكو " . أما في خارج القرية فكانت توجد مزرعة كبيرة . كان " لودفيك " قد اختار ذلك الموقع الريفي بعناية شديدة . المباني المحيطة به تبدو متداعية ، وكأنها مهجورة ، ولكن في داخلها ، كان " لودفيك " يشرف على ابتكار أسلحة متخصصة . كان يتم إصلاح وتطوير مدافع الماكينة والمسدسات وتجربتها ثم إعادتها لعملاء الشعبة الرابعة في " إسبانيا " و " فرنسا " و " البرتغال " .

" فريدى " و " لفيتسكى " المعجبان بالعملية نظراً إلى " لودفيك " وتبادلا الابتسام . كلاهما كان يفكر فى أيام الدراسة فى " بدقوشويسك " حيث كان " لودفيك " أقلهم انضباطاً .

بدا صوت " لودفيك " متعباً وهو يقول : " هيا نتناول مشروباً وبعدها نواصل العمل " .

قام أصدقاؤه من مقاعدهم ، أطفالاً غلايينهم . ثم ساروا على مهل نحو المبنى الخارجى . كان " لودفيك " يقف أمامه وعندما اقتربوا ابتسم . تذكر أم " شميلكا ليفيتسكى " وهى تصرخ فيهم لأنهم ألقوا بأبنها الوحيد فى النهر بملابسه كاملة . ولمدة أسبوع كامل ، كان شميلكا " ممنوعاً من اللعب معهم ، وبدلاً من ذلك ، أرسل ليتلقى دروساً خاصة من الحاخام ! شرح " لودفيك " الترتيبات الإدارية والتمويلية للعملية ، وترك رفيقية من الشعبة الرابعة يتحدثان مع العمال المتخصصين على راحتهم لكى لا يؤثر على انطباعاتهم الأولى .

بعد ساعات قليلة ، وأثناء الغداء المكون من الخبز الطازج وجبن الماعز والنبىذ الأحمر المحلى ، كان الرجال الثلاثة يتبادلون المعلومات . كان " لودفيك " يعيش خارج الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٢٩ ، وعلى مدى الأيام الثلاثة الأخيرة كانوا يناقشون الأزمة الأوروبية والتخلص من عملائهم . كان " لودفيك " متلهفاً للاستماع لأخبار الوطن ، وبعد ذلك كان عليه أن يقدم تقريراً سريعاً لـ " جيرترود " عن ذلك الاجتماع . الحوار التالى عبارة عن نتف من مفكراتها ، وقد أضفت بعض الجمل التوضيحية من أجلك يا " كارل " ، ولكن صوتاً داخل رأسى يقول لى أنك لن تصل إلى ذلك المدى . وإن حدث ، أرجوك حاول وأفهم أن ما تسميه " الشيوعية التاريخية " كان هو الحياة اليومية بالنسبة لأولئك الناس .

كانوا هم المادة الإنسانية ، ولن يصدقوا أبداً أن الفكرة لن تهزم
إلا مؤقتاً .

قال " ليفيتسكى " إنها فرصتنا الأخيرة ، إذا انتصر الفاشست فى
" إسبانيا " فإن " هتلر " سوف يستولى على أوروبا وسوف يقوى
" ستالين " نظامه .

" فريدى ؛ يتكلم بصوت هادئ ، ولكن سلطته واضحة لا تخطئها عين
. كان كواحد من المراقبين الرئيسيين للشعبة الرابعة يعرف كل شئ
تقريباً . لو استولى " هتلر " على أوروبا ، فإن " ستالين " سيعقد صفقة
معه .

" لا ! " كانت لهجة " ليفيتسكى " تعكس ما انتابه من رعب . " أنت
تذهب بعيداً جداً يا " فريدى " . حتى " ستالين " لا يمكنه أن يصل إلى
هذا ... الحزب ممكن ! "

" لا تكلمنى عن الحزب ، لقد أصبح أدواته . لقد أطلعت على تقارير
الاستخبارات الألمانية . أقاموا قنوات اتصال معنا . تقريران منها
يشيران إلى أن المارشال " توكا شيفسكى " يعمل لحسابهم . "

قال " لودفيك " بازدرء " هذا تزيف واضح ، ورغم ذلك فأنا واثق أن
شخصاً واحداً فى " موسكو " يريد ، وبكل قوة ، أن يصدقهم . هل أنا
محق أم ترانى مخطئاً يا " فريدى ؟ "

" محق يا صديقى ! "

" ستالين . " ليفيتسكى " صدم بالفعل " ولكن لماذا بحق السماء ؟ إن
" توكا " هو أفضل من لدينا ! "

" ولذلك يريده صبية " هتلر " أن يخرج . يعرف كل استراتيجيتهم

العسكرية من الداخل . فى وقت باكر من هذا العام وأثناء المناورات كان يوضح على الخريطة كيف وأين سيهاجم الألمان الاتحاد السوفيتى ، وكيف يمكن أن تكون مقاومتهم "

" أعرف ذلك كله يا ف . . ف . . فريدى " . كان " ليفيتسكى " يتلعثم أحياناً عندما يستاء ... " ولكن لماذا يريد زعيمنا الكبير أن يتخلص منه ؟ "

" غيور من مكانة " توكا " فى الجيش الأحمر . وقلق فى أعماقه خشية أن يتحرك " توكا " فى حال حدوث أية أزمة " ، كان ذلك رد " لودفيك " . " كما أنه لم يغفر أبداً لـ " توكا " عدم شجبه لـ " تروتسكى " . لهذه الأسباب ، فإن قائدنا العسكرى العظيم سوف يلقي القبض عليه قريباً بكل تأكيد ، ويتهم بالتجسس لحساب الألمان فريدريك ؟ "

" أخشى ذلك ، ولن يكون الوحيد ، إنهم يريدون التخلص من كل الذين عملوا تحته كذلك "

" ليتنى مت أثناء حربنا الأهلية "

أعاد " فريدى ؛ إشعال غليونه وهو يراقب وجه صديقه . كانت عيناً " لودفيك " ممتلئتين بالحزن ، ولفترة صمتوا جميعاً . كان ذلك يحدث عندما يتحدثون عن " موسكو " .

قال " فريدى " : " لماذا يريدونك أن تعود إلى موسكوى يا " لودفيك " ؟ جلسة تحقيق ؟ "

" لماذا ؟ "

" فى ظاهره يبدو الطالب غير معقول . كنت خارج البلاد لمدة سبع

سنوات . إسبانيا مهمة جداً بالنسبة لمستقبل أوروبا . أنت تعرفها أكثر من أى شخص آخر .

تساءل " لودفيك " : " لكن ؟ "

قال " فريدي " : " لكن لا بد أن ترفض الطلب . كان أحد صبية ستالين يسأل عنك . كان يريد أن يعرف لماذا كان أخوك يحارب مع البولنديين ضد الجيش الأحمر فى سنة ١٩٢١ ، وأعتقد أنك إذا عدت فسوف يحتجزونك هناك " .

" إن كان لا بد أن أموت ، فإننى أفضل أن أذهب لقتال الفاشست " .

قاطعهم " ليفيتسكى " : " لودفيك مطلوب فى " أسبانيا " . هو الوحيد الذى يعرف أماكن جواسيسنا الذين يعملون إلى جانب " فرانكو " قال " فريدي " : " لدى فكرة أفضل ، سوف أرسل تقريراً بذلك فوراً . وجودك فى أوروبا ضرورى ولا يمكن الاستغناء عنه . يمكن أن نناور ، إذا أرسلت " ليزا " و " فيلكس " إلى " موسكو " فى إجازة قصيرة لزيارة الأقارب والأصدقاء . وسوف يكون ذلك تعبيراً عن صفاء ضميرك وأنت لا تخشى شيئاً .

" لو حدث شيء لهما يا " فريدي " فلن أستطيع أن أعيش "

" لن يحدث شيء إن هما عادا بسرعة "

" متأكد ؟ "

" تمام التأكد ! "

" سأفكر فى ذلك ! "

وهم عائدون بالسيارة إلى " كولليور " كانت السماء صافية . أوقف "

"لودفيك" السيارة بالقرب من منعطف وقفز منها الرجال الثلاثة لرؤية الدقائق الأخيرة من غروب الشمس .

قال " لودفيك " وهم عائدون إلى السيارة : " فريدريك ... منذ ثلاثة أيام وأنا منتظر أن تقول شيئاً ... "

" ماذا ؟ "

" لماذا لم تتكلم أنت أو " شميلكا ؛ عن المحاكمة ؟ هل صحيح أنكما أجريتما تحقيقاً مع " زينوفايف " و " كامينييف " ؟ وهل يمكن أن يكون ذلك حقيقة ؟ "

هل سبق أن سمعت بتلك الأسماء يا " كارل " ؟ " روز نكرانتز " و " وجلدن شتيرن " الثورة الروسية ؟ مؤسساً حزب " البلشفيك " مع " لينين " رفاقه المقربون ، " كامينييف " كان أيضاً صديقاً شخصياً مقرباً ، وعندما فكر " لينين " بأنه قد يقتل ، ترك لديه مخطوط " الدولة والثورة " ، وهي كراسة بعيدة كل البعد عن اللينينية . الرجلان كلاهما كان معارضاً لانتفاضة اكتوبر ، وكانا يعتبرانها مغامرة . كانا قريبين من المنشفيك .

إذا عا التاريخ الذي كان يخطط البلشفيك للاستيلاء على السلطة فيه .

أصيب " لينين " بصدمة . طلب طردهما ولكن اللجنة المركزية رفضت بعد ذلك عفا عنهما ولكنه لم ينس .

بعد موت " لينين " أنضمما إلى " ستالين " ضد " تروتسكي " ولكنهما أنضمما الأخير في معارضة متحدة لكي يهزموا " ستالين " . وبالطبع فإن الدكتاتور لم يثق فيهما بعد ذلك أبداً ، وعندما

قرر " ستالين " أن يمحو معظم لجنة " لينين " المركزية كانا أول القائمة .
وهناك شيء آخر " كامينييف " كتب مقالاً ممتازاً عن " ميكافيللي " .
استخدم ضده أثناء المحاكمة . الأمير قضى عليهم كلهم .

لم يجب أى من الرجلين . ثم بدأ " ليفيتسكى " يتكلم ، وقد شوهدت
الذكريات وجهه .

" فريدى وأنا استجوبناهما على التوالى "

" أيكما كان أكثر قسوة ؟ "

" أنا "

" أنت ؟ "

كان "لودفيك " مندهشاً بالفعل . " شميلكا ليفيتسكى " كان الأقل
قسوة من بين أعضاء العصاية القديمة . كان غير مقتنع بالمرّة . لابد أنها
كانت فكرة " فريدى " أو طريقته ليقول للبلاشفة القدامى إن الحكاية كلها
كانت مهزلة .

وعرف " فريدى ؛ بالغزيرة أن " لودفيك " قد ضمن دوافعه . نظر
الرجلان كلاهما للآخر .

أعترف " فريدى " لرفيقه القديم : " كان شيئاً مرعباً ! تعرف ...

... قبل ذلك كنا نضحك لأنهما كانا يوافقان دائماً معاً على كل شيء
توأم سياسى ! لم يكن ذلك سيئاً . نظر " زينوفيف " فى عيني مباشرة
وقال : تعرف أكثر من الآخرين أن كل ما نحن متهمون به ليس سوى
حزمة أكاذيب . لماذا إذن تفعل ذلك معنا ؟ .. على الأقل .. لا يجب أن
تمتهن ذكاعنا ! "

هز " كامينييف " رأسه موافقاً تماماً . حتى فى سجن " لوبيا نكا " لم تتغير شخصيتيهما . كنت أريد أن أقول لهما الحقيقة . كنت أريد أن أصرخ أنه مهما حدث فلا يجب أن يعترفا ، ولكنى لم أستطع حتى أن أرد على " زينوفاييف " . كان يتم تسجيل كل شئ ويبلغ به " ستالين " وكنا مراقبين . ولذلك واصلت "

" كيف استطعت أن تجعلهما يعترفان لماذا اعترفا ؟ "

" بسيطة ، قلت لهما إنهما إذا تحديا إرادة " ستالين " فى المحكمة فسوف يأمر بإعدامهما على أية حال ، ولكنه سوف يعاقب أسرتيهما كذلك . وإذا اعترف بجرائمهما فلن يحدث شئ للأسرتين ، ونجح ذلك بالنسبة لهما .

" كان ذلك بسيطاً بالنسبة لهما يارفيق ! .. بسيطة ؟ قلت لهما ذلك ؟ أنت ؟ أخبرت رفيقى " لينين " القدامى أن يموتا والأكاذيب على الشفاه ؟ من أجل ماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ "

" لم يكن أمامى أى ضياء آخر . كنت ستفعل الشئ نفسه لو كنت فى " موسكو " يا " لودفيك " ، أو لو كنت قد عانيت المصير نفسه مثلهما "

" لم يقل لك كل شئ يا " لودفيك " "

" خبرنى أنت إذن يا " شميلكا " ، قل لى كل شئ " .

" قد يأخذ ذلك وقتاً طويلاً ، وقد نموت جميعاً قبل أن أنته "

كان " لودفيك " يفكر وهو يدير محرك السيارة ويناور منعطفات الجبل . " إننا لا نتعلم شيئاً من الماضى ... عندما ولدت ثورتنا لم نكن نتكلم عن شئ سوى عن الثورة الفرنسية . كيف يمكن تجنب أخطائها . وعندما بدأوا يقتلون شعبهم كانت أيامهم قد أصبحت معدودة . "

ضحك فريدي : " زعمائنا لم يقلقهم ذلك أبداً يا " لودفيك " .
من المؤكد أنك تتذكر المؤتمر العاشر للحزب . كنت موجوداً . أليس
كذلك ؟ "

هز " لودفيك " رأسه في أسى " نعم كنت هناك ، وسرت وراء
" توكا " إلى كرونشتاد "

وكانت " كرونشتاد " يا عزيزي " كارل " قلعة في جزيرة بالقرب من
" يتروجراد " كما كانت تسمى حينذاك . قاعدة بحرية . كانت حصناً
ثورياً في سنة ١٩١٧ وكان ؛ تروتسكي " قد كسب البحارة إلى جانب
البلشفيك " . والآن كان البحارة يريدون الخبز والحرية . وكان ذلك جميلاً
. كان كل واحد يريد ذلك ، ولكنهم هددوا البلشفيك بالسلاح . وقرر
المؤتمر العاشر للحزب بالإجماع سحق التمرد .

قال " فريدي ؛ " كنت أعتقد ذلك ، هل تذكر حديث " لينين " ؟ " " أى
جزء فيه ؟ "

قال " لودفيك " مقاطعاً : عندما تكلم " لينين " عن " ثيرميدور " .
هل تتذكر ؟ كان علينا أن نقضى على تمرد " كرونشتاد " لئلا يكون
مثل " ثيرميدور " بالنسبة لنا .

قال فريدي : " كان ذلك هو الدرس الذي تعلمناه من الفرنسيين ،
تجنب " ثيرميدور " مهما كان الثمن ! " .

اشتعل غضب " لودفيك " : " ستالين " هو " ثيرميدور " بعث مجدداً
بشارب جيورجي أنتجه القتل الجماعي . قيصر في ثوب شيوعي ولكن
بدون طبقة حاكمة تحجمه .

قال " فريدي " : " " بوخارين استخدم نفس الكلمات معي . الكارثة

أنه ليس لديه ولو أوقية واحدة من ذكاء " نابليون " .

قال " لودفيك " : " لكنه أكثر دهاء ، بالإضافة إلى ذوق مدمن لدم الأعداء المتوهمين " .

ولم يقل أحد شيئاً أكثر من ذلك حتى وصلوا إلى ؛ كوالبور " . وفي وقت متأخر من تلك الليلة ، بعد أن أكلوا السمك الذى تم صيده صباحاً ، توجه " لودفيك " صوب " فريدى " .

" كنت إلى اليوم أعتقد بالفعل أننا إذا انتصرنا فى إسبانيا فإن وضع " ستالين " فى الحرب سيصبح ضعيفاً ، وربما تخلصوا منه .

ولكن من الطريقة التى تتحدث بها ، لم أعد متأكداً من ذلك "

" أنت متشائم جداً يا " لودفيك " . التوسط يزدهر فى حال الركود والهزيمة . إن انتصاراً فى " إسبانيا " قد يغير كل توازن القوى فى أوروبا ، قد تنتشر موجة من التفاؤل وتصل إلى " موسكو " ولا يدرى أحد ماذا يمكن أن يحدث . حتى بعض أتباع " ستالين " غير راضين . لا تفقد الأمل ! .

سأل لودفيك : " شميلكا ؟ " .

" ربما كان " فريدى " محقاً ، فهو على علم بالدوائر الداخلية أكثر منى ، لكن " ، قال " ليفيتسكى " وهو يهز كتفيه .

السؤال الحقيقى هو ما إذا كان بإمكاننا الانتصار فى "إسبانيا" وأنت هنا أكثر المتمرسين فى الميدان . تقاريرك المتزنة والدقيقة تحظى بتقدير كل من فى الشعبة ، فما هو ردك يا صديقى ؟ "

أجاب " لودفيك " : " لست متأكداً ! "

قال فريدى بسرعة : " لماذا ؟ لقد حصلنا على الضوء الأخضر من

الشارب الكبير من أجل السلاح والمال "

قال " لودفيك " : " نعم ، أعرف ذلك ، فى مقابل طلبه من الجمهورية أن تشحن كل احتياطياتها من الذهب إلى " موسكو " لكى يكون فى أمان . هذه هى الدولية المفرطة ! على أية حال ، التسليح وحده لن يكون كافياً . نحن فى حاجة إلى زعيم يمكنه أن يوحد كل القوى الجمهورية ويفهم فى الاستراتيجية العسكرية والسياسية . أنت تعرف أن الـ " يوم " * قد طلب من الحكومة أن تستدعى " تروتسكى " من منفاه المكسيكى . "

أنفجر " فريدى " ضاحكاً ... " ستكون تلك أسرع وسيلة لتوحيد " ستالين " و " هتلر " و " دالاديه " و " تشمبرلين " . "

نعم ! شئ مضحك ولكن المشكلات حقيقية . الفوضويون مصممون على إحراق الكنائس وقتل القساوسة . وأعضاء الـ " يوم " ليسوا من القوة لكى يوقفوا تلك الحماقات . الحكومة ضعيفة والفرع الإسباني فى الدولية الشيوعية يفهم الجبهة الشعبية على أنها استراتيجية لتدمير خصومة من اليسار . من ناحية أخرى فإن اليمين متحد بدرجة أو أخرى ، أهدافه بسيطة : الدفاع عن الكنيسة وممتلكاتها ضد الأعمال الوحشية ، الدفاع عن إسبانيا ضد خطر " البلشفيك " وتعهد إسبانيا لكى تحارب إلى جانب " هتلر " و " موسولينى " ؛ فى أوروبا . وهى خطة ناجحة حتى الآن . جانب كبير من اليمين لا يثق بـ " فرانكو " . ولكنهم يكرهون الجمهورية "

قال " شميلكا ليفيتسكى " بضعف : " ولكنك يا " لودفيك " متشائم جداً ، إن معظم الناس يؤيدون الجمهورية "

* poum - الحزب الماركسى المتحد والذي كان قوياً فى قطلونيا ومتعاطفاً مع تروتسكى .

وقد قتل زعيمه " اندريه نين " بأيدى عملاء ستالين .

" ربما ! ولكن إلى متى ؟ إن الجدل يسير على هذا النحو : الوسيلة الوحيدة لأن نكسب الحرب الأهلية ، هي أن نقوم بالثورة أولاً . نصادر ملكية الذين صادروا الملكية ! هذه هي وجهة نظر الـ " بوم " والفوضويين والاشتراكيين اليساريين وغيرهم كثير ، أما رجال " موسكو " أو الرفاق كما يطلقون عليهم ، والديمقراطيون الاجتماعيون والليبراليون الشرفاء يردون : لن تكون هناك ثورة حتى نكسب الحرب . كلاهما مخطئ ، كلاهما محق . الموقف الضد غبي ومتحجر . غير دياكتيكي . " لينين " أو " تروتسكي " كان لابد أن يفهم ذلك ، ولكن ليس تلك المجموعة . إنهم يتخيلون التاريخ نهراً قوياً . لا يمكن إيقافه . في طريقه إلى البحر . لو أن الحال هكذا ، لما كانت هناك حاجة لنا . إنك تحاول أن تقول لهم إن التاريخ مجموعة من المجارى المائية ، وإن تدفق أى من هذه المجارى إلى النهر يتوقف على عدة عوامل . المجرى الخاص بنا قد يجف ، ولكن هذا الاحتمال مستبعد إلى الأبد "

" لدينا تعليمات جديدة يا " لودفيك " . من الكرملين مباشرة "

كان في صوت " فريدي " شئ ما أزعج " لودفيك " ونبه إلى أن تلك التعليمات الجديدة كانت لاختبار ولائه . وكان " شميلكا " ينقل نظره بينهما . نظر " لودفيك " مباشرة في عيني " فريدريك " الرماديتين .. " أنا مستعد للأسوأ "

" وحدة جديدة تم إنشاؤها خارج الشعبة الرابعة بهدف واحد : وهو التخلص من قادة الـ " بوم " في إسبانيا واغتيال تروتسكي في المكسيك " " لودفيك " ذهل ! نظر إلى وجهيهما في صمت . هل يمكن أن يظلا صامتين ؟ هما مثله قد حاربا تحت قيادة " تروتسكي " .

كان " فريدي " ملحقاً بوحدة خاصة في قطار تروتسكي مهمتها

الوحيدة الحفاظ على حياة قائد الجيش الأحمر ، كان " فريدى " و " شميلكا " يعرفان ماذا كان يشغل " لودفيك " .

قال " لودفيك " هامساً : " ربما يكون الوقت قد حان "

صاح الرجلان فى صوت واحد : " لا .. ! "

" ولم لا ؟ نحن نخدم مصالح من ، عندما ننفذ عمليات القتل التى يأمر بها " ستالين " ؟ "

قال فريدى : " المسألة ليست بهذه البساطة ، وأنت تعرف ذلك أحسن من كلينا . إذا انتصرنا فى إسبانيا " فسيكون ذلك ضربة لـ " هتلر " . كنت ترسل إلينا التقارير على مدى ثلاث سنوات وأكثر ، وبها طلب واحد ... ملح ! كتلة ضد " هتلر " مع أى واحد وكل واحد على استعداد لمحاربة الفاشية . والآن تريد أن تستبعد " ستالين " من جبهتك المتحدة ! "

" ستالين هو الذى مهد الطريق أمام " هتلر " ، و " تروتسكى " كان على حق . "

" طبعاً ! كان تروتسكى على حق بالنسبة للفاشية ، ولكنه للأسف بلا قوة ، " ستالين " هو الذى يسيطر على الجيش الأحمر ، وهذا الجيش هو الذى يمكن أن يحارب الفاشية . ولذلك فإن أية نزوات رومانسية للقطيعة مع " موسكو " تصبح غبية ! لا تظن أننا لم نناقش ذلك كله فى الشعبة . "

" وفى الوقت نفسه نحن نقتل " البلشفيك " القدامى ، ونعدم الفوضويين وأعضاء الـ " يوم " ونسمح بقتل " تروتسكى " ونراقب كل شئ فى صمت بينما يكيد " ستالين لـ " توكا شيفيسكى " ، أكبر وأذكى قائد استراتيجى فى أوروبا "

إذا كنا نفعل ذلك كله ، فلن نكون قادرين على هزيمة الفاشية .
سيكون منهاجنا من نفس النوع "

« لن نظل ساكتين ، لماذا ؟ لابد من تحذير " تروتسكى " من مؤامرة
جادة لقتله . يمكن أن تفعل ذلك عن طريق اتصالاتك فى امستردام .
صديقك " سنيقليت " قريب من ابن " تروتسكى " . وفى " موسكو "
سوف نحاول أن نحذر " توكا شيفسكى " و الآخرين .
" لاشك ! كما ساعدتم " زينو قييف " و " كامينييف " .

" فريدى " ... ألا تفهم ؟ الوقت فات . إلا إذا ...

إلا إذا ... استعد لمفاجأة !

توقف لودفيك لحظة ثم انخفض صوته ليصبح همساً ..

" إلا إذا استولى ؛ توكا شيفسكى " على السلطة "

" مستحيل . البونايرتية تقتل الثورة "

" الثورة ماتت من زمن يا صديقى ؛

" أنا متفق معك يا " لودفيك " ، لكن الوقت متأخر جداً "

قال " شميلكا " متلعثماً .

استمروا فى الكلام حتى جاء الليل تقريباً . لا أحد منهم كان يعرف
أن كان سيرى الآخرين بعد ذلك . تذكروا " إيلان " أوائل العشرينيات .
كانت الأمور سيئة ولكن الأمل لم يكن قد ضاع تماماً . كان ذلك قبل
انتصار الفا سرين . قبل أن يتلون العالم بدم الأبرياء . قبل أن يجد
الرسام النمساوى مهنة أخرى ، وبالنسبة لهم ... وأهم شئ ... قبل أن

يستولى الطالب الجيورجى السابق على جهاز السلطة فى " موسكو " .
كان زمنا ، كانت فكرة الموت كهروب من قبح العالم لم تدخل عقولهم
بعد . " فريدى " اعترف بأنه كان مستمراً فى العمل لحساب الشعب
الرابعة لأن الاستقالة كانت تعنى الانتحار ، كانت تعنى الاعتراف بالذنب
، وهو فى مهنتهم يعنى الإعدام .

قال " لودفيك " رداً على ذلك : " أنا أعرف ، ولكن المؤكد أن أحداً
منكم لن يترك حياً . أنتم شهود على ما يحدث . بعد جريمة القتل ،
يحول القاتل اهتمامه نحو المشاركين الذين شاهدوا الفعل " .

" ماذا إذن ؟ " تساءل " ليفيستيكي " .. " الطريقة الوحيدة للبقاء على
قيد الحياة هى أن تسلم نفسك للغرب . ستكون حياة أسوأ من الموت " .

قال " لودفيك " : " هناك بديل آخر . أن تختفى تماماً . تعيش وتقاتل
بأسلوب مختلف " .

رد " فريدى " : خيال ضيق الأفق ، الشخص الوحيد الذى حاول
أن يفعل ذلك كان هو " تروتسكى " و " موسكو " سوف تقتله . وإذا فعلنا
ذلك سيقتلونا . السؤال الأهم ، هو كيف ندحر الفاشية . أنت موافق
على ذلك يا " لودفيك " . دعنا نظل موطئدى العزم على هدف
وحيد . هزيمة الفاشية أولاً ثم بعد ذلك " ستالين " . " سورج " موافق
على ذلك أيضاً .

" أين سورج ، هل مازال فى الصين ؟ " .

هز " فريدى " كتفيه . كان " ريتشارد سورج " قد أوفد من الحزب
الشيوعى الألمانى ليلتحق بالشعبية الرابعة . كان جده صديقاً لـ " ماركس
و " إنجلز " . كانت ثقة " سورج " بنفسه مجاورة لطيشه ، وكان قد

تسلل إلى داخل أعلى الدوائر النازية في ألمانيا وسجله نظيف . ومن ناحية حصوله على أكثر المعلومات سرية ... فإنه كان أذكى جاسوس سوفيتي .

تعال يا " فريدي " ، أريد أن أعرف " .

" إنه في أمان في طوكيو ، مع فتيات الجيشا ، وشبكة غير معقولة .

لقد اخترق السفارة الألمانية " .

ضحك " لودفيك " ، وصفق بيديه ، كانت علاقات " سورج " الجنسية موضوعاً لتعليقات بذيئة في الشعة .

ابتسم " لودفيك " : اخترق ؟ ومن هي السيدة المحظوظة في السفارة ؟

" لا أحد في السفارة . لمرة واحدة كان محترفاً ، ولم يخلط بين العمل واللهو . يرسل إلينا بتقارير رائعة لدرجة أن " الشارب " يعتقد أنه يكذب ! "

راح " لودفيك " يفكر مرة أخرى . " ستالين " وحش غريب ، وهو مثل آخرين ، يستخدم دهاءه للتخلص من خصوم أكثر ذكاء ، لا يستطيع أن يصدق أن هناك طغاة آخرين أكثر منه شراً ... " ستالين " يعتقد أنه يستطيع أن يخدع أي شخص آخر . من هنا رفضه قبول تقارير الاستخبارات التي تذهب أبعد من أحاسيسه المحدودة "

هز أصدقاءه رؤوسهم موافقةً . كانوا سيغادرون في تلك الليلة وكان ؛ فريدي ؛ يحاول أن يهدي الأمور .

" هل تتذكر النهر عند بدقوشوليسك يا " لودفيك " ؟

عندما وقفنا على الشاطئ ننتظر أن نقفز في الماء البارد ، كنا نعرف دائماً أننا سوف نصل إلى الشاطئ الآخر . أليس كذلك ؟ "

" نعم ! " أجاب " لودفيك " بصوت كئيب ، " ولكن الماء كان ينساب في النهر ... وليس الدم ! "

كان " لودفيك " يتحرك في قنوات الأفكار في قرنه . كان يود أن يختفى الكسوف الذي أصاب حياته ، وأن تشرق الشمس ثانية . يود أن تنتصر الجمهورية الإسبانية لأنه كان يفهم أكثر من كثيرين ممن كانوا يحاربون من أجلها ، كان يفهم الأثر العالمي لنصر مثل ذلك . فإذا كان عمله قد جعل نصراً مثل ذلك ممكناً ، إذن لأصبح من المجدى الاستمرار بقوة لسنوات أخرى قادمة . وعندما بدأ القطار يتحرك ، كان يفكر في " فريدي " و " شميكا " . كيف استطاعا البقاء داخل هذا الأتون ؟ .. كيف ؟

بدأ يحلم ثانية . " فرانكو " فر إلى ملجئه في روما محطماً ذليلاً ! العلم الأحمر يرفرف متحدياً فوق مدريد وبرشلونة وبرجوس وقالينسيا . مجموعة متوالية من ردود الأفعال . انتفاضة شعبية في إيطاليا . " موسولينى ! يسقط . جمهورية ديمقراطية في روما . " هتلر " في موقف دفاعي . انشقاقات في قلب النخبة الألمانية . احتمال وقوع انقلاب لـ " ليونكر " * في " برلين " . ثم إحياء لحركة العمال الألمان . وحدة الاشتراكية والشيوعية ضد الفاشست . اضرابات ضد النازية .

كان الحلم ينتهى دائماً في " موسكو " ! العنكبوت في الكرملين يرحل ، وشبكته تزول . قيادة جديدة تضم الحرس القديم وأفضل الجديد . تروتسكى يستدعى من منفاه المكسيكى ليتولى مسئولية الجيش الأحمر . إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين . و ... ستالين ! ستالين .. القيصر البدين سيكون في القفص متهماً بالقتل !

* Junkers - الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية البروسية .

وجهه شاحب شحوب الموتى ، جبهته المنخفضة أكثر انخفاضاً عن
ذى قبل ، يرتدى سترته الطويلة الرمادية وينطلونه الرمادى ، ولكن حذاءه
لن يلمع بعد الآن حيث لن يكون هناك من يلمعه . والحكم !؟

والقطار يقترب من " باريس " ، حيث كان " فيلكس " و " ليزا " .
ينتظران عودته بقلق ، تنهد " لودفيك " وهو يستمع لصوته الداخلى . جاء
صوته بارداً وقاسياً وواقعياً . لا يستطيع أن يتحمل نزعة عاطفية
أو "رومانسية "

ليت الأمر يكون هكذا ، ولكنه لن يكون . لا تنتظر . لا تأمل تبعثر .
اختلف . الغضب يحتدم فى ؛ برلين " و " موسكو " . احتياج مجنون
يجتاح إسبانيا . فى كل مكان ، تدق القلوب صماء عن أى نداء !

عيون لا تعرف الرحمة تخترق كل شئ مثل رياح سيبيرية باردة .
أعمار غضة تحصد قبل الأوان .

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً . عندما وجد " لودفيك "
نفسه متعباً ، ولا يستطيع أن يتنفس ، يضغط على جرس الباب
الخارجى لشقته فى الدور الأخير . كان غائبا لمدة خمسة أسابيع تقريبا .
نظرت " ليزا " من ثقب المفتاح ، تنهدت بارتياح وفتحت مزلاج الباب .
ترك حقيبته تسقط على الأرض وضمها فى صمت . انثالت دموع
الارتياح على خديها . مسحها وقبل عينيها ثم جبهتها العريضة .

" بابا ! "

اندفع " فيلكس " يرتدى " البيجاما " فى الممر فرفعته ذراعان قويتان
عن الأرض .

" كنت أخشى ألا تعود أبداً ! "

" وعدتك أنني سأعود هذا الأسبوع ، وها أنذا ، والآن دعنا نعود إلى سريرك "

عندما دخل إلى غرفة ابنه الصغيرة لاحظ " لودفيك " طبعة فرنسية من " الحرب والسلام " على الطاولة بالقرب من كوب الماء . كان " فيلكس " قد قرأ " أنا كاريننا " قبل ذلك ولكن باللغة الروسية .

" إنها صعبة بالروسية .. لماذا تقرأها بالفرنسية ؟ "

" ماما تساعدني بشرح الكلمات الصعبة وأنا نفسي أترك الأجزاء المملة " . تعجبنى المعارك "

" والمشاهد الغرامية ؟ "

" لا بأس بها " قال " فيلكس " وأدار رأسه قليلاً . ثم روى لأبيه كيف أن المدرس لم يصدق أنه عندما قال للتلاميذ في المدرسة إن كتابه المفضلين هم " تولستوى " و " شيكسبير " .

" رويت لهم قصة " أنا كاريننا " بالفرنسية ، وتلوت عليهم خطبة " مارك انطونيو " من " يوليوس قيصر " بالروسية "

ضحك " لودفيك " .

" هل اعتذر ؟ "

هز " فيلكس " رأسه .

" إنهم لا يعتذرون أبداً ، هل يعتذرون ؟ "

" بابا ! هل صحيح أن " تولستوى " كان يكره " شيكسبير " ؟ "

" للأسف نعم ! "

" لكن لماذا ؟ "

" لست متأكداً ، ربما كان الكونت العجوز يغار من موهبة أرقى "

" مازلت لا أفهم ! "

" عندما تبلغ الخامسة والعشرين أو حتى الثلاثين أقرأ " تولستوى " ثانية ، سوف تفهم ، أنا اعتدت أن أقرأ وأعيد قراءة " تولستوى " وفى كل مرة كنت أعرف شيئاً جديداً عنه ، كان رجلاً أخلاقياً لدرجة شديدة ، أعتقد أنه تأثر بسخرية " شيكسبير " ، سخريته من الحياة ، كلبيته ، كان يعتقد أن " شيكسبير " لا أخلاقى ! ، لم يفهم أن ذلك كان جزءاً من عبقريته الخلاقة ككاتب ، ربما على القدر نفسه من حسه الأخلاق . كان من عادة " تولستوى ؛ أن يقول إن " هارت بيتشرستو " ... أكثر موهبة من " شيكسبير " . "

" من هي ؟ ماذا كتبت ؟ "

" كتاباً عن حياة الزوج الأمريكيين ، " كوخ العم توم " . "

كتاب جديد ، لكن هل يقارن " بشيكسبير " ؟ شئ غريب ، ولكن الكونت كان جاداً فى ذلك ، ، والآن اطفئ النور ونم ! "

تبادل الأب والابن القبلات ، فكر " فيلكس " فى أن يحصل على نسخة من " كوخ العم توم " بالروسية .

بعد ذلك ، فى الليلة نفسها ، " ليزا " أخبرت " لودفيك " بمكالمة " جيرترود " التليفونية . " كانت تبدو فى حالة هستيريا . أحد الأشخاص من موسكو أخبرها أن " البلشفيك " القدامى كانوا يعذبون فى السجن . كانت تريد أن تفر الآن ، هدأتها ولكن لابد أن تراها غداً ، لدرجة أنها تكلمت عن الانتحار .. !

" الأمور سيئة في " موسكو " . يريدون أن أعود .

" شميلكا " يقول لا يجب أن أعود ، ولكن لكي أجعلهم أقل شكاً
يقترح رحلة قصيرة تقوم بها أنت و " فيلكس " .
أنا لست متأكدة "

قالت ليزا " أنا ! ، " فيلكس " لا يستطيع أن يبقى هنا بمفرده .
ولذا سوف نذهب . ولا كلمة أخرى . هذا نهائي . إن لم نفعل ذلك
فمعناه هروب قبل أن نكون مستعدين ، وهذا أكثر خطورة .
لم يتقرر شيء . ظلاً يتجادلان طوال الليل . في مرحلة من الحديث ،
وعندما عجز عن إحراز أى تقدم فى ما كان يعتبره جدلاً عقلانياً ، فقد
" لودفيك " أعصابه وصرخ فيها قائلاً إنها رأس فجلة أوكرانية .. عنيدة
.. وأصر على أنه لن يخاطر بحياة " فيلكس " من أجل أى شيء فى
العالم ، طالباً منها أن تطيعه .

" لن أرجوك أكثر من هذا يا " ليزا " . أنا لا أتكلم الآن كحبيب ،
وإنما كرئيس لكل العملية الاستخبارية فى أوروبا . أمرك بالآ تأخذى
فيلكس ؛ معك إلى " موسكو " .

ظلت " ليزا " هادئة رافضة أن تستسلم . " يمكن أن يحدث لك أى
شيء هنا . العدو قد يقتلك . جماعتنا يمكن أن تأمر بتصفيتك .
ماذا يحدث بعد ذلك لـ " فيلكس " ؟ سأشعر بمزيد من الأمان إن هو
ظل معى "

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما اعترف " لودفيك " بالهزيمة ،
أدار ظهره لها ، وراح فى النوم .

إلى : البروفيسور " فيلاديمير مايور "

برلين

من : " ساو "

موسكو - ١٩٩٤

صديقي العزيز

هذه ضربة قاسية قصمت ظهري ، وليتك تشاركني همي . إن أحداً من أصدقائي الآخرين لن يفهمنى ، وربما لأنه لا يوجد بينهم صديق حقيقى مثلك . وقبل البداية أود أن تعرف أنتى كنت دائم التفكير بك فى الشهور الأخيرة ، ولم أنس رجاءك . لكننى كنت خارج " موسكو " معظم الوقت منذ آخر لقاء بيننا . أشتري وأبيع . أساعد فى تدفق السلع من سوق لأخرى ، وهل هناك شئ آخر يستحق العناء هذه الأيام يا صديقى ؟ أرجوك لا تجب عن هذا السؤال . حالتى لا تسمح بذلك .

كان بوى أن أكتب لك من " بكين " . ولكن رفضك أن أشتري لك جهاز " فاكس " جعل ذلك مستحيلاً . كتابة الرسائل عملية مضجرة هذه الأيام ، ناهيك عن أنها عبء ثقيل ، وجهاز الفاكس فقط هو الذى أحيا ذلك الفن القديم . ولكن عداك للتكنولوجيا الحديثة يعنى أن أكتب هذا الخطاب وأرسله بالفاكس إلى " سوزان " ، لكى ترسله هى إليك بالبريد .

وعندما أعود إلى " برلين " سأقدم لك وصفاً مفصلاً لمغامراتي في " منغوليا " ، وكيف كان الكوريون الشماليون يريدون أن يدفعوا لي الثمن " هيرروين " ... وبالمناسبة ... فإن شوارع " بيوج ياج " مليئة بالعاهرات . حاولت أن أجرب واحدة لكي أرى - فقط - إن كانت ستبدأ نشاطها بتلاوة بعض " الإرشادات الأولية " التي تلقتها عن الرئيس المحبوب " كيم إيل سونج " ، أو عن ابنه الوريث العزيز " كيم جونج إيل " ، ولكن قد يسرك أن تسمع أنني قاومت الإغراء .

والآن إليك قصتي ...

عدت إلى " موسكو " منذ شهر ، وبعد ثلاثة أيام من وصولي ذهبت إلى الشقة القديمة التي كنت أشارك فيها بعض الأصدقاء . ارتباطنا بهذا المكان ارتباط عاطفي . كما أنها مازالت تستخدم لإيواء زائرين من مدن أخرى ولذلك كنا نحتفظ بها . كان المصعد معطلاً فصعدت خمسة طوابق على السلم . لم يكن الباب الخارجى مقفلاً بالمفتاح ، وعلى الفور أدركت أن هناك شيئاً ما خطأ .

ودخلت . وجدت جثثهم على الأرض . لا أثر لدماء . لا أثر لمعركة . اثنان من أصدقائي القدامى ، أقرب الأصدقاء الذين بدأت معهم شراكة تجارية ... بيزنس ! وجدتهما مقتولين . فكر في الأمر يا " فلادى " ، لقد نجونا من الحرب . لم ينجح الأمريكان أن يقتلونا بالقنابل أو النابالم . أفراد العصابات الروسية دخلوا وشنقوهم . كانت مفاجأة . لم يأخذوا شيئاً من الدولارات التي كانت مخبأة تحت المرتبة . لم يلمسوا شيئاً . ولا بد أن القتلة كانوا يتوقعون شيئاً من ذلك . وواضح أنهم كانوا شركاء لأصدقائي في التجارة . ولكن .. من هم ؟ في البداية أصابني الفرع ، وإذا كانوا قد قتلوهم فلماذا لم يقتلوني ؟ فكرت في

طفلى فى " باريس " . وفى أصدقائى ، وفيك بخاصة . كنت أريد أن أستقل سيارة أجرة إلى المطار ثم أغادر على أول طائرة ، تلك المدينة المريضة .. الميتة ! أغادرها .. وإلى الأبد !

تبخرت كل الذكريات الحلوة . ثم بدأت أشعر بالخزى لجبنى . وشعرت بالغضب . تذكرت الضمانات الباهظة التى دفعناها - إتاوة - لعصابة " يلتسين " على مدى الشهور الماضية ... بالدولار ... والين ... من أجل الإسراع بعملية الإصلاح . هل تفهم ؟ لماذا يجب أن أتركهم يهربون بجريمتهم ؟ ذهبت مباشرة إلى " الرأس الكبير " . كان " القيصر بوريس " مشغولاً بأشياء أخرى . كان يواجه برلماناً يعارضه باستمرار .
والحل ؟

يدمره لكى يكتسب قوة جديدة للرئيس . لابد أنك شاهدت ذلك كله على شاشة التلفزيون ... أمر مذهش .. كيف دمروا " بيتهم الأبيض " بدعم من قادة الغرب ؟

هل تذكر ذلك " الماجور " الأمريكى الذى كان يدافع عن تدمير " بن ترى " ، تلك المدينة الصغيرة بقوله : " إن تدمير " بن ترى " كان هو الطريقة الوحيدة لإنقاذها ؟ "

حرب أمس ! هكذا بالضبط يحاول " يلتسين " إنقاذ الديمقراطية الروسية . شاهدت ذلك كله على شاشة الـ " سى - إن - إن " فى غرفتى ، ولكننى كنت عاجزاً عن التركيز ... فأمامى على الأرض جثتان ! جثتا صديقين . وأخيراً أغلقت التلفزيون وبدأت أتصل تليفونياً بكل من أعرف فى بطانة " يلتسين " . معظمهم كان مختبئاً ، كلهم لا يثق فى النتيجة النهائية . ولم يدهشنى ذلك . وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة نجحت فى الاتصال بـ " أندريه ك . " المصرفى الخاص بالقيصر . طلب منى الحضور مباشرة لمكتبه فى الكرملين . كنت دائماً أتمنى أن أرى

الكرملين من الداخل ... ولكن - بالتأكيد - ليس فى الثانية صباحاً .
ذهبت - على أية حال - وأمضيت ثلاث ساعات مع " أندريه " . فى
الأيام الخوالى ، عندما كنت أعرفه وهو شيعوى إصلاحى ، لا يعتقد
أن شخصاً مثل " جورباتشوف " يمكن أن يصل إلى السلطة ، كان
يرتدى - عادةً - بنطلوناً من القطن ، أزرق اللون ، " وسويتر " ولكنه فى
تلك الليلة كان يرتدى " چاكت تويد " وبنطلوناً رمادياً ، وربطة عنق
فراشية الشكل ! شعره مصفف بعناية ، وشاربه الصغير المضحك منمق
بدرجة مقززة ... وكان فى حالة بهجة ... يملأ كأسه باستمرار ... وكان
الويسكى هو الذى يتكلم .

قال " لقد جعلنا روسيا بلداً آمناً للاقتصاد الحر ... انتصرت
الديمقراطية ... إن نهاية مرحلة لأفضل من رعب ليس له نهاية ! أليس
كذلك يا " ساو " ؟ موافق ؟ هه ؟ إننا نعلم شعبنا أن من الضرورى
أحياناً أن تدفع ثمناً باهظاً لكى تجنى ثمار المدنية ! كان من الواضح أن
" أندريه " قد عرف الخوف ، وهاهو الآن يريد أن يثأر من كل الذين
اختزلوه إلى تلك الحال . رغباته المخبأة تحت السطح ظهرت ، وكانت
الآن عصية على الاحتواء . قال هراء كثيراً ، تركته يتكلم لبعض الوقت .
الآن يمتزج الخواء الداخلى بالغضب فى داخله ، ولكنه ذلك ساعد على
أن تكون تبذلاته أكثر وضوحاً من ذى قبل .

تمنيت أن أنزع ربطة عنقه وأمزقها وأغمرها فى كأس الويسكى
وأسد بها فمه لكى يتوقف عن الثرثرة . كان صوته يوشك أن يدفعنى إلى
الجنون . ثم توقف أخيراً وفتح زجاجة جديدة .

نظرت فى عينيه وسألته : من قتل زملائى ؟

تغيرت النظرة على وجهه وبدأ قلقاً فأدار عينيه بعيداً عنى !

وراح يبدى أسفه . لم يحاول أن يدعى أنه لم يكن على علم بجريمة القتل . تعرف يا صديقى أنه كان يعلم . ففي ساعات الأزمة كانوا يسلمونه آلاف الدولارات .

صرخت فيه . طلبت إجراء تحقيق . قال لا داعى لذلك .

أصدقائى قتلوا بأيدي عصابة من ضباط الجيش ، كانوا مغتاضين لدورنا فى تجارة السلاح . وقال إنهم كانوا ، الناس أنفسهم الذين يحاولون الاستيلاء على السلطة . نصحنى بالحدز !

" نحن الآن فى مرحلة انتقالية يا " ساو " . وأنت تعرف ذلك جيداً ... فى أوقات كهذه ، لا أحد بمأمن ، ويؤسفنى موت أصدقائك . ولكن لا تحزن أرجوك . انج بنفسك !

أقترح عليك أن تغادر " موسكو " غداً . "

لطمته على وجهه بشدة . لم أتمالك نفسى يا " قلادى " . تهاوى فوق أحد الكراسى . سألته مرة أخرى ولكن بصوت هادئ .. من الذى قتل أصدقائى ؟ زعم فى البداية أنهم كانوا جماعة من الجناح المعارض للإصلاح فى الجيش . وعندما سألته عن الأسماء هز كتفيه ، وكنت أعرف أنه يكذب " هددته بأننى سوف أعلن كل شئ على الملأ إذا لم يتم اتخاذ إجراء ما ، وحذرتة بأن محامى لديهم تعليمات بنشر كل شئ إذا حدث شئ لى . " سينشرون كل شئ بما فى ذلك اسمك وأسماء خمسة آخرين من بطانة الرئيس " .

وهنا أنهار . ووعد بتحرى الأمر . أخبرته بأن كل الذى أريده هو معرفة الأسماء . وانصرفت .

بعد يومين قال إن معلوماته السابقة كانت خاطئة . أخبروه بأن القتلة

كانوا من مهربي المخدرات وتم القبض عليهم وأودعوا السجن . قالوا للشرطة إن القيتناميين كانوا مدينين لهم بأموال . حدثت في عيني " أندريه " الخائفتين . كان متلى تماماً يعرف أننا لم نهرب المخدرات أبداً . وانخرط في البكاء .

أقسم أن لا أحد منهم كان يعرف المسئول عن الجريمة . أعطاني معلومات كاذبة لكي أتركه . شعرت بأن ذلك هو كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات للوصول إلى الحقيقة . ولكن قبل أن أغادر حذرتني بأنني سوف أكتشف العصابة كلها إن لم يخبرني بالأسماء . وأوضحت له أن قتلى سوف يؤدي إلى نشر كل المعلومات في " الليموند " ، صباح اليوم التالي .. وأن لدى المحامين تعليمات صريحة إنني أروى لك كل ذلك لكي تفهم أنني عندما طلبت من " أندريه " أن يحضر لي كل الملفات التي كنت تريدها من أرشيف الـ " ك . ج . ب " كان على استعداد لأن يساعد . لم يعد التاريخ يعني شيئاً لهم : إنهم على استعداد لأن يبيعوا كل شيء ... ولكنني لن أدفع !

استقبلني جنرال من الـ " ك - ج - ب " كان يريد أن يناقش الأمر كله معي ، فأخبرته بأن الأوراق التي كنت أريدها مطلوبة لصديق . هز كتفيه وسلمني إياها . كل الملفات التي تريدها موجودة معي ... حتى المتعلقة الشخصية لذلك الرجل ... " لودفيك " !

غريب جداً حجم تلك الأشياء التي يحتفظون بها في الملف .

كانوا فعلاً يعنون ما يقولونه عندما يضعون على ملفات الناس خاتم " يحتفظ إلى الأبد " . توجد - حتى - حقيبة سفر وسوف أسلمها لك عندما أعود إلى " برلين " بعد شهرين قليلة ... علني أحقق لك ولو قدراً ضئيلاً من السعادة يا صديقي !

لم أشعر أبداً بالحزن فى " موسكو " قدر ما شعرت به فى هذه الرحلة . وليس لأن أصدقائى ماتوا ، فمنذ الانهيار وجميع الناس هنا يعيشون فى خواء . النخبة المثقفة عاجزة عن الدفاع عن الثقافة القديمة . ما تبقى منها تم تدميره ، لا محاولة لاستعادة أو حتى اختراع ماضٍ مشترك ، سوى محاولات الحمقى الذين يمجدون القيصرية والكنيسة . هذا شعب مطحون . مثل ألمانيا بعد معاهدة " فرساي " . صديقتى القديمة " زينايدا " انفجرت باكىة عندما كنا نتحدث فى الأسبوع الماضى ، وذلك ليس أمراً غريباً فى " موسكو " ، وكان على أن أمسك يدها وأخفف عنها . تصورت أنها كانت تبكى لأنها فى حاجة إلى نقود أو طعام ... وكنت على وشك أن أعطيها بعض الدولارات عندما نظرت فى عيني وهى تقول : أنت لا تعرف سبب بكائى ... هل تعرف ؟ هزرت رأسى . جففت عينيها وأخرجت من حقيبة يدها قصاصة مكرمشة من جريدة وقدمتها لى صامته . كانت عبارة عن نتيجة استطلاع رأى نشرته جريدة " إزفستيا " اليومية ، أجرى على فتيات فى السادسة عشرة من العمر ، فى جميع المدن الكبرى ، عن العمل الذى يفضلنه بعد الانتهاء من الدراسة . أربعون فى المائة من الفتيات اخترن " دعارة العملة الصعبة " ، وقالت " زينا " إن النسبة كانت أكبر من ذلك بكثير فى دول البلطيق .

تعرف يا " فلادى " أن الأحوال فى بلدى كانت سيئة بعد الحرب . نساء كثيرات تحولن إلى الدعارة فى " هانوى " ... ولكنهن كن يشعرن بالعار . وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، وبعد كثير من كؤوس النبيذ ، اعترفت " زينا " أن ابنتها كانت واحدة من الفتيات . " إيرينا " ابنة الثامنة عشرة . صدمتنى المفاجأة . فأنا أعرف البنت ، وهى جميلة وذكية

ومتفوقة في دراستها وليست في حاجة للتفكير في الدعارة .

فتاة مثلها في " هانوى " كانت تتمنى أن تصبح مترجمة في الخارجية أو شيئاً من هذا القبيل ... ولكن ليست " إيرينا " .

عندما صرخت فيها أمها ، صرخت البنت في وجهها .. « ولم لا يا أمي ؟ .. » إنه دخل غير خاضع للضرائب ؟ ثم لماذا تصرخين في هكذا ؟ عندما تذهبين للعلاج بالصدمات الكهربائية لابد أن تكوني مهيأة لذلك !

ولم تجد " زينا " ما تقوله .

كانت السماء صافية في ذلك اليوم ، وشديدة الزرقة ، ولكنني لا أعتقد أنني سأعود إلى " موسكو " مرة أخرى ... أبداً ! المدينة ملأى بالخطر .. وبالوعيد .. مدينة مرعبة .. ستنفجر ذات يوم قريب ، ومن الأفضل أن يظل المرء بعيداً . نظرت من النافذة . حتى القمر وهو مكتمل يبدو مثل ثمرة اللفت !

أتمنى أن تكون بخير . وأن يزايلك الاكتئاب . رغم أن هذا الخطاب البائس ليس من المحتمل أن يرفع من معنوياتك .

لابد أن تعرف كيف تعلو فوق كل الاضطرابات العصبية التي ابتليت بها ألمانيا الديمقراطية القديمة . ! فاهم ؟! أراك قريباً يا صديقي ! اهدأ ولا تخف !

صديقك

« ساو »

لفترة طويلة بعد الثلاثينيات ، وحتى بعد موت الطاغية " جوزيف ستالين " ، المصاب بجنون العظمة ، فى عام ١٩٥٣ ، كانت " ليزا " عندما تحاول أن تتذكر ، رحلتها الأخيرة إلى " موسكو " لاتستطيع أبداً أن تنظر إليها من منظور مباشر أو أن تراها فى ضوء عادى ولم يكن ذلك بسبب الأدرينالين الذى يندفع فى كيانها فقط ، ولا بسبب الحلق الجاف ولا طعم النحاس فى فمها .. إذا كانت قد شعرت بذلك كله من قبل .

كان الأمر يبدو وكأن الرعب الذى عاناه كل المواطنين قد تقطر وانتشر فى جو " موسكو " ليحول المشاهد والأصوات إلى نسيج فيلم تجريبي يرك من الظلال السوداء ، خلفية من الصراخ والهسيس ووجوه مثل الأقنعة كانت تتذكر الزيارة كسلسلة من الأحداث ذات المنطق الخاص بزمان ومكان لا يمكن استعادتهما .

ظلت تقول لنفسها تذكرى لاتفشى سر الدهشة أو الخوف أو الغضب إنها ثقب يزحف منها الموت كفا فى شهر مايو من عام ١٩٣٧ ، وكان عبور الحدود عند " ايدكهونن " فى " لاتفيا " قد مر بون مشكلات وكانت تلك هى اللحظة التى تكرهها " ليزا " دائماً حرس الحدود السوفيت لديهم تعليمات مشددة باستجواب الأجانب ربما كانوا قد أبلغوا بذلك لابد أنهما كانا قد استجوبيا .. أو ربما كان يجب أن يستجوبيا على أية حال لم تكن قلقة لذلك بالرغم من جوازات السفر التشيكية المزورة . حتى الحقائق لم تفتش .

" فيلكس " طفل برىء لا يمكن أن يكون موضع شك وكان نائماً عندما كان القطار يقترب من " موسكو " صباح مبكر ، و " ليزا " يستقبلها ضوء الشمس وسماء صافية وفي الخارج كانت أشجار البتولا والحرور على الجانبين كالعادة كأنها حرس ريفى أمين .

أنزلت النافذة وأخرجت رأسها مغمضة عينيها وهى تستنشق الهواء النقى ذكرها ذلك بأوقات أكثر دعة وشعرت بالسعادة فجأة .

ولكن الحالة استمرت أقل من خمس ثوان فكرت أنها رأت جذع شجرة بتولا ملطخة بالدماء رفعت الشباك مرة أخرى وجلست ونبضها أسرع من ذى قبل .

" استيقظ يا فيلكس " لقد وصلنا تقريباً :

كانت تقول بينها وبين نفسها وهى مقبلة إن الحياة فى " موسكو " نفسها لابد أن تكون عادية هناك عدد لا يحصى من الموظفين والجواسيس والشرطة السرية والبشر العاديين .. كلهم يحاول أن يكون مواطنًا صالحًا أو عضواً فى الحزب مع مشاعر الولاء المظلمة ، كلهم يعمل بشكل دائم فى الخلفية وأحياناً بعيداً عن النظر ، لكنهم أبداً لم يكنوا بعيدين عن عقل البلاد بشكل عام !

كان الزعيم يريد أن يكون كل مواطن صالح جاسوساً ، وهام الآن يراقبون ويكتبون التقارير ويتنافسون ليروا من الذى يستطيع أن يبلغ عن أكبر عدد من أعداء الشعب .

إذا تمخض نشاطهم عن تحقيق يبتسمون لأنفسهم ، ولكن إذا أدى التحقيق إلى حكم بالسجن ، ناهيك عن محاكمة وإعدام فإنهم يشعرون بالبهجة ويظنون أنهم فى أمان تام مساكين ... ! أغبياء .. ! . هكذا

كانت تراهم ! .

توقف القطار .

كانت تتساعل بينها وبين نفسها ما إذا كان " فريدى " قد تسلم برقيتها ثم وهى تنظر فى بحر الوجوه المحيط بها .. ما إذا كان قد بقى فى هذه المدينة بشر ، بشر طبيون لايفكرون فى الشر !

" ليزا ! ليزا ! من هنا ! "

كان " فريدى " وجهه جعلها تشعر بالاطمئنان أمسكت بذراع " فيلكس " وفجأة وجدا نفسيهما ... مرفوعين من على الأرض بواسطة مار د ضخم ضاحك ، يرتدى معطفا إلى جواره كان يقف ابنه " آدم " ، الذى كان من نفس عمر " فيلكس " تقريبا كان الولدان لايفترقان عندما كان " لودفيك " مزروعاً فى " موسكو " ! كان لديهما دائماً أشياء كثيرة يتحدثان عنها ، لكن فى حضور الكبار تبادلوا الابتسام .

أهلا بكما فى " موسكو " لقد كبرت يا فيلكس ... أصبح أكبر منك يا آدم ... لابد أنه الطعام فى فرنسا ! .

همهم " آدم " ساخراً ، وابتسم " فيلكس " أصابتهما أفكار الكبار بالإحباط تجاهل " فريدى " الولدين وهو يكمل كلامه " لوجئتما منذ عشرة أيام لكنا قد اصطحبناكما لمشاهدة الاستعراض الكبير بمناسبة أول مايو " .

سأله " فيلكس " : هل كان تروتسكى موجوداً ؟

تجهم وجه " فريدى "

وواصل : فيلكس : " و " زينوفايف " ؟ " كامينييف " ؟ ، لا ؟

بالطبع لا ! أعداء الشعب : عفواً يا عم " فريدى " ! " نظر " آدم " إلى صديقة نظرة كلها رهبة . " فريدى " تنهد ! أما " ليزا " فكانت مدهوشة أول مرة تسمع " فيلكس " يقول شيئاً من هذا القبيل . ماذا حدث للولد ؟ ولماذا هنا فى " موسكو " حيث يلقي بالناس فى سيبيريا بسبب أسئلة أقل حدة ؟

حدثت فى ابنها صامته أما هو فرفع حاجبيه فى دهشة ساخرة ثم قرصته من ذراعة بينما كان فريدى يضعهما فى سيارة " زيم " سوداء ويقودها خارجاً من المحطة كانت الشوارع خالية تقريباً ، ورغم ذلك كان يقود السيارة ببطء ماتزال مختلفة عن " باريس " و " برلين " : كانت " ليزا " تفكر وهى تنتظر بحب إلى الرجل الذى يقود السيارة بهما إلى الفندق ورغم أنها كانت تعرف أن الخوف يسيطر على المدنية ، إلا أنها كان ممن المستحيل أن تقاوم صيف " موسكو " .

بمجرد أن أصبحوا مستقرين أمنين بالسيارة ، قررت " ليزا " أنه كان الوقت المناسب لتعرف من كان لا يزال هناك من أفراد المجموعة القديمة .

" هل مازال أحد من أصدقائنا فى موسكو ؟ "

" كلما رأيت عدداً أقل من الناس كان أفضل ! " " لودفيك أخبرنى أن أتبع تعليماتك فى كل شىء يا " فريدى " ، لكن أنا أعرف أن " ليفيتسكى " فى " باريس " ... لكن " ليفى " ؟ " لارين " ؟ " .

" ليفى مات ! حذر " بوخارين " من أن " ستالين " كان يريد أن يتخلص منه واقترح على " بوخارين " ألا يعود إلى " موسكو " بعد رحلته التالية إلى الخارج كان يمكن أن يكون ذلك كافياً . ولكن " ليفى " تمادى . أخبر " بوخارين " بأن يذهب إلى المكسيك واحد من دائرة

"بوخارين" تكلم . "ليقى" أختفى !

لم يكن هناك حاجة لعمل تحقيق اعترف بكل شيء ولعن "الشارب"
أعتقد أنه كان يريد أن يموت بسرعة .

أطلقوا عليه الرصاص منذ ثلاث ليالٍ والنتيجة أننا أصبحنا كلنا
محل شك ، وبخاصة "لودفيك" !

شحب وجه "ليزا" . "ميشا ليقى" مات : كان شاباً طلق المحيا
عندما التقته أول مرة فى "جنيف" طفرت الدموع من عينيها وكانت
تمسحها بعنف وجهه عليه آثار دموع قد يثير الشك فى الفندق فى
"موسكو" .

كان "ميشا" أول من يموت من اللامات الخمس ، و"لودفيك" لم
يعرف حتى أنه كان قد ألقى القبض عليه .. تكلمت بهمس مخنوق :
" الأمر مرعب والكلمات عاجزه عن التعبير يا قريدى " أعرف كان يريد
أن يذهب قال لى فى العام الماضى أنه لم يستطيع تحمل المحاكمات
والإعدامات كان يريد بشدة أن يسافر إلى الخارج ويقابل "لودفيك" ،
ولكن كان من الصعب ترتيب ذلك ، وهو كما تعرفين لم يكن يتكلم سوى
الروسية .

أما "لارين" فموجود فى "موسكو" سيحضر غداً مساء ليراك
مضت السيارة خارج "ساقوى" ، وكان على "ليزا" و"فيلكس" أن
يتظاهرا بأنهما هنا بغرض السياحة .

"سأحضر لأخذك فى الصباح يا "ليزا" . "الزعيم" يريد أن يراك
لبضع دقائق ، فيلكس يمكن أن يجىء أيضاً يمكن أن يلعب الشطرنج
مع "أدم" فى مكتبى أثناء ذلك وهناك شيء آخر ... "ليزا" كونى فى
غاية الحذر الدكاتور الآن فى غاية العنف والاندفاع ! "همست "ليزا"

"... و البروليتاريا ؟"

"تم سحقها إلا أنني واثق أن كل شيء سوف يتم تصحيحه فى النهاية !"

"هل أنت واثق فعلاً يا فريدى ؟"

"بالطبع : هذا الوحل لا يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية ! " الشارب " لا يمكنه أن يدمر الاتحاد السوفيتى ! " كان " فيلكس " و " آدم " قد استمعا إلى الحوار صامتين ، وعندما تركا السيارة ، ضغط " فيلكس " على يد " آدم " وكأنه يريد أن يقول له : أعرف .. لا تقلق : لن أخذلك ! " نلتقى غداً " ، قال " آدم " وهو يقوم من المقعد الخلفى ويجلس فى المقعد الأمامى بجوار " فيردى " .

كان الفندق نصف مشغول تقريباً رجال أعمال متناثرون ، وفد شيوعيين أمريكيين وكانوا كلهم يحدقون فيها وفى " فيلكس " ويحاولون أن يضعوا هذين الاثنين فى ترتيب الأشياء امرأة وحيدة وطفلها ! لا يمكن أن يكونا هنا لعمل تجارى هل كانت شخصية مهمة فى زيارة ؟ ! كان بعضهم يبتسم لها ويلوح بالتحية . وكانت " ليزا " تومىء بوقار تقدمت نحو المصعد الجميع يبدو عليهم التوتر رغم كمية القودكا التى يبدو أنهم كانوا قد استهلكوها . كم هو مختلف عن فندق " لوكس " فى ذلك الوقت من عام ١٩٢٦ عندما كانت " الدولية " تعنى شيئاً ! وعندما كان الرفاق من كل أنحاء العالم مازال يحذوهم الأمل ! يتجادلون ويتصايحون لم يكن كل شيء قد تحطم آنذاك ، رغم أن كل العلامات كانت تشير فى اتجاه "ستالين" كان " لودفيك " قد قال لها أن "ستالين" سيفوز وكانت الحرب الأهلية قد جعلت الناس على الجانبين كليهما حزانى ومحبطين وفاقدى الاهتمام بالسياسة .

انتزعت نفسها من هذه الافكار بأن قالت لـ " فيلكس " أن يذهب
يستحم وبينما هي تمشط له شعره بدأت تفكر في أول لقاء لها مع
" لودفيك " وجدت نفسها تتذكر " فيينا " كانت عينا " فيلكس " تلمعان
مرة أخرى وهو يرتدى البيجامة . " قال لي أبي إنهم كانوا يرددون
قصيدة لـ " پوشكين " عندما كانوا أطفالاً .

" أية قصيدة ؟ دعني أتذكر ! "

" قصيدة تتكلم عن القيود "

" طبعاً .. طبعاً ! " قالت " ليزا " مبتهجة ثم رفعت صوتها لصالح من
كانوا يتسمعون : " كانت قصيدة ضد الاستبداد القيصري . رسالة إلى
" سيبيريا " لا أستطيع أن أتذكرها كلها ولكنني سوف أحصل على
نسخة منها غداً من العم " فريدي " و "

" أرجوك يا أمي : ولو بضعة سطور قليلة ! .. " أنا واثق أنك
تستطيعين إن حاولت . كنت أعتقد أحياناً أنني نسيت قصيدة ما ،
فيطلب مني المعلم أن أفكر وأفكر .. وأفعل .. وفي النهاية
أتذكرها .

" سأحاول ، لكن الآن هيا إلى السرير - لقد أمضينا يومين كاملين
في القطارات .. هيا إلى النوم .. هيا ! " وكان " فيلكس " ينكمش تحت
البطاطين وهو ينظر إليها مترقباً .

فكرت " ليزا " الولد على حق : بدأت بعض كلمات " پوشكين " تزحف
إلى وعيها ، فراحت تردد بصوت هاديء ثابت :

الأمل صنو المحنة ،

في صمت الظلام السفلى

يلقى فى قلبك الشجاعة

اليوم المرجو سيجىء .

والحب والصدقة يتدفقان عليك

عبر البوابات السوداء ،

حتى حول ألواح الطباعة ،

تنساب موسيقى حرة ،

جلس " فيلكس " فى سريره ، عيناه تلمعان لأنه تذكر أيضاً الأبيات
الأخيرة التى كان " لودفيك " يرددها عادة منذ سنوات قليلة ، وكانت الأم
والابن يتكلمان فى تناغم .

القيود الثقيلة سوف تسقط ،

والجدران ستنهار أمام كلمة ،

والحرية ستحييك فى النور ،

والإخوة سيعيدون لك السيف !

" ليزا " تذكرت " ميشا " فراحت تبكى فى صمت قبلت " فيلكس "
وأطفأت المصباح ولكن الظلام لم يبدد أحزانها لن يأتئها النوم ، وبعد
ساعة من القلق والتقلب فى الفراش قامت كان الولد غارقاً فى النوم
وكانت " ليزا " مضطربة أكثر من ذى قبل ، كانت تعرف أن إعدام
" ميشا " لابد أن يكون قد مزق فريدى مثلها تماماً !

ولكنه كان يتكلم عنه عرضاً ! وكأن " ميشا " قد خسر مباراة فى
الروليت وحتى لو كان " بوخارين " تحت التهديد ، فكيف يمكن أن يتغير

أى شىء ؟

" فريدى " و " آدم " أنضما إليهما وهما يتناولان الإفطار

" لادى مفاجأة لك تنتظر فى بهو الفندق "

" لارين ؟ "

" لا : لارين سيأتى فى المساء . صديقة قديمة لك يا " ليزا " وابنها
كان يلعب دائماً مع " آدم " و " فيلكس " منذ خمس سنوات تقريباً عندما
كنتم فى " برلين " تتذكرين ؟ النازيون قتلوا زوجها ! "

أشرقت عينا " ليزا " : " هانز وولف ! "

" نعم ! ، وأمه " منة "

" ليزا سعيدة ومدهوشة فى نفس الوقت .

" منذ متى وهما فى موسكو ؟ "

" منذ وصول " هتلر " إلى السلطة كان من السيء أن تكون عضواً
فى الحزب الشيوعى الألمانى ، ولكن زواجها من شاعر يهودى حتى وإن
كان قد مات ، كان يعنى المعسكرات والموت عاجلاً أو آجلاً ! "

عندما غادرا صالة الطعام شعرت " ليزا " بارتجافة . كانت هى
و " منا " قريبتين من بعضهما الآخر كانتا تتحدثان معاً فى كل شىء
تقريباً وذات مرة فى حضور " لودفيك " كانت " ليزا " قد فضفت لها
كيف كانت ترى " ستالين " قبيحاً ومنفراً :

قالت : " لماذا ليس له جبهة "

ضحكت السيدتان أما " لودفيك " فكان يتلفت حوله فى المطعم بعصبية

قائلاً لهما إن ملاحظات أو تعليقات كتلك يمكن أن تؤدي إلى طرد فوري من الحزب وضحكت عليه انذاك .. ولكن " ليزا " الآن تشعر بالخوف لو أن "منة" كانت قد أبلغت عند ذلك التعليق القديم ، فقد لايسمح لها بمغادرة " موسكو " !

" ليزا : فيلكس ! "

قامت "منة" وعانقت " ليزا " وقبلتها من وجنتيها بحرارة ثم جاء دور " فيلكس " جفل الولد قليلاً واستدار نحو " هانز " وتصافحا كما يفعل الكبار وتبادلت الأمان الابتسام .

قال " فريدي " وهو يغمز : " عدتما صديقين ! هه ! "

ولكنه تعرض لنظرة قاسية من " آدم " و " فيلكس " و " هانز " لدرجة أنه ذهب وتوارى خلف السيدتين .

" ليزا : تبدين في صحة جيدة . " فردريك " أبلغني بأن الشعبة قد استدعتك ! ... ونحن نريد أن نستعير " فيلكس " و " آدم " اليوم إذا انتهيت من موعدك في حدود الثالثة أو الرابعة تعالى لتناول الشاي معنا ... أو يمكن أن نعيده نحن إلى هنا .. "

كانت بهجة "منة" هادئة ومصطنعة إلى حد ما . نظرت " ليزا " إلى ابنها كان ما اقترحتة "منة" أمراً عادياً ، إلا أن قلبها كان يدق بسرعة أكبر نظرت إلى ابنها .

" موافق يا فيلكس ؟ "

" نعم ! "

" عظيم ! اتفقنا : سأحضر " ليزا " إلى شقتك بين الثالثة والرابعة .. "

وإذا تأخرت سأتصل تليفونياً ! "

وبعد أن شعرت " ليزا " أنها كانت فى أمان فى السيارة ، بدأت تتكلم مع " فريدى "

" الآن والولد ليس هنا دعنى أخبرك ببعض الأشياء هل تعلم أن " موسكو " قد استأجرت عصابة من القتلة بهدف وحيد وهو تصفية الشيوعيين المعارضين ؟ "

قتلوا " ناقاشين " أثناء تمشيته الصباحية فى غابة بولونيا فى يناير كان ينوى أن يلقى كلمة . "

قال " فريدى " : " أعرف : لكن أية كلمة ؟ كانت أهم دحض للمحاكمات وإدانة لها . ربما أفضل من " تروتسكى " لأنه كان يعرف أكثر . الزعيم بنفسه قرأها وأمر بأعدامه "

" سلاتسكى ؟ "

" لا ! بل " ستالين " ! "

" أنت تعرف كل شيء عن ذلك إذن ! "

" طبعاً ! "

" و ؟ "

" ولا شيء ! نحن نخوض فى الدم والروث يا " ليزا " ! "

و " لودفيك " يعرف ذلك جيداً . لن يستمر طويلاً ، ستكون حرب جديدة مع ألمانيا لأبد من إزاحة " ستالين "

" لكن من الذى سيزيحه ؟ لقد أزاح هو كل من كان يستطيع أن يزيحه "

، والآن يتم تجهيز "بوخارين" أيضاً لاستقبال رصاصة الجلاد .

" هو لا يخشى " بوخارين " ، إنه يلعب عليه مثل البيانو ، لكنه يشعر أن " بوخارين " يمكن أن يكون الرئيسى الصورى إذا قام تمرد أحكم تدبيراً وهكذا فإن " بوخارين " سوف يتبع الآخرين . "

" ونحن يا " فريدى " ؟ "

" أنتما الاثنان لابد أن تحاولاً وتظلا على قيد الحياة . "

قولى ل " لودفيك " أن يتحاشى أى استعراضات بطولية ! ذات يوم سيكتب أحد عما حدث لرجالنا قبل أن ندخل ... أريدك أن تكونى فى غاية الحذر استمعى ولا تتكلمى كثيراً .. أجيبى عن الأسئلة المباشرة ولا تتطوعى بأية معلومات . مجيئك إلى هنا بالولد نزع كل أسلحتهم . طمأنهم . توقفوا عن توجيه أى أسئلة سخيفة لى عن " لودفيك " كانت " ليزا " قد التقت " سلاتسكى " قبل ذلك ، ولكن ليس فى ظروف كنتك لم تستطع أن تخفى ابتسامة عندما دخلت غرفته . كان يرتدى حلة زرقاء اللون مزينة بأزرار نحاسية كان يشبه البوابين الواقفين أمام فندق " متروبول " . هكذا كان الزى الرسمى الذى يرتديه رئيس الاستخبارات العسكرية الخارجية . فكرت ...

كم تغير : تصرفه رسمى ولكنه يحاول أن يتكلف بصعوبة ، كان جزء منها يود أن ينفجر بالضحك .. كان يشبه المهرج فى ذلك الزى . كان " سلاتسكى " على علم بوجودها ولكنه كان يريد أن يتركها واقفة لدقائق . تظاهر بالانشغال عنها بملف مكتوب عليه " سرى للغاية " " ليزا " فهمت اللعبة فكرت للحظة أن تجلس فى المقعد الخالى المواجه لمكتبه لكى تحقق فى عينيه مباشرة ولكن تحذير " فريدى " منعها من ذلك ، وبدلاً من الجلوس

سعلت بصوت خافت .

" أنت هنا إذن ! تفضلنى بالجلوس لك أصدقاء كثيرون هنا فى
الشعبة . أتمنى أن تكونى محل عنايتهم . " .
ابتسمت " ليزا " وهزت رأسها .

" بالنسبة لى ، كنت أحبذ أن يكون زوجك هو الجالس أمامى رغم أنه
ليس جميلاً مثلك ... " كان " سلاتسكى " يحملق فى صدرها وهو يضحك
ضحكة عميقة .. فاسدة ! ثم أشغل سيجاراً ظلت هى صامته . فوجئت
بسعلة صادرة من ركن مظلم بالغرفة لم يكن لديها فكرة أن هناك
شخصاً آخر فى المكتب وعندما استدارت رأت رجلاً وجهه مملوء بالبثور
... ربما كان فى أو آخر العقد الثانى .. نهض من مقعده .

" هذا هو الرفيق " كيدروف " . "

" أعتقد أننا التقينا قبل ذلك فى المنزل منذ ست سنوات تقريباً " .
هز " كيدرف " رأسه .

" هو الآن كبير المحققين وهو الذى سحق " راديك " أليس كذلك يا
" كيدروف " ؟ ذلك الكوزموپوليتانى القذر كان يظن أنه يستطيع أن يلعب
علينا أليس كذلك يا " كيدروف " ؟ لقد قومته على الفور .. أليس كذلك ؟ "
يا " كيدروف " ؟ " ابتسم " كيدروف " وهو يحاول أن يتجنب نظرات "
ليزا " .

كانت " ليزا " تفكر .. هذا الولد ابن اثنين من " البلشفيك " كانا
يعملان بالقرب من " لينين " فى سويسرا شك " سلاتسكى " أن يكون

تفكيرها قد ذهب إلى شيء من ذلك فانقض عليها باستئله ليجعلها تلجأ إلى الدفاع .

" ماذا كان رأي " لودفيك " فى محاكمة " راديك " ؟ "

" لا أعرف ، لم نناقش ذلك أبداً ! "

" تعالى يا عزيزتى ... تريدان أن تفهمينى أن زوجك الذى كان يعرف " راديك " جيداً ظل صامتاً ؟ "

" قلت إنه لم يناقش الأمر معى أبداً . "

بعد ساعة أخرى من المبارزة غير الحاسمة أوحى " سلاتسكى " بما يعنى انتهاء جلسة الاستماع .

" متى تعودين إلى " باريس " ؟ "

" الأسبوع القادم "

" أبلغى " لودفيك " بأننى أريده أن يعود إلى هنا ، تلك المسألة الاسبانية سوف تنتهى نهاية سيئة قولى له أن ينسى أوروبا أريد رجالنا المجربين هنا لحماية قلعنا الشيوعية "

" سأبلغه أيها الرفيق " سلاتسكى " شكراً وحظاً سعيداً أيها الرفيق " كيدروف "

تكلم " كيدروف " بصوت ناعم : " أبلغى " لودفيك " أننا نقدره جيداً وبأننى أتطلع للقائه . "

أصابتها ابتسامة " كيدروف " بالتجمد حدثت فيه كان الطموح ينضح

منه بشكل تلقائي سيرتفع كثيراً قبل سقوطه ، هكذا كانت تفكر " ليزا " .

أنطلقت مباشرة إلى غرفة " فريدى " ، ولكن قبل أن تنطق بكلمة واحدة وضع أصبعه على شفثيه ليذكرها بأن المكتب لم يكن آمناً .

" حسن ! كيف سارت الأمور ؟ "

" بشكل جيد جداً ... كان الرفيق " سلاتسكى " فى منتهى الطيبة لم أكن أعرف أن " كيدروف " قد حقق مع راديك "

" كان جزءاً من سير الجهاز ! ولكنه هو الذى دمر " راديك " فى النهاية إنه فى غاية المهارة " أغمضت عينيها فى ألم أما " فريدى " فكان يتكلم بمرح مصطنع .

" الغداء ! "

ولحظة أن كانا بالسيارة ، انفجرت " ليزا "

" ذلك الولد .. الحقير .. النذل .. يتباهى بنجاحه أما بالنسبة لـ " سلاتسكى " فقد تحلل إلى أبعد مدى أريد أن أخرج من هنا يا " فريدى " ... وأريدك أن تخرج أنت و " لارين " أيضاً . "

مسح " فريدى " على وجهها برفق " من الأفضل أن نموت هنا يا " ليزا " فى الخارج سوف يعيش المرء فى خوف دائم ماقيمة الحياة إذا كنت باستمرار فى حالة خوف من الموت ؟ وبالمناسبة لاتكونى بهذه القسوة فى حكمك على " سلاتسكى ! "

" كيف تقول ذلك ؟ لم يكن وبودا أبداً ولا غير هجومي .. وإنما
لكى يسبح بمجد " كيدروف " ، كل شيء يصيبني بالغثيان ، لو عاد
" لودفيك " سيقتلونه أليس كذلك يا " فريدى " ؟ "
هز " فريدى " رأسه " وبالمناسبة ، " سلاتسكى سوف يكون معنا
على الغداء "

" لا أصدقك ! "

" لابد أن تصدقني ! "

كانت " ليزا فى حالة صدمة من النغمة العادية ، لدرجة أنها ظلت
بقية الرحلة عابسة مقطبة الجبين تنهد " فريدى " عندما أوقف السيارة
بالقرب من نادى الكتاب أخذها من ذراعها وهمس :

" أنت لاتعيشين هنا ولايمكنك أن تفهمى كيف أصبحت الأمور "
اصطحبهما مرافق إلى غرفة صغيرة خاصة ، حيث كانت توجد طاولة
بثلاثة كراسى معدة لتناول الغداء كان فوقها أطباق صغيرة من
المشهيات بينها الكافيار والسّمك المدخن بأنواعه ولحوم باردة وسلطة
وزجاجة " فودكا " . وقبل أن تعلق " ليزا " على ذلك الترتيب غير المعتاد
دخل " سلاتسكى " الغرفة اتجه نحوها مباشرة وقبلها فى وجنتيها .

" دعيني أضمن ! كنت تفضفضين لـ " فريدى " كيف أننى قد تغيرت
وبعد أن كنت ذات يوم ظريانا حقيراً منتن الرائحة أصبحت فاراً من
فئران المجارى . أليس كذلك ؟ " " ليزا " ابتسمت رغماً عنها وواصل ؛
سلاتسكى " كلامه : " كما ترين ياعزيزتى : مازال هناك قلة من الأذكاء
فى الاستخبارات السوفيتية رغم عشر سنوات من حسن السير
والسلوك ، لم أعد قادراً على اكتساب ثقة الرفيق " ستالين " فى
الأسبوع الماضى فقط ، فى : " ليننجراد " تم إعدام ثلاثين شاباً شيوعياً
لأنهم كانوا يطرحون أسئلة كثيرة ! فى كل مرة كانوا يسألون سؤالاً

عادياً بالنسبة لكل شيوعى ، كانوا يعتبرون مخربين تروتسكيين وهكذا قبل أن يطلق عليهم الرصاص هتفوا " عاش تروتسكى ! " كانوا صغاراً . ربما كانوا قد سمعوا عن تروتسكى من آبائهم ! ... قودكا ؟ ! "

كانت " ليزا " مدهوشة . حاول " فريدى " بصعوبة أن يخفى ابتسامته عندما لاحظ دهشتها البالغة ثم استدار نحو " سلاتسكى " .

" صديقتنا ساعتها تصرفاتك أمام " كيدروف " حسن ! حسن ! أنا متفق معها كان تصرفاً جيداً " قالت " ليزا ببطء ، مدركه أن المشهد السابق الذى شاركت فيه كان فقرة تمثيلية : " ربما كان يجب أن نحجز طاولة فى نادى الممثل " ضحك الرجلان وكانت " ليزا " تفكر مازال بإمكانهما أن يضحكا حتى وهماً يعيشان رعباً لا يمكن تخيله .. كل يوم ! ثم تساءلت بصوت عال : " وكيدروف ... هل كان جزءاً من المشهد أيضاً ؟ "

تغير وجه " سلاتسكى " « الشاب مؤمن تماماً ؛ » " ستالين " يلتقى ؛ كيدروف " كثيراً هذه الأيام يريد أن يسمع كيف يتصرف أعداؤه أثناء التحقيق وقبل إعدامهم مباشرة وهكذا فإن " كيدروف " يؤمن بحق المحققين المقدس ويعتقد بالفعل أنه سوف ينتهى به المطاف عضواً فى المكتب السياسى . "

" لابد ! على أية حال ... هناك آخرون مثله "

" كسيدروف يعرف أشياء كثيرة ياعزيزتى ... وأكثر مما يجب !

معظم المعارضين لم يعترفوا بشيء . بل شجبوا " ستالين " والجهاز . حكوا عن جرائمه بالتفصيل " كيدروف " سمع كل شيء .

وسيأتى نوره قريباً ! وسيعدم ! وكونه لم يدرك ذلك بنفسه ، دليل على محدودية ذكائه ! "

" هل تريد أن يرجع " لودفيك " فعلاً ؟ "

" هل أنت مجنون ؟ قولى له أن يبقى فى الخارج بقدر ما يستطيع وإلى الأبد إن أمكن ! خلال عام واحد سيصبح أمثال " كيدروث " مسئولين عن كل شىء . " لودفيك " أسطورة فى الشعبة والاساطير القديمة لابد من تحطيمهما حتى يستطيع خدم الوقت الجدد أن يبنوا أنفسهم ! كيف حاله الآن ؟ "

" بخير ! "

" أقصد صحته يا " ليزا " ! تفكيره ! ماذا يرى ؟ "

نظرت " ليزا " إلى " فريدى " للاسترشاد ما إذا كان آمناً أن تجيب عن سؤال " سلاتسكى " . " هز فريدى " رأسه .

" إنه مكتئب تماماً ! فقد هزتنا المحاكمات حتى النخاع ! من رأى " لودفيك " أنه كان لا يجب علينا أن نحظر " المنشفيك " ، وهو يرجع الانهيار إلى هذا القرار ، ولكننى لست متأكدة ! الشىء الوحيد الذى يحافظ على بقائه هو " أسبانيا " إذا انهزم الفاشست ، فإن ذلك كما يتصور لابد أن يكون بداية لسلسلة من التداعيات فى إيطاليا ... وحتى فى ألمانيا ، وإذا حدث ذلك ، كما يرى " لودفيك " ، فإن " ستالين " الوحش الذى انجبه الهزائم فى أوروبا ، والذى منع العمال السوفيت من الاشتغال بالسياسة ، سوف يسقط أيضاً . "

قال " سلاتسكى " بابتسامة حزينة : " وسوف يكون ذلك جيداً بالنسبة له يا " فريدى " ! هه ! ؟ "

" لودفيك مازال قادراً على الحلم ، وما أراه ليس سوى كوابيس ... "

بل أكثر سوءاً . ليته يكون على حق وأكون أنا المخطيء ، وإن كنت أخشى العكس هل أخبرك " فريدى " كيف جعلت " سمير نوف " و " مارشوفسكى " يعترفان ؟

نظرت " ليزا " إليهما فى رعب ! ... " أنتما ؟ " وهز كلاهما رأسه .

" كان " لودفيك " مقتنعاً بأن لا " مارشوفسكى " ولا " سمير نوف " يمكن تحطيمهما . لسبب ما كان متأكداً من ذلك . وعندما قرأ أعترافاتهما بكى . وكنت أنت ؟

نظر " فريدى " بعيداً . و " سلاتسكى " روى لها القصة .

" كان يبكى يا " ليزا " ؟ بكى ؟ ماذا تظنين كان وقع ذلك علينا ؟ عندما بدأت التحقيق كان رأسى مليئاً بالشعر .

أنظرى إلى الآن ! حققت معه لمدة تسعين دقيقة .

" دخل وكان يعرج ، فهو جريح حرب . كنت قد خدمت تحت قيادته ولكنه نسى .

" أيها الرفيق " مارشوفسكى " ... لدى أوامر بأن أحقق معك !

" هكذا ؟ أنت يا ابن القحبة ! ؟ كان ذلك رده على .

ثم ، وهو ينظر إلى باحتقار شديد واصل كلامه ..

" لن اتحدث مع أمثالك نفاية من أخط مستوى !

خدم القيصر كانوا أفضل منك ، كيف يجرو " مثلك " على استجواب شخص " مثلى " ؟ نوطان من أنواط العلم الأحمر ؟ هه ؟ هل سرقتهما ؟ وتدعونى بالرفيق ؟ الرجل الذى قبلك كان يدعونى بالحقير ! ويدعو

الثورة : أنا ؟ لقد ولدت فى أحد سجون القيصر والداى ماتا فى أحد
منافى سيبيريا ! أصبحت بلشفيما فى الخامسة عشرة .

هل تريد أن ترى أوسمتى ونياشينى ؟!

وهنا قام وعرى صدره يا " ليزا " . كان صدره مليئاً بالندوب من كل
لون وحجم ، كنت على وشك البكاء .

" أيها الرفيق " مارشوفسكى " لقد حاربت تحت قيادتك على جبهة
طشقند ، وهكذا حصلت على نوط العلم الأحمر . "

وكان لابد أن أرسل فى طلب سيرتى الذاتية من الأرشفيف قبل أن
يقتنع بما قلت حمله فى . " أرى أنك كنت شيوعياً ذات يوم ... وثوريا
كيف أنحدر بك الحال لتصبح كلباً بوليسياً ؟ دعنى أقول لك شيئاً يا
" سلاتسكى " لقد أخنوني مرتين لمقابلة " ستالين " وفى المرتين حاول أن
يرشونى بصقت فى وجهه ذكرته بما قاله عنه تروتسكى ... فى وجهة :
حفار قبر الثورة ! .

كان ذلك عندما استدعوك يا " سلاتسكى " .. والآن أكمل مهمتك ..
لن أعترف ! "

" تكلمت وتكلمت يا " ليزا " ، أذكره بالثورة ، وبالحرب الأهلية
وحقيقة أننا محاطون بعالم من الأعداء ، وبصعود " هتلر " إلى السلطة
وقلت له إن المسألة الآن ليست " ستالين " ، وإنما إلى أى مدى يمكن أن
يبقى الاتحاد السوفيتى .

وبدأنا نحن الاثنين نبكى !

بعد ذلك قال : " إن كان اعترافى سوف يقوى الاتحاد السوفيتى
يمكن أن أفكر فى ذلك بجدية . " شعرت وكأننى أريد أن أقول له : " لا !
لاتفعل ! " ولكن كل شىء كان يتم تسجيله ! بعد ذلك قابل " سمير نوف " "

فى اليوم نفسه ، وتكلم معه ولكننا واصلنا . وعندما أدرك " سمير نوڤ " أن " مارشوفسكى اعترف ... أنهار ! "

وهنا تكلم " فريدى " لأول مرة : رغم أن " سمير نوڤ " حاول أكثر من مرة أثناء المحاكمة أن يجعله يسحب أعترافه ، إلا أن الإدعاء كان يمنعه دائماً .

نظرت " ليزا " إلى الرجلين ، عيونهما مليئة بالدموع .
قال " سلاتسكى " : قولى لـ " لودفيك " أن يبقى فى الخارج يا " ليزا " وحذريه أن رجلاً جديداً سوف يرسل إلى السفارة .
صديق " كيدروڤ " ، وسيكون باسم " سيجل جلاس " ومهمته ستكون التجسس على " لودفيك "

" ليزا " لم تحب " سلاتسكى " أبداً ، ولاحتى فى السابق ولكنها عانقته عندما نهض من مكانه .. " وداعاً يا " ليزا " ، تحياتى إلى " لودفيك " ، لست أدري إن كنا سنلتقى مرة أخرى أم لا ! "

كان هناك صمت مرهق بعد أن انصرف " سلاتسكى "؛ مازالت " ليزا " لاتستطيع أن تصدق أن " فريدى " أحد اللامات الخمس فى بيدقوشوليسك ، وصديق طفولة " لودفيك " كان هو الرجل نفسه الذى دمر " سمير نوڤ " نظرت إليه .

ولكى يتجنب نظراتها أشعل سيجاراً ، ثم بلا خجل قدم لها واحداً رفضت .

" خذنى إلى شقة " منة " يا " فريدى "

لم تتكلم معه فى السيارة ، ولكن عندما أقترب من الجسر صرخت فيه : أوقف السيارة يا " فريدى " الآن ! "

ضغط بقدمه على الفرامل ونظر إليها .

" أليست هذه " كرويسكايا " التى تسير نحو الكرملين ؟ هل يمكن أن ألحق بها لأسلم عليها ؟ إنها تعرف لودفيك و ... " فيلكس " شحب لونه . " نعم ، هى أرملة " لينين " . لكن أنظرى الآن ! إنها متبوعة . لا يتركونها لحالها أبداً . وإن تركتك لتلحقى بها وتقبليها فلن تغادرى موسكو أبداً ... على أية حال .. هى كلبة .. غبية ! "

" فريدى ! " وبدأت " ليزا " ترتعد غضباً .

" كيف تجرؤ أن تتكلم عنها بهذا الأسلوب ؟ لقد عانت الكثير فى حياة " لينين " ، والآن ... "

" اسمعى .. إنها الشخص الوحيد الذى كان يمكن أن يستنكر المحاكمات ويدينها ويجد من يستمع إليه فى الداخل وفى الخارج وبالطبع كان يمكن أن يدس لها السم ويشخص الأطباء الحالة بسكتة قلبية أو شىء من هذا القبيل .. ولكن ذلك كان سيترك أثراً على الأقل ! وبدل ذلك كله كانت تتقدم بتوسلاتها سراً ! "

" ماذا تقول ؟ "

" ذات يوم فى العام الماضى استدعيت أنا و"سلاتسكى " إلى مكتب " ستالين " لم يكن ذلك أمر غير عادى . " زينوفيف " وكامينيف ؛ كانا يحاكمان بتهمة الإرهاب والتجسس إلى آخر ذلك الهراء كان يريد أن يعرف ماذا يقولان عنه لذلك لم نعتبر الطلب أمراً غير عادى "

"وعندما دخلنا طلب أن نجلس فى الركن أريدكما أيها المقاتلان (فى الحرب الأهلية) أن تراقبا فى صمت سوف تتعلمان كثيراً ! " وبعد خمس دقائق دخلت " كرويسكايا " وقف واستقبلها بأدب ركعت على ركبتيها : " جوزيف فيسار يونوفيتش " قالت بصوت مكسور " زيجونيف " و " كامينيف " كان أقدم رفاق " لينين " أتوسل إليك أبق

على حياتيهما . تكلمت عن الرجلين عن قوتيهما وضعفهما ،
أسهاماتهما من أجل الحزب ... وكان يستمع إليها فى صمت وعندما
انتهت ساعدها على النهوض . " أيتها الرفيقة كرويسكايا ، أنا لست
القيصر . أرجوك لا تتوسلى إلى هكذا ! هذا يزعجنى ! "

بعد ذلك قال إن البلشفيين الكبيرين كانا " خونة " .. وذكرها بما كان
" لينين " قد قاله عنهما على مشارف الثورة .

" كان " فلاديمير ايليتش " هو الذى طلب طردهما من الحزب . "
وبعد حوار طويل وعدها " ستالين " بأنه سوف يبقى على حياتيهما إن
هى شجبت سلوكهما علنا وفعلت وأعدما ، كان لابد أن تفهم أفضل من
ذلك . ولذلك قلت أنها كلبة .. غبية !

وأنا أسف لذلك هى أيضاً ضحية ولا بد أن ذلك كان مؤلماً بالنسبة
لها . لابد أنها تفكر باستمرار ماذا كان يقصد بذلك وماذا حدث وتعرف
أن " لينين " فى الأشهر التى سبقت موته كان يعرف مايجرى "
" انتهى كل شئ الآن يا " فريدى " أليس كذلك ؟ لقد دمر
الثورة ! "

وصلا إلى شقة "منة" ودعها " فريدى " .. لا تنسى . : " لارين "
سوف يصحبكما أنت و " فيلكس " الليلة للعشاء غرفته آمنة ولكن الحذر
أفضل لن أحضر الآن ، قولى لـ " آدم " أننى فى انتظاره "

انفجرت " منة " ضاحكة عندما دخلت " ليزا " شقتها وضحكت مرة
أخرى عندما رأت نظرة حيرة مرسومة على وجه " ليزا " وقالت على
سبيل التوضيح وهما مائزان أمام الباب الخارجى : شعور بالارتياح
ياعزيزتى ... لقد عدت ! وهذا رائع فى " موسكو " الولدان كانا يلعبان
معا فى سعادة ... تفضلنى ... "

تبادلت السيدتان الابتسام ودخلتا المطبخ الصغير لا أحد منهما كان متأكدا إن كان هناك ميكروفونات للتجسس مثبتة في الشقة أم لا .. كلاهما حذر لذا حرصا على ألا تنجرف المناقشات إلى اتجاهات خطيرة ! " أنا و " هانز " سعداء هنا لو كنا في ألمانيا لما بقينا على قيد الحياة عندما ألقى القبض على " مايكل " أعتقدنا أن ذلك سيكون لأسابيع قليلة ثم قال أصدقاء أنها بضعة أشهر ثم ذات يوم أبلغنا أن " مايكل " قد أعدم رميا بالرصاص بينما كان يحاول الهرب " و " هانز " ... كيف ؟ "

" كان ذلك منذ ثلاث سنوات لقد فهم ما حدث ، كان في التاسعة آنذاك ولكنه شعر بأنه قد أصبح مسئولا عنى كنت اسمعه يبكي ليلا في فراشه ويردد اسم والده ، ولكن ليس أمامى أبدا : كان هو و " مايكل " قريبين من بعضهما آخر مجموعة قصائد له كتبها من أجل " هانز " وكان يقرأها له قبل النوم مازال يحتفظ بها تحت وسادته ، " وتناولت " ليزا " قلمنا من حقيبة يدها و دونت بضع كلمات على ورقة ووضعتها أمام " منة " .

" هذه المدينة ليست آمنة بالنسبة لك " لودفيك " متأكد أن ؛ ستالين " يتفاوض سرا مع النازي قائلنا بعض العملاء الذين حملوا رسائل إلى ألمانيا لا أريد أن أخيفك ولكن هذا المكان خطر .. "

كانت " ليزا " تعرف أنها قامت بمغامرة ، ولكنها لم تكن تريد لـ " هانز " أن يعاني أكثر من ذلك قرأت " منة " الورقة بابتسامة حزينة ، وإيماء عرفان وأحرقت الورقة .

أمسكت بيد " ليزا " وقبضت عليها بشدة ثم همست في أذنها ، " شكراً ! بعض الألمان المنفيين هنا لديهم اعتقاد أن شيئا كبيرا

سيحدث قريباً مجموعة كبيرة من الألمان تم القبض عليهم بالفعل على اعتبار أنهم " أعداء الشعب " " كيبنبيرجر " و " هيرش " عذباً بالفعل لابد أن أتظاهر بأن كل شيء على مايرام لأريد لـ " هانز أن يقلق . كان سعيداً في نوفمبر الماضي وهو يشاهد الدبابات والجنود يمرون أمام " ستالين " في الاحتفال .

كان يراها درعنا ضد " النازية " وتبادلت المرأتان النظرات ثم تكلمت " ليزا " بصوت مرتفع غير خائف : " هذا يوم جميل ، لماذا لاناخذ الولدين للتمشية على شاطئ النهر ؟ "

كان الولدان قد رجعا وبدأ شوطاً جديداً لم يكونا متحمسين للخروج ولكن جهداً مشتركاً من الأمين أقنعهما في النهاية .

تركوا الشقة كلهم . اليوم في نهايته والغروب يقترب ، وكانوا يسرون وسط ظلال ذهبية بعد ظهيرة اليوم " هانز " وفيلكس تخلياً عن أدعائهما بأنهما قد كبرا وراحا يلقيان بأغصان صغيرة في النهر ويهرعان لرؤية الفائز منهما .. بينما كانت " منة " تفضض و " ليزا " تستمع إليها . " لو استطيع مغادرة هذا المكان لفعلت من الغد لدى أبناء عم يعيشون في " بلتيمور " ولكن قد يلقي القبض على لو حاولت أن أراسلها في هذه الظروف " .

" يمكنني أن أكتب لهما نيابة عنك "

" لست متأكدة ربما كانوا يرغبون في المساعدة ولكن " مايكل " كان شيوعياً ... رغم أنه قد مات ! هل يسمح لسي الأمريكيان بالدخول ؟ "

" أعتقد أنهم لابد أن يوافقوا . يسعدني أن أحاول إن أردت "

مخاطرة كبيرة ! ولو فشلت سينتهي بي الأمر في سيبيريا وبـ " هانز " في ملجأ للأيتام ! " .

ظلت المرأتان تتكلمان حتى الغروب كان وقت الفراق ! تصافح "هانز" و "فيلكس" بحرارة وتعانقت "منّة" و "ليزا" .

والآن كانت "ليزا" متأكدة أن لا أحد منهما يمكن أن يعود "ستالين" فى السلطة .

وفى وقت لاحق من تلك الليلة ، فى غرفة "لارين" ، كانت "ليزا" تسأله عن زوجته وعن طفله اللذين لم تلتق بهما أبداً . "أين هما يا "لارين" ؟"

"عند حماتى فى الريف"

"كلمنى عنهما !"

"اسمعى يا "ليزا" ... انسى كل شىء عنهما !

وانسى كل شىء عنا جميعاً ، تأكدى "فقط أن "لودفيك" و "فيلكس" وأنت على قيد الحياة . الحكاية هنا باختصار هى من يوقع بمن ؟ حرب البقاء ! لو أنه يموت ! يختفى من على وجه الأرض !

هل تعرفين قصدى ؟ إذن لابد أن يعيش بعضنا . "ليفتيسكى" ، "لودفيك" ، "فريدى" ، أنا ، الآخرون .. قد نبقى على قيد الحياة قولى لـ "لودفيك" إننا هنا فى "موسكو" نحلم بأن نموت فى معركة ضد أعدائنا . "هتلر" ... "فرانكو" ... "موسوليني" من ذا الذى يريد أن تنتهى حياته بيد شعبنا ؟

وفجأة .. كانت الكراهية تشوه وجه "لارين" كان هو الوحيد بين اللامات الخمس "الذى لم يشارك فى الحرب الأهلية .

"لارين" كان دائماً أخلاقياً ، كانت لديه حيوية أكثر مما تتطلب الثورة ، ولكنه كان يكره العنف .

ومثل "لودفيك" كان ذا عقلية مستقلة تقبل أية نظرية تجبره الحياة على التوافق معها . كان ينفر من الجمود الفكرى .

" سأقول لك شيئاً يا " ليزا " .. كلنا نعرف أنه سوف يقتلنا ! نحن
شهود على جرائمه . لماذا ... لماذا لا توجد الشجاعة لدى أى منا ليقتله ؟
هناك حالات يمكن أن يبرر فيها الإرهاب الفردى أليس كذلك يا " ليزا " ؟ .
ربما ! ولكن أنظر إلى المسألة من جهة أخرى إنه سيموت يوماً ما .
هل مجرد موته سيغير ما يجب تغييره ؟

ياللبؤس الماركسية إن نحن أمانا بقدرات فرد !

" لودفيك " يعتقد أن المسألة أعمق من ذلك ... أعمق بكثير ! " كان
فيلكس على الأريكة غارقاً فى النوم . بدأ " لارين " يتكلم عن " لودفيك "
وعن حياتهما عندما كانا أطفالاً . مدينة " جاليشيا " الصغيرة بدأت
تصبح حية مرة أخرى ، وعندما أغمضت " ليزا " عينيها نصف إغماضة
وهى تستمع إلى " لارين " كانت تتخيل النهر والاشجار على ضفته ،
وتتخيل " لودفيك " ولداً ، وهو يقفز ويسبح إلى الشاطئ الآخر .

" أذهبى إلى بلدك يا " ليزا " ولا تعودى أبداً "

" لقد أصبح هذا بلدى يا " لارين " ! "

" أعرف ! لكن حافظى على نفسك وقولى للعالم ذات يوم كيف كان
شعبنا يقتلنا .. وقولى لـ " لودفيك " .. قولى له ألا يعود أبدا ! " عندما
بدأ القطار المتجه إلى " براغ " يبتعد عن " موسكو " كانت تشعر كأنها
" أورفيوس " يخرج من " حادس " *

شعرت أنها كانت مراقبة . أى التفاتة للخلف قد تكون أيماءة قاتلة .
دقة قلب ثابتة ، تنهيدة أرتياح ، توتر أقل فى كتفها ... أى شىء من
ذلك قد يثبت أنها من أعداء الدولة .

قالت لنفسها .. كنت أحب هذه المدينة دائماً !!

* (Hades - مثنى الأموات فى الميثولوجيا الإغريقية والمترجم) .

. ستوافقنى يا " كارل " أن لكل واحد فى ألمانيا شجرة عائلة سياسية :
هى موروثة التاريخ الساعة التى ننساها عند الخطر بالنسبة لنا
كأفراد وبشر .

لكل واحد فى ماضيه شئ يغضبه أو يجعله يشعر بالحرج .

هناك أشياء عن جيرترود لابد أن أحكيها لك .

هل ستقرأ هذا بعد ثلاثة أشهر من الآن ، أو فى وقت ما من القرن
القادم بعد أن تكون قد نثرت رمادى على " الوانسى " وفصصت هذه
اللفافة التى كتبت بخط اليد ، ونسختها على ورق خال من الحامض
وأتمنى أن يكون مازال سليما ؟ هل تقرأه وحدك ؟

أحاول أن أروى لك هذه القصة بترتيب الأحداث وليس بالترتيب الذى
عرفته ، لكى تتمكن من مشاركتى الجهل الذى بدأت به . هناك حيلة فى
الحكى ، لكنك ستفهم القصة كلها فى النهاية . لا تقفز مباشرة إلى
الفصل الأخير . أريد أن تشاركنى الحالة التى كنت أشعر بها وأنا
أحاول أن أجد صوتا لابد أن تستمع إليه .

قبل حلول ليلة رأس سنة ١٩٥٦ بعشرة أيام ، أقنعتنى " هيلجا "
بتنظيم سهرة فى شقتنا . كنت قد عارضت الفكرة فى البداية ، ولكن
" جيرهارد " وأصدقاء آخرون شاركوها الضغط على فلم أستطع المقاومة .

الشقة كبيرة .. وكانت " جيرترود " فى " موسكو " . كانت حصتها
من الفودكا الروسية والكافيار موجودة كما هى . وكان البلد كله

فى حالة ترقب وانتظار . لم يكن قد مر سوى أشهر قليلة على خطاب " خروشوف " فى المؤتمر العشرين للحزب فى " موسكو " ، والذى كان قد أداى فيه " جرائم ستالين " . كان رد فعل الهنغارىين على الخطاب هو العصيان المسلح . كانوا يريدون هنغاريا حرة ديمقراطية . كان فيلسوفهم الماركسى الكبير " جورج لوكاتش " يؤيدهم وأصبح وزيرا فى الحكومة الجديدة ، ولكن " خروشوف " الذى كان فى حالة عصبية خشية انتشار المرض ، أرسل الدبابات السوفيتية . " لوكاتش " لجأ إلى السفارة اليوغوسلافية ، وتم سحق التمرد .

ورغم الأعمال الوحشية التى وقعت فى " بودابست " ، كان الأمل ما يزال حيا . كان الناس شرقى " الإلبى " يتوقون إلى التغيير . كانوا فى شوق للخلاص من حالة كونهم دمي بشرية ، سئموا أدوار الممثلين الثانويين فى فانتازيا كبيرة كانت قد بدأت الآن تربك مؤلفيها .

كانت سنة مليئة بالإثارة ، ولكننى كنت أريد أن أقضى ليلة رأس السنة الجديدة مع أمك . كنت أحبها كثيرا ، لدرجة أن أى شئ آخر كان يبدو عديم الأهمية وكنا قليلا ما ننفرء بالشقة . بدا الأمر مؤسفا أن تكون ملأى بالأصدقاء فى مثل هذا الوقت !

ضحكت عندما قلت لها ذلك كله ، وكانت ضحكة خافتة من الحلق لا من الفم . كنا مستلقين فى السرير فى وقت متأخر بعد الظهر ، وفى حالة خدر ما بعد المباشرة الجنسية . كان الأمر دائما أكثر استرخاء عندما تكون " جيرترود " خارج البلاد . دفنت رأسى فى صدرها أفرح فى عبق جسدها .

" أنت جميلة ! رائحتك حلوة مثل زهرة ليك طازجة ! " لم يكن من السهل تحويل انتباه " هيلجا "

" يمكن أن نمضى أول يوم من أيام السنة الجديدة معا . بمفردنا .
فى الفراش . لكن لابد أن ننظم سهرة ليلة رأس السنة . كل الدلائل
تبشر بالخير .

" معنى ذلك ؟ "

" فجأة .. لم يعد الخوف يجمدنا ! "

" قولى ذلك للهنغاريين ! "

" قلادى ! لا أعذار ! نعم أم لا ؟ "

كانت الآن جالسة فوقى . يداها متجهتان صوب رقبتى وكأنها
ستخنقنى رضخت . ضحكت " هيلجا " ، تعانقنا ومارسنا الجنس
لنصدق على الاتفاق .

" قلادى ! ... "

" ... م ... م ... م ... ! "

" وعدت بأن تجعلى أقرأها يوما ما ! لماذا ليس الآن ؟ "

" لأنها مرتبكة ، لم أنته منها بعد ، ولن تعجبك ! "

" وماذا فى ذلك ؟ "

تنهدتُ . قمت من الفراش وذهبت إلى المكتب . راحت يداى تقلبان
فى الأوراق المختلطة إلى أن استخرجت ورقة مكتوبة بخط اليد . أعطيتها
لـ " هيلجا " وذهبت أبحث عن ملابسى . وضعت الورقة على صدرها
وهى تراقبنى أثناء ارتداء ملابسى ثم قفزت من الفراش ، تناولت بنطلونها
الأزرق والجاكت ولبستهما . أحيانا أفقدنها يا " كارل " ... أكثر مما

تتصور ! وقرأت القصيدة مرتين :

إلى " ب . ب "

الليالى الطويلة المسهرة ولت
أصبحت صفحة بيضاء ،
الصور العشوائية تتدافع ،
والأفكار العلية تطفو ،
معظم الليالى على هذه الحال
ثم مرة كل شهر
لا ..! أنا أبالغ ...
مرتان كل ستة أشهر ...
شرارة ..

القلم ينزلق على الورق
وسرعان ما تمتلئ صفحة ،
ويتم عمل عام كامل ..
هل كان الشئ نفسه بالنسبة له ؟
أم ترى كانت كلماته تزأر فوق الصفحة ،
مثل شلالات نياجرا ؟
فى الأسبوع القادم ..
سأزور قبره مرة أخرى ،

وأجى مستقر هيجل العجوز وأنا مار
وعلى الرخامة الجديدة الباردة
سأنتثر الزهور الحمراء ،
وأتعهد بأن أطهر وطننا !

١٨ برلين ، ١٢ أغسطس ١٩٥٦

وقبل أن تقول لى رأيها فى هذه الهدية الصغيرة سمعنا طرقا على الباب .
تناولت ساعتها من فوق الطاولة للمجاورة ، السادسة ! لابد أنه
" جيرهارد " . منضبط لدرجة الإزعاج ! لا أحد غيره يمكن أن يجى قبل
نصف الساعة .

أخذت القصيدة معها إلى الغرفة المجاورة ورحبت بـ " جيرهارد "
سمعته يسألها : " مارأيك ؟ "

" ليست رديئة ! لست واثقة من السطور الثلاثة الأخيرة
... ولكنها معقولة بشكل عام ! "

" هل يمكن أن أقرأها يا " فلادى " ؟ "

أعطته القصيدة . قرأها بسرعة وأعادها إليها .

" احرقها يا فلادى " ليست جيدة ! بداية مفرطة فى
العاطفة . كان " برخت " يكره ذلك ! "

هكذا فعل " جيرهارد " . اكتفيت بالابتسام . أخذت الورقة من يده ،
كرمشتها فى قبضتى ووضعتها فى المدفأة وأحرقتها .

" هيلجا " صرخت فى وجهى .

" لا يا فلادى ... أيها الأحمق ! "

ولكن صرختها كانت عبثا . كنت أعرف فقط أن القصيدة فى رأسى
وأن صيغة أفضل سوف تخرج ذات يوم . ولم يحدث ... كما ترى ...
ولكننى تذكرت . أمك سوف تؤكد أن ما قرأته هو ما كتبتة طيلة تلك
السنوات .

قلت لها : " كان " جيرهارد " على صواب وأنت مخطئة يا عزيزتى "
هيلجا " سوف ننجح فى مهامنا إذا كنا موضوعيين تماما ، واعين
بأنفسنا وناقدين لها . على خلاف أولئك الذين يحكموننا " هز
" جيرهارد " رأسه وهو يشعل غليونه ... خجلاً ...! كان فى التاسعة
عشرة . أكبر منى ومن " هيلجا " بعام واحد . والغليون كان له أسابيع
قليلة !

اعترضت " هيلجا " : " لكن أيها الرفاق كلاكما يندفع عكس اتجاه
الآخر . النقد عندكما لابد أن يكون مدمرا ... مثل الهواء الذى يدخل
مقبرة محكمة الإغلاق ! "

قال " جيرهارد " بون أن ييتسم : " تعبير جيد ! هكذا بالضبط !
نحن نريد أن نطفى كل شئ فى هذه المقبرة الستالينية تساءلت " هيلجا
" بحزن : " كل شئ ؟ كل شئ ؟ بما فى ذلك أساسات جمهورية ألمانيا
الديمقراطية ؟ "

قال " جيرهارد " بسخرية " ... وتلك بالذات ! " طرقات شديدة على
الباب الخارجى قطعت حوارنا . ضوضاء وصوت ضحك . كنت دائما
أخشى الجيران المتعصبين للنظام ، لذلك قمت مسرعا وفتحت الباب .

فى البداية لم يكن سوى صمت ! بعد ذلك كان هناك " إيريك " و
هيدى " و " هيلين " و " ألكساندر " و " ريتشارد " ... كلهم فى معاطف
عسكرية قديمة ، يقفون فى وضع " إنتباه " .

تجاهلونى كلهم ... تماما ! نظروا من فوقى ودخلوا منتظمين بخطوة الأوزة . وبعد أن أصبحوا داخل الشقة خلعوا معاطفهم وارتموا على الأرض ... وضحكنا كلنا !

كانت الغرفة واسعة ومرتبّة ، الضوء الرمادى القادم من النوافذ كان قد اختفى تقرّيبا . كان على الطاولة بعض النسخ من مجلة الحزب الشيوعى الإيطالى الأسبوعية ريناسكيتا مكدسة بجوار تمثال نصفى لـ " لينين " وبجوارها " ساموقار " روسى قديم وكان الآن يغلى بالشاى . وبمجرد أن صبوا الشاى فى الأكواب الزجاجية وقدموه للجميع أطلق " جيرهارد " نداء " انتباه ! "

سيطرت على الاجتماع جدية جماعية . أعتقد أنك تعرف هذا الشعور يا " كارل " ربما يحدث ذلك فى حالتك ، عندما يخاطبكم قائدكم فى مناسبة هامة ! أما بالنسبة لنا فقد كان ذلك نتيجة الاعتقاد بأننا سنغير جمهورية ألمانيا الديمقراطية ... والعالم ! كنا جميعا أعضاء فى الجناح الشبابى للحزب الحاكم ، وكنا نعرف أن هذا التجمع الصغير غير قانونى ! وأنه لو أكتشف ، فسوف يكون نصيبنا جميعا الطرد من الرابطة ... ومن الجامعة والنفى الداخلى أو إرسالنا للعمل فى المصانع . كان كل واحد من الموجودين يعرف أن مستقبلنا يمكن أن يتحطم وأن حياتنا يمكن أن تدمر ! كل واحد كان يعرف المخاطر ، ... ورغم كل شئ ، كنا مستعدين لإلقاء أنفسنا فى دوامة التاريخ ! كنا نريد أن نصلح شيوعية ألمانيا الديمقراطية وأن نعيد بناءها ، شيوعية معادية لأنواقنا وآمالنا وطموحاتنا ، وأن نحل محلها شيوعية إنسانية .

سحق الدبابات الروسية للتمرد المجرى قوى فينا الشعور بأن النظام لن يستطيع الاستمرار بالأسلوب القديم نفسه أكثر من ذلك . ولكن الناس لم

يتخلوا تماما عن الإحساس بالخوف ، ولا كانوا واثقين بالكلية أنهم على الطريق الصحيح . كانوا واثقين من شئ واحد فقط .. وهو أنهم لن يمكنهم البقاء صامتين وسليبين أمام الجرائم التي يتم ارتكابها باسمهم . لم يعد كافيا أن يغطوا آذانهم ويدندنون بصوت رتيب مثل الأطفال ، كى لا يسمعوا أكاذيب النظام .

ثم جاء صوت جيرهارد المرتجف إلى حد ما : أيها الرفاق ، مازال عددنا قليل ، ولكنه ، لا شك ، سوف يزيد . نحن مربوطون بمقود طوال حياتنا . " فلادى " كان محظوظا لأنه ، على خلافنا جميعا ، لم يولد فى ألمانيا النازية . نحن نعيش قرنا حزينا . الأحداث فى " موسكو " و " بودابست " تجعل الصمت مستحيلا . لابد أن نجعل أصواتنا مسموعة ، أن نقيم صلة برفاق لهم نفس الأفكار فى أماكن أخرى من ألمانيا الديمقراطية وأن نعمل من أجل يوم تصبح فيه ألمانيا الديمقراطية ، ديمقراطية بالفعل .

لقد شيد البيروقراطيون الذين يتلفون أرواحنا هرما من الأكاذيب والنفاق ، ولو لم نحطم عالمهم ، فلسوف تاتى قوى جديدة أكثر شرا وفسادا . "

واستمر حديث من هذا النوع قرابة أربع ساعات ، لم يتخلله سوى فترات راحة قصيرة لتناول البيرة والخبز والجبن ولحم الخنزير .. كان كل منا يتكلم بمرارة مازجا معرفته الشخصية بالمأساة بتجربة العالم الجمعية .

فى هذه الليلة لم يتكلم أحد بحماس زائد ولا بعاطفة مفرطة تقريبا . لم يكن هناك رعد أو برق . كنا نحث بعضنا الآخر على البوح بهدوء وبون تسرع مع إعطاء أنفسنا مهلة للتفكير والتأمل . كان رفضا واعيا للديماغوجية التي ميزت الفترة النازية التي شب فيها كل منهم . فقد كانت

النازية أسلوب حياة خبروه كلهم على نحو مباشر . الأحاديث الإذاعية التي لا تنتهى ، التواجد الإجبارى فى المؤتمرات النازية صارمة التنظيم ، الكراهية العمياء لأعداء الرايخ داخل وخارج ألمانيا .

كيف أكتب ذلك كله دون أن أزعجك يا " كارل " ؟ . هل تتذكر صديقى الإسرائيلى « چولوتز » ؟ كان جل ما يخشاه هو أن يتذكر والديه وهما يستدعيان ذكريات المدينة البولندية التي غادراها سنة ١٩٣٦ ، الآن لا يوجد هناك يهود ! و " چو " لم يكن يريد أن يعرف . ولكنك سوف تعيش فى ألمانيا يا " كارل " ، وهذا هو سبب إعتقادى بأنك تريد أن تعرف ، أم تراه لأننى أريدك أن تعرف ؟

بعد منتصف الليل كنا قد استنفذنا كل الكلمات . وكان وقت اتخاذ القرارات . هل نكون منظمة للعمل السرى ؟ هل لدينا الموارد المادية والمعنوية لتوزيع جريدة سرية ؟ أم تراه من الأحكم أن نقصر أنفسنا على إعداد وتوزيع ما نيفستو ، ودعوة جيل حائر خائف لحمل السلاح ؟ كان " هيلين كوشنر " هو الذى جعلنا نركز تفكيرنا على العالم خارج حدود شقة جدتك .

" اليوم ألقى القبض على والتر چانكا "

ظهرت الصدمة على كل الوجوه . كان " چانكا " ... واحدا من أبرز الناشرين المحترمين فى ألمانيا الديمقراطية . عرف سجون النازية فى شبابه . النازيون ضربوا شقيقة " ألبرت " حتى الموت ، وكان " ألبرت " عضوا شيوعيا فى الرايخستاع السابق ، هرب إلى " براغ " وذهب إلى إسبانيا ليحارب فى صفوف لواء " ثايلمان " وبعد تلك الهزيمة هرب إلى المكسيك مع " أنا سيفرز " ، وهناك أسس جريدة شيوعية . كان ماضيه معروفا بشكل جيد . وكان واحدا من النخبة المثقفة فى ألمانيا الديمقراطية .

قاوم محاولات " أولبرشت " أن يجعله يتماشى مع الأفكار السائدة ،
وكانت دار النشر التى أنشأها واحة للعقول الناقدة .

فكرة أن يكون " چانكا ... فى أحد سجون ألمانيا الديمقراطية ،
أشعلتنا كلنا بالغضب .

سألته بصوت مخنوق : " وكيف عرفت ؟ "

" أمى كانت مع " أنا سيفرز " هذا المساء " والتر " هو ناشر أعمال
" أنا " ، وقد جاءتها رسالة تحذير تليفونية مجهولة " كان " جيرهارد "
يفكر حائراً بصوت عال : " ولماذا " چانكا " ؟ من الصعب أن تجد
شيوعيا أكثر إخلاصا منه فى " برلين " كلها " أجابت " هيلين " " لأنه
نشر لـ : " لوكاتش " ، ولأن " لوكاتش " لم يكتف بتأييد تمرد
بودابست الكلام فقط ، بل أصبح وزيرا فى حكومة " ناجى " . هذا يتبعه
أن الرفيق لوكاتش لابد أن يعتبر خائنا ومرتدا . المنطق الأولبرشتى
يدين ناشره ! " والشاعر الذى كان يمكن أن يقلب هذا المنطق المعوج
رأسا على عقب قد مات . لماذا يموت " برخت " ويبقى " أولبرشت " على
قيد الحياة ؟ " لوكاتش " تكلم فى جنازته . لماذا لا يخرجون جثة "
برخت " ويحاكمونها ؟ "

الفكرة أبهجتنا كلنا ، قمنا .. أنا و " ريتشارد " و " ألكساندر "
وأخذنا وضع الشرطة السرية .

فلادى : أيها الرفيق " برخت " ، لدينا أوامر باقتيادك إلى
السجن !

جيرهارد : أنا ميت !

ريتشارد كلهم يقولون ذلك ... خنوه !

يقومون : برفع جسم " جيرهارد " ويضعونه " ، على
الأريكة)

قلادى : والآن ... انظر يا " برخت " ، تعرف أنك ميت
ونحن نعرف أنك ميت . ولكن الدولة أمرت
. بالقبض عليك .

جيرهارد : هذا متأخر قليلا ... أليس كذلك ؟

قلادى : الوقت لا يتأخر هنا أبد !

جيرهارد : ولماذا تلقون القبض على جثتى ؟

ريتشارد : اسأل زوجتك !

هيلجا : يقولون إن " لو كاتش " تكلم فى جنازتك

يا " بيرتى " و " لوكاتش " خائن كما هو معروف
لنا جميعا ..

جيرهارد : أعرف أنه ألف كتابا بعنوان " تخريب العقل " ،
بين فيه كيف حرضت أساليب التفكير اللاعقلانية
على ظهور الفاشية والرجعية . لم يفهم " أولبرشت "
الحجة ... ولكن ...

" كفى تهريجا ! كفى ! أرجوكم ... ! "

شئ ما فى صوت " هيلجا " جعلهم يتوقفون . نظروا إليها كلهم .

" لقد أخبرتكم بالقبض على " چانكا " لكى تفهموا ما نواجهه !

ولكنكم بدل ذلك بدأتُم التمثيل .. ألا تقدرون المخاطرة التى نقوم

بها ؟ "

" لا أحد هنا أسير ادعاء زائف ، نحن نتكلم منذ أسابيع . لابد أن نفعل شيئاً . إن كنت قد غيرت رأيك يا " هيلين " فنحن نتفهم ذلك .. بإمكانك أن تذهبي " .

ولكن " هيلين " ردت عليه بسرعة : " لاتكن غيباً يا " جيرهارد " ، أنا أريد أن أناقش ما يجب علينا أن نقوم به . وحيث إن أحدا منكم لم يأت باقتراح محدد ، فهل لى أن اقترح عليكم مشروع " ما نيفستو " مختصر ؟ شئ يمكن أن يقرأه ويفهمه أى واحد . أقترح أن يقوم " فلادى " بإعداد مسودة وأن نلتقى الأسبوع القادم لمناقشة وإقراره . اتفقنا ؟ الجميع هزوا رؤوسهم بالموافقة .

قالت " هيلين " : " ممتاز ! و الآن يمكن أن ننصرف جميعاً " قالت " هيلجا " : دقيقة واحدة من فضلكم .. الأسبوع القادم ستكون ليلة رأس السنة . بعضنا أقنع " فلادى " بترتيب سهرة . لماذا لا نلتقى فى اليوم نفسه ... فى الصباح ونناقش " المانيفستو " وتبقون جميعاً للمشاركة فى الإعداد للسهرة ... اتفقنا ؟ " نعم " متموا دون حماس .

وبعد أن انصرف رفاقى المتآمرون فى تلك الليلة ، بقيت وقتاً طويلاً جالسا إلى مكتبى ، وجهى بين راحتى أحدق فى الورقة البيضاء المثبتة على الآلة الكاتبة . وفى الغرفة المجاورة كانت " هيلجا " غارقة فى النوم . قلت لنفسى : " لقد بدأنا مهمة طويلة .. وخطرة .. إن لم يسحقنا الزعماء المحليون فإن " موسكو " ستقوم بذلك ، وحينئذ ... ؟

وبدأت أصابعى تتحرك ببطء وتشكل عنوانا على الورقة البيضاء .

مانيفستو ميلاد جمهورية ألمانيا ديمقراطية حقيقية .

إن عقدا من الحكم الشمولى والنظام الحديدى قد سلب شعبنا قدرته على التعبير وتنظيم نفسه . وعندما يحدث ذلك ، إلى جانب مافعلته الفاشية الألمانية بأممتنا ، فلا بد أن تكون النتائج مأساوية إن هذه الأمة تصبو إلى أن تقرر مصيرها بعيدا عن كل قوى البيروقراطية الخائفة ويد الرأسمالية الميتة ، التى تحكم الجزء الغربى من بلادنا .

بعد نهاية الحرب ، كان مواطنو ألمانيا الديمقراطية تحذوهم الآمال فى الحرية والمساواة والأخوة الدولية ، ولكن ذلك كله اصطدم منذ البداية بالأهداف البيروقراطية لموسكو وللرجال الذين أرسلتهم لإدارة هذه الدولة . لقد أكتشف العمال حينذاك أن من يدعون بالفتاحين الاشتراكيين كانوا مجرد كذبة ، فى عام ١٩٥٣ طالبنا بالتعددية الحزبية وبحقوق اتحادات العمال ، وبحرية الصحافة ، ولكن اشتراكية جمهورية ألمانيا الديمقراطية لم تستطيع أن توفر لمواطنيها الحقوق التى ينعم بها جميع مواطنى ألمانيا الغربية بشكل تلقائى والحقوق التى أعلنت " روزا لكسمبرج " أنها ضرورية لأى نظام يدعى أنه اشتراكى . انتفاضة العمال تم سحقها . الناس أصبحوا مروعين ومتجهمين .

اللامبالاة سائدة . وكان هذا الفشل هو الذى جعل خطاب مروجينا ضربا من الهذر ...

عندما انتهيت من المسودة الأولى للما نفيسستو كانت الساعة الثالثة صباحا تقريبا ، وكان البرد الشديد فى الخارج قد اخترق الشقة .

وأثناء العمل لم أكن أشعر كيف أصبح جسمى باردا . كنت أرتجف وأنا أخلع ثيابى لآندس فى الفراش . أما " هيلجا " فكانت تنام نوما عميقا وتتنفس بانتظام . الحرارة المشعة من جسدها لايمكن مقاومتها . إنها حبيبتي ورفيقتي وصديقتي . كنت أفكر . وهى وفية وحنونة . ويمكن

الاعتماد عليها . أخبرها بكل الأشياء التى لم أعترف بها لأى شخص آخر . ربما كانت أمى تعرف ذلك بالغريزة ولذلك لا تحبها " جيرترود " الغبية . احتصنتها . نائمة ما تزال ولكنها استدارت واحتصنتنى . وفى دقائق قليلة غزانى دفئها . وقبل أن أعود للتفكير فى أحداث اليوم غلبنى النوم .

بعد أسبوع ، صباح يوم ليلة رأس السنة الجديدة ، وافق الاجتماع على المانفيسـتو . وانتهينا من ترتيبات نسخة . وأعدنا قائمة بأسماء المتعاطفين الذين سيرسل إليهم فى كل المدن الرئيسية وبالطبع ليس عن طريق البريد .

كنا على مدى أشهر ... فى نقاش لا يتوقف . كانت ثرثرتنا تبدو لنا أحيانا كأنها جلبة لا معنى لها . العمال ، الديمقراطية ، الحرية ، البيروقراطية ، الدكتاتورية ، الانتلجنسيا ... كلمات ... كلمات ...! الآن قررنا أن نستخدمها لكى نفعل شيئا ، لنتحرك إلى الأمام ، لنواجه التاريخ لنكشف عن السماء الزرقاء الصافية تحت السحب الرصاصية .

بدأ الناس يتوافدون مبكرين ، وفى الساعة العاشرة كانت الشقة قد امتلأت أجساد صغيرة منتشرة فى كل مكان . أرواح شابة يساعدها مخزون " جيرترود " من القودكا الروسية ، كلهم نشطون وسعداء . وفى حجرة الجلوس كان شاب يقف على طاولة يقلد " أولبرشت " ومشاهدوه يضحكون دون أى أثر للتوتر عليهم . ابتسامة رضا على وجهى وأنا أهمس فى أذن " جيرهارد " .

" فى العام الماضى ما كانوا ليـجرؤون . إنها روح المؤتمر العشرين للحزب ! " . كان " جيرهارد " يدخل الغليون ويحاول أن يأخذ سمـت الوقار ، هز رأسه مصدقا على كلماتى .

" البشائر مشجعة بالنسبة لمحاولاتنا "

وفى المطبخ، حيث كان الضيوف يصبون النبيذ المداقى لأنفسهم ،
كانت امرأة فى أواخر العقد الرابع فى قمة تألقها وتدفقها! "

" أنتم تعتقدون أننى أصنع فنى فى مكانة أعلى مما يستحق .
لأوافق على ذلك . إن وظيفتى الوحيدة هى أن أكتسب ثقة قرائى بأن
أحكى لهم أحلامى ، وليس أحلامكم أو أحلام ألمانيا الديمقراطية ولا
أحلام ذلك الماعز الذى يحكمنا ! إن الفن الجماعى الذى تسيطر عليه
الدولة ليس له أية قيمة فنية .

للأدب قيمة جوهرية فى ذاته ، مستقلا عن أى شئ آخر " رفيقها نو
الشعر الأبيض ، الذى يكبرها بعقد أو أكثر قليلا ، كان يضحك لما تقول
" خطأ آخر يا عزيزتى ! ما تقولينه ينطق على الروائع ، على الأعمال
الاستثنائية . أما بالنسبة للباقي فالفن منتج مثل أى شئ آخر . سلعة
من إنتاج العقل البشرى بغرض الاستهلاك السريع وهى سلعة ناضبة .
نفاية الواقعية الاشتراكية ليست أفضل ولا أسوأ من نفاية الرأسمالية
عندما اكتشفت أن الجمهور الذى كنت أكتب له لم يعد موجودا توقفت
عن الكتابة . "

ردت عليه صديقه : " كنت مملوءا بالتفاهات إذن ... وأنت مملوء بها
الآن ! "

الصخب المنبعث من الغرفة المجاورة قطع ذلك الحوار الحاد منبها
جميع الموجودين إلى أن منتصف الليل سيحل بعد دقيقتين . وبينما
كانت الأجراس فى الراديو تدق إعلانا بقدوم العام الجديد ، انفجر الكل
فى الغناء . ثم طلب " جيرهارد " السكوت !

" أيها الرفاق ، فلنشرب نخب برتولد برخت ! "

" فى صحة برتولد برخت ! "

" فى صحة الحرية ! " ، قال آخر .

" فى صحة الحرية ! " ، ردد الجميع وراءه !

وقبل أن تدق الساعة الثانية بقليل أعلنت أنا و " هيلجا " خطوبتنا قلت لهم " أيها الرفاق ، لماذا الالتزام بشئ واحد إن كان من الممكن الالتزام بشيئين ؟ "

وتوالى الضحك وتوالى تبادل الأنخاب ، ولكننى فى الصباح كنت قد نسيت كل شئ عندما عادت " جيرترود " . أخبرتها بكل شئ . بدأت تناديني بـ " فلاديمير " ... علامة أكيدة على أنها كانت غاضبة . " لست مشعوذة وحيدة يا " فلاديمير ... " أنا أمك . وقد تأخرت نصف ساعة بالفعل عن إجتماعى . ومن المؤكد أنك قد أهنتنى بما فيه الكفاية ... ولمدة يوم كامل . ألا يمكن أن نكمل غدا صباحا أثناء الإفطار ؟ "

وقبل أن أرد كانت قد خرجت من الغرفة وغادرت الشقة . كان هدفى هو استثارة رد فعل غاضب تظهر أثناءه بعض الحقائق الخافية ... ولكن أملى لم يتحقق !

مرت أسابيع وهى مستمرة فى عبوسها . أصبحت علاقتنا باردة برود الجليد منذ أن قدمت إليها زوجة ابن لاترضى عنها .

" ليس خطأ " هيلجا " أن تكون ابنة قس لوثرى . أبوك كان برجوازيا . وبقي حبك له "

" أبى اختفى فى بلسن "

" كان من الأفضل إذا لو أن أباهما كان قد مات ؟ "

" لماذا كان لابد أن تتزوجها ؟ "

" كان من الضرورى ... "

" لماذا ؟ هل هي حامل ؟ "

" وهل تعتقدين أن ذلك كان يمكن أن يكون سببا كافيا ؟ "

: " وهل هي ؟ "

" لا ! "

" حسن ! "

محاولات " هيلجا " لتطبيع العلاقات بينهما فشلت هي الأخرى . لم تكن " جيرترود " وقحة أبدا . ولكنها كانت مصممة على الاحتفاظ بدرجة مؤلفة من التعامل الرسمي . وبعد عودتها بأيام قليلة أعلنت بكل وضوح أن الشقة شقتها وأنها هي - وليست هيلجا - المسئولة عن كل شيء !

ورغم كل هذا الجدل إلا أنني كنت حتى الآن أرى " جيرترود " جميلة وحساسة وذكية ... مع كل انفجاراتها المزاجية .

بدأت أرى فيها جانبا كان مفاجأة لى . ذات يوم بعد الظهر ، انتهزت فرصة غياب " هيلجا " وطلبت من " جيرترود " أن تتكلم معى بصداقة عن بعض الأمور . نظرت إلى كأننى شخص غريب عنها ورفضت أن تجيب .

لماذا كانت هكذا ؟ استطعت أن أدرك أنها كأم يهودية جيدة ، كانت تكره أن تتدخل امرأة أخرى فى حياتى ، وترفض ذلك . أو ربما لأننى فعلت ذلك من وراء ظهرها . وربما كانت فكرة أن يشاركها شقتها اثنان فى سن الشباب ، موجودان بصفة دائمة فى غرفة النوم الصغيرة بجوار غرفتها ، تجعلها ثائرة ومتوترة .

وربما كانت همساتنا الليلية النشطة وعواطفنا المشبوبة تشعرها
بالغربة فى بيتها . قد يكون ذلك طبيعيا ، ولكن هل كان هو كل شئ ؟
أم ترى كانت هناك أسباب أخرى دفيئة ؟ شئ له علاقة بماضيها ، شئ
يخيفها ؟

لا يمكن أن تكون مسألة طموح . لم يكن لديها أية خطة تتعلق بعملى ،
وكان آخر شئ تريدنى أن أسلكه هو أن أتبع خطوات أبى .

كنت أنا كل ما يصلها بـماض كله حرمان وخسران ! جعلها غير
سعيدة ولكنه - أيضا جعلها صلبة ! ربما كانت نادمة على الثمن الذى
دفعته مقابل إصدارها ولكنها كانت تمتلك ذلك الإصدار وكانت
تستخدمه . جعلت أيامى صعبة بسبب " هيلجا " . أحيانا كانت
مناقشاتنا أقرب إلى الاستجواب ! هـدوؤها كان سلاحا .. كان درعا
لجسمها . كنت أحرق خلصة فى تلك العيون الرمادية الفاتحة وأتساءل
ماذا ترى ؟

وعندما بقيت " جيرترود " عنيدة ، رافضة تماما أن تشاركنى
الحديث ، حررت نفسى من عبء كل ماكنت أكتمه داخل طيلة الأسابيع
الستة الأخيرة . دافعت عن حبى لـ " هيلجا " . لم ترنى " جيرترود "
أبدا على هذه الدرجة من الرقة والحنان . وقد دعم ذلك تحيزها من "
هيلجا " . براءة ابنها انتزعت منه ، بيد تلك الشقراء المغوية . قالت
شيئا كهذا وردت عليها بالمثل .

" لقد فقدت طهرى يا أمى عندما كنت فى السابعة عشرة تقريبا ،
مع صديقة لك ، رفيقة مخلصمة كانت تقيم معنا ... هل تتذكرين ؟ "
" أنت كذاب ... أيها النفل ! "

لقد استطعت أخيرا أن أترك أثرا عليها . أصبحت أكثر هدوءا لأننى
كنت سعيدا بنفسى .

" حيث إنك أثرت مسألة شرعيتي يا أمى ، هل يمكن أن تحكى المزيد عن ذلك ؟ ماذا كانت حقيقة علاقتك بـ " لودفيك " ؟ "

" قلت لك مليون مرة إنه مات ! "

" ومن الذي قتله ؟ "

" لماذا تنظر إلى هكذا ؟ "

" من قتله ؟ "

" بيدزوف ! كان رئيسا لـ " إن - كى - فى - دى " * "

فى سنة ١٩٣٧ "

" نلعب على بعضنا مرة أخرى ! ستالين هو الذى قتله ... "

لكن من الذى ضغط الزناد ؟ "

" لا أعرف ! "

" لا بد أن شخصا ما فى موسكو يعرف . ألم تحاولي أبدا "

أن تعرفي ؟ "

" الذين يعرفون ماتوا أيضا ! "

" النظام كله مات يا أمى . ماكشفه " خروشوف ... "

" بعضنا لم يكن فى حاجة إلى حديث " خروشوف " يا "

قلاديمير " ، كنا نعرف . "

" بالطبع ! كنتم تعرفون ومع ذلك واصلتم ، ما كان شئ "

يهم سوى إنقاذ أنفسكم ! "

* اسم جهاز الاستخبارات من ١٩٢٤ - ١٩٤٣ والذى أصبح الـ " ك . ج . ب " من ١٩٥٤

" هل نسيت احتفالات يوم النصر فى سنة ١٩٤٥ ؟ الاستعراض الكبير فى " موسكو " ، وكيف كنت أنت و أصدقائك تهتفون للجيش الأحمر ؟ كنتم تصفقون بأيديكم مثل الآلات . وعندما كانوا يلقون بالأعلام النازية المأسورة أسفل ضريح " لينين " بدأ الكل يبكى . لقد هزمت الفاشية ، رغم أنه لكى يتحقق ذلك ، كان على كثير من الشيوعيين أمثالى أن يعقدوا حلفا مع الشيطان . لماذا تعتقد كان بكاؤنا فى ذلك اليوم يا " فلاديمير " ؟ "

كنت رغما عنى متأثرا بذكرى ذلك اليوم فى " موسكو " .

" حزنا على رفاقنا الذين ماتوا "

بالطبع .. نعم ! لكن لإحساسنا بالارتياح لأن الاتحاد السوفيتىبقى . ربما لم يكن جلدى يستحق البقاء ، ولكن الاتحاد السوفيتى كان لابد أن يبقى ، إن كان لابد من سحق " هتلر " ! ما كان أحد ليعرف ما كان يمكن أن يحدث لولا الجيش الأحمر ! كانت أوروبا كلها ستسقط بالتأكيد ! "

تمنيت لو أن " هيلجا " كانت حاضرة لتشهد تلك المشادة . وجدت أنه كان من الصعب أن أقنع أمك بأن أمى كانت مأجورة حزبية مكلومة ، باعت روحها لـ " ستالين " . ورغم ذلك كنت أتساءل ماذا كانت " هيلجا : ستقول أمام نقاش يعادل " ستالين " بالاتحاد السوفيتى . جدتك كانت تتميز بجرأة ووقاحة يا " كارل " أقصد أنها لو كانت تريد أن تدافع عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فكيف بحق الجحيم يمكن أن تترجم ذلك كله إلى تلقينى كيف أحب .. ومن أحب ؟ وإذا كانت كل الوسائل حيوية ومهمة بالنسبة لأهدافك ، فهل لديك تفويض مطلق ؟ هذا شئ غير مقبول .

كانت تذكرنى بـ "جيرد هينبخ" ، بروفيسور متسلق كان يقوم بتدريس الأدب الألماني فى "همبولت" ، عضو مخلص للحزب ومتخصص فى اغتصاب النساء ! تقدمت مرة سيدة شابة بشكوى ضده للسلطات ، ووصفت أسلوبه وصفا تفصيليا ... " تعالى إلى مكتبى بعد المحاضرات ، حيث أقوم بقراءة " جوته " كما ينبغى أن يقرأ " وعندما فعلت طلب منها أن تسلم على قضيبه ! ركلته بعنف وجرت . ! كان والد الفتاة يشغل منصبا كبيرا فى الإستخبارات العسكرية وتم إجراء تحقيق ، وتلقى " هينبخ " إنذارا .

هل تتخيل ماذا قال لزملائه يا " كارل " ؟ بصوت هادئ يدعى الودع الكاذب قال لهم : " لا بد أن تعذرونى يارفاق . أصولى ونشأتى الريفية مختلفة عنكم . لقد نشأت فى أسرة بروليتارية فى " ودينج " ، كان والداى شيوعيين يعملان تحت الارض أثناء الفترة النازية . كلاهما مات فى " راقينز بروك " خبائى عامل معدن وأسرته كان من عادتنا أن نشرب ونتكلم بألفاظ بذيئة ونزنى أثناء الحرب ولكننا بقينا على قيد الحياة . أرجوكم ... اغفروا لى عدم لياقتى الاجتماعية . ربما لوكنت قد ذهبت إلى " موسكو " أو لوس انجلوس " أو جنيف " كان يمكن أن يكون سلوكى أكثر تهذيبا ورقيا ! ولكن هنا فى " برلين " ، تحت حكم " هتلر " .. عشنا حياة لاتعرف التهذيب " ورفض أن يجيب عن أسئلة المحقق وترك الغرفة ! لم يتغير أبدا . أكره هذا النوع من الديماغوجية وأحتقر أمثاله .

كانت " جيرترود " هى التى حكّت لى هذه القصة ، ولكن تفكيرها لم يكن يختلف عن تفكير " هينبخ " .

وفى ذلك العام ، وقعت فى شرك شجار عنيف فى الجامعة مع " جيرد هينبخ " حاولت أن أقنعه بأن يستخدم نفوذه نيابة عن " إيفا سيكرت " ، وكانت محاضرة لامعة وقعت ضحية لحملة من المضايقات منظمة من الحزب ونتج عنها إزاحتها من منصبها . كانت " سيكرت " متهمة بأنها من أتباع " لوكاتش " و " تجميل روايات الرواى الإنجليزى الرجعى (هكذا !) " سير والتر سكوت " ، وهى تهمة لم تحاول حتى أن تنكرها ! ووقع ستون طالبا ، كنت أحدهم ، بيان احتجاج . قال لى " هينبخ " وعلى وجهه ابتسامة متفضلة : " ربما كان ذلك يلائمك يا مايور " .. ولكن ليس بالنسبة لى .. عملى كبروفيسور للأدب الألمانى هو أن أعلمكم جميعا ، أساعدكم على اكتساب الفهم النقدى للغتنا وأدبنا . ولهذا السبب تحديدا يجب أن نبعد السياسة عن الجامعة "

" ولكن الدولة قد أدخلت السياسة يابروفيسور " هينبخ " بتحويل بعض المفكرين إلى شبه شياطين ويطرد إيفا سيكرت ! " ابتسم " هينبخ " وهو يهز رأسه غير مصدق سذاجة الطالب الذى يقف أمامه .

سألته رافضا أن أستسلم : " لو أن منزلا أمسكت به النار ، أعتقد أنك ستساعد فى عملية الإطفاء "

" أبدا يا عزيزى " مايور " ... سوف أجرى نحو أقرب تليفون لاستدعاء الإطفائية .. أنا بروفيسور وليس رجل إطفاء ! " بدأت أصرخ : أنت حقير يا " هينبخ " ! خنزير ! عديم المروعة ! أمثالك فعلا عرفوا كيف يعيشون بأنفسهم ينجون تحت حكم النازية أليس كذلك يا " هر بروفيسور " ؟ "

ظل هادئا ، رغم امتلاء عينيه بالكراهية !

" أخرج من مكتبى يا " مايور " ! "

وبينما أنا خارج أضاف فكرة طرأت له " وبالمناسبة ... ليس هناك ما يدعو لمثل هذا التهور يا " مايور " فأنا لم أنم مع زوجتك ! "

عندما عادت جيروتروود إلى المنزل فيما بعد ، فوجئت بأن وجدتني حليق الذقن تماما - ففي نوبة استياء من لاشئ .. وكل شئ أزلت لحيتي - ولكنها كانت حائرة وقلقة لمظهرى .

" ماذا ؟ ما هي المشكلة يا أمى ؟ "

" قلادى ! هل هناك شئ لم تخبرنى به ؟ "

فزع ! حتى فى ليلة رأس السنة المشئومة تلك ، لم يكن لدى أى أسرار سياسية خافية على " جيرتروود " . النزاع حول زواجى المدبر بسرعة كان فى جزء منه محاولة شبة واعية لإخفاء حقيقة أننى و " هيلجا " كنا متورطين فى نشاط سياسى سرى . أكثر من مرة ، كنت على وشك أن أقول لها كل شئ ، ولكن شيئا ما كان يمنعنى . ثم أن الشجار بسبب " هيلجا " أقنعنى أنها كانت مجرد حيزبون ستالينية كئيبة ، وكنت سعيدا لأننى لم أكشف سرنا

" قلادى ؟ "

" ماذا يمكن أن أكون قد أخفيت عنك ؟ "

" اسمع يا قلادى ! هذه ليست أمورا للمزاح . يمكن أن تدخل السجن أو أن تموت ! الآن ... قل لى كل شئ ! " " ما حجم ما تعرفين .. ؟ وكيف ؟ "

" انسى كيف ! فهو لا يخصك . ما أعرفه هو أنك وآخرون قد وزعتم ما نيفستو يدعو لإسقاط جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

" ليس صحيحا يا أمى ! لقد دعونا إلى تحول ديمقراطى فى ألمانيا الديمقراطية وإنها نظام الحزب الواحد ، وذلك شئ بعيد عن أن يكون

دعوة لإسقاط جمهورية ألمانيا الديمقراطية . إنها الوسيلة الوحيدة
لتدعيم وتقوية الجمهورية ، وقد أدرك العمل أنفسهم ذلك سنة ١٩٣٥

" هل نسختم المانيفستو ؟ "

" نعم ! "

" كل كلمة ؟ "

" كل كلمة ! "

" دعنى أقرأه ! "

وهكذا وقعت فى الفخ ! لم يكن أمامى سوى أن أعطيها نسخة منه .
بعد ذلك كانت تقول إن جزءا منها كان فخورا بى ! أعاد الحدث
ذكريات عن " لودفيك " وبلاغته ، وعن حوارات لو أنها كانت قد نقلت
لأدت إلى سجنهم فى الحال ... وربما الموت فى معتقلات سبيريا !

تلك كانت أسوأ الأوقات ، ومع ذلك فإن بعض الشيوعيين المناضلين
خاطروا بحياتهم وشجبوا " ستالين " وأدانوه . ماذا كان يمكن أن
يصنع " لودفيك " بابتها ؟

أعطيها المانيفستو ، وكنت أحوم حول مقعدها وهى تصنع نظارتها
الطبية على عينيها .

" أجلس يا فلادى " .. لا ! من الأفضل أن تترك الغرفة حتى أنتهى
من قراءته لست فى العاشرة الآن ، لكى تنتظر معرفة رأى فى حل
فروضك المدرسية ! "

كنت مطمئنا لأنها هدأت . ابتسمت لنفسى وانصرفت . لمحتنى وأنا
أبتسم وضايقها ذلك .

وضعت " المانيفستو " على الطاولة وحملت في صورتي أنا و
" هيلجا " على المدفأة . " أتمنى أن أتحدث معها . لأقول لها إنني أحبك
جداً ولا يمكنني ألا أكون غيورة ... ولكي أشجعها على أن تمنحني
حفيداً ! " لم أصدق أذننى السلام أخيراً ! حربنا الأهلية الصغيرة انتهت
. لم تستطع أن تخفى إعجابها أثناء قراءتها للمانيفستو .

وبعد ذلك ، أخبرت " هيلجا " فى الليلة نفسها أنها كانت معجبة
برؤيتى السياسية وعباراتى القاطعة . كان هناك وضوح فى التفكير ،
وعنوية ... تراها منعشة . قالت لنا إن أفكاراً مائة كانت تدور همساً
فى موسكو حيث كان أعضاء الحزب قد بدأوا يتخلون عن خوفهم .

كانت " جيرترود " قد أدركت عددا قليلا من الذين نجوا من
العشرينيات ، كانت تعرف رجلين وأمرأة من دائرة " لودفيك " لم
يكتشفوا لأنهم كانوا قد تركوا الشعبة الرابعة وعملوا بالتدريس لعدة
سنوات قبل الرعب . كانوا ، على نحو لافت للنظر ، مازالوا على قيد
الحياة ، ويسعدهم أن يروا " جيرترود " قضوا مساء كاملا وهم
يتكلمون عن " لودفيك " والآخرين الذين تبدأ أسماؤهم بحرف
" اللام " .

كان المدرسان جزءا من لجنة " قدامى البلشفيك " التى كانت تضم
أرملة " بوخارين " ، والذين قابلوا " خروشوف " وطلبوا منه إطلاق
سراح كل الذين سجنوا بالخطأ !

أعطاهم " خروشوف " كلمة ، ووعدهم أن يطلق سراح السجناء ،
قبل أن تغادر "موسكو" بيوم واحد ، كان بعض المفرج عنهم قد وصلوا
إلى العاصمة ، فى تلك الأيام يا " كارل " كان الإصطلاح المستخدم

بشكل عادى هو " إعادة التأهيل " كما لو كان السجناء مرضى تحسنت صحتهم أو مجموعة من الكراسى القديمة المخلعة التى تحتاج بعض الغراء والتنجيد لتعود صالحة للاستخدام . كان الشئ نفسه سوف يجرى عمله بالنسبة لبقية الكراسى ، لو لم يجدوهم زائدين عن الحاجة فى سنة ١٩٣٧

ولولا رحلتها إلى " موسكو : كانت " جيرترود " قد أصيبت بالشلل من شدة الخوف ، ولفعلت أى شئ لحماية ابنها . نعم ! أى شئ ! كانت الآن تعرف أن المسألة مسألة وقت .

ما تفعله " موسكو " اليوم سوف تقلده ألمانيا الديمقراطية حرفيا فى الغد . و " فلادى " قد ينتهى به الأمر عضوا فى المكتب السياسى . كان صوت عضو المكتب السياسى القادم يقص أحلامها .

" جيد ؟ "

نظرت إلى وابتسمت .

" ما رأيك يا أمى ؟ "

" أنا متفقة مع كل شئ تقريبا . إذا حذفت الإشارة إلى نظام متعدد الأحزاب يمكن أن أوقعه معكم ! "

" ولكن ذلك أساسى . كانت " روزا " محقة فى ذلك " ولينين " مخطئا .. ، على أية حال إذا كنت تقبلين بحق وجود الأقلية داخل الحزب ، فكيف تنكرين عليهم حقهم فى تكوين حزبهم المستقل ؟ أرايت يا أمى ؟ "

" أرى يا " قلادى " ، ولكننى لست موافقة "

" حسن ! لا مشكلة . المناظرة سوف تستمر ..

" ممتاز ! والآن .. خبرنى عن شئ .. كم عدد المتورطين منكم ؟ ومن الآخرون ؟

ترددت . لم أكن أريد أن أخبرها .

" قلادى "

" لا أستطيع أن أخون ثقتهم . لقد تعهدنا السرية .. ولكن من الذى أخبرك بخصوص المانيفستو ؟ "

" عضو رفيع المستوى فى الحزب . ومثلى ، كان إنطباعة جيدا .

ظن أنه عمل طلابى . بعض التحريات فى : " همبولت " أكدت أنك قد تكون مشتركا معهم . ليس هناك شئ محدد . فهمت ؟ ولكننى عرفت فى الحال أنك لابد أن تكون . هكذا ... إحساس ! من الآخرون ؟

" ولماذا تريد أن تعرفى ؟ "

" حتى أستطيع القيام ببعض التحريات . وماذا لو أن أحد زملائك المتأمرين كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات ؟

" خيال مفرط ! "

" ربما ! ولكنه ضرورى لنجاح مشروعكم . أرجوك ... كن واقعا بعض الشئ يا " قلادى " ! "

قمت وبدأت أتحرك جيئة وذهابا . رأتنى أضع يدي على رأسى وأرفعها عدة مرات ، وكان ذلك يضايقها دائما .. علامة أكيدة على توتر أعصابى .

لم أستطع أن أفهم سبب توترى ... من ستة أشهر فقط وثقت بها تماما ،
وقلت لها كل ماكانت تريد أن تعرف . وذهبت لأنام بقلب مطمئن . هذه
الثقة من ابن وحيد لأم وحيدة قد تساعدك على فهم أسباب توبيخى
لنفسى دائما ، لأننى شككت فى كلمتها لى أن " لودفيك " كان أبى !

وقبل أن أشرح أسباب رفضى سمعت صوت مفتاح يدور فى ثقب
الباب الخارجى . بدأ قلبى يدق بسرعة . لأجد أنها " هيلجا " عادت .
ستتوقف أسمى عن إزعاجى فى حضورها . لقد بخست " جيرترود " حقها .
عندما دخلت " هيلجا " الغرفة ، وقفت " جيرترود " ورحبت بأمك
بأدب ولياقة جعلتنا نصمت مشدوهين . تناولت معطف " هيلجا " وضعته
على الأريكة .

" أذهب واصنع لـ " هيلجا " كوباً من الشاي يا " فلادى " ..
ألا ترى أنها مرهقة ؟ "

اندفعت إلى المطبخ عاجزا عن النطق لشدة الدهشة .. فى غيابى
حدث تطور كبير . كانت " جيرترود " جالسة إلى جوار " هيلجا " ...
تقبل رأسها !

" اغفرى لأم عجوز سوء تصرفها ياعزيزتى ! " ، بدأت بصوت ناعم
... " هذا الولد هو الشئ الوحيد ذو القيمة الذى أتركه فى هذا العالم ،
ولم أكن أريد أن يشاركنى فيه أحد ، لو حتى فى مقابل سنوات قليلة
أخرى . الآن أرى أنكما تحبان بعضكما ... كثيرا .. فهلا عفوت عن
أم مفرطة فى الحماية وغفرت لها ضعفها الإنسانى ! هل نصبح
أصدقاء ؟ " " هيلجا " ذاهلة ... مصعوقة ! بضربة واحدة جردتها
" جيرترود " من كل أسلحتها . احتضنت " جيرترود " ، فتنهدت
السيدة العجوز وراحت تمسد شعر " هيلجا " بيدها .

كان ذلك هو المشهد الذى لا يصدق الذى وجدته أمامى عندما عدت من المطبخ بكوب الشاي ، وبالطبع كان تأثرى شديدا . أعتقدت أن مسلكى السياسى هو الذى ربح " جيرترود " .. بعد ذلك ، كنا نجلس أنا و " هيلجا " فى الليلة نفسها مع " جيرترود " نجتز ذكريات الماضى . ودون تفكير كثير قلنا لها كل ما كانت تريد أن تعرفه ، فكرت " جيرترود " فى بقية الأسماء وباركت المشروع .

وفى تلك الليلة ، شعرت أنا و " هيلجا " لأول مرة ... أننا كنا فى بيتنا !

وبينما كنت أقلب ذات يوم فى محتويات مكتب " جيرترود " ، وجدت مغلفا يضم مجموعة صور غير عادية لها . صور بالأبيض والأسود . فى واحدة منها كانت تقف على شاطئ منبسط خال ، ولكن الذى فاجأنى كان ماترديه من ملابس غريبة . تنورة وچاكت مناسب وبرنيطة قش كبيرة .. وكانت تضحك فى الصورة . كانت تبدو سعيدة بالفعل . وفى صورة أخرى كانت مع امرأة أخرى لا أعرفها . وفى الثالثة ، كانت تتأبط ذراع شاب حاد الملامح يرتدى نظارة طبية . يبدو شكلة مألوفاً لى إلى حد ما ... ربما أكون قد التقيته فى " موسكو " ذات يوم .

عندما رأت الصورة معى انتزعته منى غاضبة وتركت الغرفة . كنت كلما ذكرت لها أمر تلك الصورة ، وألح فى ذلك تتكتم الأمر وتغير الموضوع بأسلوب غير ودى .

كنت قد نسيت ذلك الحدث تماما ، عندما تطوعت هى مساء أحد الأيام وردت لى حكاية تلك الصور . فى سنوات وجودها الأولى فى " موسكو " كانت " جيرترود " قريبة جدا من " زينوفايف " ، على نحو خاص . قد تكون علاقة حب ، رغم أننى لا أملك دليلا على هذا التخمين . هزها بشدة خبر إعدامه سنة ١٩٣٦ ، وكان على " لودفيك " أن يستخدم كل قدرته على الإقناع ليمنعها من أن تنهى حياتها بيدها .

سألته ، إن كان لم يسمح لها بالانتحار ، فلماذا لا تشجب " ستالين " واستبداده وتقطع علاقتها بموسكو علنا ؟ لم يكن " لودفيك " غير متحمس لهذا الرجاء بالضبط ، ولكنه أقنعها بالانتظار ستة أشهر ... وبعدها يمكن أن يناقشا الأمر مرة أخرى . ثم أرسلها فى إجازة طويلة للاستجمام والاستشفاء على ساحل " نورفولك " فى إنجلترا ، حيث يمكن أن تكون بعيدة عن عيون موسكو المتلصصة !

لم يكن لديها أية فكرة عن المكان الذى ستذهب إليه ، ولا مع من ستقيم . وبمجرد وصولها إلى " لندن " ، جاء شخص ألماني إلى المحطة ، قدم لها بعض الطعام ثم أخذها بسيارته إلى محطة أخرى ، ومنها استقلت القطار إلى " نورويش " ولدهشتها ، كان الرجل الذى ينتظرها فى محطة " نورويش " هو " كريستوفر براون " .. حبيبها القديم أيام موسكو . ابتسم ... وصافحها . ثم أخذها بالسيارة إلى منزل أسرة " براون " الواسع الجميل فى قلب " ويلز " .. تلك المدينة الساحلية الهادئة . كانت ثلاثة أسابيع رائعة . كنت عندما استمع لحديثها أود أن أذهب إلى هناك لمجرد رؤية المنزل والشاطئ ، وحتى الآن لم أتمكن من القيام بهذه الرحلة ، ربما تتمكن أنت ذات يوم !

كان " براون " متزوجا من " أولجا " ، وهى لاجئة سياسية روسية ، وكان كلاهما يعمل لحساب " لودفيك " " أولجا " ابنة عم دوق روسى كبير كان ابن شقيقة القيصر . فى سنة ١٩١٧ كانت أسرتها قد أخذتها بعيدا عن موسكو على غير رغبتها ، ولكن ليس قبل أن تترك مجوهراتها وخطابا فى مغلف بنى سميك كتبت عليه " إلى " لينين " واللجنة المركزية للبلشفيك . "

كانت مع الثورة منذ البداية . لو بقيت وانضمت لـ " البلشفيك " فلربما كان " ستالين " قد قتلها مثل الآخرين .

وفى بريطانيا ، عملت بنصيحة " لودفيك " ولم تكشف حقيقتها أبداً في العلن . ماتت مؤخراً ، في سنة ١٩٨٢ بعد أن عمرت طويلاً . وبعد موت " لودفيك " قطعت هي و " براون " كل صلة لهما بـ " موسكو " وهددا بفضح أمر عملائهما لو حاولوا الاتصال بهما مرة أخرى . لا أعتقد أن " جيرترود " كانت تحب " أولجا " أو حتى تكرهها . وكما تتخيل يا " كارل " ... عندما سمعت ذلك كله كنت مفتونا بـ " أولجا " .. مسكونا بها . ما الذي يجعل امرأة شابة مثلها تقطع علاقتها بأسرتها وتؤيد الذين أعدموا خالها القيصر وأسرتة ؟

حاصرت " جيرترود " بالأسئلة ، ولكنها لم تقل إلا القليل ، باستثناء مناسبة واحدة عندما سألت " أولجا " رأيها في القيصر .

قالت " أولجا " بحدّة : " لقد قتل الفرنسيون والإنجليز ملوكهم ؟

فيم نختلف عنهم ؟ على أية حال كان يمكن إنقاذ حياتهم لو أن ابن عمتنا " جورج الخامس " قد قل لجوعهم هنا ، ولكنه رفض ، وهكذا قضوا ! "

كانت " جيرترود " مفتونة بهدوء انجلترا . كانت ألمانيا وإيطاليا والبرتغال تحت كعب الفاشست ... تحت سيطرتهم ... وكانت إسبانيا في مخاض حرب أهلية .. فرنسا على شفا حفرة من حربها الخاصة مع الجمهورية تحت حكومة جبهة شعبية ، وفي حالة خوف دائم من " هتلر " وطابوره الخامس داخل البلاد . أما روسيا فكانت تصفى الرجال الذين صنعوا الثورة ، " الكوادر التي كان يمكن إبادةها فقط خلال الحرب الأهلية " بعبارة " ستالين " الباردة .

الاضطراب فى كل مكان . ولكن انجلترا ، سره أوروبا ، كانت قوية ، وبقية هائلة . وبعيدا عن كل شى ، استطاعت " جيرترود " أن تستعيد توازنها .

لم يكن لديها أخبار عن والديها أو عن " هينى " شقيقها المحبوب ، سوى أنهم على قيد الحياة ويحاولون الخروج من ألمانيا . كانت تفكر فيهم كثيرا وتتمنى لو استطاعت استخدام شبكة الشعبة الرابعة لكى تنقذ " هينى " ، ولكن " ليفيتسكى " عارض الفكرة على اعتبار أنها خطيرة وخاطئة ، وأنها يمكن أن تؤسس سابقة سيئة . وافقت على ما قال ولكنها بكت على انفراد . كان على أحد شواطئ " نورفولك " ، أن أدركت ذات يوم أن أهم شى فى العالم بالنسبة لها هو هزيمة النازيين . حتى لو كان ذلك يعنى تنحية كل شى جانبا فى هذه اللحظة ... " هتلر " لابد أن يهزم ! أما " ستالين " فلا بد أن ينتظر مؤقتا !

كان " كريستوفر " و " أولجا " مستمتعين لدرجة كبيرة . وذات مرة ، أثناء عطلة نهاية الأسبوع صدمها حديث استمعت إليه أثناء الغداء . كانت أسيرة " براون " تستضيف مجموعة من الأصدقاء . رجال من أصحاب النفوذ وزوجاتهم . قدموا " جيرترود " إليهم كصديقة قديمة من " برلين " ، فجأة أصبح الرجال الإنجليز فى حالة انتباه ... يسألون أسئلة ودية عن أمجاد الرايخ الثالث . وكانو كلهم بلا استثناء سعداء بإنجازات " هتلر " كما كانوا مقتنعين - كما نقلت " أولجا " إلى لودفيك " فى عدة مناسبات - أن النخبة الحاكمة سوف تعقد صفقة مع " هتلر " بغرض عزل الإتحاد السوفيتى .

فى الصباح التالى أخبرها " براون " أنهم كانوا يتوقعون زوارا آخرين ولكن من الخارج ، فأنزعجت " جيرترود " . كان لها زمن طويل فى " اللعبة " يكفى لكى يجعلها تعرف أن الشعبة الرابعة كان يتم تطهيرها .

هل يمكن أن يكون القادمون إلى هنا قد جاؤا لتصفيتها ؟ أم تراهم يحملون لها رسالة من " لودفيك " ؟ لم تستطع أن تفسر خوفها لـ " هيلجا " أو " كريستوفر " . لم تعرف ماذا كانا يظنان بالفعل ، وكان " لودفيك " قد حذرهما ألا تشرك أحدا في شكوكها .

وصل الرجلان بعد الظهر . أدخلوهما الحديقة حيث تناولا الشاي .
قدما نفسيهما : " مايكل سبيجل جلاس " و " كلاوس ونتر " . كان الثاني هو الأفضل في مظهره شيوعى ألماني في أوائل العقد الثالث ، متوسط الطول ، حسن المظهر ، يرتدى قميصا أبيض اللون وينطلونا بنيا . كان يتصرف بتلقائية أكثر من " سبيجل جلاس " الذي كان يرتدى حلة بنية اللون رديئة التفصيل وقميصا أبيض اللون وربطة عنق غريبة الشكل . الشكل التقليدي للعملاء السريين في أول مهمة رسمية خارجية . الرجال الجدد من الشعبة الرابعة !

كان " سبيجل جلاس " بنفس طول " ونتر " وإن بدا قصيرا لامتلاء جسمه يرتدى نظارة طبية سميكة العدسات بإطار مذهب " جيرترود " لم تتكلم معى عنه كثيرا ، ولكن كان واضحا من طريقة كلامها أنها كانت قد وقعت في غرام " ونتر " . نعم ... كنت محقا !

كان الوجه في الصورة مألوفا ! كان " ونتر " مايزال صديقا وعندما كنت طفلا كان يصحبنا أحيانا إلى مناسبات خاصة مثل سيرك موسكو القومى .

كان الرجلان قد سافرا من " باريس " إلى " نورفواك " .. فقط لمقابلة " جيرترود " ظل " سبيجل جلاس " يسألها لمدة ساعتين عن " لودفيك " . رأيه في محاكمات موسكو ، الحرب الدائرة في إسبانيا والموقف في ألمانيا ... وهكذا . سب " ستالين " ، ولكن كان من الواضح أن

ذلك فحاً ، ولذا لم ترد عليه " جيرترود " بالطريقة نفسها .. ، بل وبخته
وهددت بإبلاغ الشعبة فى موسكو .

غادر الرجلان فى المساء نفسة ، رغم أن " ونتر " عاد وقصنى عدة
أيام معهم فى " ويلز " .

كان حينذاك أن أدركت " جيرترود " أن " لودفيك " فى خطر .
أرسلت إليه رسالة ، وفى ظرف ثمانية وأربعين ساعة تسلمت تصريحاً
بالعودة إلى " باريس " .

كانت القصة كما روتها " جيرترود " تبدو مملة . كنت أعرف اللهجة
الصوت ذاته ، الذى تتكلفه مع الأعزاب عندما تقرر أن تمتعهم بحكايات
عن تاريخها لنضالى : يرتفع صوتها قليلاً ، تتسع فتحتا الأنف قليلاً ،
العينان تلمعان ببريق متعصب إلى حد ما ، ولكن ذلك كله ليس سوى
قناع !

كنت أعرف ذلك منذ زمن بعيد ، لأن حكاية تروى بهذا الأسلوب
لن تكون الحكاية نفسها أبداً . الأحداث ، الأشخاص ، ودورها الخاص
... كل ذلك كان مختلفاً دائماً ... وطبقاً لجمهور المستمعين !

هذه المرة لم يكن هناك سوانا . أنا وهى . ولكنها كانت قد لبست
القناع القديم وكنت أعرف أنها كانت تخفى الحقيقة . أية ذكريات كانت
تحاول أن تتكتم ؟ ولماذا ؟

حاولت ، ولكن لم يكن من السهل أن أستخرج نفسها الحقيقية من
المارة ! لم أكتشف الحقيقة أبداً . ربما لم يكن هناك شئ يمكن اكتشافه .
ربما كانت علاقتي بـ " ونتر " هى التى ألقى الضوء ، وبخاصة على تلك
الفترة الريفية فى انجلترا ... ربما !

كان « لودفيك » بمفرده فى شقة « باريس » . لم يكن التواجد منفردا أمرا غير عادى بالنسبة لجاسوس . كان يذهب عادة إلى أماكن خطيرة ويقضى أوقاتا طويلة ، وكان يعتقد أحيانا أنه لن يعود منها أبدا ... ولكنه هنا فى المطبخ يفتقد « فيلكس » و « ليزا » سكون الصباح جعله يشعر بالقلق !

حرق بحنين فى صورة لثلاثتهم معا أثناء رحلة تزلج . كان متذكرا فى ملابس دب قطبي . هذه الذكرى جلبت ابتسامة لعينيه ولكنها سرعان ما تلاشت . كان ذلك المكان هو بيتهم الصغير ، ملاذهم من العالم الكئيب . كانوا يشعرون بالسعادة والدفء عندما يكونون هنا معا . جلس يحدق فى السقف الأبيض وهو يشرب قهوته الحقيقية كانت واضحة أمامه ، سواء كانت معتمة أو شفافة ، مجهولة أو جليلة . كان « لودفيك » يفكر عشرون عاما وهو يعتقد أنهم متورطون فى حرب أهلية كونية بين قوى الخير وقوى الشر . إذا لم تنتصر الثورة العالمية فلا بد أن تكون الثورة المضادة حتمية . والاتحاد السوفيتى لن يبقى إلا إذا خرجت إسبانيا وألمانيا وفرنسا - وتلك مجرد بداية - من سلسلة الرأسمالية العالمية بالضبط كما فعل الروس .

منذ عام ١٩٢٨ عندما سحقت المعارضة ، أدرك « لودفيك » أن الثورة فى الأمبراطورية القيصريّة السابقة كانت قد بدأت فى التحلل كان من جنود الحرب الأهلية . وعرف كل ما ينبغى معرفته عن الظروف الصعبة رأى الفارين وهم يعاقبون ، وشاهد المحاكمات والإعدامات السريعة للسجناء البيض . لم يكن هناك ما يبرر ذلك . ولكن فى ظروف

التصرف ، حتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم يقفون إلى جانب العدل ، يرتكبون أعمالا وحشية . لابد من إنقاذ الثورة مهما كان الثمن ، وتجارب الحرب العالمية الأولى القاتلة قللت قيمة الحياة الإنسانية ... جعلتها رخيصة بالنسبة للجانبين .

كانت تلك المرحلة قد انتهت منذ زمن بعيد . جيوش « تروتسكى » انتصرت فى الحرب الأهلية . ولم يكن هناك سبب لاستمرار القيود على الديمقراطية فى داخل الحزب وخارجه ، وبالتالي فإن الوضع قد أصبح أكثر سوءا . كان رعب « ستالين » يدمر الحزب « البلشفى » القديم . لماذا فشل « لودفيك » ، أستاذ التكتيك والاستراتيجية الذى كان إمامه بالمنطق محل حسد الشعب الرابعة كلها ، لماذا فشل فى أن يدرك أن عقله سيصاب بهذا الارتباك عاجلا أو آجلا ؟

لماذا ؟ لأنه كان يفتقر إلى شجاعة أن يصبح مستقلا . أن يقطع الحبل السرى الذى يربطه بالشعبية الرابعة كان احتمالا مرعبا ، وقفزة فى المجهول ، ومع ذلك لم يتأخر طويلا . بدأ يفقد كل التعاطف مع تلك الشخصية الرسمية التى يجسدها .

الضربة الأخيرة لم تأت من « ستالين » وإنما من « ليون بلوم » رفض الزعيم الاشتراكى الفرنسى أن يساعد الجمهورية الإسبانية أصاب « لودفيك » باكتئاب شديد أكثر مما سببته جرائم « ستالين » فى قطلونيا . كان « عدم التدخل » هو الاسم الذى أعطوه لجبنهم . ماذا يمكن أن يتوقع المرء من الإنجليز غير ذلك ؟ الإنجليز الذين كان يسيطر على طبقتهم الحاكمة بعض المعجبين ، سرا وعلنا ، بفرانكو وهتلر وموسولينى .

كانت الصفوة الإنجليزية الحاكمة يائسة من قدرة قوات المحور على القضاء على « البلشفية » ، ولكن « بلوم » كان رجلا مهذبا .. واشتراكيا .

وقد أصبح رئيسا لوزراء فرنسا على رأس جبهة شعبية اكتسحها العمال الفرنسيون في العام الماضي .

لو ساعدت فرنسا الجمهورية الإسبانية بقدر ما كان « هتلر » و « موسوليني » يساعدان « فرانكو » لانتصرت الجمهورية الإسبانية . ولكن الوقت متأخر جدا الآن ... « بلوم » يقف إلى جانب « عدم التدخل » ! كانت ضربة موجعة ... موجعة ... ألم يفهم « بلوم » أنه قد وقع دون قصد شهادة وفاة الجمهورية الفرنسية أيضا ؟

صباح يوم أحد . الشوارع أسفل الشقة هادئة . السماء زرقاء والشمس تتدفق داخل حجرة المعيشة . من جانبه كان « لودفيك » يفضل ذلك الفندق المتواضع في « سيلشي » ، الذي مارس منه الكثير من أعماله التنظيمية منذ اثني عشر عاما تقريبا . ويطء شديد ، وهو مستمر في تحديقته في السقف الأبيض برزت إلى ذهنه قائمتان . الأولى تشرح بالتفصيل أسباب الانسحاب :

١ - الثورة قد تدهورت وبدرجة عصية على الإصلاح .

٢ - الجمهورية الإسبانية تخسر الحرب الأهلية و « بلوم » لن يتدخل .

٣ - لو خسرت إسبانيا ، فسوف يغزو « هتلر » الاتحاد السوفيتي ، ولن يكون « ستالين » قادرا على الدفاع عنه .

أما القائمة الثانية فهي خانة خالية في ذهنه . لا شيء فيها . لا يمكنه أن يجد سببا واحدا يدعو للاستمرار أكثر من ذلك . أرعبته الفكرة !

هبطت عيناه من السقف ليرى صورة في إطار موضوعة على مكتبه ، يظهر فيها « ليزا » و « فيلكس » .

كلاهما يرتدى أكثر الملابس أناقة . ولكن الصورة جعلته يضحك .
ثم راح فى صمت يفكر فيهما فى « موسكو » . كان قد تلقى رسالة
من « فريدى » تقول : « كل شئ على ما يرام » ، ولا شئ أكثر من
ذلك كيف يمكن أن يكون كل شئ « على ما يرام » ؟

كان صباحا جميلا لدرجة أن « لودفيك » تخطى عن فكرة عمل فنجان
آخر من القهوة لنفسه وقرر أن يذهب لتناول الإفطار فى المقهى . وهو
يضع الجاكت على كتفه رن الهاتف . ثم توقف . ثم إن مرة أخرى
ثم توقف جلس « لودفيك » وهو يتنهد . الشعبة تحاول الاتصال
به لابد أن يرد بعد الرنة الثالثة ، وربما كان « مايكل سبيجل
جلاس » ، الرجل الجديد فى السفارة !

كلب صيد ذكى ونشط ومتحمس لأداء واجباته أكثر مما يجب .
مجرد رؤيته تصيب « لودفيك » بالغثيان . ولكنه لم يكن « سبيجل جلاس
» بدل ذلك سمع نبرة هادئة . أحد عملائه القدامى .

« لودفيك ؟ »

« حسن ! لقد عدت إذن . المكان نفسه فى ظرف ساعة ! »

اللقاء مع جيرترود سيكون مؤلما . كان قد استطاع أن يعزلها عن
العيون المتلصصة ، ولكن كيف يمكن أن يكون رد فعلها لو أنه أخبرها
بقرار القطيعة مع « ستالين » ، ولكى يفعل ما منعها من فعله منذ
أسابيع قليلة ؟ قرر أن يبقى صامتا الآن . وهو يقترب من مكان اللقاء
بالقرب من « سان ميشيل » ، كان « لودفيك » يبتسم لنفسه . هو متأكد
أنه سيجدها ترتدى بلوزتها الزرقاء الكالحة ونظارتها الدائرية ذات
الإطار المفضض . ولكن اتضح أنه لم يكن مصيبا فى التوقعين .

المرأة التى استقبلته ترتدى تنورة أنيقة لونها أصفر شاحب وچاكت يتناسب معها ، ولدهشته ، قبعة زرقاء مصنوعة من القش . النظارة القديمة أيضا استبدلت بشئ آخر لابد أن يكون من أحدث طراز .

« ما رأيك فى مظهرى ؟ »

مرة أ

سألته بعد عناق وقبلات متبادلة على الخدين . هز رأسه .

« عندما التقيتك أول مرة يا « لودفيك » كنت ترتدى حلة من ثلاث قطع ، تظهر منها ساعة جيب بسلسلة ذهبية مشبوكة فى صديريك منظر رجل الأعمال ! »

« خطأ ! كنت أستاذًا للغات الحديثة فى جامعة « تشارلز » حلة رجل الأعمال كانت شيئًا فجا . ولكن ثيابك جميلة ... « أولجا » أم « كريستوفر » ؟ »

« كريستوفر »

« اعتقدت ذلك . الشمس ما تزال طالعة . هل نتمشى على شاطئ النهر قليلا ؟ »

« بالتأكيد »

كان « لودفيك » فى حيرة إلى حد ما لمظهر « جيرترود » الجديد . هل يمكن أن تكون هذه المرأة نفسها ، هى التى كانت تهدد بالانتحار منذ أشهر قليلة ؟ كانت تبدو مرحة واثقة من نفسها . قرر أن يقترب من الموضوع ببطء .

« خبرينى عن انجلترا »

« أولجا قالت إنك تعرف انجلترا جيدا . وقالت إنك ذهبت إلى لندن للمرة الأولى سنة ١٩٢١ لمساعدة الأيرلنديين ، صحيح ؟ »

« نعم ! كانت تلك فكرة « لينين » . تعرفين أنه كان يتابع انتفاضة عيد الفصح جيدا في سنة ١٩١٦ ، تعاطف مع الانهزامية الثورية لـ « كونوالى » . عرضت أن أساعد . نعم ! كانت ذلك عندما التقيت « أولجا » للمرة الأولى . كانت فى الثامنة عشرة ، وكانت جميلة . « أعرف . حكى لى قصتها . وهكذا جندت ابنة أخت دوق روسى كبير لحساب البلشفيك » .

« لم يكن أمرا كبيرا هكذا . كانت بالفعل إلى جانبنا . وكان من الواضح أنها مرشحة . هل تثقين بـ كريستوفر ؟ »
« تماما »

وشحب لونها قليلا .

« واثقة إلى أية درجة ؟ »

وسارا عدة خطوات قبل أن تجيب عن سؤاله .

« أنا واثقة واثقة فقط »

« هل نمت معه مرة أخرى ؟ »

« لودفيك ! » .

« ردى على يا جيرترود ! »

« مرة واحدة . كان يوما جميلا مشمسا . والشواطئ خالية تماما »

و »

« لا أريد التفاصيل هل « أولجا » تعرف ؟ »

« لقد أخبرها »

« و »

« جاءت ذات ليلة إلى غرفتي . تحدثنا معا . وكان الأمر عاديا »

« ماذا قالت ؟ »

« قالت إن « لودفيك » أرسلك إلينا للراحة وللعلاج والآن قد حصلت على الأمرين . أعتقد أنك لا بد أن تغادرينا » . أنا أسفة حقاً يا « لودفيك » . لقد تم كل شيء بشكل عفوى . لم أخطط لشيء . لم يكن أحد منا قد نسي تلك الأسابيع في موسكو بعد وفاة « لينين » .

« أنسى ذلك .. هل حضر أحد من « موسكو » إلى المنزل في وجودكم ؟ »

« نعم »

تجمد « لودفيك » . كان قد حضر على « أولجا » و « كريستوفر » أن يتصلا بالسفارة و « جيرترود » هناك .

« لماذا ؟ »

« أولجا » قالت إنها تحمل رسالة من شخص ما . قالت ربما كانت منك . وكان لا بد أن نراهم . »

« من هو ؟ »

« شخص ما من السفارة في موسكو . سبيجل جلاس ؟ قال إنه صديقك . علاقة منذ العشرينيات ، وإنه لم يكن قسداً رأيك من

سنوات ويريد فقط أن يعرف أحوالك . سأل مئات الأسئلة
عك . رأيك فى المحاكمات فى إسبانيا فى ألمانيا ... كل
شئ ! «

« وستالين أيضا ؟ »

« بالطبع ! »

« وهل قلت له شيئا ؟ »

« لا ولكنه حاول أن يجعلنى أقول . سب « ستالين » ولكن لا «
أولجا » ولا أنا استجبنا له . وهذا هو كل ما حدث . كان بصحبة رفيق
ألمانى .. شاب لطيف وود بالفعل . لم يذكر اسمك أبدا .
كان يتحدث عن الموقف العالمى وحبه الشديد للطهى فقط . وكان
« كريستوفر » معجبا به . »

« وأنت ؟ »

« الألمانى « كلاوس ونتر » أبهجنا جميعا . لودفيك .. أرجوك .. أنا
تعبت .. هل يمكن أن نجلس فى مكان ما لنشرب شيئا ؟ »

« المدام تفتقد شاي بعد الظهيرة ؟ »

ضحكت غير مدركة أن « لودفيك » كان فى حالة مزاجية سيئة . كان
يعرف أن شيئا ما فيها قد تغير ، وأنها لا تقول الحقيقة كلها . وهذا ما
جعله أكثر تصميمًا على التوغل فى الموضوع . وكان أن فهم أثناء
تناولهما الليمون المثلج . وضعها فى امتحان بسيط . فى سياق الحديث
عن « ليزا » أشار عرضا إلى « ستالين » كحفار قبر للثورة . كان ذلك
بالنسبة لـ « لودفيك » تعليقا بسيطا جدا . لا أحد من أصدقائه المقربين
كان يمكن أن يعلق عليه ، ولكن « جير ترود » بدت مراوغة إلى حد ما .

ظل ينظر إليها إلى أن شعرت بأنها مضطرة للكلام .

« لقد أصبح عصرنا البطولى شيئاً من الماضى يا « لودفيك » .
فهمت ذلك الآن . نحن خياليون ! ليس هذا زمن العواطف النبيلة . لا بد
من مقاومة الرعب الفاشى . كان كريستوفر و « أولجا » مقتنعين
أن الطبقة الإنجليزية الحاكمة سوف تعقد صفقة مع « هتلر » .
وهذا يسقط الاتحاد السوفيتى . هذا هو كل ما حصلنا عليه يا
« لودفيك » .

« إذن فالخيار الذى نقدمه لعمال العالم هو البربرية أو البربرية !
الرعب الفاشستى أو الرعب الستالينى »
« لا يوجد أى تعادل بين النظامين »

« ربما بالنسبة لك ! ولكن بالنسبة للضحايا .. ؟ هل تفضلين أن
تقضى على أيدي جلادى ستالين أم سفاحى « هتلر » ؟
قولى أجيبى !

« يوجد أحيانا وجه شبه بين الأضداد إنه الضعف . فلسفة
الشفقة هى التى تجمع بينهما . فلسفة لا يمكن أن تقرر أى الضدين
الخير وأيهما الشرير . وهذا مالا يمكن قبوله »

من الأفضل أن تكون المقص عن أن تكون الورق .. ! هكذا كان
يفكر « لودفيك » . كل ذلك الهراء التى تلقى به كان يأتى مباشرة من
رجال الماكينة الجديد فى « موسكو » لقد تم اختراقها بواسطة مذكرة
بيروقراطية رسمية . كان قد سمع كلاما مشابها فى إسبانيا الفتانة
غزت وعى الثوار ! ويعمق . نظر فى عيني « جيرترود » ولكنها نقلت

بصرها بعيدا .. « أعرف يا « جيرترود » . صعب ، ولكن قولى لى كل شئ . لا حاجة للتهرب أو أنصاف الأكاذيب . أم تراهم قد أخبروك أننى عدو حقا ، وأن عليك أن تقدمى تقريراً لهم بعد كل لقاء معى ؟ كنت أعتقد ذلك . حسن ! حظاً سعيداً يا صديقتى العزيزة . أتمنى أن تظلى على قيد الحياة ! »

وقام من مكانه كأنه سيغادر . وانطلقت من حلقها صرخة مخنوقة . « لودفيك »

بدأت « جيرترود » تبكى . فكرت فى الماضى ، الأخطار المشتركة التى واجهاها ، أحاديثهما المختلصة . وكيف أنقذ حياتها أكثر من مرة ، وكيف كان شيئاً مهما بالنسبة لها . لم يتغير أبدا .

شاعر فيلسوف فى شرك عمل قدر . التاريخ أجبرهم جميعاً على أن يختاروا . لم تستطع أن تقنع نفسها بالقطعة معه .

جلس « لودفيك » وراح يربت على يدها رغم أنه كان ثائراً بداخله ، غاضباً لاستسلامها ورضوخها لموسكو .

كان ينظر إلى الأمر بشكل شخصى جداً عند أى سقوط أخلاقى لأى من رجاله ، أو من الذين دربهم وعلمهم ودائماً يلوم نفسه .

تكلمت : « أنا أسفة يا « لودفيك » ، كانت تحاول أن تهزم دموعها . « لم يقل كل شئ أبداً أمام « أولجا » . مرة وكنا . بمفردنا قال عنك هذه الأشياء المروعة » .

« هل قال إنهم شكوا فى أن أكون أعمل لحساب الألمان ؟ »

« نعم ! »

« إذن الأمر خطير ! والآن أرجوك لا تفزعى ! حاولى أن تتذكرى كل شئ ! » .

وعلى مدى ساعتين بعد ذلك راح يسألها ويستخلص منها المعلومات . وفى نهاية الجلسة ابتسم أعداؤه فى موسكو يتخبطون ، لابد أنهم كانوا شديدي الرغبة فى استمالة «جيرترود» .

« وهل قلت لـ « أولجا » شيئاً من ذلك ؟ »

هزت رأسها خجلة .

« كنت فى حالة رعب شديد يا « لودفيك » ، ... ولا بد أن أتكلم مع أحد » .

« إن أول درس علمته لك هو أن تتغلبى على الرغبة فى الكلام مع أى شخص . هذه نقطة ضعف قاتلة فى عملنا » قالت : « أولجا » غضبت وقالت أنا أأتمنه على حياتى . ليس أكثر عمالة للألمان منى ومنك ! هذه هى طريقة « ستالين » ، التى ستوصل كل شئ إلى نهايته ذات يوم . ساعدتنى كثيراً يا لودفيك »

« بالنسبة لها طيشك لا قيمة له . لقد أمنتها على حياتى أكثر من مرة ، ولكن كان من الخطأ أن تتكلمى . ما كان يجب أن تتكلمى أبداً مع « سبيجل جلاس » . ما كان يجب أبداً أن تتكلمى مع « أولجا » .

لا تفعل ذلك أبداً مرة أخرى .

« لن أفعل ! أنا أحبك يا « لودفيك » !

« غلطة أخرى »

اتخذ وجه « لودفيك » مظهراً متجهماً ، مظهر رجل مضطرب

الجوانح . بعد ذلك ، كان لديه موعد فى تلك الليلة مع « سبيجل جلاس » ، رتب أن يلتقى « جيرترود » فى اليوم التالى وسار ببطء عائدا إلى شقته .

« لودفيك » يفكر ... لماذا أجبين ولا أستطيع أن أواجه التاريخ عينا لعين ؟ على مدى أكثر من عام السؤال ذاته يمزقنى .

كيف يمكن أن نعيش وأحلامنا ميتة ؟ والحالمون أيضا ؟

باستثناء « تروتسكى » الذى يواصل أحلامه فى منفاه المكسيكى العمل مع « ستالين » لم يعد خيارا جادا . إنه يفكر ويتصرف بأسلوب قطاع الطرق . يدمر كل البدائل المتاحة له بشكل منظم .

إنها أسوأ سنوات عمرى . أسوأ منها تحت حكم القيصر من جوانب كثيرة بالنسبة لنا . « ستالين » قتل وسجن عددا من الثوار أكثر مما فعل « نيقولا » . الرفاق الألمان الذين هربوا من « هتلر » أعدمهم « ستالين » . الآن ... طلبت الـ « ج . ب . يو » * من شرطة « براغ » أن تلقى القبض على السياسى الألمانى « جيرايقتش » الموجود بالمنفى بتهمة أنه عميل للجستابو . « جيرايقتش » النائب الديمقراطى الاجتماعى السابق ، هو الآن شيوعى منشق ورئيس لجنة المثقفين فى « براغ » أنشئت لمعارضة محاكمات « موسكو » .

ستالين يريد أن يصفيه . من هو « سبيجل جلاس » ؟

* الشرطة السرية التى أدمجت فى جهاز الاستخبارات فى سنة ١٩٣٤ (المترجم)

إنه لمن نواعى الشرف أن ألتقى بأسطورة يارفيق ! لقد كنت مصدر إلهام لنا جميعا من على البعد ، ولزمن طويل لدرجة أننا كنا نتسائل إن كنت موجودا بالفعل . إن الإنسان ليحتاج إلى أعصاب قوية تتحمل مثل هذا النوع من الوجود الذى نعيشه ، وقدرا كبيرا من الحماس الثورى . ألا توافقنى على ذلك ؟

جلسوا فى مطعم مزدحم . كان « لودفيك » يحاول أن ينتظر فى عيى « سبيجل جلاس » اللتين شوهتهما العدستان السميكتان . وكان « سلاتسكى » و « فريدى » قد حذرا « لودفيك » ألا يستهين بذلك الوحش . « سبيجل جلاس » ما زال فى بدلة السفر الخاصة بجهاز الـ « إن - كى - فى - دى » مما أدهش « لودفيك » . لن تجد الاستخبارات الألمانية صعوبة فى التعرف على مهنته .

« أنا موجود ! »

« لودفيك » الذى كان يعرف أن « ليزا » و « فيلكس » قد غادرا الاتحاد السوفيتى منذ أيام قليلة ، وكانا الآن أمنين فى « براغ » ، لم يكن فى حالة حذر . قال « لودفيك » بصوت يعبر عن إحساس بالتفوق وهو يعيد ملء كأس صديقه بالنبيذ : « قل شيئا يا « سبيجل جلاس » ، ما عدد المحاولات التى استهدفت حياة الرفيق « ستالين » ؟

ارتعد « سبيجل جلاس » قليلا ، لكن دون أن يفقد رباطة جأشه . كان ذلك هو السؤال الملعوم المفضل لدى « لودفيك » ، الذى يطرحه على رجال الآلة ! وكان « سبيجل جلاس » فى حيرة .

« تعال يارفيق ! لقد جئت من « موسكو » مباشرة ، وأعتقد أن لديك معلومات من « ييزوف » . حسن ! أريد أن أعرف إذن كيف تحسنون

حراسة قائدنا العظيم المحبوب أيها الرجال .إن سفينتنا قد تتحطم
بدون الربان العظيم . والآن قل لى ... كم محاولة ؟ «

« ولا واحدة على قدر علمى ! «

قال « لودفيك » بغضب مصطنع : « ماذا ؟ لقد قرأت عددا من
التقارير الداخلية عن إعدامات كثيرة . الخونة الذين حاولوا قتل
« ستالين » ، وأنت جالس هنا بهدوء وتقول أن لا شئ من ذلك قد حدث
! انتبه يا سبجيل جلاس ! «

« أعتقد أنك لم تفهمنى ! « وكانت هناك ومضة باردة فى عيني رجل
الآلة ! لم أقل إنه لم يكن هناك مخططات . أكرر . لم تكن هناك
محاولات فعلية ! «

« ولماذا كان يخطط أولئك المتآمرون لقتله ؟ «

« عملاء للجستابو . متسللون تروتسكيون ! «

« فهمت ! هل جئت من « موسكو » مباشرة إلى هنا ؟ «

« نعم ... بالطبع ! «

« لماذا تكذب ؟ «

شحب وجه « سبيجل جلاس » . ولكنه لم يحول بصره .

كان صوت « لودفيك » يعلو : « أنت تزور لندن « وتقول لأحد قدامى
العاملين معى إننى عميل للجستابو . أنت تخالف الانضباط باندفاعك
فى أحد منازلنا الآمنة فى انجلترا وتعتقد أن عمليتنا مهلهلة ، لدرجة أن
مغامرتك الحقيرة سوف تظل سرية . «

أزاح « سبيجل جلاس » نظارته وفرك عينيه « سنفعل ما يجب فعله
وأنت تعرف ذلك جيدا «

« بالطبع ، الأوامر لابد أن تنفذ ، ولا شك أن أوامرك تتضمن تجنيد بعض المرتزقة من الروس البيض . تحتاجهم للقضاء على الشيوعيين القدامى . متى انضمت للحزب ؟ »

« فى سنة ١٩٢٨ »

« لابد أنك تتذكر إذن أيام كان يمكن لأعضاء الحزب أن يتناقشوا معا . بالضبط قبل أن ينضم إليه المرتدون والمخبرون والوصوليون بأعداد كبيرة . تجنيد « ستالين » . « البلشفيك الجدد » هكذا كانوا يطلقون على أنفسهم ، وهم يحشون بنادقهم لقتل أولئك الذين صنعوا الثورة . »

كان « سبيجل جلاس » صامتا . كان يعرف أن « لودفيك » يقول الحقيقة ولكنه لم يستطع أن يفهم تماما دوافع ذلك الرجل الذى كلفته « موسكو » بتصفيته ، وكان الرجل المحكوم عليه يتكلم مرة أخرى .

« ما هى الأوامر التى لديك بخصوصى يا « سبيجل جلاس » ؟ من المؤكد أننى لو كنت عميلا للجستابو فسوف أقتل فوراً ... »

« أرجوك يارفيق احاول وسوف تفهم . الأوامر لدى جاءت من أعلى مستوى .. من القمة ... كل المطلوب هو أن تعود إلى « موسكو » مجرد نقل .. لا أكثر ! »

« أعرف لماذا أنقل ستة أقدام تحت الأرض هنا بدلا من لوبيانكا ؟ » .

« أرجوك يارفيق ! لابد أن أطلب منك الآن رسميا أن تقدمنى إلى شبكة عملائك فى أوروبا ، خاصة فى ألمانيا وإسبانيا . »

« الشعبة الرابعة تعرف ماذا تريد « موسكو » أن تعرف . »

« نحن فى حاجة إلى المعلومات لكى نحارب البربرية الفاشية »

« نعم ! نعم ! أعرف ! موسكو لديها كل المعلومات . وإذا كان
« ييزوف » يريدنا فليذهب إلى « سلاتسكى » .

« أنت عنيد ومتعجرف أيها الرفيق « لودفيك »

« عندما بدأنا هذه المغامرة يا رفيق « سبيجل جلاس » ، كنا نعرف
ما نقاتل من أجله . انتصار الاشتراكية في كل الكرة الأرضية ،
بعضنا ما زال يؤمن بذلك . أنت وأصدقائك من الروس البيض لستم
سوى عصابة من القتلة . لقد أحضرت لك قصاصة نشرتها الجريدة
القيصرية « فاز راجدنيا » التي يصدرونها هنا في « باريس » ، بعد
محاكمة وإعدام الستة عشر الذين كان من بينهم « زينوڤيف »
و « كامينيڤ » في العام الماضي . هل تتذكر المحاكمة ؟ كالعادة
تم إرسال نسخة إلى مكتب « ستالين » . هل أطلعوك عليها
في « موسكو » ؟ هز « سبيجل جلاس » رأسه .

إذن سأقرأها عليك :

نشكرك يا ستالين !

ستة عشر ندلاً ..

ستة عشر قاتلاً لأسلافهم .

لقد التأم شملهم بهم ..

ولكن لماذا ستة عشر فقط ؟

اعطنا أربعين .

اعطنا المئات

اصنع جسراً عبر نهر موسكو

جسرا بلا أبراج ولا أضواء هادية ..

جسرا من الجيف السوقيتية ..

وأضف جثتك إلى الآخرين ..

هذا بالضبط ما يفعله زعيمك يا عزيزى الرفيق « سبيجل جلاس »
.. باستثناء الجملة الأخيرة .. أليس كذلك ؟

سأله سبيجل جلاس بصوت قاس: « والحزب ؟ ماذا عن الحزب ؟ »

« الحزب الذى صنع الثورة مات . زعيمك مشغول بقتل كل رفاق
« لينين » . ما تدعوه بالحزب ليس إلا آلة بيروقراطية ضخمة ، بنيت
بحيث يمكن لقلة أن تتلاعب بها . حتى هذه الآلة قد تم تخريبها بشدة .
كان هناك أكثر من ثلاثمائة ألف مقبوض عليهم فى الأشهر الأربعة
الأولى من هذا العام فقط . هل علمت بذلك يا « سبيجل جلاس » ؟ كل
ما تعتقدونه أنتم الرجال الجدد هو أنكم أذكىاء . لابد أن يختفى
الآخرون وتبقون . كلكم يعتقد ذلك ، ولكن قلة قليلة هى التى تنجو . منذ
ثلاث سنوات وأنا أتكلم مع « ستالينيين » متحمسين مخلصين مثلك ..
معظمهم مات ! »

« ولماذا تظل عضوا حتى الآن يا « لودفيك » ؟ »

« سؤال جيد ! كنت أعتقد أن انتصارا فى إسبانيا يمكن أن يقلب
المد عبر أوروبا كلها ، ولكن إسبانيا ضاعت ! الجيش الأحمر يقف بين
« هتلر » وغزو أوروبا . نعم .. ! الجيش الأحمر . لقد تم تجريده من
أفضل جنرالاته بفضل قائدك العظيم ، لكنه ما يزال حصنا قويا ضد
زحف الفاشية ! » .

« وما الذى يجعلك واثقا من أن « ستالين » لن يعقد صفقة مع « هتلر » لكى يعزل فرنسا وبريطانيا ؟ »

« إنه يحاول بكل جهده ، كما يعرف كلانا ، ولكنه سيفشل « ستالين » لم يفهم أبدا المعنى الحقيقى للفاشية »

رغما عنه ، نظر « سبيجل جلاس » إلى خصمه نظرة إعجاب «لودفيك » تنهد .. ولا تظن أنهم سوف يتركوك بعد أن نفذت لهم تلك المهام القذرة ! المسألة كلها واضحة الآن ، « يا جودا » يتخلص من جماعة من البلشفيك القدامى ، ثم يحاكم على أنه عميل فاشستى ! يحل محله « ييزوف » الذى يريد أن يقتل المزيد من الكلاب الضالة . بعد ذلك يتم إعدام « ييزوف » ومساعديه . صلى لكى تقوم حرب يا « سبيجل جلاس » ، إنها الشئ الوحيد الذى يمكن أن ينقذك من الهلاك ! أدفع الحساب ! أنا ذاهب ! »

وانصرف « لودفيك » وجلس « سبيجل جلاس » منتظرا النادل ليحضر له الفاتورة . كانت عيناه تلمعان بالدهشة فى موسكو ... كانوا أحيانا يحضرون أمامه السجناء بعد ضربهم وبعد أن يكونوا قد فقدوا القدرة على الكلام . يقفون أمامه والدم ينزف من جباههم .. وكان « سبيجل جلاس » يبدو مبتهجا . أثارة طيف الخيال. ألعاب نارية تنفجر الآن فى رأسه . بدأ يطير . كان يود أن يرى «لودفيك » فى ذلك الوضع . كان يريد أن يسمع هسيس السياط ، يريد أن يذل الرجل الذى انشق عليه منذ لحظات .

وقال لنفسه « لا يوجد مخبأ له على هذا الكوكب ! » .

عاد « ساو » إلى شقته في شارع « موريللو » أكثر بؤسا . كان حزينا لفقد صديقين عزيزين ، مصدوما لمعرفة أنهما كانا قد أصبحا تجارا للرقيق الأبيض على نطاق واسع ! أعطاه بعض حاشية الرئيس اسم رجل شرطة يعرف من يقتل من لأتفه الأسباب في روسيا الجديدة . وقبل أن يغادر « موسكو » أعطوه أسماء القتلة . لقاء ألف دولار قال له الشرطى نفسه إنه يمكن العثور عليهم .. وإعدامهم . هز ساو كتفيه .. قتيلان أخران لن يحلا المشكلة ! لماذا قتلوا أصدقائى ؟

فى البداية كان « ساو » يعتقد أن رجل الشرطة كان يتهرب من السؤال ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، كان فقط ، يريد أن يشرح لـ « ساو » كيف تسير الأمور فى « موسكو » .

« كل شئ للبيع يا سيد « ساو » هل أخبرك بشئ ستضحك له ؟ يوجد هنا مخرج سينمائى أمريكى . استطاع أن يحصل على بعض الملابس الرسمية القديمة الخاصة بالـ « ك . ج . ب » وطلب تصريحا بتصوير فيلم فى « لوبيانكا » فى البداية أعتقد رؤسائى أنه كان سياسيا ورفضوا ، عرض عليهم الأمريكى سيناريو الفيلم ، كان فيلما جنسيا . كلهم ضحكوا .. ! ولكنهم الآن يتفاوضون ، منذ ثلاثة أسابيع ، على الثمن .

القصة الحقيقية ظهرت فى النهاية كان القتلة ينتمون إلى جماعة من تجار السوق الحرة . أخصائيو العلاج بالصدمات الذين أسسوا تجارة ضخمة فى الرقيق الأبيض . اللحم البشرى ! . كانوا يصدرون الداعرات

الروسيات إلى تايلاند ودول الخليج ، بغايا التليفون البلطيقيات كان عليهن طلب كبير في شمال أوربا ، والأولاد الرومانيون كانوا مرغوبين في كل أوروبا الغربية.

كان لدى شركاء « ساو » المقتولين مؤسسة منافسة ، وكانت في طبيعتها أكثر تعددية من الناحية الثقافية . كانوا يستخدمون الشبكة القيتناميه القديمة . ويعملون بتصدير اللحم البشرى من كافة جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابقة . أصبحت التناقضات متفجرة وبدلاً من الاعتماد على السوق ، أصبح التجار الروس يستخدمون القانون لحسابهم . إلا أن خسارة « ساو » المعنوية تم تعويضها جيداً ، بما عاد إليه من أرباح باهظة كوسيط في ثلاث صفقات مربحة ، تشمل روسيا والصين وإيران . كلها كانت تتضمن بيع وشراء الصواريخ . نصيب « ساو » الذى بلغ مليونى دولار تقريباً ، كان فى أمان فى أحد بنوك « لوزان » ، وكان قد وصل ليجد رسالة من مطلقة « مارى لويز » تخبره بأنها قد أخذت الأطفال إلى منزل والدها فى « بريتانى » ، مع تعليمات بالآ يتوانى فى « باريس » ، وأن يلحق بهم على وجه السرعة.

اتصل بها « ساو » تليفونيا وتكلم مع الأولاد ووعدهم بأنه سيذهب إليهم فى ظرف أيام قليلة . رغم طلاقهما كانت العلاقات ودية ، على الأقل لأن والد زوجته الضابط الكبير فى الاستخبارات الحربية الفرنسية ، كان هو الواسطة التى تساعد « ساو » لكى يجد لنفسه مكاناً فى تجارة السلاح .

بعد أسبوع لم يكن قد استطاع أن يخلع نفسه من « باريس » بدأ يذهب إلى أماكن العزوبة القديمة بحثاً عن أصدقاء قيتناميين قدامى ولكنه ، على نحو غريب ، لم ينجح . وبدلاً من ذلك كان يجلس صامتاً فى

مطعم فيتنامي قديم يتحدث مع العمال . كان قد حاول أن يتصل تليفونيا بـ « فلادى » عدة مرات ولكنه لم يجده بالمنزل أبدا . كان بوده أن يضع نفسه فى أول طائرة إلى « برلين » ولكنه يشعر بالتزام بواجب الذهاب إلى أسرته فى « بريتانى » .

قبل أن يذهب إلى المحطة مباشرة . حاول الاتصال بـ « فلادى » مرة أخرى . وفى هذه المرة كان حظه أفضل .

« تحياتى يا صديقى ! »

« ساو ! أين أنت ؟ »

« لقد رجعت . معى الملفات التى تريدها . لم أحصل عليها بثمن زهيد يا « فلادى » كما تعرف ! أعتقد أنها ما تريد . موجودة معى . كنت أود الحضور إلى « برلين » ولكن « مارى لويز » والأطفال فى انتظارى فى « بريتانى » .

« لست فى عجلة ! كنت أنوى المجئ إلى « باريس » فى الشهر القادم و ... »

« فكرة جيدة : نقضى الكريسماس معا . والدى سيحضر من « هيو » . وهو دائما يود أن يلتقى بك . اتفقنا ؟ »

« سأسجل ذلك فى مفكرتى ! »

« فلادى ! »

« نعم ! »

« هل تذكر أيامنا الباكرة فى درسدن ؟ »

« بكل تأكيد ! »

« مرة وأنا فى حالة من القومية المتطرفة ، كنت أحكى لك عن الأخوات « ترونج » وكيف قدن حركة مقاومة فى سنة ٤٠ ميلادية ، طردت الغزاه الصينيين . وأتذكر أنك ضحكت وقلت : أنتم الفيتناميون تتحدثون دائما عن الأخوات « ترونج » البائسات . لماذا لا تتحدثون عن العام التالى لذلك ، عندما عاد الصينيون ؟ » « فلادى » ضحك على الجانب الآخر وقاطع صديقه : ولماذا تخفى حقيقة أن الأخوات « ترونج » ألقين بأنفسهن فى النهر بعد عامين واختفين تماما ؟ .. أذكر كيف أنك صدمت فى البداية ثم بدأت تضحك بعد ذلك . على أية حال ما الذى يجعلك تتحدث عن ذلك الآن ؟ »

« كنت أفكر فىك وفى الأخوات « ترونج » منذ أيام قليلة وأنا جالس على انفراد ، أتناول طعامى فى مطعم فيتنامى ووجدتنى أضحك . » كان فى نبرات « ساو » شئ ما نبه « فلادى » إلى أن صديقه القديم لم يعد الشخص نفسه الملى بالحماس .

« ساو ! هل هناك شئ ؟ »

« لا أعرف يا « فلادى » ، لقد سنمت أن أكون هكذا سهل التكيف ، متقبلا لكل شئ أى شئ . لم أعد أستمع بكونى فيتناميا جوالا »
« لا أفهم ! »

« لقد كونت ثروة كبيرة هنا . أستطيع أن أعود إلى « هيو » أو « هانوى » وأعيش ما تبقى لى من سنوات فى سلام وطمأنينة هل تفهمنى ؟ »

« بالطبع . ! وماذا يمنعك ؟ »

« الأولاد ! »

« هل أنت متأكد أنك لا تخدع نفسك ؟ تريد أن ترجع ولا تريد أن
ترجع ! بعد « باريس » ... هل يمكنك فعلا أن تعيش في « هانوى » ؟
كن أميناً مع نفسك ! »

« ربما كنت محقاً ! ولكننى لا أريد أن أدفن هنا يا « فلادى » . أريد
أن أعود إلى أسلافى »

« أه ! الآن فهمت . تريد أن تعود للأخوات « ترونج » ، ولكنهن دفن
أنفسهن فى نهر ! »

« لماذا تسخر من صديقك القديم يا « فلادى » . أنت لا تفهمنى ،
لأن أمثالكم الذين يعيشون فى بلادهم لا يعرفون كيف هى ! »
« كم أنت مخطئ يا « ساو » ! أنا ظاهرة بلا جنور ولدت فى فرنسا على
ما أعتقد . طفولتى الباكرة فى روسيا . نقلت وزرعت فى جمهورية
ألمانيا الديمقراطية وأنا فى الثامنة . والآن ذهبت ألمانيا الديمقراطية
هل أنا ألمانى ، روسى ، يهودى ، غير يهودى ... أم ماذا ؟ ليس لديك
مشكلات من هذا القبيل لا أعرف مم تشكو .. ؟ لو كنت فى مكانك
لقضيت نصف العام فى فيتنام والباقي فى أوروبا . لا تدعى أنك رجل
أسرة ! أنت لست فى « باريس » يا « ساو » ! »

« لى ابن فى هانوى ! »

والحظات قليلة كان « فلادى » فى حالة ذهول وصمت :

« كم عمره ؟ »

« ثلاث سنوات »

« والام ؟ »

« ماذا عنها ؟ »

« من هي ؟ »

« امرأة فيتنامية ، وأنا أحبها يا « فلادى » ! »

« وهذا يعقد الأمور . دعنى أعيد صياغة نصيحتى . أعتقد أنك لابد أن تقضى معظم وقتك فى « هانوى » ، وبضعة أشهر كل صيف فى ما سوف يصبح « فيلا مارى لويز » فى « بروفنس » .

هذا بالطبع إذا كانت تريد أن تظل صديقة ! .. « وإلا عليك بشقتك فى باريس » .

« لا داعى لهذه السخرية ! »

« أنا واقعى يا « ساو »

« هل تعتقد أننى يجب أن أخبر « مارى لويز » الآن ؟ »

« بالطبع ! لماذا تؤخر المصيبة ؟ سوف تشعر بتحسن . »

« أنت لم تحب « مارى لويز » أبدا يا « فلادى » .. أليس كذلك ؟ »

« التقيتها مرة واحدة »

« أجب عن سؤالى .. »

« لا ! »

« لماذا ؟ »

« لم أقتنع أبدا أنها مهمة بك فعلا ! كانت سكرتيرتك . « ساو » أنت أخذتها معك إلى الهند الصينية فى رحلات عمل . جعلتها تشاهد المعالم هناك . بما فى ذلك أرصدتك الضخمة فى البنك السويسرى حدث ما كان لا بد أن يحدث . فى البداية أصبحت سكرتيرتك للسريير . ثم زوجتك ! النموذج ليس أصيلا ! بالطبع هناك حالات تصلح بها فيها الترتيبات الجديدة » .

« أعتقد أنك مخطئ يا « فلادى » . كانت مترددة جدا فى البداية
وكان على أن أعمل جاهدا كان على أن أتبعها مثل »

« مثلما يتبع الذباب الروث ! »

« فلادى » .. أنت لست منصفاً معها ! »

« لقد أنجبت طفلا فى « هانوى » ، وقعت فى حب أمه ، وأنا لست
منصفا مع زوجتك الفرنسية . أرجوك يا « ساو » لا تفقد قدرتك على
رؤية الأشياء من منظورها الصحيح . »

بدأ « ساو » يضحك . « لقد أبهجتنى .. أريد أن أطير إلى برلين ! »
« لا تكن جبانا يا « ساو » . اذهب إلى « بريتانى » يا صديقى
واجعلها ديان بيان فو الخاصة بك .. »

« أنا أحب أولادى يا « فلادى » ! »

« وهم يحبون هداياك ! وحيث إنهم لا يرونك كثيرا ، فلن يشعروا
بالقرب منك . ولكن الآباء الذين يقومون بدور « سانتا كلوز » على مدار
العام يصبحون فكرة تستحوذ على أطفالهم . لذلك قد أكون مخطئا .
عندما تغادرهم سوف يصيبهم الجنون ، ويتمنون أن يعيشوا معك فى
« هانوى » . وهذا ممكن . هل « حبك الجديد » فى « هانوى » مستعدة
لأن تكون أما لهذين الاثنين أيضا ؟ »

« لا أعرف ! لم أسألها لأن الفكرة لم تطرأ لى أبدا .. وأنا واثق أن
ذلك سيكون رائعا ! »

« حسن ! إذن اذهب إلى بريتانى ! »

« هل وقعت مرة فى الحب يا « فلادى » أقصد الحب فعلا ! أم تراه
ما زال مفهوما برجوازيا مجردا ؟ »

« ساو .. أنت أحمق ! لقد أحببت « هيلجا » وما زلت ! »

« إذن أنت تعرف شعورى نحو « لينا » .

« هذا إذن اسمها »

« نعم ! حتى وأنا أتكلم معك يا « فلادى » أراها أمامى .. »

« ولماذا لم تقل لى ذلك من قبل ؟ »

« لا أعرف .. لم أكن أريدك أن تعتقد أن علاقتى بـ « لينا » كانت
فاسدة على أى نحو ، ولا بد أنك ... حسن ! أنت تعرف ما أقصد
.. « ..

« نعم ! وأعتقد أنك أحمق كبير ! من الأفضل أن تذهب لتلحق
بالقطار المتجه إلى « بريتانى » . اتصل بى تليفونيا عندما تعود ، واحك
لى كيف كان كل شئ ... وهناك شئ آخر يا « ساو » ..

« نعم ! »

« أنت مازلت فى قبضة مرض الحب ... أليس كذلك ؟ »

« بلى ! »

« انتظر دقيقة إذن ... سأقرأ عليك شيئا ... ساو ! »

« نعم » .

« استمع إلى أنشودة الشاعر »

« أنا استمع . . . »

« هل يجنح الخيال أكثر نحو امرأة مكتسبة أم امرأة مفقودة ؟ إن كان إلى المفقودة ، فلتعترف بأنك قد خرجت من متاهة كبرى .. بدافع من كبرياء ، وجبن ، وفكرة غبية ، وشئ ما كان يسمى الضمير ذات يوم .. وأن الذكرى إذا عادت تكون الشمس في حالة كسوف ، والنهار مظلم ! »

« رائع » يا فلادى ! من الشاعر ؟ « برخت » ؟

« لا .. لا .. إنه شاعر أيرلندى .. بيتس ! »

« هل تعتقد أنه مترجم إلى القيتنامية ؟ »

« لست متأكدا ! ولكن الترجمة الصينية جيدة ! »

« سوف أرسل إلى « لينا » مجموعته بالإنجليزية ، وهي سوف تترجمها إلى القيتنامية لدار النشر الجديدة الخاصة بنا »

« ساو ! أمرك بأن تتوقف عن الحلم . إلى « بريتانى » يا صديقى وداعا ! »

« تشاو » فلادى ! شكرا ! »

لعدة دقائق لم يتحرك « ساو » من الكرسي الذى كان قد كمن فيه وهو يكلم « برلين » . كان منزعا لأن « فلادى » قال إن « مارى لويز » قد تزوجته من أجل ثروته . لم يكن لدى « فلادى » فكرة عن الأوقات الجميلة التى قضياها معا . لم يستطع أن يدرك كيف كانت العلاقة جيدة فى الفراش ! شئ كان مفتقدا فى علاقتهما . كانت « مارى لويز » ترى « ساو » رجل أعمال ناجح ... ولا أكثر من ذلك ... و « ساو » كان يشعر أنها لم تفهم أبدا عمق اشمئزازه الداخلى من عمله . عندما كان يشكو من الحياة التى اضطرتته الظروف أن يحيها كانت تبدو قليلا من التعاطف لم يكن لديها فكرة عن أى شئ يتكلم فيه . وكان ذلك هو الذى أدى إلى طلاق سلمى ، وإلى تسوية مالية سلمية بالقدر نفسه . والد مارى تأكد أن ابنته ستعيش فى رغد !

لم أكن أود أبداً أن أصبح عبثاً على حياتك « ياكارل » ولهذا السبب كنت أحاول دائماً أن أنأى بك عما أصبح نهجنا في الحياة أنا « وهيلجا » بعد أن أسسنا لجنة للعمل من أجل ألمانيا الديمقراطية كان من الصعب علينا أن نعود مرة أخرى للحياة العادية . في التسعينات ، حقق كتابي « مانيفستو من أجل ألمانيا جديدة » نجاحاً سوريا بالغاً ، رغم أنه لم يكن بمثل انتشار كتاب « البديل » د « باهرو » .

كان يبدو تطوراً في قدرة طبيعية على كيفية تطوير هذا النظام البائس ، وكان أصعب قليلاً مما يتخيل الناس .

أصبحت حياتنا غير مترابطة رغم تكرار الاضطرابات والأشياء اللانظامية إلا أن أسلوباً معيناً بدأ في التبلور .

بدأت حياتنا خاضعة لثورات من المصادفات ولكنها كانت في الحقيقة تكتسب تماسكاً غريباً . أصبحنا ممثلين محترفين ؟ ولدهشة زملائي وطلابي من غير السياسيين في « همبولت » كان يبدو أنني قد تغيرت . وكما قالوا لي ، أصبح سلوكي أكثر امتثالاً .

سافرت أنا وأمك كثيراً إلى الغرب * هل تتذكر ؟ لأعتقد أنك كنت تجد متعة كبيرة في ذلك . كنت تود دائماً أن تكون مثل بقية الأطفال . هل أنا محق يا « كارل » ؟ أم تراك كنت تفهم كل شيء وأصبحت شديد الرغبة في أن تصبح مواطناً عادياً في الغرب ؟ أتمنى أحياناً أن تتكلم عن ذلك كله قبل أن أموت .

* المقصود ألمانيا الغربية ، حينذاك (المترجم) .

كان ذلك فى مارس من عام ١٩٨٤ عندما اتجهت جدتك نحو الأسوأ ! « أشعر بالتعاسة » ياقلادى « أنا مستعدة لأن أموت ! » كانت جيرترود راقدة فى الفراش . وفى الخارج كانت براعم الربيع الأولى قد بدأت تظهر على أشجار اليزفون . كان الطبيب قد حضر وحقنها بمسكن للألم . وكنت أنت « وهيلجا » فى « درسدن » لقضاء نهاية الأسبوع .

جلست على كرسي أنظر إلى المرأة الذابلة دقيقة الحجم . كانت ملازمة للفراش منذ عام تقريبا وأصبح من الصعب التعرف عليها .. « أنا أعرف يأمى ! »

منذ أن عقدنا سلما بيننا منذ ثلاثين عاما تقريبا ، كانت الهدنة مستمرة هل تعرف أنها كانت مسؤيدة لنشاط لجنة ألمانيا الديمقراطية ، وأن كل الأعضاء الجدد كانوا يحبونها ؟

كان لدينا شبكة مكونة من أربعمئة عنصر من المؤيدين لنا ، منتشرين فى أرجاء البلاد . كان معظمهم من الشباب الشيوعى الذى ترك الحزب . وبعضهم كان من أبناء كبار المسئولين الحزبيين .

كان كل هم « جيرترود » هو أن تعرفهم جميعا . وهى التى كتبت المانيفستو العام الشهير الذى أكسبهم شهرة سيئة داخل صفوف أجهزة الأمن والاستخبارات ، وقدرنا كبيرا من الاحترام فى ألمانيا الأخرى بين الخضر والجماعات التى على يسار الحزب الديمقراطى الاجتماعى والذى أقام - طبعاً - علاقات جيدة مع هونيكرو وجماعات السلطة .

عندما هنأتها على أسلوبها الرائع وقدرتها على المناظرة والتنفيذ ، اكتسى وجهها تعبيرات البطولة والإقدام والحق أقول « ياكارل » إننى كنت أشعر أحيانا بأن لجنة ألمانيا الديمقراطية كانت على وشك الانهيار بسبب القصور الذاتى والإجهاد الشديد . دائماً كانت هى المنقذ ، بأحاديثها المشجعة وقدرتها على إيجاد المطابع التى يمكن أن

تنشر المواد المحظورة فى مقابل عملة ألمانيا الغربية ، ورفضها قبول الهزيمة .

لن أعيش طويلا « ياقلادى » تذكرنى بعطف ، ولاتنسى ! «

« كيف تفكرين فى شىء كهذا ياأمى ؟ »

« كل ما فعلته كان من أجل القضية » ياقلادى « وهذا يجب ألا تنساه أبداً . »

موجة رعديّة مفاجئة تبعتها عاصفة ممطرة كانت تضرب ألواح النوافذ بدا ذلك وكأنه يعطى تأكيدا مقدسا لرسالة «جيرترود» .

ضوء الشمس الصباحى حل محله ضوء رمادى كثيب تسلل إلى غرفة النوم .

وفجأة ... تنبّهت عيناها ورأيتها تحقق فى .

« هذه هى أمطار الربيع ياأمى ، وهى دائما تذكرنى بـ « موسكو » غمغمت .. « نعم ! موسكو ! تعرف ياقلادى » ... موسكو تذكرنى دائما بـ « لودفيك » الصغير كان من عاداته أن يستمتع وأن يواسى ويشجع وينصح ويكتشف ما حدث فى جلسة سرية للمكتب السياسى .. وبعد ذلك كنا نضحك دائما ... ما زلت أرى عينيه تلمعان . الثلج يتساقط فى الخارج ... ولكن فى الداخل »

وأغمضت عينيها . مشيت على أطراف أصابعى حتى نهاية الغرفة .. وفى الحال فتحت عينيها وبدأت تكلمنى قبل أن تكتشف أننى قد اختفيت. عادت إلى أيام طفولتى ، و " موسكو " أيام الحرب ، عندما كان كل واحد يعرف أن أهم شىء فى العالم هو هزيمة الفاشية . لاشىء آخر كان له أهمية . لم يظل ذهنها مركزا على مرحلة بعينها ، ولكنه بدأ يجول . عينا " لودفيك " الزرقاوان المبتسمتان ! وبدأت « جيرترود » تبكى الذكريات .

" سامحني يا لودفيك " ... سامحني ! "

" أمي ... أعتقد أنك نمت ... من الذي يجب أن يسامحك ؟ "

" أبوك "

" لماذا ؟ "

" ماكان يجب أن أبقى على قيد الحياة ! "

" أمي ... هل تخبريني بشيء ؟ "

هزت رأسها بضعف .

هل كان " لودفيك " أبي فعلا ؟ "

كان من الواضح لي أنني قد أَلَمْتُها بشدة ... كَأَنِّي لدغتها ! عاد الوجه العجوز إلى الحياة للمرة الأخيرة .

" لماذا ؟ لماذا تسألني الآن ؟ "

" عندما نظرت في المرأة هذا الصباح رأيتك... ولكن ليس لودفيك " " ولد غبي ! كل ما نعرف هو أنك لا بد أن تكون صورة طبق الأصل من " أبو لودفيك " . لك حاجبا أبي ، يوم ولدت نظرت في وجهك ورأيت " لودفيك " ينظر إليّ "

صدقته ! كان في طريقه كلامها شيء أقنعني بأنها كانت تقول الحقيقة أمسكت يدها الصغيرة الذابلة وقبلتها .. وهذه المرة كانت قد نامت بالفعل ! عندما أعدت يدها بهدوء إلى الفراش ، شعرت بالحياة تنحسر عنها . سارعت إلى التليفون لأستدعي الطبيب .

ماتت قبل عيد ميلادها الرابع والثمانين بأسبوعين بالضبط ! كنت أحرق في الغرفة الجرداء . خالية من اللون ما عدا الستائر الرمادية الداكنة

التي تغطي اطر النوافذ ، تلك الستائر التي كانت تحبها لأنها تذكرها
بغرفة نومها في منزل والديها في " ميونخ " كانت بالضبط من نفس عمر
ألمانيا الديمقراطية ، وكانت قد فقدت كثيرا من لونها ... ولكنها ماكانت
لتنخلص منها أبدا !

وكان الطبيب كان قد انصرف منذ ساعات طويلة . كنت أجلس في
غرفتها أنظر إلى جسدها المسجى . صور من طفولتي وأيامنا الجميلة
التي نعمنا بها معا تمر بارقة أمامي . شعرت بالذنب . ربما كانت قسوة
بالغة أن أسألها عن أبي ، أن أنكأ جراحها . ولكنني كنت شغوفا بأن
أعرف الحقيقة .

كنت أصدق في الصور المعلقة على الحائط . من بينها صورة كبيرة
لى وأنا بين ذراعى " جيرترود " . الصورة نفسها التي كنت تضحك
عندما كنت تراها دائما وأنت طفل . كان عمري ثلاثة شهور . قبل أن
تجىء إلى " موسكو " مباشرة . كنت أحب صورة الأسرة القديمة منذ
أيام طفولتها في " ميونخ " . الأجداد والخال الذي لم أراه . صورة لى في
الثامنة عشر أبو فيها جاد الملامح ، وأرتدى ربطة عنق وچاكت أنيقا .

بعد الظهر جاء مجهزو الموتى للدفن وأخذوا " جيرترود " . وحيدا في
الشقة بكيت لأول مرة . وفي تلك الليلة جافانى النوم .

قمت من الفراش ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابا . كنت أنت
" وهيلجا " في الطريق قادمين من " درسدن " ، ولكن وصولكما سيكون
في الصباح . رجعت إلى غرفة " جيرترود " .

بعد ساعة ، كنت ما أزال مرهقا غارقا في مكتب " جيرترود "
الصغير الضيق . حاولت أن أفتح الدرج السرى ولكنه كان مايزال مغلقا
بالمفتاح . هكذا كان دائما . منطقة محظورة . فتحتة عنوة ودقات قلبي
تتسارع . أى كنز سأجد ؟ أول شيء وجدته ... صورة فوتوغرافية

قديمة وخطابات فى مغلفات حال لونها بفعل الزمن . الصورة لم تكن مألوفة . " جيرترود " و " لودفيك " مشبوكا الذراعين أمام مقهى قديم .

أواخر العشرينيات ؟ " برلين " أم " فيينا " ؟ مستحيل معرفة أيهما ! بدأت أنظر فى الخطابات متمهلا . بعضها من أم " جيرترود " واحد من " ليزا " بتاريخ ١٩٢٥ ليس به شىء مهم . ثم وجدت رسالة موجهة إلى . هذا خطها . كانت قد كتبتها منذ ست سنوات .

ولدى العزيز

ستجد هذه الرسالة بعد أن أموت . كل ما يخصنى موجود هنا فى هذه الشقة . وهو الآن ملك . الشىء الوحيد الذى أعتز به هو بروش صغير كان فى البداية ملكا لجديتى ثم لأمى فيما بعد . إن كان لك ابنة اعطه لها ، وإلا فلتحتفظ به لأطفال " كارل " . لا أريد أن يذهب خارج أسرتى . أحيانا أعتقد أن حياتى كانت فشلا ذريعا . كل شىء ضاع بلا أمل . كنت أظن أن الحياة بعد الحرب ستكون مختلفة حدث ذلك إلى حدما .. ولكنه لا يكفى .

عندما أفكر الآن فى السنوات التى تلت الثورة ، السنوات التى كنت لأجئة فيها إلى بلاد أخرى والتى كانت فترة اختبار موجعة لكل الاشتراكيين عندما كان الظلم والجوع مخيمين ، تلك كانت أغنى ... وأصعب سنوات عمرى . هل تفهم " يا فلادى " ؟ أتكلم الآن عنى وأنا فى العشرينيات من عمرى . لا يهم كيف كانت ظروفنا صعبة ، فقد كانت أرواحنا قادرة على التكيف ورؤانا متقدمة . عالمنا الآن رمادى ، ورغم ذلك أفضل هذه الكآبة الرمادية على ما هو هناك على الجانب الآخر من الحائط المرعب . لا أستطيع أن أوطد نفسى على قوانين الغابة الرأسمالية والبقاء للأغنى ! ربما غادرتنا الرمادية يوما ما ، وتستطيع

أن تبني أنت وأصدقائك عالما أفضل . أقول ربما ! فأنا لا أعرف . لم أعد متأكدة ... انتهت الثقة العمياء بالمستقبل وخلفت مكانها فراغا ... هوة كبيرة يمكن أن تمتلئ بأى شيء ، القضية الاشتراكية أحدثت ضررا كثيرا لنفسها وللآخرين ، لدرجة أن الجرح أصبح شعارنا الأكثر صلة بالحالة . هل تذكر تلك الكلمات ؟ قلتها أنت فى أحد اجتماعات لجنة من أجل ألمانيا " ديمقراطية " واختلفت معك علنا ، ولكننى كنت فخورة بك بينى وبين نفسى . أبوك كان مسرورا . أشك أن تكون على صواب ، ولكننى أتمنى أن تكون مخطئا . على أية حال ، أنا أعرف أنك ستفعل ما هو مفيد للحركة .

لقد أخبرتك بالفعل كيف أشعر بأئنى قريبة من " هيلجا " و " كارل " كنت محقة بالنسبة لها ، وأتمنى أن تكون قد غفرت لى كل تجاوزاتى السابقة . إنها شخص رائع ، وأتمنى أن تظلوا جميعا سعداء ، بصرف النظر عما يحدث فى العالم الرمادى الخارجى . " كارل " ولد شديد الذكاء ، وإن كنت أعتقد أن وجودك فيه إكراه وقسر بالنسبة له . أفكارك لا تعجبه ، ربما لذلك تميل إلى عقابه . لم أتدخل أبدا عندما كنت على قيد الحياة إلا فى مناسبة واحدة . قلت لـ " هيلجا " إنها لابد أن تتكلم معك وتطلب منك ألا تقمعه كما كنت تفعل . وأعتقد أنها تصورتنى حمقاء تتدخل فيما لا يعنيتها . لم تحببني أبدا ...! هل أحببتنى يا " فلادى " ؟ ومع ذلك أنا لا ألومها . أتذكر مرة عندما تسالت إلى الشقة بهدوء ولم يكن أيكما على علم بذلك ، سمعتك تدافع عني ، و " هيلجا " تقول " جيرترود ستموت والحائط فى دماغها " ، وضحكت أنت ، ضحكت بهدوء . والآن وقد قضيت ، يمكنك أن تضحك بلا خوف ، قهقهة فلن أسمعك ! لأريد لهذا الخطاب الذى هو آخر اتصال بينى وبينك أن يكون مليئا بالمرارة وتبادل الاتهامات . لقد أحببتك دائما ... وكثيرا جدا ،

وكل شيء كنت أفعله أكرر ... كل شيء كان بقصد حمايتك و لضمان أنك ستعيش سعيدا . لو أنني لم أحمل بك لكان تصرفي مختلفا ، ولربما كنت قد مت مع « لودفيك » ، أو بعد ذلك بفترة وجيزة . ولكنني كان لابد أن أعيش لأنك كنت في بطني .

مارأيك « يا فلادى » ؟ هل تفضل ألا تكون قد ولدت ؟ أعرف أنك « وهيلجا » كنتما تنظران إلى كحزبية مأجورة ، ولكنني لم أكن غير ناقدة . لم أكن مؤيدة ولا موافقة على طول الخط . كنتما تطلبان الرفض الكامل للروح والمنطق ولممارسات الحزب . وذلك ماكنت أعارضه بشدة . والآن سوف أقول لك لماذا ... منذ قيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية وإعادة تأسيس الحزب ، كان هناك شريحتان تقتتلان للاستيلاء على روحه . الكوزمو بوليتان كما كانوا يطلقون علينا والمقصود بهم اليهود والألمان الذين جاءوا من الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية والألمان الذين جاءوا من الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية والألمان العائدون من المنفى ، والكوادر التي شاركت في الحرب الأهلية الإسبانية أو خدمت في الجيش الأحمر . أما المجموعة الثانية فكانوا يعتبرون أنفسهم شيوعيين وطنيين وألمانا بالضرورة . حتى في داخل الحزب ، كانت قوميتهم تخيفني أحيانا كانوا في صميمهم يفضلون « فرانز جوزيف شتراوس » على « بريجينيف » أخالك تضحك وأنت تقرأ هذا وتسخر مني : ياله من خيار يا أمي ! روث البقر أم روث الخيل ! « هذا ماسوف تقوله . أليس كذلك يا عزيزي « فلاديميرو » ؟ لكن الآن ، وقد بدأت تأخذ القساوسة اللوثريين مأخذ الجد ، دعني أذكرك بما قاله « أولبرشت شونهر » لقطيعه كمطران في « برلين » ... مدينتنا .. « إننا لانريد أن نكون كنيسة بجانب الاشتراكية . ولاكنيسة ضد الاشتراكية ، نريد أن نكون كنيسة داخل الاشتراكية .. داخلها « يا فلادى » ! داخلها ! أتفهم ؟

إن بنور القومية تثبت في كل مكان بينما بنور التنين .. الفاشية تظل هاجعة !

عندما يستيقظ الوحش مرة أخرى سنكون فى حاجة إلى قوة موازنة
منظمة وقادرة على سحقه . وهذا يمكن أن يأتى من الداخل فقط .
لقد كتبت كثيرا . طول العمر لك ولنويك يابنى .

« جيرترود »

وأنا أقرأ رسالتها « ياكارل » كنت مقتنعا بأننى استمع إلى جرس
مشروخ . لم يكن السر موجودا ، وكنت أعرف أن هناك سرا لديها ..!
وقد تأكد لى ذلك لأنها كانت تحاول تبرير نفسها من خلال وجودى
الجنينى فى رحمها !

أن تكتب ذلك ، كان معناه أنها كانت تدرك حجم الجرائم التى
ارتكبتها . كانت تعرف ماتفعل . لماذا لم أضغط وألح عليها قبل أن
تموت ؟ ربما تظن أننى كنت أخشى ماقد أعرف ، ولا أستطيع أن أثبت
أنك مخطيء فى ذلك ، ولكن ربما كانت هناك مهارة ما ، اكتسبتها
« جيرترود » من الأماكن الخطرة التى عاشت فيها .. موهبة حربائية ..
تجعلها تمر بون أن يراها أحد .. أو على الأقل تخفى مالا تريد أن يظهر
أعتقد أن ذلك نجح بالنسبة لـ « لودفيك » أيضا ، رغم أنه كان يعرفها
أفضل من معظم الآخرين .

دفنوها فى المقابر القديمة خلف المسرح ، بالقرب من المكان الذى
يرقد فيه « برخت » كان هناك أكثر من مائة شخص جوار القبر الذى
كان مسيجا بالزهور وعلمين أحمرين . كنت أنا ، وأنت ، وهيلجا ،
واقفين صفا نصافح أصدقاء جيرترود مودعين ! معظم الوجوه كان
مألوفاً ، كان هناك رفاق قدامى من مناضلى الحزب الألمانى قبل الحرب
، الذين رجعوا مع جيرترود من موسكو بعد الحرب . وكانت بينهم أرملة
« فالتر أولبرشت » التى قبلتنى . هل تراها كانت تعرف من تقبل ؟ عدد
قليل من زملائى فى « همبولت » ظهروا ، كانوا يضعون أشرطة سوداء

حول أذرعهم .. ولكن من كان أولئك الغرياء ؟ كان هناك حوالى عشرين رجلا وامرأه لم يسبق لى أن رأيت أحدا منهم قبل ذلك . يرتدون ثيابا مدنية ولكن سلوكهم ومظهرهم كان يشى بأنهم من أمن الدولة . كان من الواضح أن هناك ممثلين لوحداث الشرطة السرية والاستخبارات الخارجية وبينهم « ونتر » الذى كان قد أصبح رجلا عجوزا فى العقد السابع من العمر . كانت كتلة شعره الأبيض تميزه عن الآخرين رغم أنه كان يرتدى ثيابا مختلفة أيضا .

قالت لى «جيرترود» إنه كان أمينا لمتحف الفن الذى كانت تعمل به . جاء إلينا وقدم نفسه إلى «هيلجا» كلاوس ونتر ، كنت زميل «جيرترود» . علاقة قديمة جدا ، تقبلى خالص عزائى !

ربما كان بإمكاننا أن نلتقى على فنجان قهوة يابروفيسور « مايور » .

« سيكون ذلك جميلا يا «هر ونتر» هل كنت تعمل مع أمى فى المتحف؟» .

ابتسم وهز رأسه .

ضغطت « هيلجا » على ذراعى وهو منصرف : « أنا لاأثق به »
يا فلادى « هل لاحظت عينيه ؟ :

« ليس بالضبط ! لماذا ؟ »

« عينا قاتل ! » .

« هيلجا » أحاسيسك الداخلية أصابها الجنون هذه المرة ! لقد أصبحت مثل مرضاك . «

وقبل أن تجيبنى توليت أنت أمرنا ورحت تدفع والديك برفق نحو باب

الخروج . هل تذكر ماذا قلت ؟ « أرجوكم ... كلا كما .. دعوا جدتي
ترقد في هدوء ، انتظروا حتى تعودا إلى المنزل وابدأ الجدل ! » .

احتضنتك وقبلتك في وجنتيك . بدا عليك الحرج كشاب في الرابعة
عشرة ، ولكنني أعتقد أن أبداء حبي لك على هذا النحو العلني كان
يجعلك سعيدا .

كان هناك اجتماع مساء يوم الجنازة لجمعية السرية . فكرت
« هيلجا » أن تلغيه ولكنني صممت قائلاً إن « جيرترود » كانت تكره أن
يلغى اجتماع سياسي بسببها . الشقة مزدحمة وكان عدد الحضور
أكثر من أربعين من النشطاء .

قلت لهم : أيها الرفاق لدينا رسائل تأييد من « وولف بيرمان »
و« رودلف باهرو » رسائل يريدان أن نطبعها ونوزعها في جمهورية
ألمانيا الديمقراطية . سوف أقوم بتمريرها عليكم ، وفي نهاية الاجتماع
، بعد أن تكونوا قد قرأتموها يمكن إجراء تصويت . اتفقنا ؟ حسن !
الكلمة الآن لـ « جيرهارد » .

« جيرهارد » الذي كان يفترس الأرض قام . خلع نظارته وبدأ
يتكلم . أبلغ الحضور أنهم قد تلقوا دعوة للمشاركة في أيام السلام
العشرة التي دعت إليها الأبرشية السامرية للمساهمة في « نداء برلين »
من أجل « تحويل السيوف إلى شفرات للمحاريث » .

وكانت تلك بداية تحركنا من أجل السلام الذي أزعج كلا من الشرق
والغرب .

« ستيفان كرافتشوك » « وستيفان هيلم » و« رادولف شنايدر »
وقعوا النداء و »

قاطعته « جيزيلا » : « دقيقة واحدة يا « جيرهارد » قبل أن تواصل . لابد أن نوضح موقفنا من الكنيسة . هل سنعمل معهم ؟ أقصد نحن ! نحن الاشتراكيين اللاحزيين أو الماركسيين ، ليس هناك أى مبرر أخلاقي فى هذه المرحلة لأن نرتبط بالكنيسة ! » .
« لماذا ؟ » .

« لأن الهيئة الكهنوتية للكنيسة متواطئة مع النظام ! وقد عقدوا سلامهم مع الإدارة منذ زمن بعيد » .

قال « جيرهارد » .. « إن أفراد الأبرشية السامرية لهم نفس العلاقة بالكنيسة ، كما هى علاقتنا بالحزب : إنهم منشقون يبحثون عن مساحة نقدية . يريدون الحرية والإنسانية والتسامح . أنا أعرف ما ستقولين نحن بالطبع نريد أكثر من ذلك ، ولكننا نريد أيضا ما يطالبون به . أليس كذلك ؟ نحن لن نكسب هذه المعركة بمفردنا » واستمرت المناظرة حادة ثلاث ساعات تقريبا ، وفى النهاية ، امتنعت « جيزيلا » عن التصويت ... لم تصوت ضد !

وهكذا وضعنا مسودة رسالة تؤيد « نداء برلين » .

صرخت « جيزيلا » بعد أن صوتوا : جيرترود كانت ستقف ضدكم جميعا فى هذا الأمر ! » .

ضحكوا كلهم . بعد ذلك وقف جيرهارد واقترح نخباً !

« فى صحة » جيرترود « التى لم تعد معنا ، ولكننا تعلمنا منها الكثير ، أكثر مما كنا نتصور » .

ورد الحاضرون اسمها ... « جيرترود » !

بعد ذلك ، فى الليلة نفسها جلست وحدى أبكى ، لم أكن أريد

أن أوقظ أمك أو أن أزعجك . « هيلجا » لم تكن نائمة راحت تمسد شعري وتحثني ... أن أتكلم .

« كنت أفكر فيها . أحاول أن أعرف كيف كانت وأنا طفل لأستطيع أن أتذكر مناسبة واحدة ضحكنا فيها معا .

أقصد بمفردنا . كانت تضحك مع الأصدقاء .. ليس معي أبدا ، لماذا ؟ » .

تنهدت « هيلجا » وضممتني إليها بشدة ، « لم أحبها أبدا « ياقلادي » ! أنا متأسفة ! كنت دائما أشعر أنها تحتفظ بسر رهيب شيء ما في ماضيها كانت ضجة منه لدرجة تجعلها تكتب كل شيء ، بما في ذلك ميلادك وطفولتك . لا تتكلم عنهما .. « قلت ردا عليها : « ولكنها كانت امرأة قوية وأنت تعرفين ذلك .. جيدا استطاعت أن تتجاوز معظم المشكلات التي صوبتها إليها الحياه أو التاريخ ! »

« نعم ! ولكن قوتها تكمن فقط في مكرها واحتيالها ، في قدرتها على خداع نفسها ... ، وخداعك وخداع الآخرين .

كانت دائما تحتفظ بأشياء ولا تقول لك كل شيء في وجهك ، ودائما تتفادى أسئلتك بعدم اهتمام مصطنع ، ولكن لا بد أنه كان يؤلمها داخليا . «

وكانت « هيلجا » على حق . بحث لها بكل همومي .

« كنت أشعر دائما أنها تكذب بخصوص أبي ، فيما عدا أواخر أيامه . كانت تعرف أنها تموت . عندما ناقشنا الأمر أقنعتني تقريبا أنه كان « لودفيك »

« أو بالأحرى أقنعت نفسها « ياقلادي » .

« ربما »

بعد موت جيرترود بأسبوعين ، تلقيت مكالمة تليفونية من « كلاوس ووتر » . الرجل ذى الشعر الأبيض الذى قدم نفسه إلينا أثناء الجنازة .

اتفقنا على أن نلتقى خارج المتحف حيث كانت « جيرترود » تعمل .

لم يدعنى « ووتر » إلى مكتبة . ولابد من ذلك سرنا فى شارع جانبي ودخلنا بناية سكنية لاتحمل أية علامات ، من بقايا مابعد الحرب ، مبنية على الطراز الستالينى الكلاسيكى . ابتسم لى ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة حتى أصبحنا خارج المصعد فى الدور العاشر . سرنا فى ممر مفروش بالسجاد ودخلنا شقته .

كنت فى غاية الدهشة . المكان مقدس بالتحف الأثرية والرسوم ومجهز بطريقة جميلة .

« ليس سيئا ... هه ! »

لوحة واحدة كبيرة - كانت ٨ x ٦ أقدام تقريبا - وهى التى لفتت انتباهى . لوحة حديثة نسخة مثيرة من الأسلوب الواقعى الاشتراكى القديم ، لكن مع تحريف واضح ، تضم مجموعة مهمة من الأشخاص .

ملتفون حول طاولة من اليمين إلى اليسار ، كأنهم فى حالة كلام . . . « كرومويل » فى لباسه الرسمى ، « روبسبير » فى الجاكت الأخضر الفاتح ، « تروتسكى » فى بدلة « تونك » وذراعه الممتدة .. بتوازن فوق التليفون منتظرا المكالمة التى لم تأت أبدا ، « دانتون » فى سابع سماء بعد أن أتى على كأس الكلاريت * زجاجة الكلاريت تحمل ماركة « شاتو باستيل » ١٧٩١ ، أما « لينين » فيجلس على مقعد على مسافة من الطاولة بدون شيئا .

* خمرة بوربو الفرنسية الحمراء

وخلف هذه المجموعة المتنوعة ، كان هناك على الحائط بورترية لـ « ماركس » و « ميلتون » وتمثال نصفي لـ « فولتير » على رف صغير وعلى الأرض ، كان يجلس مثقف من أواخر القرن يرتدى بنطلونا أزرق ، وجاكت أسود مصنوعا من الجلد ، ونظارة مذهبة الإطار ، يدها تحملان رأسه ، وكأنه يحاول أن يجد معنى للثوارات القديمة . وكان ذلك الرسم الذي لا يحمل توقيعا ، بعنوان « التاريخ » .

« أين وجدت هذا ؟ ومن الذى رسمه ؟ لم يسبق أبداً أن رأيت تروتسكى فى رسم من رسوم الواقعية الاشتراكية » قال « ونتر » : « ولا الرسام ... وهذا هو السبب الذى جعلها تبدأ العمل . هى تعيش فى « موسكو » . أحد أصدقائى رأى اللوحة فى شقتها واشتراها منها على الفور » قدمت له عرضا بالدولار .

كانت « جيرترود » تحبها جدا .. وأنت ؟

هزئت رأسى .

« خذها ... إنها لك »

دهشت لهد الكلام المفاجيء ، ولكننى رفضت العرض « هذا عطف كبير منك ، ولكنه كبيرا جدا على شقتنا »

ابتسم ولم يقل شيئا لعدة دقائق . ثم بدأ يتكلم بهدوء ويتشدد محسوب . « كنت أنا وأمك كثيرا ماننظر إلى هذا الرسم ، ونتحدث عن الزمن الماضى . هل أحضر لك كأسا ؟ »

« فنجان قهوة قد يكون شيئا طيبا »

وبينما كان « ونتر » فى المطبخ ، رحت أفحص الغرفة بدءاً بأرفف الكتب .

كانت مكتبة من الثلاثينيات أضيف إليها الكثير الذى لا يشبه مجموعة « جيرترود » فى البيت عاد « وتتر » ورأى أنظر إلى الكتب .

« هـ ! دعنى أريك الكتاب الذى كان إنجيلنا فى الثلاثينيات . » وأخرج الطبعة الأولى من « ملخص تاريخ الاتحاد السوفيتى » باللغة الروسية ، تأليف « ج . ف . ستالين » وأعطاهام لى .

« من تأليف الشيطان شخصيا ؟ »

« لا تكن ساذجا إلى هذا الحد ! كتبتة لجنة من الناس المؤرخون السوفييت الذين باعوا أرواحهم للشيطان »

« لماذا ؟ »

« حدث لنا شىء ما بعد أن هزمنا البيض فى الحرب الأهلية .

موت « لينين » عدم كفاءة « تروتسكى » إزاء مناورات « ستالين » . لابد أن تفهم شيئا واحدا . ستالين كان منظما قديرا للحزب أنه لكى يضمن السلطة ، لابد أن يضمن الحزب ، وفعل ذلك بقسوة لا تتحمل أية معارضة أو تسمح بذلك .

الناس الذين صنعوا الثورة ... إما أنهم ماتوا أو أنهم استهلكوا ، أنهكو تماما . ما حدث لنا كان شيئا أشبه بتنويب وجودنا . جلدنا بسوط الشيطان . فقدنا السيطرة على حواسنا . منحتنا الستالينية التبصر داخل نواتنا وداخل الكائنات الأخرى . ضمتنا بالرصاص الأعماق السفلية لأرواحنا وما زالت علامات الوسم هناك ... دليلا على عارنا الجمعي »

« لم يسقط الكل ! ماذا عن السجناء السياسيين فى فوركوتا الذين

تظاهروا ضد ستالين ؟ وماذا عن « لودفيك » ؟
لقد كان لديه شجاعة المقاومة .

« طبعا ! طبعا ! لأنكر أنه كان هناك بعض الذين فضلوا الانتحار .
كان القرار الذى اتخذناه هو أن نظل أحياء .

كان لابد أن نخضع كرامتنا واحترامنا لأنواتنا »

« هل كان ذلك ثمنا يستحق الدفع » ياهر ونتر ؟

أنظر إلى الاتحاد السوفيتى اليوم أو إلى جمهورية ألمانيا
الديمقراطية .

بعضنا يحاول أن يقاتل من أجل بداية جديدة »

« لاداعى لقولك » هر ونتر « أرجوك ! اسمى » كلاوس « أن تتحدث
عن بداية جديدة فإن ذلك شئ نبيل بلاشك ، ولكن لابد أن نتعلم أن
نكون مجردين من الهوى .

لأستطيع أن أستسلم لإحساس العاطفة الزائف وأصدق أن وجود
أشخاص مثلك فى السلطة يمكن أن يجعل كل شئ عظيما ومجيذا
فجأة ، وأن ظروفنا رائعة ستحولنا إلى كائنات مدهشة بين عيشة
وضحاها ! »

« سخريتك »

« سخرية ؟ ! هل تتذكر أولئك الذين أستسلموا لأوهام مشابهة فى
سنة ١٩١٧ ليصبحوا - فقط - وحوشا تخيفنا بعد عشرين عاما ؟
هذا النوع من السكر الذاتى مسموح به . »

« العالم ردىء الطبيعة البشرية تحكمها جينات أنانية ، كلنا أشرار
بالفطرة . وهكذا طبقا لمنطقك يجب علينا أن نعود لنحرث عقولنا . أنا
لأوافق ! »

« هذا هو امتيازك . لكن أرجوك لا تشوه رأيي .

كل ما أنصحك ضده وأحذرك منه هو أى شعور بالانتصار لو كنت أظن أن الطبيعة البشرية ثابتة ، وغير قادرة على التغيير لما كنت اليوم شيوعيا . وكان لابد لى أن أقول لك إن هناك شيئا فى النفس ، ربما له علاقة بتكويننا الحيوى ، يسمح لغرائزنا بأن تطفئ ، وأن تتجاوز ، وتعطل الإشارات الصادرة من المخ فنيا .. نحن البشر قد ألحقنا ضرراً وشرّاً ببعضنا الآخر أكثر من أى نوع آخر نزعّم أننا قد جئنا منه هل توافق ؟:

ضاق صدرى فقامت كأنتى سأنصرف » لقد سمعت بعض هذه الحاجة من قبل ، ورغم كل شىء ما زلت أؤمن ... »

« إيمان ؟ كانت تلك دائما مشكلة كبيرة . الماركسية كدين بديل بأنبيائه وباباواته ! أنظر إلى أين أوصلتنا ؟ أنت تؤمن ؟

ليس لديك الحق أن تؤمن ! يجب ألا تؤمن لمّاذا أنت واقف ؟ لم أستاذك حوار فى الفلسفة ، اجلس من فضلك ! »

فعلت كما طلب منى ، ولكننى شعرت بأنه كان يتلاعب بي . من يكون « ونتر » هذا بحق الجحيم ؟ ! »

« من أنت يا كلّوس ؟ »

« أنا أحد رفاق أمك القدامى ! »

« لكنك أصغر من « جيرترود » إلى حد ما . كانت ستكمل الرابعة والثمانين هذا العام »

« فعلا أنا سأبلغ التاسعة والسبعين فى أكتوبر القادم .

كنا فى « موسكو » معا أثناء الحرب وكنا نعمل فى المبنى نفسه .
وأتذكرك وأنت طفل صغير . »

« كنت تعمل إذن لحساب الاستخبارات الحربية السوفيتية أيضا ؟
وذهبت للقائها فى نورفولك قبل الحرب . ماذا كنت تعمل حينذاك ؟

للمرة الأولى هذا المساء يشحب وجهه ويفقد رباطه جأشه ، ولكن
للحظات قليلة . ثم قال بصوت مخنوق إلى حد ما : نعم ! قابلتها فى
انجلترا فعلا . كان ذلك فى إطار العمل . ماذا قالت لك ؟ »

وكان يورى لابتسم . كذبت وقلت كل شيء .

« والآن ... اسمعنى « يافلاديمير » ، « جيرترود » أيضا قالت لى كل
شيء ! عندى معلومات عن اللجنة وعن عمك السياسى . أنا سعيد جدا ،
وقد وزعت بعض كتيباتكم داخل الحزب . على أعلى مستوى ! « ذهلت .
صرخت فيه : « أنت ... ! ماذا فعلت ! ؟ أيها المجنون ! كيف تجرؤ على
ذلك ؟ ليس من حقك . وهى قد أخطأت بقولها لك فقد وعدتنا أنها من
أنت بحق الجحيم ؟ .. « ونتر « قل لى ... »

« وما أهمية ذلك ؟ »

« لأننى بدأت أفقد أعصابى ! »

« هل سألت أمك أبدا ... من كانت ؟ »

« كانت أمى ! »

« أسمع » يافلاديمير « أنا وأمك كنا نعمل معا . فى الاتحاد
السوفيتى وفى ألمانيا الديمقراطية »

كنت قد بدأت أفهم . ولكننى لم أستطيع أن أصدق تلميحات « ونتر » . « جيرترود » كانت تعمل فى المتحف . وأنت ؟ »

ابتسم « ونتر » ولكنه لم يتكلم .

« حسن ! » سألت بنبرة بدت أكثر عدوانية . هز « ونتر » كتفيه ! « أنظر يا هر « ونتر » ... أنت دعوتنى إلى هنا كنت تريد أن تتكلم . وأنا أريد أن أنصرف لأنه ليس لى ما أريد أن أقوله لك أكثر من ذلك ! ولكن ماذا تحاول أنت أن تقول عن أمى ؟ ضاقت عينا « ونتر » وهو ينظر إلى . كانت « هيلجا » على حق ، تذكرت ظنى حينذاك . هذا الرجل يداه ملوثتان بالدماء !

« فلاديمير ... إما أنك كنت سانجا جدا أو أن لاوعيك قد أوحى لك بأن تظل على ادعائك . هل تعرف أنك بمجرد أن تبدأ العمل لحساب الاستخبارات ، لايمكنك أن تخلع نفسك أبدا ؟ » « كنت أعرف أنها كانت تعمل لحساب الاتحاد السوفيتى .. لكن ... » ، تعنى بأن لديك أوهاما عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية فعلا ! إذا رحلت « موسكو » . فسوف تنهار بين عيشة وضحاها . كنا امتداد « موسكو » الألمانى ، وبالطبع فإن الذين كانوا يعملون لحسابهم فى أماكن أخرى فى أوروبا ، أرسلوا إلى بلادهم . لم تغادر أنا ولا جيرترود أبدا . أنت ترتعد « يا فلادى » ؟

« تريد أن تقول إن أمى كانت تعمل لحساب « الستاسى » * ؟

« لا ! كانت تعمل لحسابى ، وأنا رأس قسما خاص . نحن نعمل

* جهاز الاستخبارات فى ألمانيا الديمقراطية .

كحلقة اتصال بين الاستخبارات الخارجية وال « ستاسى » وعدة عمليات سرية داخل كلا التنظيمين ... نرسل تقاريرنا إلى « موسكو » أولا .. ثم إلى « برلين »

شعرت بالغثيان . أسرعت إلى الحمام وأفرغت مافى معدتى . امتلأت عيناى بالدموع . حاولت أن أتمالك وعدت إلى مكتب « ونتر »

« تناول مشروباً « ياقلادى » ... إن كان لى أن أدعوك هكذا الآن !
أعتقد أنك فى حاجة إلى مشروب ! »

« أنا بخير ، شربت بعض الماء »

« أنت الآن تكرهها ؟ تعتقد أنها قد خانت اللجنة ؟ .

« ما أشعر به نحوها شىء بينى وبين ذكرياتى عنها . ولكن ماذا تريد أنت منى »

« لاشىء كثيرا .! أشعر فقط أننا يجب أن نلتقى مرة كل شهر لأطلب منك أن تكون جاسوساً « ياقلادى » !

لا حاجة لذلك . لدينا ملف كامل عن لجنة « من أجل ألمانيا الديمقراطية » ... عضويتها .. وثائقها .. ولدينا محاضرات أكثر تفصيلاً لاجتماعاتها ... أكثر مما ترى . باختصار « ياقلادى » ... نحن نعرف كل شىء لدينا عدد لا بأس به من المخبزين داخل جماعاتكم ، ندفع لهم لكى يمدونا بتقارير مفصلة ومنتظمة . هل تريد أن تراها ؟ »

كان بوى أن أخنقه وأحرق شقته . أنا جاد « ياكارل » . كانت

المرّة الأولى فى حياتنا التى أشعر فيها أننى عنيف . لأحد كان يعرف
أننى هناك لو قتلتّه ودمرت كل الأوراق .. فمن ذا الذى سيعرف ؟ لكن
ذلك كان جنونا لحظيا ... أفرعنى ! كنت متلهفا لأعرف أسماء المخبرين
. قلت له ذلك .

سار « ونتر » نحو مكتب وتناول ملفا وأخذ منه ورقتين أعطاهما لى .
التهمتها بعينى كالمجنون . كان جسمى يرتعد حتى النخاع . ماقرأته
كان تقريراً دقيقاً ... جداً ... عن اجتماع عقدناه منذ ليلتين . سقطت فى
المقعد بون كلمة واحدة !

« تصلنا أحيانا تقارير متناقضة . وكانت « جيرترود » هى التى تحل
المشكلة وهى الآن ليست موجودة . أنا سعيد أنك قد أقمت علاقات
جيدة مع القساوسة . وكما يجب أن تتوقع فإن بعضهم يعمل لحسابنا
أما جماعاتكم فهم مختلفون ، يريدون أن تقوم ألمانيا الديمقراطية
بتسريح جيشها العامل . سذاجة خطيرة . تهدد دولتنا ! » كنت عاجزا
عن الكلام . صدمة وغضب ويأس ! كانوا يعرفون فكرت فيك « ياكارل »
وماذا يمكن أن يحدث لو سجنّت أنا « وهيلجا » ملجأ أيتام بالنسبة لك ؟
الفكرة فى حد ذاتها جعلتنى أصرخ « ماذا تريد منى ؟ لأريد أن أراك
كل شهر ، ولا أن أراك أبدا ! لن أنقل إليك شيئا .. هل ستعطينى أسماء
المخبرين فى جماعتنا ؟ »

« لا ، أستمع إلى «ياقلادى» يحدث أحيانا أن أتفق مع أهدافكم .

لولا أننى أعمل مع الدولة لكنت عضوا فى اللجنة وأعتقد أننا فى
حاجة إلى التحول الديمقراطى ، أن يكون لدينا انتخابات ، وصحافة
حرة ، وكل شىء آخر - ، فى التحليل الأخير - أن تظل الدولة

الحالية فى الحكم ، كما هو الحال فى الدولة الغربية التى يعجب بها أصدقائك كثيرا .. نظراؤنا فى « بون » و « باريس » « ولندن » ، مثلنا تماما ، لا يعرفون الرحمة . الفرق أن لهم خبرة مئات السنين . وافقت معه ، ولكننى رفضت أن أعطيه أى إحساس بالرضا .

« مازلت لا أريد أن أراك ثانية »

« لكن من غيرى يمكن أن يقول لك إن جدلا كبيرا يحدث داخل المكتب السياسى حول خطوط لاتختلف عن بعض ماتطالبون به فى كتيباتكم ؟ »

« تقصد أن هناك ... »

« إصلاحى فى الكرملين ؟ ليس بعد ، ولكن عاجلا سيكون . نظيرى فى « موسكو » ، الراحل « يورى أندروبوف » كان يعتقد أن الإصلاح هو الطريق الوحيد . »

« إذن لو بدأت « موسكو » سوف تكون فى حاجة إلى عدد قليل من المؤيدين فى ألمانيا الديمقراطية ؟ »

« أنت إنسان ذكى يابروفيسور « مايور » لابد أنك ستكسب بأسرع مما تعتقد . »

« لست متأكدا من أننى أصدقك ! »

« انتظر ، وسوف ترى . الصبر هو أكثر الخصال نبلا ! » سرت عائدا إلى الشقة وأنا فى حالة ذهول ، غافلا عن شمس الربيع . غافلا عن أزهار اللوز ، ناسيا كل شىء سوى « ونتر » .

كان ذهني يستعيد ويستعيد الأحداث التي وقعت في ذلك المساء .

أريد أن أركض في « أونتريو دن ليندن » صارخاً في البرية أن أمي كانت جاسوسة ! وأنها كانت تجسس على أسرتها ! « وأن عقلها الأشل كان قد دمر كل معنى للشرف ! كانت الأخلاق فكرة لم تفهمها » جيرترود « أبدا .

عندما عدت كانت الشقة هادئة . وكنت أنت في تشيكوسلوفاكيا مع مجموعة من مدرستك . وكان لدى « هيلجا » عمل حتى ساعة متأخرة ، فقد كان يوم « الثلاثاء » موعد فحص عدد إضافي من المرضى في عيادتها في المستشفى .

صرخت في صورتها . عودي إلى المنزل « يا هيلجا » عودي لإجراء تحليل لي ! كنت أنتقل من غرفة لأخرى أزيل كل صورة لها أراها أمامي . هناك صورة أحبها : « جيرترود » تحملك وأنت في عامك الثالث . تبتسم لك ابتسامة حقيقية . كنت أحب تلك الصورة . وكانت موضوعة على مكتبي .. مع ذلك أخذتها وهشمتها على الأرض . كرهت تلك الابتسامة . لا يمكن أن تكون حقيقته ! لا شيء فيها حقيقيا ... وجهها .. عواطفها .. حياتها .. كل شيء كان قناعا .

عندما رجعت « هيلجا » في ذلك المساء قلت لها كل شيء .. اهتزت أيضا .. ولكنها لم تتدهش .. ولم تفاجأ ! كان الأمر بالنسبة لها لغزا ... وتم حله ! جلسنا متجاورين ساعة كاملة .. كلانا مدفون في أفكاره !

لو أن هناك شخصاً واحداً يمكنه أن يخبر « قلادى » بما يريد أن يعرفه عن « لودفيك » لكان ذلك الشخص هو « فيليكس » ، فقد كان يعرفه من منظور طفل . « فيليكس » الذى ولد نتيجة حب كبير بين والديه فى أيام الحلم البطولى . « فيليكس » الذى كان يفهم أكثر مما كان يدرك والداه ، والذى كان يقظاً بشكل دائم لآى تغير ولو ضئيل فى فراج أى منهما .

عندما استيقظ « فيليكس » فى ذلك اليوم الجميل من يوليو عام ١٩٣٧ ، حاول أن يفهم لماذا كان سعيداً إلى ذلك الحد ! عبس ، وحاول أن يتذكر الحلم ولكنه هز كتفيه يأساً . كان أحد أسباب سعادته أن ثلاثتهم يجتمعون معاً لمدة شهر تقريباً . كان « لودفيك » قد توقف عن السفر . على أطراف أصابعه ، سار « فيليكس » إلى غرفة نوم والديه وإدار أكرة الباب النحاسية بهدوء شديد . أحدث الباب صريراً . كانا نائمين بعمق ، ومتعانقين ، . ابتسم « فيليكس » وانسحب خارجاً وجذب الباب فأغلقه ، أحدث الباب صريراً مرة أخرى مما جعله يرتجف ويتوقف ، ولكن لم يصدر صوت من الغرفة .

« باريس » صيفاً . أطل من نافذة المطبخ وأغمض عينيه عندما ضربت الشمس وجهه . كانت الشوارع تبدو واضحة وجافة . تجمعات الماء اختفت . ضوءاء الشارع تتزايد فبدأ يرى أشكالا مألوفة . فى أحلام اليقظة ، كان « فيليكس » ينظر إلى أصحاب المحلات ، ويضع لكل منهم ملامح مختلفة . بعد ذلك كانت تلك الوجوه التى يعيد تركيبها تذكرة بأناس يحبهم ولكنهم كانوا الآن بعيدين فى الاتحاد السوفيتى ...

رغم الإجهاد الشديد الذى كان يحدث لأمة ، فإنه كان يستمتع برحلاته إلى « موسكو » .

كان الأصدقاء القدامى دائماً حاضرين فى ذهنه . وكثيراً ما كان يبدأ حوارات متخيلة مع الشخصيات فى الشارع الذى يقع أسفل مسكنهم .

وأحياناً يندمج فى التفاصيل المعقدة لذلك العالم المتخيل ، لدرجة أن يغفل عن أمه وهى واقفة فى آخر المطبخ تستمع إلى كل كلمة يقولها . كان يشعر بالحرج أحياناً ، ولكن ذلك لم يزعجه أبداً .

أعد لنفسه إفطاراً بسيطاً ولكنه لم يسترخ طويلاً . تملكه للمرة الأولى خيال حرب أهلية قديمة ، عندما كان فى الخامسة أو السادسة ، وتسلسل ذهنه مرة أخرى إلى آثار « الدولية » . كان فعلاً يسمع صوت المارشال « توكاشيفسكى » هادئاً ولطيفاً ، وليس مثل صوت الجنرالات الذين يشاهدتهم فى السينما .

« يمكنك أن تأتى بإفطارى الآن يا رفيق . أنا جاهز » أخذ « فيلكس » الصينية ، وذهب بها إلى المارشال الذى ابتسم حين أدى له تحية القبضة الحمراء .

« هل هناك أخبار من الجبهة أيها الرفيق المارشال ؟ »

« البيض فى حالة انسحاب شامل ، قوات " كوشاك " هزمت . دينكين " اختفى . أخبار طيبة : هه ؟ " .

« بالطبع أيها الرفيق المارشال ، ولكن .. الجيوش الأجنبية ! هناك اثنان وعشرون منها على الأراضى السوفيتية . هل نستطيع أن نهزم اثنين وعشرين جيشاً ؟ »

" نستطيع .. بكل تأكيد ! الرفيق " تروتسكي " يصل اليوم . هل
تود مقابلته ؟ " .

عند هذه المرحلة رن جرس التليفون . لعن " فيلكس " المتكلم .

" نعم .. نعم .. أنا .. ماما مازالت نائمة يا عم " شميلكا " ..
سأبلغها أنك اتصلت .. بالتأكيد . ! أتمنى ذلك .. أوريثوار ! " " لودفيك
" كان دائماً غير موجود بالنسبة لمن يطلبه ، إلا إذا كان هو يريد أن يرد
على التليفون . هذه القاعدة من قواعد المنزل كانت راسخة في
ذهن " فيلكس " لدرجة أنها جاءت بشكل تلقائي .

كان " فيلكس " يحب " ليفيتكس " . وكان هو الوجه القديم الوحيد
من الوطن في " باريس " في ذلك الوقت . جاء لزيارتهم مرتين الأسبوع
الماضي ولكن التوتر كان يبدو عليهم جميعاً .. والمفاجأة .. المفاجأة ..
أنهم توقفوا ككلهم عن الكلام عندما دخل " فيلكس " الغرفة . كان يكره
أن يفعل الكبار ذلك معه . لم يعد طفلاً .

كان لديه حدس أن والديه يقومان بأعمال سرية لحساب الاتحاد
السوفييتي . لم يقل له أي منهما شيئاً ، ولكن قواعد وتعليمات البيت
كانت غريبة . برامج السفر بالنسبة للعائلة مثلاً لم تكن تعلن لأي
شخص . ولم يكن تفسير « ليزا » لذلك مقنعاً ، كان غيبياً ، لدرجة أن
« فيلكس » لم يعد حتى يتذكر ماذا قالت له أول مرة . عبس . بالأمس
فقط طلب منه أحد أصدقائه ، أندريه ، أن يأتي لقضاء عدة أسابيع معه
ومع أسرته في " إقليم الباسك " . رفض ، " فيلكس " وعندما ألح عليه «
أندريه » يعرف سبب رفضه ، همهم « فيلكس » بشئ غير مفهوم عن أن
والديه كان ينويان اصطحابه في رحلة طويلة إلى مكان ما ... أو شئ من
هذا القبيل .

كان أول يوم من أيام العطلة الدراسية . صفق بيديه . كان ذلك أحد أسباب شعوره بالسعادة . كيف نسي ؟ .. سعيد لأن الدراسة إنتهت . كانوا في البداية يظنون أنه أحد أبناء اللاجئين الإسبان ، يبحث عن مأوى من الحرب الأهلية . أولوه اهتماما خاصا وبدأ يتعلم الفرنسية بسرعة مذهلة .

معظم المدرسين من الشيوعيين أو الاشتراكيين وكانت إسبانيا قريبة جداً من تفكيرهم . شقيق مدرس الكيمياء مات في " تيريول " ، وفيما بعد أكتشف المدرسون أن " فيلكس " لا يتكلم كلمة إسبانية واحدة . كانوا قد خدعوا أنفسهم ، ولكن غضبهم تحول إلى " فيلكس " . « أنا أتكلم الروسية والبولندية والألمانية » ، أعلن ذلك وعيناه متأججتان غضباً .

« الروسية ؟ » .

ربما أفضل من الإسبانية عند بعض المدرسين ، وكان يلقي عناية أكبر . أما لغته الفرنسية فأستمرت في التحسن .

وذات مساء سأل مدرس الرياضيات الشاب : ماذا يعمل أبوك ؟ " أجاب " فيلكس " كما قالوا له في مناسبات عديدة ومدن عديدة . " رجل أعمال " .

نظرة الرعب على وجه المدرس جعلت " فيلكس " يحمر خجلاً .

" متى ترك الاتحاد السوفيتي ؟ " .

الآن .. كانت اللهجة عدائية لدرجة أن " فيلكس " هز كتفيه في تحد . " نفاية بيضاء ! " هل قال المدرس ذلك بالفعل أم خيال « فيلكس » هو الذي صور له ذلك ؟ » .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت المدرسة جحيماً ، بؤساً لا يمكن أحتماله .
بدأ بعض الأطفال يضايقونه لأنه « أبيض » . والاستهزاء به أدى ذات
مرة إلى اشتباك بالأيدي . أما الذى أزعجه أكثر من ذلك ، فهو ضحك
« لودفيك » و « ليزا » عندما أخبرهما .

بعدها تكلمت « ليزا » مع المدرس وخف التوتر ... لكن المدرسة لم
تعد شيئاً ممتعاً ! .

كان « أندريه » هو صديقه الوحيد . وكانا يتحدثان معا فى كل
شئ .

« فيليكس » يجب الذهاب إلى بيت أندريه الذى كان والده يعمل
سائق قاطرة بنظام الورديات . وعندما كان يذهب معه إلى منزلهم بعد
المدرسة كان يرى أن والده يستيقظ من النوم متأخرا ويستعد للذهاب
إلى عمله ، ولكنه كان يتكلم معها دائماً ، ويعاملها معاملة الكبار .

فى بعض الأيام كان « أندريه » ووالده يلعبان الشطرنج لفترة
طويلة، وكان « فيليكس » يمنى نفسه بالذهاب معهما إلى « الباسك »
لقضاء أسبوع فى الشهر التالى .

تناهت إلى سمعه الأصوات المألوفة فأسرع إلى غرفة النوم . كان
يعتقد أن « ليزا » ستكون فى حالة فرح وحماس مثله لما قاله
« لودفيك » فى الأسبوع الماضى ، وهو أنه لن يكون مضطرا للسفر إلى
الخارج بعد ذلك . ولكن وجهها كان مشدودا . هى نظرة يعرفها
« فيليكس » جيدا ، ولكنها كانت فى الماضى مرتبطة دائماً
بغيباب « لودفيك » .

اليوم ليس لها تفسير . عانق أمه فضمته إليها بشدة وراحت تمسك
وجهه طول الوقت . أصبحت الكلمات عاجزة وغير صالحة للتعبير ، ولكن

تلك المبادلات الصامتة المشحونة بالعاطفة ، كانت دائماً تنقل إشارات خاصة . هكذا كان الأمر دائماً .. وعلى قدر ما يتذكر .

أدراك " فيليكس " أن قرار والده بعدم السفر يعنى أن هناك تهديدات قوية قد تكون أشد خطورة ... فأين يكمن الخطر ؟ ولماذا ؟ .

" لماذا ماما منزعة .. ومتوعكة المزاج هكذا ؟ " . كان "لودفيك" و " فيليكس " يسيران فى الحى اللاتينى ... رأى " لودفيك " "باريس" لأول مرة فى سنة ١٩٢٣ ، ووقع فى غرام تلك " المدينة داخل المدينة " ، شرح لـ " فيليكس " : أمر نابليون الثالث ببناء "بوليفار سان ميشيل" ، ولكن تم الإبقاء على عدد كبير من الشوارع الضيقة للاحتفاظ بالعبق البوهيمى القديم .

نظر " لودفيك " إلى شعر الولد الذى كان يعكس ضوء الشمس وابتسم لنفسه ، أصبح " فيليكس " طويلاً ووسيماً ... مثل أمه تماماً .

تذكر جدله مع " ليزا " حول إنجاب طفل فى عالم تمزقه الحروب والصراعات . والحمد لله إنها كسبت الجدل ، وضع ذراعه حول كتف الولد . كانت أعمق لحظات كربه تدور حول " فيليكس " دائماً ، فى الأيام الباكرة كان قلقاً لما يمكن أن يحدث لابنه إن وقع هو نفسه فى أيدي الأعداء . ويمرور السنوات أصبح " لودفيك " أكثر استقراراً من الناحية الذهنية .. والآن ... فإن " فيليكس " سوف يتذكر والده على الأقل .

« لم أعد طفلاً صغيراً ! أنا أعرف أكثر مما تعتقد . وهى منزعة وقلقة عليك ... ومتوعكة المزاج ... لماذا يا أبى ؟

أرجوك .. قل لى ... أرجوك ! "

" سوف أقول لك كل شئ عندما نكون معاً فى عطلة . أعدك سنجلس معاً فى مقهى ونتحدث طويلاً . "

" سنسافر معاً إذن ؟ "

" ليس بالضبط . ستسافر أنت و " ليزا « غداً ، وسألحق بكما بعد أسابيع قليلة . وعد منى ! "

" وهل هي منزعة لذلك ؟ لأنك لن تذهب معنا ؟ "

" هذا أحد الأسباب بالتأكيد ! "

اكفهر وجه الولد ولكنه لم يقل شيئاً ، لماذا لابد أن يبقى " لودفيك " هنا عدة أسابيع أخرى ؟ الآن كانا قد عبرنا شارع " الأوديون " ووصلنا إلى عالم الأدب . كان " فيلكس " يحب تلك المعارض الصغيرة ولديه فكرة جيدة عن الرواق ، وعندما كان " لودفيك " يسافر كانت " ليزا " تأتي به إلى هنا وتتركه يتجول بمفرده ويقضى الساعات في تصفح الكتب .

وبينما كان " فيلكس " ينظر إلى الكتب الصادرة حديثاً ، ويتأمل الأدوات المكتبية بلهفة سار والده عرضاً نحو كشك صغير يبيع الكتب المستعملة ، بداخله امرأة عجوز تقوم بترتيب الكتب بشكل مستمر . تهلت عيناها عندما رأت " لودفيك " ولكنها لم يتبادلا كلمة واحدة . ذهبت وعادت بكتاب قديم جداً وأعطته لـ " لودفيك " هذه المرة ظهر في عينيها القلق ، لاحظ " لودفيك " ذلك وابتسم لها ابتسامة مطمئنة وهز رأسه وهو يتناول الكتاب منها . وبينما هو يبتعد كانت تنظر حولها في قلق لترى إن كان أحد يراقبهما ، ولكن كل شيء كان يبدو عادياً تعرف معظم الزبائن القدامى .

" احترس يا لودفيك ! " .. هممت لنفسها .

ذهب " لودفيك " يبحث عن " فيلكس " فوجده عند كشك الأنوات المكتبية ، وأثناء ذلك تناول قصاصة صغيرة كانت بداخل الكتاب ووضعها في جيبه . تناول " فيلكس " الكتاب من والده . نسخة من الطبعة الأولى من رواية " الحرب والسلام " هز " فيلكس " رأسه وابتسم ضحك " لودفيك " . كانت مجموعته من الكتب القديمة مثيرة دائماً بالنسبة لـ " فيلكس " الذي لم يستوعب أبداً سبب اقتناء عدة طبعات من الكتاب نفسه .

بعد عدة ساعات ، وبعد أن ذهباً إلى البيت ، وبعد المرور حول مقهى " ثولتير " أكثر من مرة ، وبعد شراء حذاء تسليق لـ " فيلكس " ، كانت صدمته شديدة . وجد الشقة عارية تماماً . كل شيء تم نزعه من على الجدران . حقائب مكدسة بالملابس والكتب تغطي الأرض كانوا يعيشون هنا منذ عشرين عاماً تقريباً . وعلى خلاف والديه كان : " فيلكس " قد أصبح متعلقاً بهذه الشقة . رأى " لودفيك " النظرة على وجه الولد وضغط على كتفه بحنان .

" قامت أمك بحزم الأمتعة من أجل العطلة " .

" ولكنها قد حزمت كل شيء ألن نعود ثانية ؟ "

صوت " فيلكس " الحزين أزعج " لودفيك " . شعر بالآلم . كان " لودفيك " يعلم جيداً أن حياة الترحال التي يعيشونها مربكة لنفسية ابنه . وإلى الآن لم يكن هناك بديل آخر ، سوى بالنسبة لـ " ليزا " طبعاً ، وهو أن تنتقل إلى " موسكو " ، وبشكل دائم ، وكان ذلك مستحيلاً .

" لن نعود إلى هذه الشقة يا " فيلكس " . غداً ، أنت راحل إلي مكان بعيد عن هنا . لا خطابات ، لا تليفونات ، لا رسائل ، ومن الآن فصاعداً سنكون معا . ودائماً . هل أنت سعيد ؟ "

عانق " فيليكس " والده .

" هل حصلت على عمل جديد ، هل سئمت العمل لحساب الاتحاد
السوفيتي ؟ "
" جداً ! " .

" بعد وقت قصير ستصير أصلع .. تماماً ! "

أبتسم " لودفيك " وهو يتنهد . لو أنه يستطيع أن ينسحب بهدوء !
تناول القصاصة الصغيرة التي تسلمها عند كشك الكتب .

" بعض الأشخاص ، روس بالتأكيد ، سألوا عنك اليوم .. أين كنت
فى الفترة الأخيرة ، وما إذا كنت أتوقع مجيئك فى يوم معين . تظاهرت
أننى لأعرفك وأننى لا أفهم ما يقولون . لم يكن لديهم فكرة .. أننى اتكلم
الروسية ولذلك سببوني ، ولكنهم صدقوا ما قلته لهم .

ربما هى التجاعيد التى تملأ وجهى ! حاذر يا لودفيك ! " فى تلك
الليلة وهو يستعد للنوم ، قالت له " ليزا " ألا يبقى الولد ساهرا لوقت
متأخر . " لابد أن ينام حالا .. لدينا يوم طويل غدا " وقامت " ليزا "
لتنظف طاولة المطبخ التى كانت مكدسة ببقايا طعام العشاء . حمل
" لودفيك " ابنه على ظهره كما كان يفعل عندما كان " فيليكس " أصغر
من ذلك بكثير ، وسار نحو المكان الضيق - خزانة أكثر منها غرفة -
حيث كان يوجد سرير " فيليكس " .

" لاداعى للقصص الإسبانية هذه الليلة . فهى حزينة جداً " .

منذ عيد ميلاده الثالث ، كان " فيليكس " يحرص على حكايات
قبل النوم كلما عاد والده من رحلة طويلة فى الخارج . كانت
الحكايات كلها تتضمن حيوانا يقوم بالدور الرئيسى . وكان " لودفيك "

دائماً يلتقى ، فقامة تتكلم فى امستردام ، أسدا مهتاجا فى لندن ، دبا من سيبيريا هائماً فى قيينا ، ثورا أمريكيا ضالاً فى جنيف ، شعبانا ضحماً فى ميونيخ ... وهكذا ! وحول هذه الحكايات كان " لودفيك " ينتهج أسلوباً لشرح ما يدور فى العالم الخارجى لابنه .

ومع تطور " فيلكس " ، كانت الحيوانات تختفى بالتدريج ، ليحل محلها بشر خرافيون ، ثم بعد ذلك ، فى السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة ، كان " لودفيك " يروى له حكايات حقيقية يختارها من تجاربه وخبراته فى الاتحاد السوفيتى وألمانيا ، ومؤخراً ، من الحرب الأهلية الإسبانية .

كان الكلام عن الحرب الأهلية الإسبانية يدور فى كل مكان يذهب إليه " فيلكس " . وكان فخوراً لأن والده يساعد الجمهورية ضد الفاشست ، وذات صيف لحق به هو و " ليزا " لمدة أسبوع فى " كوالير " أحب المدينة جداً لدرجة أنه كان يود أن يقضى وقتاً أطول هناك ، ووافق والده . وفى كل يوم ، عندما كان " لودفيك " يزور قريته الجمهورية فى الجبال ، كان " فيلكس " يسحب " ليزا " لاستكشاف القلعة القديمة التى تعود إلى القرون الوسطى .

لم تكن الحكاية مجرد قلاع قديمة وأيس كريم وكعك ! ولا تلك الساعات الطوال فى اللعب على الشاطئ . الواقع أن " فيلكس " قد أقام علاقة صداقة مع ولد فى نفس عمره . أصبح الولدان لايفصلان . وكانت " ليزا " سعيدة لسعادة ابنها . وبعد أيام قليلة اكتشفت أن صديق " فيلكس " الجديد كان له أخت تكبر الولدين بعام واحد .

تعلق بها " فيلكس " وصار يتبعها فى كل مكان مما ضايق شقيقها ناهيك عن طالبى يدها الكثر ، والأكثر جدية !

ثم جاء يوم رحل فيه الأخ وأخته . انتهت العطلة .

" فيليكس " كسير القلب ، يجول فى أرجاء القلعة القديمة ، يأسى لنفسه ويتخيل مواقف ينقذ فيها حبيبته من قوى الشر . ووصل به الأمر أن زهد الطعام عدة أيام . كان " لودفيك " و " ليزا " يرقبان كل شئ صامتين . أية محاولة للكلام عن ذلك مع الولد يمكن أن تكون مدمرة . وقبل أن يمر الأسبوع ، كانت " ليزا " قد نجحت فى استعادة ابنها إلى الواقع !

روى له " لودفيك " عشرات القصص عن إسبانيا . كيف كان العمال الإسبان يحاربون ضد " فرانكو " و " هتلر " و " موسوليني " كيف كان الأمريكان والروس والإنجليز والألمان .. نعم .. الألمان أيضا .. يهرعون لمساعدة الجمهورية . حكايات البطولة وأيام الأمل !

بعد فترة ، بدأ " فيليكس " يشعر أن حكايات " لودفيك " مملة ومكررة . حتى البطولة يمكن أن تصبح مملة .. ، لكن هناك شئ آخر . لم يكن يحصل على حكاية كاملة ! كان قد سمع والديه يتكلمان همسا عن التيارات التحتية السامة . الحرب داخل الحرب ، القتل داخل المعسكر الجمهورى . لم يفهم فيليكس ذلك الكلام ، ولكنه كان يعرف أنه - مهما كان معناه - فهو مزعج بالنسبة لوالديه أيما إزعاج !

" كلمنى عن حياتك عندما كنت طفلا .. قبل الثورة .. السمع شمليكا " قال إنك كنت دائما تجادل الجميع ! " .

الولد الذى كان مستلقيا على السرير فى ظل ليلة صيف ، ينظر بإعجاب شديد إلى والده . انحنى " لودفيك " ليقبل عينيه .

" كنا مجموعة كاملة فى تلك المدينة الصغيرة .. تذهب إلى المدرسة نفسها .. وخارج المدرسة كنا نقضى معظم وقتنا معا . كان المركز الصيفى الرئيسى على شاطئ النهر . وهناك كنا نسبح ونتنافس لنرى من يمكنه اصطيد أكبر كمية من السمك نشعل نارا ونشويه .. لا أجمل ولا أطمع !

وفى الشتاء ، كان من عادتنا أن نتسكع حول محطة السكة الحديد للمدينة الحدودية ميزات كثيرة . كنا جزءا من الأمبراطورية النمساوية . والجانب الآخر من النهر كان الأمبراطورية القيصرية .

وكنت أنا شخصياً أفضل النمساويين نشاهد القطارات تمضى أمامنا ونحلم برؤية المدن الكبرى .. سان بطرسبورج ، برلين ، لندن ، باريس ، فيينا . كان عالمنا محدودا بتلك الأماكن .

نرى الناس يعودون من " فيينا " إلى " ليمبرج " ، وأسبب ما فشلنا أن نفهمه ، كانت كل النساء الجميلات من طبقة النبلاء الروس من عاداتهن أن يلقين بزهورهن عند " بدفوشوليسك " الصغيرة ، وكنا نأخذ تلك الزهور ونرشها الماء ونحزمها بخيوط جديدة ونبيعها للمسافرين إلى الاتجاه العكسى ، أو الأم " شميليكا " كانت تشتريها منا دائماً .

" هل كان والدا العم " شميليكا " أغنياء ؟ "

" ليس إلى تلك الدرجة ، ولكنهما مقارنة بنا كانا يبدوان كذلك ، فقد كان " شميليكا " يرتدى ثيابا نظيفة ويتلقى دروسا فى الموسيقى ، أما الترف الكبير . فكان يتمثل فى استقلاله بغرفة فى منزلهم " .

" كفى يا " لودفيك " ! أترك الولد ينام ! " .

ابتسما عندما سمعا صوت " ليزا " . قبل " لودفيك " الولد فى وجنتيه " نوما هادئا يا بنى ! " .

فى الصباح التالى انتقل " لودفيك " إلى فندق صغير فى د " سيلشى " ، بينما استقلت " ليزا " و " فيلكس " قطارا يحملهما إلى سويسرا عبر مسارات والتفافات معقدة ، كان " لودفيك " يحاول بها أن يضلل أى كلب صيد عن مساره . لم يكن مستقبه واضحاً ، ولكنه لم

يكن على استعداد للمخاطرة بحياتهم . فإن يصلإ إلى مقصدهما
مرهقين تماماً ، لأفضل ألف مرة من ألا يصلإ على الإطلاق .

" ليزا " تحلم :

أمواج هائلة كأنها ملاءات ثقيلة ، بيضاء ناصعة كالقطن المغسول تغطي
حواسها . رأس " لودفيك " يواصل الظهور والاختفاء .. هل يحاول أن
يسبح ؟ لقد اختفى ثانية .

هدأت الأمواج . ليس بحرا .. وإنما الثلج .. ! صحراء ثلجية .
تعرفت على الأفق القطبي المألوف " سيبيريا " . وها هي نفسها هناك
تسير نحو مجرى يتدفق ولكن بحركة بطيئة . تصل إلى حافة الماء ،
لكنها تجد نفسها فجأة في مواجهة جذع شجرة ضخمة مقيد فيه رجل
بالسلاسل ، ... ولا يقاوم بالمرّة . تتعرف على " لودفيك " وتجرى نحوه
وهي تصرخ .. " اجناتي .. ! اجناتي ! " ولكن جذع الشجرة والرجل
المقيد به ينحسران كأنهما سراب . بعد ذلك تجد نفسها غائصة في
الأرض عاجزة عن الحركة . شلل . جذع الشجرة توقف أيضاً .. الدم
يتدفق من وجه " لودفيك " ويتساقط في المجرى المائي مثل الشمع على
الماء ، قطرات دم كاللؤلؤ . مات ! لا .. ما زال حياً .. تظهر على وجهه
ابتسامة ثم يبدأ الكلام .. لكنه ليس صوته .

صوت عميق وكل كلمة واضحة بيّنة . صوت الممثل اليهودي "
ميخويلس " على مسرح " موسكو " . " لودفيك " في الحنجرة القناع د "
ميخويلس " . يقرأ قصيدة .. هي معروفة بكل تأكيد ..

لقد صمدت أمام الرغبات ،

تباعدت الشقة بينى وبين أحلامي ،

حزنى فقط بقى كاملاً ،

بقايا قلب فارغ .

عواصف تدبير لايرحم ،

ضربت إكليل زهورى فأفقدته الحس ،

أعيش خرابا وحيدا ..

وأتساعل .. متى تحين النهاية .

أشباح تتحرك خلف " لودفيك " ، الفؤوس ترتفع استعداد لقتله .
صوت آخر ، متحرر من الجسد . خفى . من يكون ؟ " فيلكس " يردد
عبارة ثم يعيدها .. شعبنا .. شعبنا .. شعبنا .. " الفؤوس على وشك أن
تنزل !

استيقظت " ليزا " برجفة شديدة . الحلم يتلاشى تدريجياً والقطار
يتقدم بهدوء ، ثم بدأ يتعطف فى سيره فى المسافة المتبقية نحو القرية
السويسرية الجبلية . تحسست بيديها البلى على خديها . كانت قصيدة
" پوشكين " غريبة فعلا ! درستها فى المدرسة فى التاسعة
أو العاشرة من عمرها ولم تقرأها أو تردها منذ ذلك . إحدى مفاجآت
الذاكرة .

" فيلكس " ما يزال نائماً إلى جوارها ، رأسه مستندة على النافذة
وشمس ما بعد الظهر تطبع ظللاً على وجهه . مشطت " ليزا " شعره
بأصابعها ونظرت من النافذة . صور مذهلة .

المنطقة فى قمة بهائها فى فصل الصيف . أزهار جبال الألب
متفتحة النجوم ذات اللون الأصفر الفاتح رسمت على وجهها
ابتسامة رضا .

لحظة ، ونسيت كل شئ وهى تستنشق ما حولها .

عربة القطار مملوءة بعبق الورد التي جاءت بها مع متاع شهر
العسل عروس ألمانية سويسرية وزوجها الفرنسي .

مائة وردة بيضاء . لم يكن في عربة القطار سواهم " فيلكس " الذي
لم يكن معتادا على مثل تلك المناظر ، كان في غاية الدهشة لحجم وجمال
الباقة . العروس الصغيرة التي كانت متأثرة بالسعادة البادية على وجه
الولد ، أخذت وردة من الباقة وشبكته على صدر " البلوفر " الذي كان
يرتديه . ابتسمت " ليزا " لرؤية ذلك . كانت الوردة مدلاة على صدره
كأنها تحاكي حالة صاحبها الجديد ! منذ ليلة أمس ، عندما أبلغها "
لودفيك " بقراره ، " ليزا " خرساء من شدة الخوف .

قال بابتسامة غريبة .. حزينة .. " لقد قررت التقاعد . !

كفى ! ساكتب لأبلغ موسكو الأسبوع القادم . "

ضمته إليها ، ولكنه كان يرى في عينيها أنها كانت متجمدة من
الخوف .

كلاهما يدرك أن فرص النجاة ضيقة جداً . إن أي خادم أو
موظف نكرة ما كان يمكن له أن يترك العمل دون تحقيق بالغ القسوة !
ماذا سيفعلون مع " لودفيك " ؟

الرجل الذي أنشأ شبكات في أكثر من اثنا عشرة دولة
أوربية .

" فيم تفكرين يا أمي ؟ "

قال " فيلكس " وهو ينظر في عيني أمه بعد أن أيقظته مناظر
ورائحة الجبال . هما مرة أخرى وحدهما . العروسان نزلا في المحطة

السابقة ، القطار يشق طريقه ببطء وصعوبة نحو " فينهوت " ضمته " ليزا " ولم تجب . كانت قد قررت هي و " لودفيك " ، منذ أن كان " فيلكس " فى الثالثة ويسأل غريبة أن الصمت أفضل من الكذب ما عدا مناسبات خاصة طبعاً ! كان ذلك هو الأسلوب الوحيد ، وإلا فإن طبيعة عمل " لودفيك " كانت تعنى صناعة عالم زائف تماماً ، مملكة من الأكاذيب . ولم يكن ذلك مقبولا بالنسبة لـ كليهما .

و " فيلكس " من جانبه ، نشأ ليقبل أن هناك أسئلة كثيرة فى هذا العالم .. لن يحصل على إجابات عنها !! كان يرى ذلك مراوغة ، قبلها كحقيقة من حقائق الحياة ، مثلما يتعلم الأطفال دائماً ألا يتحدثوا قرارات من هم أكبر منهم .

وصل القطار إلى المحطة . هبطت " ليزا " و " فيلكس " على الرصيف واستنشقا هواء الجبل ! ساعدهما أحد الحمالين ، وفى ظرف نصف الساعة كان قد وصلا إلى الشاليه الذى اختاره لهما " لودفيك " كمعتزل عن العالم !

كلاهما يفكر فيه !

" متى يأتى ؟ ! "

كان " لودفيك " بمفرده في " باريس " . يقضى وقتاً قليلاً في غرفته بالفندق ويتجنب كل معارفه وعلاقاته القديمة . وذات ليلة ، وهو عائد إلى الفندق بعد منتصف الليل ، رأى شخصاً غريباً يراقب غرفة نومه من الشارع . انتظر حتى انصرف الرجل ، وغادر الفندق نهائياً ، في الثالثة صباحاً !

كنا بعد منتصف النهار ، عندما استيقظ في اليوم التالي في شقة آمنة في الدور الأخير من عمارة قديمة في شارع " كوندى " . لم يكن هناك أحد في الدنيا ، ولا حتى " ليزا " ، يعرف بوجود هذه الشقة .

بعد الثانية ظهراً ، خرج " لودفيك " وسار حتى أقرب مقهى وطلب قهوة و " كرواسان " واستخدم التليفون للاتصال بـ " ليفيتسكى " كما هو متفق . وفي ظرف نصف الساعة كان " ليفيتسكى " في المقهى .

أخرج نسخة من " الإزفستيا " بتاريخ ثلاثة أيام سابقة من حقيبة يده وأعطاهما لـ " لودفيك " .

لم يكونا قد تبادلنا كلمة واحدة بعد .

" هل أنت متأكد أنك لم تكن متبوعاً يا " شميلكا " ؟ "

" نعم ! "

بعد أن قرأ " لودفيك " الجريدة امتلأ وجهه بالغضب " قتلة البلشفيك " القدامى يتلقون الأنواط " .. لا يمكن أن ننتظر يا " شميلكا " حتى يقتل ذلك السفاح الجميع ! .. لماذا بحق

الجحيم تركت " بوخارين " يعود ؟

كان لابد أن يبقى ويوحد القوات مع " تروتسكى " .

؛ كان خائفاً ، " تروتسكى " أيضاً سوف يقتل . " سبيجل جلاس " يتبجح بذلك فعلاً .

" لابد أن نحذر تروتسكى . هل لديك أية وسيلة للاتصال ؟ ابنه موجود هنا . "

وهل يثق بنا ؟

" لا أستطيع أن أصبر أكثر من هذا . كتبت مسودة أولى من رسالتى للجنة المركزية لإعادة نوط الشرف . غدا سأرسله إلى " موسكو " وإلى بعض الأصدقاء فى " امستردام " و"لندن " مع تعليمات بأن ينشر علنا . وبعد أن يحدث ذلك سوف يكون بإمكاننا أن نرى " تروتسكى " ونحذره بما نعرف . لماذا تنتظر إلى هكذا ؟ "

" لاتريد أن تعيش أكثر من هذا ... أليس كذلك ؟ "

" بلى ! أنا لدى ابن . أريد أن أراه وقد كبر . "

" ولكن رسالتك دعوة للقتل ... سيقتلونك يا " لودفيك " وأنت تعرف ذلك أفضل منى . "

" هناك مخاطرة ... لكن ... "

" لكن ماذا ؟ الوحيدون الذين بإمكانهم حمايتنا هم أجهزة الاستخبارات الرسمية فى بريطانيا والولايات المتحدة . "

ضحك " لودفيك " : ليس فى بريطانيا . لنا رجال كثيرون هناك أنا الذى زرعتهم ... والآن أصبحت أخافهم . على أية حال ، يجب ألا نبيع

أنفسنا للبرجوازية . الموت أفضل ! "

" ربما وقعت أنا أيضاً على رسالتك . تركنا العمل فى وقت واحد قد يحدث أثراً أكبر ! "

" هل تعطينى رقم تليفون ؟ "

أعطاه " لودفيك " قصاصة . حفظ " ليفيتكىسى " الرقم ومزق الورقة .

تصافح الرجلان بحميمة .

" من الذى كان يظن طوال تلك السنوات الماضية فى " بدفو شوليسك " أن الأمر سوف ينتهى بنا على هذا النحو ؟ "

عانق " لودفيك " صديقه وهما يفترقان . كان " ليفيتكىسى " خائفاً .

ويشعر بخواء داخلى .. فهو يعرف أنه لن يرى " لودفيك " مرة أخرى صعد " لودفيك " السلالم " عائداً إلى ملجئه وبدأ يعيد كتابة رسالته . وبعد أن انتهى من ذلك شعر بسلام نفسى . وأنه أصبح حراً . فتح النافذة ليسمح بدخول الهواء المنعش ونظر إلى الناس فى الشارع . ابتسم للسماء الزرقاء الصافية الحياة تنساب هادئة فى باريس فى ذلك اليوم . ليته كان يشعر بمثل تلك السعادة فى شقته فى " لينجراد " وهو ينظر إلى " نيفسكى بروسىكت " .

على ناصية الشارع رأى جماعة من الشباب فى الزى العسكرى ، لكنه لم يلمح أى فرد من أفراد الـ .. " إن . كى . فى . دى " جلس أمام الآلة الكاتبة وبدأ :

١٦ يوليو ١٩٣٧

إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

هذه الرسالة التى أكتبها الآن ، كان يجب أن أكتبها منذ زمن بعيد ، فى ذلك اليوم عندما ذبح الستة عشر - وكل منهم مناضل بلشفيكى - فى أقبية " لوبيانكا " بأوامر من " أبو الشعب " .

بقيت صامتا آنذاك ولم أرفع صوتى إزاء جرائم القتل التى تلت ذلك . ولذا فإننى أتحمل مسئولية ثقيلة ، ذنبى عظيم ، ولكننى سأحاول أن أكفر عنه ... أكفر عنه من فوضى وأريخ ضميرى " .

حتى هذه اللحظة كنت أسير إلى جواركم . والآن لن أخطو خطوة أخرى . لقد تفرقت بنا السبل . من يسكت الآن لابد أن يكون متورطا مع " ستالين " ، خائنا للطبقة العاملة ، خائنا للاشتراكية . لقد ناضلت من أجل الاشتراكية منذ كنت فى العشرين من العمر . والآن ، وأنا على مشارف الأربعين لا أريد أن أعيش على حساب الـ " إن . كى . فى . دى " . تعلمت أن أعمل بطرق غير قانونية لمدة ستة عشر عاماً .. وما يزال بقية من طاقة لأبدأ من جديد ، لإنقاذ الاشتراكية .

الضجيج الذى تهنئون به أنفسكم لن ينجح فى إغراق أنات وصرخات الضحايا الذين يعذبون فى أقبية " لوبيانكا " و " سقابودنيا " ومينسك و " كييف " و " لينجراد " و " تيفليس " .

لن تنجحوا . وصوت الحقيقة لن يخمد إلى الأبد على أيدي الفساد وأيدي أمثالكم المجردين من كل المبادئ ، ومزيج الأكاذيب والدماء الذى تسممون به الحركة العمالية فى أرجاء العالم ...

وحذر ستالين ألا يصدق الجماهير التى تشيد به وتهتف له ، وأن

هناك حقداً رهيباً تحت ذلك التملق . شرح تطوره السياسى ، وكيف أنه لايمكنه مواصلة خدمة "موسكو" . ووقع باسم "لودفيك" .

ثم بعد ذلك خطرت له فكرة ، فأضاف فقرة جديدة فى سنة ١٩٢٨ منحت "نوط العلم الأحمر" من أجل خدمات قدمتها لثورة البروليتاريا . مرفق لكم النوط .

إن من المهين لكرامتى أن أرتدى نوطا يرتديه جلادو أفضل عناصر الطبقة العاملة الروسية . فى الأسبوعين الماضيين نشرت "إزفستيا" أسماء الذين حصلوا على النوط مؤخراً .. لم يتم الإفصاح عن إنجازاتهم : إنهم الرجال الذين نفذوا أحكام الإعدام فى البلاشفيك القدامى .

منذ أن أنشأ شبكته ، كان "لودفيك" قد ابتكر أسلوباً لتوصيل الرسائل العاجلة إلى موسكو خلال أربع وعشرين ساعة .

وضع رسالته إلى مستخدميه السابقين فى مغلف بنى وكتب عليه :

لعناية الشعبة الرابعة .. على وجه السرعة . ثم سار حتى السفارة السوفيتية ، وضعه فى صندوق البريد الخاص ، وانصرف بون كلمة مع أحد باستثناء الباب الذى ابتسم له وغمز بعينه .

بعد عدة جولات إلى شارع "كوندى" مقتنعا بأنه قد فاجأهم . كان آخر مكان يتوقعوا وجوده فيه هو السفارة .

"لودفيك" يعتقد أنه كان فى أمان الآن ، ولو لبعض الأيام حتى تصل الرسالة إلى "موسكو" .

لقد استخف بالعدو . بعد ساعة من تسليم الرسالة ، استخدم

" سبيجل جلاس " سلطته ليفتحها ويقرأها ويعقد اجتماعا عاجلا لكبار معاونيه .

" لودفيك ؛ خائنا وانضم إلي النازيين . أريدكم أن تجدوه هو وعائلته .. وأن يقتلوا . انتهى . أى أسئلة ؟ حسن لاتعودوا قبل أن تكونوا قد نفذتم هذا التكليف . أرسلوا " ليفيتكسى " ! "

دخل ليفيتكسى المكتب ، صاحب الوجه .

" أين صديقك لودفيك ؟ "

" ليس لدى فكرة ! "

" هل مازال فى باريس ؟ "

" أنا فعلا لا أعرف .. لم نتصل ببعضنا منذ عدة أسابيع ، وكما تعلم فقد عدت من إنجلترا بالأمس فقط .. "

" لا أصدقك يا " ليفيتكسى " . أمثالكم من الكوزموبوليتان كلهم سواء . نحن ننظف الاسطبلات ببطء . أنا أحذرك . إن لم تساعد على أن نجده سنعيدك إلى " موسكو " للتحقيق معك فى "لوبيانكا" .

ابتسم " ليفيتكسى " ابتسامة واهنة . " أشكرك على ثقتك يا رفيق ، الآن أصبح لدى عمل أؤديه ضد الثورة المضادة الحقيقية " .

" أخرج يا " ليفيتكسى " ، ولا يكن عندك شك . لودفيك انتهى ! "

ذهب " ليفيتسكى " إلى المقهى ، وطلب كأسين كبيرين من البراندى . وبعد أن أتى عليهما توقفت يداه عن الارتعاش . ذهب إلى البار واتصل تليفونيا بـ " لودفيك " . رنتان قصيرتان . ثم ثلاث رنات قصار . كانت الرسالة بسيطة . انج بحياتك . لقد اكتشفوك . بعد أن

أدى مهمته عاد " ليفيتسكى " إلى شقته وتأكد له أن أحد عناصر الـ
" إن . كى . فى . دى " كان يحاول جاهداً أن يبدو عادياً على
الرصيف المقابل .

انزعج " لودفيك " لرسالة " ليفيتسكى " كيف بهذه السرعة ؟ ثم ،
غاضباً من نفسه راح يضرب بقبضته على الطاولة . لابد أن
يكون " سبيجل جلاس " قد فتح الرسالة . لعن " لودفيك " نفسه لأنه لم
يختار قناة أخرى للاتصال بموسكو . حزم الآلة الكاتبة وثيابة فى حقيبة ،
وخرج من الشقة .

كان يعرف أن محطات السكة الحديد فى " باريس " لن تكون آمنة
لعدة أيام قادمة . ، لابديل عن السيارة . ، ، ، ، سيارته " الستروين " مركونة
أمام منزل صديقه ، العجوز التى أعطته قصاصة التحذير منذ أيام قليلة
. هى أقدم وأضمن صندوق بريد له فى " باريس " . شعر بأنه لابد أن
يذهب إلى شقتها ليودعها ، ولكن سنوات الانضباط الحديدى غلبت
مشاعرة . لا مكان للعواطف فى هذا العمل البائس . تأكد أن السيارة لم
تكن مراقبة ، بأن سار عدة مرات جيئة وذهاباً فى الشوارع الجانبية .
كان اليوم حاراً وهو يستقبل نسيم المساء ، ويتمنى ألا يضطر لارتداء
بدلة كاملة أو ربطة عنق . وبعد أن تأكد له أنه لا يمكن أن يكون مراقباً ..
دخل السيارة .

فى ظرف نصف الساعة ، كان قد ترك " باريس " وراءه متجهاً
صوب " ديجون " . كانت الطرق سوداء بالقار ، وكان لابد أن يقود
سيارته ببطء . لمدة ثلاث ساعات كانت هى السيارة الوحيدة على
الطريق . وصل إلى " ديجون " فى الصباح تقريباً . لم يكن من الصعب
أن يعرف مكان المحطة . ركن سيارته ووجد مقهى عمالياً طلب كونياك

مع القهوة . كان حظه أفضل فى المحطة . فقد كان هناك قطار صباحى متجه إلى " ليون " ، ومنها يمكن أن يستقل قطار آخر إلى " لوزان " .

عندما وصل إلى " فينهورت " كنا بعد الظهر . كان هوو " ليزا " : قد مرا بها قبل ذلك بسنوات طويلة واستغربا ألا يكون بتلك القرية الجبلية الرائعة مطعم أو فندق . كانت " ليزا " قد وجدت غرفة فى بيت العمدة ، وكان بعض الأطفال قد دلوا " لودفيك " على الطريق ... والذين كانوا قد أصبحوا أصدقاء لـ " فيليكس " .

كان " فيليكس " هو الذى رآه أولا وجاء يجرى من على تل صائحاً بأعلى صوته :

" بابا ! لقد إبيض شعرك ! "

رفع " لودفيك " الولد من على الأرض وقبله ، ذهباً معاً إلى بيت العمدة رأتهما " ليزا " من النافذة فاندفعت لاستقبالهما ..

لاحظت هى أيضاً كيف تغير شعره ولكنها لم تقل شيئاً ثلاثتهم الآن فى غرفة واحدة ، مما حدد الكلام بين الكبار . على أية حال ، كان " لودفيك " مرهقاً ، فذهب إلى السرير من فوره بعد عشاء بسيط مكون من الخبز والجبن والحليب الساخن ليتمكن من ازدراد الطعام فى هذه الليلة نام قبل " فيليكس " بوقت طويل .

عندما استيقظ " لودفيك " كان الاثنان مازالا نائمين فى السريرين الصغيرين . ذهب إلى النافذة ووقف هناك يتطلع إلى هدوء المنظر الجبلى أمامه . كان يعرف أنه يقف على حافة هاوية ، ولكن مقارنة بعالم المرايا والأقنعة والعذابات التى تحرر منها منذ وقت قريب ... فإن الهاوية أخف وطأة .

كانت حياته كلها مباراة فى الشطرنج .. مع الموت . لم يكن جيله يخاف فكرة الموت ، ولكن ما يجعلها مقبولة هو الاعتماد بأن المرء سيموت من أجل قضية ، فى مسيرة صراع هائل على السلطة .

يدرك الآن أن الثورة التى لعب فيها دوراً صغيراً قد تحلت ، وأن الناس الذين كانوا يعملون ذات يوم تحت إمرته ، يتم تجنيدهم اليوم لقتله . سيحاكمونه ويضيقون عليه الخناق ، وإن نجحوا .. فسيقتلونه رمياً بالرصاص .

إلى متى يظل هائماً قلقاً ينظر خلفه كل لحظة ليرى إن كان الجلاء قد وصل أم لا ؟

تذكر حلم الليلة الماضية . ذكريات طفولته . " ظروف المعيشة هنا بدائية " .. همست " ليزا " وكلاهما قهقهه !

" ش .. ش .. ش " قال وهو يشير إلى ابنتهما النائمتين .

" وجوده فى حياتنا يجعلها تستحق . إنه عوضنا عن سنوات الألم والمعاناة " . قالت " ليزا " .

" ليتنى لم أتسبب فى كل هذه الكوارث لأكثر شخصين أحبهما فى العالم . ربما كان يجب أن ترحلا من هنا ! "

" لا ! "

انقضى الأسبوع الأول سريعاً . بدأ " لودفيك " يسترخى . أصبحا يخرجان للتمشية طويلاً . " لودفيك " يحكى للوادة حكايات

عن الماضي ، عن أيام ما قبل الثورة . وعندما يكون هوو " ليزا " وحدهما يناقشان المستقبل . " لودفيك " يتحرق شوقاً للاتصال بقلة من أصدقائه الثقات في أمستردام .. وخاصة الشيوعى الألمانى المنشق ؛ سنيفليت " . عن طريقة كان " لودفيك " يريد أن يقدم خدماته ، ومعرفته الواسعة عن العمل الداخلى للنظام إلى " تروتسكى " ! .

« اعتقد أنك لابد أن تنشر رسالتك الآن يا " لودفيك " ذلك سيجعل قتلك أكثر صعوبة بالنسبة لهم . »

" صحيح ! ولكنه قد ينبه كافة أجهزة الاستخبارات فى أوروبا وتصبح الأمور أكثر صعوبة . أريد شخصاً ما ينفذ لى بعض المهام البسيطة . شخص أثق به جيرترود ؟ "

" ولماذا هي ؟ أما زلت تثق بها بعد العلاقة الإنجليزية ؟ "

" لقد أعترفت بكل شئ . أولئك الناس قد يشبعوا احتياجاتها الجسدانية . ولكنها لاتحترم عقولهم . أنت تعرف أنها كانت تريد الانتحار من سنوات قليلة . أنا قلق .. لو أعتقدت أننى قد أختفيت بلا أثر فقد تحاول مرة أخرى أن تقتل نفسها . "

قالت " ليزا " عابسة : لا أظن ذلك ! "

" لم تحببها أبداً : "

" لا ! "

وضحك " لودفيك " .

كان ذلك فى نوفمبر ١٩٩٢ عندما استجمعت ما يكفى من الشجاعة لأتحدث مع أمك ، كانت جالسة فى مطبخ شقتنا تشرب الشاي ، وكنت أعرف أننى لابد أن أخبرها قبل أن تقرأ ذلك فى الصحف ، كلانا كان نشطا فى التحرك الذى أسقط النظام أخيرا ، وفى سنة ١٩٨٩ كنا جزءا من التيار البشرى المندفع أمام المبانى التى كان البيروقراط يحكمون سيطرتهم عليها ذات يوم .. ثم عبر الحائط إلى برلين الأخرى ، لكى يروا فقط ثمار انتظارهم الذى سرقه الديمقراطيون المسيحيون ، بعد عام بالضبط فقدت عملى .

وصوت ملجم بالخوف ... " هيلجا ! "

عرفت من صوتى أن الأمر جد خطير " هل قتلت أحدا يا قلادى ؟ " أسوأ من ذلك ! " .

بصوت أكثر هدوءا .. " الأفضل أن تخبرنى أنت " .

جلست أمامها واعترفت ، قلت لها إننى قد التقيت " ونتر " عدة مرات دون علمها ، عبيت ، عندما قلت لها إنه هو الذى كتب فعلا الرسائل الثلاث الأخيرة التى أرسلتها اللجنة إلى المكتب السياسى .

حدثت فى ... غير مصدقة ، قلت لها إننى لم أسم أحدا ، أبدا ، ما أغرانى هو المعلومات المتوفرة لدى " ونتر " والمستمرة من مصادر موثوقة فى " موسكو " ومعرفته التفصيلية بمكتبنا السياسى ، كان " ونتر " من مؤيدى " جوربا تشوف " ، شيوعى إصلاحى ، وهنا أوقفتنى عن الكلام .

" قلادى ! هل تقول ذلك لكى تختبر علاقتنا ؟ هل هى لعبة حمقاء فكرت فيها ؟ "

" لا .. لقد قلت لك الحقيقة ! "

لطمتنى على وجهى ، جذبتنى من شعرى وألقت بكوب على رأسى .

" لقد خنتنا أيها الوغد ، لا تستحق سوى الموت !

لا بد أن تموت ! أنا أكرهك .. لقد خدعت فيك ، كيف خطر لى ذات يوم أنك يمكن أن تكون أميناً ؟ "

" اسمعى يا " هيلجا " .. أرجوك .. اسمعى لى .. لقد هددنى ، قال إننى إذا رفضت أن أقابله فسوف يكشفون مساعدة " جيرترود " لهم .. ، وأنها كانت تعمل لحسابهم ، سيمنحونها ميدالية ذهبية بعد وفاتها . "

" أتمنى أن يمنحوك مثلها بعد أن تشنق نفسك ! "

" هيلجا ! لم أقل لهم شيئاً ! كانوا يعرفون كل شىء . "

" ماذا تقول ؟ لو لم تقدم لهم المعلومات ... فلماذا كانوا يحتاجونك إذن ؟ "

" قلت لهم عن " ونتر " ، إنه شيوعى قديم ، يريد أن ينقذ شيئاً من الحطام الغارق ، كلنا كنا نعمل الشئ نفسه ، لكن بطرق مختلفة ، كان فى حاجة إلى تنظيم ليضغط على قيادة الحزب وخضعنا ! ثلث رجالنا كانوا مزروعين بواسطة جهاز الاستخبارات . "

" ومنظرنا القيادي كان يتلقى الاستشارات التكتيكية من رئيس جهاز الاستخبارات في جمهورية ألمانيا الديمقراطية .. ألا تشعر بالخجل يا " فلادى " ؟ "

" كنت أشعر أن " ونتر " معنا ، معرفته الواسعة والدقيقة بالسياسة العالمية وبالتطورات داخل الاتحاد السوفيتي القديم كانت مفيدة لنا جدا ، كنت أشعر أنني أستخدمه بقدر ما كان يستخدمنى ، من أين تعتقدين أنني قد حصلت على تسجيلات لأحاديث " جوربا تشوف " ومع " هونيكر " ؟ هل نسيت أثرها ؟ لقد منحتنا الشجاعة لكى نخرج إلى الشارع ، عرفنا أن " موسكو " لن ترسل الدبابات كما حدث فى عام ١٩٥٣ "

" لو كان كل شئ بريئا كما تصوره هكذا ، فلماذا لم تخبرنى بأنك كنت تقابل " ونتر " ؟ "

" كنت سأخبرك لو أنني لم أكن أعرفك جيدا ، كنت ستعترضين وتنفيذين إعدامى بشكل طبيعى ، أنا أحتاجك يا " هيلجا " . "

" تكذب مرة أخرى يا فلادى " ! لماذا لاتعترف أنك كنت تشعر بالخجل لأنك تعرف أن ما تفعله خطأ ؟ بالتأكيد .. خطأ ! أخلاقيا خطأ ! وربما أكثر ! إنه خيانة لرفاقك الذين كانوا يخاطرون معك ومن أجلك ، هل نسيت كيف كان الرفاق الشبان ينظرون إليك وأنت تتكلم ؟ كان الأمل مكتوب على وجوههم ، والآن تقول لى إن الكلمات التى كنت تقولها لم تكن كلماتك .. وإن الرفيق " ونتر " هو الذى كان يعد لك السيناريو . "

انظر إلى نفسك فى المرآة ! "

لم أستطع أن أرد عليها ! جلست .. بلا حركة ... مكبلاً بالندم ،
أما هي فكانت تنتظر إلى رثاء واحتقاراً !

" لماذا تخبرنى بذلك كله الآن ؟ "

وبقيت صامتة .

" هل أنت خائف أن يصرعك " ونتر " أو شخص آخر ؟ أن تقرأ عن
ذلك كله فى الصحف ؟ "

هزئت رأسى .

" هل هذا احتمال وارد ؟ "

" نعم "

" وكيف عرفت ؟ "

" قال لى " ونتر " أن أحد الصحفيين كان يسأل عنى "

" ما زلت تقابل " ونتر " ؟ "

" إنه نشط جداً فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى يا " هيلجا " كنا
كلنا نفكر فى الانضمام فى وقت ما .. أليس كذلك ؟ أرجوك ..
صدقينى .. كان " ونتر " من أفضلهم ! " .

لم تستطيع " هيلجا " أن تتحمل أكثر من ذلك ، خرجت من الشقة
غاضبة ، واندفعت خلفها مثل كلب ذليل ، وأخيراً توقفت واستدارت
لتواجهنى .

" لا أستطيع أن أعيش معك بعد الآن ! أنا فى حاجة لأكون مع

آخرين ، منظر ك يصيبني بالغثيان ! فعلا .. كيف يمكن أن أواجههم بعد ذلك ؟ توقف عن ملاحقتي أرجوك ! "

" إلى أين ستذهبين ؟ "

" إلى أصدقائي ، قد أبقى في المستشفى هذه الليلة أما بالنسبة للغد .. "

عدت إلى الشقة وأنا لا أدري إلى أين تمضي بي الحياة ، لا أعرف وجهتي ، هل أبدأ من جديد .. أجود نفسي .. أستعيد حب " هيلجا " .. ثم ثقتها فيما بعد ؟ كنت أتصل تليفونيا بغرفتها في المستشفى كل نصف ساعة تقريبا ! لا أحد يرد ، وفي الثالثة صباحا غلبني النوم .

في الصباح التالي اتصلت أنت بي ، وأخبرتني أن " هيلجا " قالت لك إنها سوف تترك الشقة وترحل إلى " نيويورك " وتعيش بمفردها ولكن دون إبداء الأسباب .

وافترضت أنت أنني لم أكن مخلصا ، ولم أصحح لك ذلك الافتراض يا بني ، كنت أعتقد أنك لن تفهم شيئا آخر غير ذلك ، لم يكن في دمك نقطة سياسة واحدة ، أرجوك .. أغفر لرجل عجوز كبيرياءه الأحمق ، كان لابد أن أقول لك كل شيء في الوقت المناسب .

إن ما أذهلني هو السرعة التي غادرت بها " هيلجا " إلى " نيويورك " ، شعرت بالألم ، كنت أفترض أنها لابد أن تكون قد خططت لذلك منذ زمن ، وقبل أن أعترف لها بسرى .. بذنبي ! فكرت أنها ربما كان لها عشيق ، وأنهما قد هربا معا .

وبعد أسبوع اكتشفت .. مصادفة .. أن زميلة لها فى
المستشفى كان قد عرض عليها العمل فى نيويورك ولكنها لم تستطع
السفر لمرض أمها الشديد ، وقد رشحت " هيلجا " التى طارت إلى
هناك ، وحصلت على الوظيفة فى اليوم نفسه .

وهكذا يكون اللغز قد أصبح محلولا أمامك يا " كارل " ما كتبته
هو السبب الوحيد والحقيقى لافتراقنا ، هل ترى أنها كانت على
حق ؟ أنا أعتقد ذلك ، وأفكر دائما فى كيفية أن أسترجع نفسى فى
عينها ، أنا فى حاجة إليها يا ابنى ! .

كان " ساو " قد تركنى بمفردى فى شقته بشارع موريللو ، ذهب إلى " هانوى " ليحضر عشيقته وابنهما إلى " باريس " وكنت أكره دائما أن أكون بمفردى ، أود أن تكون " هيلجا " بجانبى .

" ساو " أحضر لى كل ما طلبته من روسيا .. والأشياء موجودة فى مكتبه المجاور لغرفتى ، أجلت فحص الأوراق يا " كارل " كنت أشعر بالقلق وكأنتنى على حافة هاوية ، أحاسيسى تحذرنى من شئ غير عادى ينتظرنى !

صنعت قدحا كبيرا من القهوة ، وعدت إلى مكتب " ساو " .

حقيبة " ساو " ملقاة على الأرض مكدسة بكتب وملابس . الملفان اللذان أحضرهما من " موسكو " يحملان عنوانين : " جيرترود مايور " و " لودفيك " : رائحة سجائر روسية قديمة ورزم صغيرة من الوثائق عليها آثار دبابيس صدئة وجوازات سفر " لودفيك " .

بدأت بملف " لودفيك " ، سمين ، مقارنة بالآخر ، وفوجئت بوجود مجموعة من الصور ، لم أتعرف على معظم الناس فيها ، كانت هناك بعض الذكريات القديمة " لودفيك " مع امرأة ، لها وجه قاس بلامح حادة ، ثم بدأ يظهر فى الصور طفل ، تنهدت ، لم تكذب على أحاسيسى .

المرأة التى فى الصور كانت هى زوجة " لودفيك " أوفريقته ،

والطفل نو العيين الذكيتين .. ابنهما ، لاشك فى ذلك ، وهكذا فإن "جيرترود" إما أنها كانت تعيش وهما أو أنها كذبت على ، الاحتمال الثالث ، وهو احتمال أن تكون قد عاشت علاقة حب قصيرة مع "لودفيك" وكنت أنا نتيجتها .. لم يكن واردا ، والآن كنت قد أصبحت متأكدا أن "لودفيك" ليس أبى ، لم تكن هناك أى صورة لـ "جيرترود" مع "لودفيك"

وجدت أصل الرسالة الشهيرة التى أرسلها "لودفيك" إلى اللجنة المركزية ، والتى كانت أمى تحفظها عن ظهر قلب وتتلوها على كثيرا ، كان هناك أيضا تلك المناسبة التى لا تنسى عندما أعادت قصة رسالة "لودفيك" لأعضاء لجنة "من أجل ألمانيا ديمقراطية" فى أحد اجتماعاتهم ، وكان ذلك ، دون شك ، بعد الحصول على إذن من "ونتر" ، وبغرض تعزيز أوراق اعتمادها كمنشقة .

استعرضت الوثائق بسرعة وكان معظمها تافها لا أهمية له ، إلى أن وجدت مغلفا مكتوبا عليه :

سرى للغاية

لعناية الرفيق : " ج . ف . ستالين "

إعدام الخائن العتيد : " لودفيك "

كانت يداى ترتعشان وأنا أخرج التقرير المطبوع على الآلة الكاتبة من المغلف ، كانت الورقة قد حال لونها وعلى وشك التحلل ، فردت الأوراق كلها على الطاولة ، وحملت كل ورقة على حدة إلى ماكينة التصوير ، وبعد الانتهاء من المهمة جلست فى مقعد "ساو" الجلدى وبدأت القراءة .

من : هـ . سبيجل جلاس

٦ سبتمبر ١٩٣٧

منذ أول مرة التقيت فيها بـ " لودفيك " ، لم يخامرني شك أننا كنا نتعامل مع خائن ومجرم على أعلى مستوى من الذكاء ، بمجرد أن سلم ما يسمى بـ : " رسالة إلى اللجنة المركزية " كان عملاؤنا وراءه ، علمنا أنه كان على علاقة بأجهزة استخبارات غربية ، ربما تكون " برلين " أو " لندن " قد جندته ، ولكن سرعان ما تكشف لنا أنه كان يلعب عليهما معا .. ربما ليعرف أيهما سيدفع له أكثر !

وبعد أن درسنا تاريخ هذا الرجل وشخصيته بعناية ، اتضح أن ميله العاطفي وضعفه اللذين يجعلانه دائما لا يستطيع أن يفصل بين الصداقة والواجب الوظيفي ، سوف يمكننا من اقتفاء أثره ، وقد أثبت هذا التقدير جدواه بأسرع مما كنا نتوقع .

علمنا أن " لودفيك " كان لديه عدة نساء تعملن لحسابه في أوروبا ، أقمت اتصالات باثنتين منهما في بريطانيا وهناك أخريات في ألمانيا والنمسا .

إحداهن " ج . م " شيوعية ألمانية قابلتها في بريطانيا وكانت قريبة منه على نحو خاص ، إن لم تكن علاقتها صميمة به ، جعلت عميلا ألمانيا آخر " ك ، و " يقابل تلك المرأة ، بدأ " ك . و " يسعى لصداقه " ج . م " في شهر يونيو من ذلك العام .

بعد ذلك بفترة قصيرة اعترف لها بأنه شيوعي ألماني زميل ، يعمل لحسابنا وقال لها إنه يحبها ، والحقيقة أنها وقعت في سحر " ك . و "

وأصبحتا حميمين ، تقرير " ك . و " عن تفاصيل ذلك الإغواء مرفق بهذا التقرير ، ومنه ترى أن الحب الجسداني الذي كانت " ج . م " محرومة منه منذ زمن بعيد ، قد لعب دورا كبيرا في نجاحنا .

كان إخلاصها لـ " لودفيك " مبنيا على عبادة البطل وحبها له ، رفضه تبادل العلاقة الجنسية معها ، جعلها ، كما يوضح تقرير " ك . م " ، تشعر بالامتناع ، أنا أضيف هذه التفاصيل فقط لأن الرفيق " ييزوف " أخبرني أن الرفيق " ستالين " يريد تقريراً شاملاً لا يغفل شيئاً مهما كان صغيراً أو تافهاً ..

وبعد أن تمكن " ك . و " من كسب ثققتها ، أبلغ " ج . م " أن " لودفيك " قد خان حركتنا .. ولابد أن يلقي القبض عليه ويعدم قبل أن تأخذه " برلين " ، رفضت هذا التوجه في النقاش ، ولكن " ك . و " أقنعها بأنه حتى لو لم يذهب بمحض إرادته إلى " برلين " فإنهم سيكتشفونه ويجعلونه يتكلم ، وهكذا يمكن أن يكون مستقبل عمليتنا الألمانية في خطر ، وهنا اعترفت أن " لودفيك " كان على اتصال بها وأنها كانت ستلتقيه هو وأسرته ، وبناء عليه ، نقلنا عمليتنا إلى مكان قريب من الحدود الفرنسية السويسرية ، أرسلنا لعبة شوكلاته سامة لكل الأسيرة ، كان يمكن أن يسهل ذلك المسألة ، ولكن منظر ابن " لودفيك " .. الصغير " فيلكي " جعلها تفقد شجاعتها فخطفت اللعبة منه .

كان تصرفها غريباً ، ولكنه لم يثر الشك لدى " لودفيك " قالت إنها كانت في عجلة ، وحددت له موعداً لتراه بعد أيام قليلة .

كان جميع أفراد فريقنا فى حالة استعداد ، قابلته فى مقهى بالقرب من المحطة فى " تيرتيت " ، كانا يتمشيان ، اقتربت منهما سيارتنا وتوقفت ، حملناهما ووضعناهما فى السيارة ، حينذاك أدرك أنها خائنه وبدأ المقاومة ، أمسك بشعرها فبدأت تصرخ ، كان ذلك يوم ٤ سبتمبر ١٩٣٧ ، كان فريقنا على طريق " شمبرلاندرز " بالقرب من " لوزان " ، توقفنا وألقيناها من السيارة وأطلقنا عليه الرصاص ، كان خائنا وشريرا حتى آخر لحظة ، كان يهتف " نظام ستالين قائم على الإرهاب .. ولن يدوم عاشت الثورة العالمية .

وهكذا كان أمامنا أن نختار ، هل نذهب إلى " فينهورت " ونقتل أسرة الخائن ونخاطر بحياتنا ، حيث قد يتم القبض علينا .. ؟ جاعنى اتصال تليفونى وصدرت أوامر بأن أعيد الفريق إلى باريس ، الدقة العسكرية لعمليتنا ..

لم أستطع أن أواصل القراءة يا " كارل " تملكنى خوف شديد .

المعلومات التى وصلتني من " جيرترود " عن القبض على " لودفيك " كان ينقصها تفاصيل كثيرة ، هل كانت هى المرأة التى أوصلتهم إلى " لودفيك " .. معقول ؟ كنت أود أن أقفز من نافذة شقة " ساو " فى الطابق الأخير .

ثم فتحت الملف المكتوب عليه " جيرترود " لاشئ مهما هنا ، إلا إذا كانوا قد أخذوه ، كان هناك تقرير إدارى ممل يثنى على تفانيها وولائها ، وتقرير قصير عن وصولها بسلام إلى " برلين " وإقامة جماعة اتصال جديدة تحت قيادة " ونتر " فى ألمانيا .

افترضت أن جرائمها التي ارتكبتها بعد الحرب لابد أن تكون قد سجلت في أرشيف ألمانيا الديمقراطية ، عدت إلى ملفات " لودفيك " ووجدت رسالة من " ليزا " إلى " فريدي " في موسكو ، كانت قد كتبت قبل رحيل " ليزا " و " وفيلكى " إلى الولايات المتحدة مباشرة بمساعدة أصدقاء بلجيكا .

الرسالة جعلتني أبكى ، ولا أعرف كيف سيكون شعورك يا " كارل " بكيت على " لودفيك " ، و " ليزا " و " فيلكس " ... بكيت علينا ، أمي قائلة كيف ترى ذلك ؟ .

عزيزى عزيزى " فريدي " .

لا أعرف إن كانت هذه الرسالة سوف تصلك ولكننى أرسلها إلى عنواننا القديم الآمن ، ستذهب إلى قبينا ، ثم إلى كييف .. ثم تصلك من كييف .

لابد أن تصل إليك يا " فريدي " ، لن تصلك أخبار من " لودفيك " بعد الآن ، قتلوه فى الأسبوع الماضى ، وجنوا جثته مخرمة بطلقات من مدفع ماكينة . واصلوا إطلاق النار عليه ، حتى بعد أن فارق الحياة ، كما يفعل الصيادون الخائفون عندما لا يصدقون أنهم قد قتلوا نمرا .

كان " لودفيك " يستعد للسفر إلى " الرايمز " ، حيث رتب لاجتماع مع الزعيم العمالى الألمانى " سنيقليت " ، ولكن قبل ذلك كان لديه موعد مع " جيرترود مايور " هل تتذكرها ؟ كانت هى التى قد وشت به لجهاز الـ " إن . كى . فى . دى " .

كان " فيلكس " قلقا عندما عدت من " تيريتيت " بدون "لودفيك" يوم السبت ، وعلى مدى اليومين التاليين لم يكف عن السؤال عن والده قرأت عن ذلك في الطبعة الأولى من جريدة " لوزان " صباح الاثنين بعد عدة ساعات ، أخبرت " فيلكس " .. وجلسنا على جانب الطريق وبكىنا . كان " لودفيك " يعرف أنهم لن يتركوه على قيد الحياة طويلا ، كان يبتسم متجهما كل صباح يجد نفسه فيه على قيد الحياة وكأنه يقول : لقد عشت يوما آخر كل يوم يجيء بأمل جديد وخوف جديد .. قال ذات مرة : " .. والآن أعرف كيف يمكن أن تكون الأمور بالنسبة لجميع الآخرين فى موسكو " .. كان يود من كل قلبه ، وبدعم من الاشتراكيين ذوى العقول المستقلة أن يحكى للعالم عن جرائم " ستالين " ، وأن يحذر " تروتسكى " من أن وحدة خاصة كانت تعد العدة لاغتياله منذ وقت قريب .

فى آخر أسبوع لنا معا ، كان " لودفيك " قد بدأ يتوهم أشياء، بدأ يراكم جميعا ، فى القطار كان يرى أن المحصل يشبهك ، فى الحافلة كان يتوهم أن السائق يشبه " لارين " ، لم يشعر أبدا ، هكذا ، بالوحدة فى حياته ، ولا بأنه مقطوع من رفاقه وأصدقائه ، فى أحد الأيام ، وكنت أكثر اكتئابا عنه فى أى يوم آخر ، بدأنا نتكلم عن الأيام الماضية فى " قيينا " ، وعنكم جميعا وعن " كريستينا " .. وتدفقت الذكريات .

كانت المرة الوحيدة التى ضحك فيها ، عندما كنا

نتكلم عن " بدقوشوليسك " قال " عندما كنا صغارا ،
كنا نتوق لمغادرة " بدقوشوليسك " ، كان لدى كل
منا رغبة ملحة فى رؤية العالم ، وفى أن ندير ظهورنا
لـ " جاليشيا " ، والآن ، أنا هنا وسط منظر طبيعى رائع ،
وعلى استعداد لأن أتنازل عن أى شئ .. لأتذوق الحليب
الساخن الذى كانت أمى تقدمه لنا فى ليالى الشتاء
الباردة ، كانت تغليه حتى يصبح فى لون الشوفان " .
ومرة أخرى ، كان يذكرنى بحديث " ليفينيه " فى قفص
الالتهام فى " ميونخ " :

نحن الشيوعيين موتى فى أجازة فعلا ، ولكن من الذى
كان يمكن أن يصدق أننا سيتم اصطيانا مثل الكلاب ،
كما حدث لـ " ميشا " فى " كييف " بأيدى أناس يقولون إنهم
شيوعيون وينفذون أوامر الحزب الشيوعى ؟ ..
فى الشهر الماضى ذهبنا إلى " فيفى " ، مدينة صغيرة
فاتتة بجوار بحيرة " چنيڤ " الكبيرة ، ووجدنا
أنفسنا معجبين بكنيسة "سان مارتان " ، ونحن ننظر
إلى شواهد القبور وجدنا اسمين إنجليزيين : " لودلو " و
" بروچتون " ، من أولئك الإنجليز الذين ينتمون إلى القرن
السابع عشر ؟ دخلنا الكنيسة وسألنا القس .

ولدهشة " لودفيك " كان القس يعرف تاريخ الرجلين
كاملا . كان الرجلان من الثوار ، " ادموند لودلو " هو
أحد القضاة الذين حاكموا " تشارلز الأول " ،

و " بروجتون " هو الذى قرأ حكم الإعدام .

وبمحض المصادفة ، وجدنا مقبرتى اثنين من أقرب رفاق "كرومويل" ، كان " ثرللو " رئيس سكرتارية " كرومويل " قد نبههما وحذرهما أن حياتهما فى خطر .

وفى " فيفى " استقبلوهما استقبال الأبطال ، وكان القرويون يمنعون أى غريب من الاقتراب من القرية ، كان منزل الليفتنانت جنرال "ادموند لودلو" عليه حراسة مشددة ، وكان أى قارب يقترب من الشاطئ يتم تفتيشه جيدا ، وأى متسكع يتجول فى " فيفى " يلقى القبض عليه ويفتش ، وكان السائحون الأبرياء يعاملون معاملة الشخصيات المريبة ، كان هناك جرس فى حجرة " لودلو " ، عند سماع صوته يحمل المواطنون أسلحتهم ويهرعون إلى بيت الرجل الإنجليزى ، الرجلان تزوجا هنا مرة أخرى ، وماتا موتا طبيعيا ..

والألواح الرخامية الموضوعة تكريما لهما ، كان مكتوب عليها : " المدافعون عن حريات وطنهم " . وكانت ذريتهم ما تزال تعيش فى سويسرا ، نظرت أنا و " لودفيك " إلى بعضنا الآخر فى دهشة .

كلانا كان يفكر فى الشئ نفسه ، لو كان بالإمكان أن يحميننا أهل القرية نحن الثلاثة هذه الأيام ! ؟ .

قال " لودفيك " : " كان قرنا أكثر تحضرا من القرن الذى نعيشه ، نحن لانجيد سوى إنتاج الأيتام !! " .

فيلكس " أيضا يعرف أن ولده قتل بأيدي " رجالنا " هكذا كنت تشير إليهم في " موسكو " يا " فريدي " " فيلكس " يسأل أسئلة صعبة ويطلب إجابات عنها .. بالأمس سألني عرضا : أمي .. من أين جاء " ستالين " إذن ؟ ألم يكن تابعا مخلصا لـ " لينين " ؟ " أعتقد أن ابن " لودفيك " لن يصبح أبدا ثوريا محترفا ، فهو ملئ بالحقد والكراهية للناس الذين قتلوا أباه .

ليتك كنت هنا يا " فريدي " ، أنت وكل الآخرين ، أنا في حاجة إليكم ، أفتقدكم ، وخائفة عليكم ، لا أحد من الذين عملوا مع " لودفيك " في أمان ، أهرب يا " فريدي " ، أهرب .. ! انج بنفسك ، مادمتم قادراً على ذلك !

" ليزا "

وهكذا يابني ، خسرت جدا ، وريحت جداً آخر ، أعتقد أن " ونتر " لابد أن يكون أبي وهذا فقط هو الذي يفسر لي عدم وجود اسمي في ملفات الـ " ستاسي " * لابد أنه قد تأكد من ذلك ، لو عرفت ذلك من قبل ، لما أخبرت " هيلجا " ، ولكانت هنا الآن ، ولما شعرت بهذه الهشاشة أو عدم الاستقرار النفسي ، كنت غيبا .. وجباناً .. ولكن ، لست مجرماً مثل أجدادك ، وكما كان يحدث في أوقات أخرى ، وإن كان على نحو أكثر غرابة .. هناك قوة عمياء تدفعني الآن لكي ألتقي بـ " ونتر " .

* جهاز الاستخبارات في جمهورية ألمانيا الديمقراطية - " Stasi " .

يوليو ١٩٤٥ ، برلين غارقة في ضوء الشمس ، حطام الحرب في كل مكان ، قطعان النساء تعمل في جمع وإزالة الأنقاض ، جثث تحت البقايا والاطلال ، والمطر لم يتوقف على مدى اليومين الأخيرين ، أما ظهور الشمس فأيقظ الرائحة النتنة للجثث المتحللة !

مجموعة من الضباط الأمريكيين الذين وصلوا حديثا يسيرون في " الكودام " عندما سمع أحدهم اسمه يتردد .

" فيليكس .. ! فيليكس . ! " كان الصوت عاليا وملفوظا بالروسية " معقول ؟ أنت ؟ ! .

حملق الضابط الأمريكي الشاب في الشخص الذي كان يرتدى حلة قذرة من زى الجيش الأحمر ، والذي كان يناديه باسمه من عربة "جيب" مكشوفة ، كان " فيليكس " قد أبلغ عند وصوله بأن ضابطا من الجيش الأحمر كان يبحث عنه ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع . كان يكره كل ما هو سوفيتي .

فيليكس لم يره جيدا ، ولكن عندما اقتربت السيارة الجيب بدأ يتعرف عليه ، كان ابن العم " فريدي " ... " آدم ! " صديق المدرسة القديم أيام " موسكو " ، آدم .. ماجور في الجيش الأحمر ، قفز من سيارته الجيب ، وتعانق الرجلان ، قدمه " فيليكس " إلى زملائه الضباط ، الذين كانوا مدهوشين للصلات الواسعة لصديقهم الشاب

الخبول ،رتب أن يلتقى بهم فيمَا بعد ، ودفعه "آدم" فى الجيب وأصدر أوامره للسائق بأن يعود بهما إلى المكان المخصص له بالقرب من الثكنات المؤقتة .

لم يتكلما كثيرا فى السيارة ، وصدرت أوامر للسائق بأن يذهب لإحضار بعض الطعام والشراب والعودة فى ظرف ساعة .

وجد " آدم " و " فيلكس " مقعدا قديما فى الساحة أمام الثكنات " العم قريدى ؟ " .

" مات ! "

" كيف ؟ "

" بعد أن قتلوا أباك ، كانت مسألة وقت بالنسبة له ، وصلتنا رسالة والدتك ، بكى " قريدى " مثل الأطفال ، قال لأمى إنهم لن يأخذوه حيا ، عندما جاءوا لإلقاء القبض عليه قفز من شباك غرفته ، تعرف أنه كان يعمل فى الطابق الأخير فى الشعبة الرابعة . "

" وأمك " .

" نجت ! لحسن حظها كانت قد انفصلت عن " قريدى " منذ عدة سنوات ، استجوبوها عنه وعن " لودفيك " ، قالت لهم كل ما تعرفه ... ولم يكن كثيرا " .

" ألا تشعر بالمرار يا آدم ؟ " .

" مرارة ؟ ! " وضحك ضحكه جوفاء " لقد كنت دائما أشعر بكراهية محرقة ، عندما التحقت بالجيش الأحمر فى البداية كنت أحلم دائما بأننى أقتل " ستالين " ، فعلا " .

"والآن ؟"

"لقد غيرت الحرب كل شيء .. أنت تعرف بعض ما مررنا به ،
فى وحدتنا ، كان هناك رجال ماتت عائلاتهم بكاملها أثناء معسكرات
التجميع ، بعض الضباط ، بينهم جنرال ، أطلق سراحهم من المعسكرات
لأن خبراتهم كانت مطلوبة ، إنهم يكرهون "ستالين" وكل ما يمثله ،
مثلى . ولكننا كنا نكره النازيين أكثر ، كل عائلة "فريدى" عماتى
وأعمامى جميعا ، وأجدادى أبيدوا فى مذبحه "بيبى يار" : مئات
النساء والرجال والأطفال من أصل يهودى ، كانوا يساقون إلى الغابات
ويجبرون على حفر قبورهم .. ثم تطلق عليهم النار .. وكان الألمان
يعتبرون ذلك تدريباً على الرماية .. ليس أفراد القوات الخاصة ..
بل الجنود العاديون ، ولم يكن اليهود فقط .

كان الألمان يعاملون الشعب كله أسوأ من معاملة الحيوانات .

"أذاك تركتموهم يفتصبون ويسلبون وينهبون فى برلين ؟"

"تركناهم ؟ لقد كانت الأوامر تأتى من فوق .. "ستالين"

أعطى أوامره للقيادة العليا لتشجيع الرجال الذين خاضوا حرباً
ضارية ، بأن يجدوا "بعض الترفيه" .. بنص كلماته ، ! جيشنا
منضبط .

وكان المنطق بسيطاً : كانوا يعاملوننا كالحوانات ، وفى "برلين"
أثبتنا لهم بالفعل أننا حيوانات ! يوم دخلنا "برلين" كان هناك سكان
رفعوا العلم الأحمر ، النساء خرجت ببطاقات الحزب الشيوعى القديمة
التي كن يخفينها أثناء حكم النازى ، كن يظهرنها لنا والدموع

فى عيونهن وهن يستقبلن قواتنا فرحين ! لك أن تتخيل حجم الرعب
وجنود الجيش الأحمر يغصبوهن " .

لفهما الصوت لحظات ، كان كلاهما قد سمع والده وهو يروى كيف
أن الحرب تغير كل شئ ، الجبال القائمة ستصبح بمستوى الأرض
والتلال الصغيرة ترتفع إلى ذرى جديدة ، كانا يعتقدان أن هذه الحرب
ستغير العالم إلى الأفضل كما فعلت سابقتها ، وعندما عاد وجههما
يألفان بعضهما مرة أخرى وهاجت الذكريات القديمة بدأ يتكلمان ، روى
" فيليكس " لآدم كيف وصلوا إلى الولايات المتحدة بمساعدة أصدقاء فى
" باريس " ، حيث مكثوا عدة أشهر بعد اغتيال " لودفيك " ، وكيف أن
" ليزا " قابلت " شميلكا " ثانية ، وبعد ذلك " سيدوف " ابن " تروتسكى
" الذى كان يتوق للقاء " لودفيك " كما قابلت الكاتب " فيكتور سبرج " ،
وكلاهما ساعد فى الانتقال إلى الولايات المتحدة .

ووصف له كيف حققت أجهزة الاستخبارات فى نيويورك مع " ليزا "
وسألوها عن " لودفيك " ، وكيف قالت لهم إنها لم تكن تعرف شيئاً عن
أسرار عملياته ، وبالذات أين وكيف تسلل إلى الأجهزة الغربية ، ويبدو
أنهم اقتنعوا " فيليكس " نفسه دخل المدرسة وتخرج فى نفس موعد
التجنيد .

" وعندما قلت لهم إننى أتكلم الروسية والألمانية والفرنسية والبولندية
عينونى فى وحدة الخدمات الخاصة لديهم والتي تماثل الشعبة الرابعة
عندنا ، كنا نزود كبار الضباط بالمعلومات الاستخبارية والأمنية "

" وأمك ؟ "

" فى طريق عودتها إلى فرنسا ، قررنا أن نعيش فى فرنسا بعد تسريحى ، درست الفلسفة وأود أن أعود إليها بعد أن ينتهى كل ذلك ، وأنت ؟ "

" كنت أدرس الفيزياء عندما قامت الحرب ، سأعود إلى جامعة " موسكو " بعد أن ينتهى ذلك أيضا لأبدأ من جديد ، هل ستعود إلى موسكوى يا " فيليكس ؟ "

" لا ! " موسكو " تعنى القتل بالنسبة لى ، البشر يتم كنسهم مثل أوراق الشجر ، لا ! لن أعود إلى موسكو " .

" أفهم ، فى هذه الحرب ضحينا بأرواح كثيرة .. بغباء! معظم جنرالاتنا لا يحترمون الحياة البشرية ، كان " چوكوف " يستخدم الجنود كمجسات للألغام ، ولكننى أعيش فى " موسكو " أيضا يا " فيليكس " ، وهناك غيرى كثيرون ، ليس لنا بلد آخر ، ألن تعود أبدا ؟. ولو فى زيارة قصيرة ؟ "

هز " فيليكس " كتفيه ، كان فيليكس يقول عادة أن لا شئ مستحيلا .. مثل العالم الذى نعيش فيه ، نحن أيضا فى تغير مستمر. وصل الطعام أكلوا خبزا أسود غير طازج ورنجة معلبة وشربوا زجاجة قودكا ، ولاشئ أكثر من ذلك ، أفضل على أية حال مما أكل " آدم " فى الليلة السابقة : أوراق اللفت المحشوة .. كأنها كانت محشوة بروت الخيل !

كان الخبز الأسود هو الذى ذكر " فيليكس " بأخر زيارة له لموسكو .

كان هو و " ليزا " قد اعتبراهما نوعا من التغيير يجعلهما يعتقدان أن " لودفيك " كان وفيما كالعادة ، حبس دموعة ، وجد أن آدم قد أيقظ الذكريات الأليمة ، تذكر المناقشات بين والديهما وأصدقائهما ، كان الحديث دائما يتطرق إلى القيصر و " ستالين " يتبادلون التعليقات عن القمع تحت حكم القيصر ، كان هناك اتفاق عام على أنهما قريبان من بعضهما الآخر .

كانت هناك روح تضامن وتآزر ، كانوا يتأكدون أن أسر السجناء الذين يرسلون إلى سيبيريا لا تعاني من الجوع .

في سيبيريا نفسها كانوا يساعدون بعضهم الآخر ، ولكن إرهاب " ستالين " دمر الروابط الأساسية للتضامن الإنساني .

أصبح الناس يخشون ظلهم ، اعتابوا الحياة في خواء .

" هل قال لك " فريدي " ذات يوم من الذى خان " لودفيك " ؟ سأل " فيليكس " صديقة ، هز " آدم " رأسه .

" إنها موجودة هنا فى " برلين " عرفت ذلك من خلال شبكتنا ، عنوانها معى .. فى جيبي ! مررت أمام شقتها بالأمس عدة مرات ولكن ... "

" ماذا ؟ " صاح " آدم " قافزا فى غضب " ماذا تنتظر ؟ " وبدأ يجر " فيليكس " إلى حيث كانت العربة الجيب واقفة .

اعترض " فيليكس " توقف يا " آدم " ! إلى أين نحن ذاهبان ؟ قال " آدم " : لنقتلها ، لننتقم لأبويننا ، أنا كضابط سوفيتى لدى السلطة أن ... "

" هي امرأة تستحق الرثاء ، ترس ضئيل في آلة قتل هائلة ، لديها طفل ، لكن تعال معي .. عندي بعض أسئلة لها وأريد أن تكون شاهدا ! "

في الأوقات العادية ، كان لابد أن يطلب " آدم " تصرّحا من قائده ، لكنه كان قد قاتل بعنف لكي يصل إلى " برلين " ، وكانت الثقة في القادة عند أدنى مستوياتها منذ صعود " ستالين " إلى السلطة .. وكبار الضباط السوفييت على وعى بتلك الظاهرة ونادرا ما كانوا يتدخلون .

أرشد " فيلكس " صديقة إلى المبنى ، وجدوها بمفردها ، عندما رأت " جيرترود " أن " فيلكس " هو الذي يقف أمامها أصابها هياج ، أشاحت بوجهها محاولة أن تغوص في ركن الغرفة بدأت يداها ترتعشان نظر " فيلكس " إليها وبرقت في ذهنه صورة " لودفيك " ، يتنفس بصعوبة وكأنه يختنق .

ويشعر بأنه على شفا كارثة ، فكه فقط كان يتحرك رغما عنه ، شفتاه بيضاوان ساكنتان ، شقت رأسه صرخة غضب ، جسمه مخدر ، هرب الدم من وجهه ، رأى " آدم " ما اعتري صديقه فأمسك بذراعه .

فيلكس ! ماذا بك ، هل تشعر بمرض ؟ هل أحضر لك بعض الماء ؟ "

تمالك " فيلكس " نفسه ورأى الخوف في عينيها !

قالت بأنين مستجدية : " لدى ابن ! "

رد عليها آدم : " وكلانا كان لديه أب معافى ! "

قالت مناشدة فيلكس : " ماذا ستفعل ؟ هل ستقتلني ؟ "
" لدى فقط بعض أسئلة لك ، أريد أن أعرف الحقيقة يا
فراو * مايور ! " .

قاطعة " آدم " إن كذبت قد أقرر أن ...
أوقفه " فيلكس " بإيماءة .

" يا فراو مايور ... هل تعرفين من أنا ؟ حسن ! لماذا وشيت
بـ " لودفيك " لمن قتلوه ؟ "

بدأت جيرترود تبكي .

" هددوني ، لم يفلح ذلك معي ، بعد ذلك وعدوني بأنهم سيتركون
والدي و " هيني " الصغير يخرجان من " راقينزبروك " .

وصدقتهم ، لم أصدق أبدا شيئا من هرائهم عن أن " لودفيك " كان
عميلا للجستابو ، ولكنني صدقت أنهم يمكن أن ينقذوا والدي ، قال
" سبيجل جلاس " إن والدي وأخي سوف يتم استبدالهما ببعض الألمان
الذين كان " هتلر " يريدهم " .

سألها " فيلكس " : " وهل حدث ؟ " .

" لا ! كانت خدعة ! "

نظر " فيلكس " في عينيها ولكن جيرترود استدارت .. " لدى
طفل صغير يا " فيلكس " ، لولاه لقتلت نفسي ووفرت عليك المشقة ،
ولفعلت ذلك بعد موت " لودفيك " .. ولكنني كنت حاملا . " قال " فيلكس "

* سيدة Frau

" كفى ! قولى لى يا " فراو مايور " .. هل تمت عملية قتله بسهولة ؟ هل قال لك شيئاً ؟ هل وجدوا شعرك فى يده ؟ " بدأت تبكى مرة أخرى .

قال " آدم " وهو يسحب مسدسة : تكلمى أيتها الكلبة ... " لم يكن يشعر بأى شئ نحو تلك المرأة ، وكان يمكن أن يقتلها دون تفكير ، كانت " جيرترود " تعرف أن " فيلكس " هو حمايتها ، ركعت أمامه على ركبتيها .

" لن أنسى وجه لودفيك ذلك المساء .. لن أنساه ما حييت ، كان غاضباً من نفسه لأنه وثق بى ، اعتقدت أنه مات وانحنيت عليه لكى أقبله ولكنه أمسك رأسى وهو يصيح .. " خائفة " ! ثم صرخ فى الآخرين عاشت الثورة العالمية " بعد ذلك أفرغو كل طلقاتهم فيه ... وفقدت أنا الوعي ! " غادرا شقتها دون أن ينظرا إليها مرة أخرى ، وهما على وشك أن يصعدا إلى العربة الجيب شاهدا " قلادى " الصغير مع اثنين من الألمان يرتديان الزى الرسمى الروسى ، عائدين به إلى أمه ، الرجلان كلاهما وقفا فى وضع " الانتباه " لأداء التحية لـ " فيلكس " ، و " آدم " الذى هز رأسه وهو يدير محرك السيارة .

وفى تلك الليلة ، بدأ " فيلكس " كتابة رسالة طويلة إلى " ليزا " يروى لها فيها أحداث ذلك اليوم .

وقفت فى المدخل تراقبنا ونحن سائرين نحو المصعد .. هل تعرفين ، كان المصعد دائماً يعمل فى المبنى الذى تقيم فيه ، رأيت ابنها - أنا متأكد أنه كان هو - بينما كنا منصرفين أنا و " آدم " مخلوقة

تستحق الرثاء ، لم يغرنى سم الانتقام للحظة . كان شيئاً مرعباً أن أراها مرة أخرى ولكن ذلك كان لابد أن يحدث ، ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعتها لخيانة " بابا " ؟ كان ما قالته لا يبدو صادقا .

ولكن يومنا لم يكن قد انتهى ، عندما وصلنا إلى مسكن " آدم " وركبنا السيارة الجيب ، رأينا طابورا من السجناء الألمان في حراسة جنود من الجيش الأحمر ، كانوا عائدین إلى معسكر مؤقت خلف التكنات ، بعد أن أمضوا يوما طويلا شاقا يجمعون الأنقاض من الشوارع الجانبية ، كانت الشمس مازالت طالعة ، فطلب السجناء إذنا بالجلوس على الحشيش بضع دقائق واستجاب الحراس لطلبهم ، ولذلك كانوا ينظرون إليهم بامتنان شديد . ألقى إليهم أحد الحراس علبة سجائر سرعان ما اقتسموها بينهم ، كنا نراقب المنظر صامتين ، ونحن نسير جوار السجناء قام أحدهم ونظر إلينا في دهشة .

" فيلكس " : " آدم " ! ألا تعرفانى ؟ "

توقفنا ونظرنا إلى الرجل الذى كان ينادى اسمينا ، من ذلك الرجل طويل اللحية الذى يبدو عليه البؤس ويرتدى حلة طيار ممزقة ؟

" أنا " هانز " ، هل تتذكرنى ؟ لعبنا الشطرنج معا فى موسكو منذ سنوات طويلة .. "

نظرت أنا و " آدم " لبعضنا الآخر ، اندفعت نحو " هانز " أولا وعانقته و " آدم " بعدى ، وأدى الحراس التحية لآدم ، أمرهم أن يطلقوا السجن بكفالة ووقع إيصالا باستلامه بسرعة وانطلقنا نحن الثلاثة .

كان منظرا غريبا ، ثلاثة رجال ، من الواضح أنهم أصدقاء .
ولكنهم يرتدون ثلاثة أنواع من الزي ، أحدهم ألماني .. صمم " آدم "
أن نرجع إلى غرفته ، وهناك شربنا المزيد من القودكا ، وصممت أن
أن يخلق " هانز " لحيته القبيحة ، وقدم له " آدم " الأدوات ، بعد أن
انتهى من الحلاقة ، أمسكت أمام وجهه بالمرأة .. وبدأ " هانز " يبكي ،
ضمه آدم .

" الآن نحن سواسية ... سيكون كل شيء جميلا .. " وبعد أن
هدأ " هانز " حكى لنا حكايته .

" بعد حلف " هتلر " و " ستالين " تم تسليم عشرات الشيوعيين
الألمان في موسكو إلى النازي ، أرسلت أمي فورا إلى " رافنزبروك "
وهناك قتلها طبيب نازي لمجرد التسلية ، أما أنا فقد أرسلوني إلى ملجأ
للأيتام حيث أصبحت فورا عضوا في الشبيبة النازية . اختاروني
للطيران ، كنت طيارا جيدا لذلك كانوا يرسلونني في مهام لقصف "
موسكو " و " ليننجراد " وهناك كنت أفرغ القنابل فوق حقول خالية قبل
أن أعود إلى القاعدة .

لم أستطع أبدا أن أعرف موسكو بـ " ستالين " . لو استطعت لكان
من السهل على إلقاء القنابل ، بالنسبة لي ، كانت موسكو هي
نحن جميعا ، وآخرون مثلنا ، كنت دائما أفكر فيكما وفي أصدقائي
الآخرين .. ماذا حدث لكما يا " فيلكس " ؟ ولماذا ترتدى الزي
الرسمي الأمريكي ؟ "

قصصت عليه أنا و " آدم " قصصنا .. كلانا فقد أباه بفضل ستالين " وهتلر " ، نظرنا إلى بعضنا الآخر فى صمت ونحن نتذكر أيامنا الماضية ، بعد ذلك أخذه " آدم " إلى معسكر السجن ، كلانا كان قد صمم على أن نحصل له على حريته .

قلت : إن لم تستطع يا آدم أن تخرجه فسوف أحاول من جانبي قال " آدم " لا تقلق ، چنرالى كان فى الحزب البولندى مع " فريدى " و " لودفيك " وسيفهم لماذا لايمكن أن يظل " هانز " أسير حرب ، ولكن قل لى يا " هانز " .. أين ستعيش فى ألمانيا المقسمة ؟ .

فكر هانز للخطه : ألمانيا تشبه داعة فقدت الذاكرة ، لا تعرف من الذى سيأخذها بعد الآخر ، ولا كيف اغتتموها وباعوها .. فى البداية " هتلر " والفاشست ، والآن الحلفاء

تمنيت أن ينتصروا ، ولكن ليس لدى أية رغبة فى أن أعيش فى أى بلد محتل .. أعتقد أننى قد أعود إلى " درسدن " حيث كانت تعيش عائلة أبى ... ولكننى لا أريد أن أعيش تحت حكم ستالين ، من ناحية أخرى لا أعتقد أننى يمكن أن أتحمل العيش فى ميونخ ! .

قلت : " فى هذه الحالة لا يجب أن تفعل ذلك ، تعال وعش معنا فى " باريس " ، أنا أعنى ما أقول ، وأمى سوف يسعدها أن تراك . "

ابتسم " هانز " .. " لا تنس أننى ألمانى ، نحمل ماركة الوحش ! سيحتاج الأمر وقتا حتى تهدأ النفوس .. "

أتمنى أن توافقى معى يا أمى ، أعرف أنك ستوافقين ، رؤية
" آدم " و " هانز " ذكرتني ثانية بكل أولئك الذين فقدناهم إلى الأبد ،
" لودفيك " .. " فريدى " .. " ميشا " .

" العم شميليكا " الذى قتل فى الفندق فى نيويورك بعد فراره من
" باريس " .

الأطفال الخمسة الذين شبوا معا فى مدينة " بدقو شوايسك " كلهم
تسمموا بماء ذات البئر .

منذ موت أبى وأنا حزين وغاضب " آدم " جعلنى أدرك أنتى
لم أكن وحدى فى ذلك ، ولكن " هانز " هو الذى جدد إيمانى بالبشر
" هانز " ، الذى قتل هتلر والده ، وسلم " ستالين " أمه لهتلر لتختفى
فى " رافنزبروك " .

" هانز " هذا نفسه ... رفض أن يلقي القنابل على المدن الروسية .
لو اكتشفوا ذلك لأعدموه سرا .

" هانز " أثبتت أن الخير فىنا .. وأنه لا يمكن أن يموت .. أثبت أنهم
- حتى - لو وضعوا فى يدك البندقية وأعطوك سببا كافيا لأن تضغط
على الزناد ، فإنك مازلت قادرا على أن تقول لا ..

هو تتذكرين تلك القصيدة التى كان " لودفيك " يحبها : " أولئك
الذين يملكون القدرة على إيذاء الآخرين ولكنهم لا يفعلون ... "

أشعر أننى و " آدم " قد اجتزنا هذا الامتحان اليوم .. !

يوم رمادى من أيام شهر إبريل ، كئيب ، المطر يهطل ، التاسعة صباحا واليوم أحد ، " برلين " نصف نائمة ، " فلادى " الذى مازال نعسانا على أثر ليلة ساهرة يسير مترنحا إلى النافذة ويزيح الستائر هذه ، بالقطع ليست أمطار الربيع ، السحب كثيفة ، لعله الخريف ، المطر الذى لا يتوقف ينشر الكآبة والحزن .

تمتم " فلادى " لنفسه : " لم أعد صالحا لشيء ! "

وبعد أن حلق ذقنه دقق فى ملامحه مليا وأقنع نفسه أنه لا يبدو أكبر مما كان منذ عشر سنوات .

منذ أن قرأ الملف المكتوب عليه " جيرترود " و " فلادى " يشعر أنه يغرق ! وبعد ما كشفه له " ونتر " ، أصبح يعتقد أن لاشئ مما عرفه عن أمه يمكن أن يكون مفاجئا له ، ولكن الذى هزه من الأعماق وزلزل كيانه هو أنها شاركت مشاركة مهمة فى عملية قتل " لودفيك " .

مصابا بالإحباط والاكتئاب ، كان يشعر بأن أحزانه قد تضاعفت ، يمتلكه شعور بالاغتراب عن كل شئ ، أحيانا تنتابه رغبات متوحشة ، كان يريد أن يمزق حياته بفعل عنيف ، أصبح نكد المزاج .. صموتا ، وشخصا بدأ أصحابه يتجنبونه .

أشد ما يؤله ، ذلك الدليل الذى أكد له أخيرا كل ما كان يشك فيه ،

"لودفيك" لم يكن والده ، كان على استعداد لتقبل ذلك ، ولكن تحققه من أن والده الحقيقي كان أحد القتلة التابعين لجهاز "إن - كى - فى - دى" والذي لقيح أمه بابتسامات زائفة وسائل منوى حسب الطلب - منفذا للتعليمات حرفيا - كان يضيف إلى عذاباته ، ترى هل كان "ونتر" ؟

يأسا ، ذهب إلى "إيفيلين" التماسا لبعض الراحة الجسدية .. لكن الموهبة التي كانت تتمتع بها المرأة أثناء سنوات الدراسة ، قد جفت تماما ... أصبحت امرأة قليلة الذكاء ، شديدة التمرکز حول ذاتها .. مضجرة .. لا تتكلم إلا عن نفسها وعن أفلامها الرائعة !

و ذات ليلة ، بعد أن مارست الجنس معه ، وكان ذلك أيضا قد أصبح روتيننا بلا روح ، أعلنت "إيفيلين" أنها لم تعد تريده عاشقا .. " فلنظل أصدقاء ... فقط " . ابتهج " فلادى " للخبر .. ووافق .

وذهبا إلى أحد المقاهى ليدشنا الاتفاق الجديد، وهنا رأتهما " ليلي كروز بيرج " ، كانا يتشاجران ، وهددت بأن ترسم صورة أخرى لهما جالسين على الطاولة ، فى يد كل منهما نصف تفاحة ، وكل نصف تنقصه قشرة ، وأنها سوف تسمى اللوحة " ما بعد الحائط " .

ضحكوا ، وقاموا لمشاهدة النسخة الإنجليزية الكاملة من فيلم "العداء الطائش" . وعندما عاد إلى المنزل كانت هناك رسالتان مسجلتين على جهاز الرد على المكالمات ، الأولى من "ونتر" ، يؤكد مواعدهما ويقترح مطعمًا فرنسيًا فى "كروز بيرج" الثانية من "ساو" فى "باريس" يطلب منه أن يتصل به على وجه السرعة لأمر بالغ الأهمية .

" تحياتى يا " ساو " ! "

" سعيد لاتصالك .. أين كنت ؟ "

" أشاهد " العداء الطائش " للمرة الثالثة . هل شاهدته
يا " ساو " ؟ "

" بالطبع ! نفاية هوليود العادية المضيعة للمال .. ماذا تشاهد فيه ؟ "

" صور الرأس مالية السلطوية المتفسخة ، المتعددة اللغات ، وألة
الدولة التى تم تصويرها قسرية تماما ، حتى المواجهة الديمقراطية تم
تجنبها ، إنها نقد أجوف وردى للنظام يا " ساو " ، النظام الذى يحتل
بلدكم الآن ، بوينج .. ستي بانك .. موبيل .. دلتا .. ماريوت .. آى - بى
- إم .. يونيليفر .. العداء الطائش .. تحفة يا " ساو " ... أذهب وشاهده
مرة أخرى . "

" الإنسان اليائس يمكن أن يقرأ أى شئ فى لاشئ ! هذه هى
الموضة " اليوم .. أليس كذلك ؟ " . "

" أنا لست من أفاعى ما بعد الحداثه يا " ساو " ، وأن كنت تعتقد
ذلك ! " "

" فلادى ! كف عن هذا الهراء .. لم أتصل بك لكى أناقش فيلما من
أفلام هوليود . اسمعنى .. لقد حدث شئ هام وأحتاجك بشدة ، هذه
المره لا يجب أن تقول " لا " ! لى مبلغ من المال عند أحد المحامين
الأمريكيين من نوى الأساليب الملتوية .. هل تفهمنى ؟ "

" تنهد فلادى غير مصدق .. " لا ! " "

" بلى ! أنت تفهم ، الصفقة ليس لها علاقة بك . هذا الرجل يمتلك دار نشر لها أفرع عديدة فى أمريكا الشمالية وأوروبا ، لا أستطيع أن أتذكر الاسم الألمانى .. لكن أسمع .. فى مقابل المبلغ المدين به لى ، عرض على امبراطورية النشر التى يمتلكها والتى يقول إنها تخسر ، ولكن يمكن أن يتغير حالها على يد مسئول كبير زكى .. ولكن من يهتم بذلك ؟ والآن اسمعنى ... أريدك أن تدير هذا العمل .. سأقوم أنا بالجانب التجارى ، أنا فى حاجة لشخص له دراية بالكتب ..

" لماذا ؟ "

" ماذا تقصد بـ لماذا ؟ "

" لست فى حاجة لشخص يقرأ كتباً لكى يدير هذه الامبراطورية ، يمكن أن تستأجر تاجر سلاح أو محاسباً بمرتب كبير .. لا يهم الوجهة التى تتخذها ثقافتنا . أعتقد أن ألمانيا ما تزال مختلفة ، ولكن نهاية الأنجلو ساكسون كابوس ! " .

" أعرف يا " فلادى " .. أعرف .. أنا فى حاجة إليك ... نعم أو لا ؟ "

" دعنى أفكر فى الأمر ، سأتصل بك غدا .. وإذا قبلت يا " ساو " أين سيكون مكانى ؟ أقصد فى أية مدينة ؟

" أعتقد أنك ستقضى معظم وقتك فى الطائرة يا " فلادى " ، سأحجز لك مكتباً على الكونكورد ... "

" وعندما لم يستجب " فلادى " للنكتة خاف " ساو " إلى حد ما . "

" يمكن أن تعمل من أى مكان تحب ! نيويورك ، باريس ،
برلين ... هل تريد أن تعرف كم سيكون راتبك ؟
" لا ! "

ضحك " ساو " .. " طاب يومك يا بروفيسور " مايور " ، " لينا "
تبلغك تحياتها ! "

" هل استقرت الآن ؟ "

" بالتأكيد ، ولكنها تفتقد البلد القديم ، طهيها رائع
يا " فلادى " ! "

" ولابد أن ذلك يجعلك سعيدا يا " ساو " .. " ضحك " ساو " ، تعال
لزيارتنا بسرعة ، ولاتنس أن تتصل بى أولا مهما كان قرارك ، وهناك
شئ آخر .. هل تعرف الاسم الذى اخترته لدار النشر .
" لا ! "

" النمر الخمسة "

" إلى اللقاء يا " ساو " ! "

كان المطر قد توقف فى الخارج ، وظهرت مساحات كبيرة زرقاء من
السماء كمقدمة لضوء الشمس الذى كان الآن يضىء غرفة نوم - مكتب
فلادى ، شعر بالانتعاش ، لقد ذكره فيلم " العداء الطائش " بأن الثقافة
لم تعدم النقاد ، " ساو " عرض عليه عملا ، لايمكن أن يبقى صامتا ،
بدأ يذرع غرفته جيئة وذهابا .. كانت جدرانها الآن عارية ، كل ماله
علاقة بـ " جيرترود " تم إزالته ، كان " فلادى " يشعر بأنه يريد أن يتكلم

مع " هيلجا " ، و " جيرهارد " ، ومع أى شخص آخر ماعدا " إيثيلين " !
بعد عدة ساعات ، وفى يأس ، اتصل تليفونيا بـ " كارل " يخبره بالعرض
الذى تلقاه من " ساو " .

" ما رأيك يا " كارل " ؟ "

" هذا خبر طيب جدا يا " فلادى " ، ولابد أن تفعل ما تراه أفضل
بالنسبة لك ! "

" ماذا تظن كان يمكن أن يكون رأى أمك ؟ " صمت طويل ...

" كارل ! "

" نعم .. أنا هنا ، لا أعرف ، هل يمكن أن أتصل بك تليفونيا فيما
بعد ؟ نحن مقبلون على أزمة ، الحزب سوف يزيح " شاربنج " ويؤيد
" لافونتين " ، وهو أمر سيكون كارثة ، إنه يساوى أكثر من اللازم
بالنسبة للمناخ الحالى ...

" لا أوافقك ! إنه أفضل من لديكم ... ربما احتاجونى لأكتب له
أحاديثه .. ويمكنك أنت أن تعمل لحساب " ساو " " كارل " .. هل
تسمعنى ؟ "

" سنتكلم فى ذلك قريبا يا " فلادى " . غدا سأتصل بك ، وهذا
وعد ! "

فكر فلادى ، يالها من محادثة بائسه اقرر أن ذلك كان الوقت
المناسب لكى يرسل مخطوطته إلى " كارل " ، فليقرأ الولد بينما هو -
فلادى - على قيد الحياة يستطيع أن يناقشه ، وضع المخطوطة بعناية
فى طرد ، وأرفق به رسالة كتبها بخط يده .

عندما اتصلت بك بخصوص العمل الذى عرضه على ساو ، كنت حذراً كالعادة ، لامعنى لأن نقضى ما بقى لنا من العمر متباعدين . لقد وضعت جنبا إلى جنب .. جزءاً من تاريخ عائلة ، وإعادة بحث عن " لودفيك " و " جيرترود " ، ونظرة على ما حدث بينى وبين أمك وتقليب الأمر على وجهيه ، أن أرسل ذلك إليك أم لا ! لا تفتح هذا الطرد إن كنت تشعر أنك أفضل ، هكذا ، بترك الماضى وراء ظهرك .. ولكن إذا فتحت .. عدنى بأنك ستقرأ ما فيه حتى النهاية ..

أتمنى أن تكون لديك الرغبة فى أن تتكلم معى بخصوص ما فيه ..

استيقظ قبل الظهر مباشرة ، لم يكن مهيبًا للصدمة التي كانت في
انتظاره ، لم يصدق عينيه في البداية ، لابد أن يكون حلما ، غطى رأسه
بالبطانية ورفعها ببطء متأكدا أن الشبح قد اختفى .

كانت ما تزال هناك ، جالسة على مقعدها المفضل : " هاى قلادى !
لقد تركتك تنام ! " .

قفز من السرير .. " لماذا لم تخبرينى ؟ "

" ربما كنت قد هربت "

" كان لابد أن أهرب .. هل أصابتك نيويورك بالجنون
يا " هيلجا " ؟ "

جلس على حافة السرير ينظر إليها ، الآن عيناها هادئتان خاليتان
من عداء المواجهة الأخيرة بينهما ، صوتها الذى كان مليئا بالحدة
والتوتر عاد إلى طبيعته العادية ، جلس على الأرض عند قدميها ودفن
رأسه فى حجرها ..

تداعت الذكريات القديمة . تكلمتا عن نفسيهما .. وعن " كارل "
وعن حياتهما أثناء الانفصال ، اعترفت " هيلجا " أنها لم تعد قادرة
على مواصلة العيش فى الولايات المتحدة لكونها بيضاء .. أمتعته
بقصص عن أصدقائها الذين تماثروا بشكل مبالغ فيه لإخفاء بياضهم ،
! حتى الإيطاليين .. كانوا يشيرون إلى أنفسهم الآن بـ " أمة الزيتون " ،

وصديق حميم لها ، محلل نفساني زميل ، عاد إلى جنوب شرق " كينتكي
" وكان يكتب الآن كتابا عن شعب " الميلنچيون " .

قام " فلادى " مدهوشا : " شعب ماذا ؟ " .

" الميلنچيون ! "

راحت " هيلجا " تشرح له بتأن وصبر شديدين ، الميثولوجيا
التي تقول إن كان واحد فى جبال " كينتكي " كان من أصل اسكتلندى
أو أيرلندى مع الدم " الشىروكى " ، ولكن الحقيقة غير ذلك " الميلنچيون "
هم سلالة جماعات عرقية متعددة ، جاعوا إلى وسط القارة قبل الإنجليز ،
معظمهم نزح من إسبانيا والبرتغال ، وهكذا كان صديقها يوضح الآن
الصلة الوراثية بين " الأپالاشيان " البيض والموريسكيين الإسبان وأبناء
شمال أفريقيا واليهود ، كانت هناك دلائل أيضا على صلات بالمجتمعات
التركية .

كان " فلادى " مفتونا ومرتبكا .. " لماذا هذا الهاجس ؟ ولماذا
الآن ؟ "

ابتسمت " هيلجا " لفضوله ، تماما كما كان يحدث فى سالف
الأيام عندما كانت تحكى له عن اكتشاف فى مجال الصحة النفسية، لا
يعرف عنه شيئا ..

" أعتقد أنهم يريدون أن يتحدثوا مفهوم الأصل الإثنى المتجانس فى
الجنوب الأمريكى وأپالاشيا " .

" تأكدى أن صديقك " الميلنچيون "

سيرسل لنا نسخة من الكتاب . "أعتقد أن الأمر كان صعبا بالنسبة لك .
سلالتكم لا يمكن أن تتحسن ، بروتستانتى أبيض من ساكسونيا ،
أنا سعيد لأنه أعادك إلى هنا " .

" ليس بالضبط ! لقد أفقدتك يا " فلادى " .

بعد أن مارسا الجنس ، قالت " هيلجا " إنها أيضا قد قرأت
المخطوطة التى أرسلها إلى " كارل " .
" وماذا كان رأى " كارل " ؟ "

" هزته حكاية " جيرترود " حتى أنا أيضا يا " فلادى " ، ولم يكن
لدى وقت لها ، لابد أن يكن ذلك فوق طاقتك على الاحتمال ، " كارل "
يصل غدا إلى " برلين " سيقول لك رأيه بنفسه ، أنا سعيدة لأنك كتبت
ذلك كله .. وتخلصت منه " لم يتذكر أنه كان على موعد عشاء مع " ونتر " ،
إلا عندما اقترحت الذهاب لتناول الطعام فى مطعم قديم ، فى البداية
فوجئت .. وجفئت .

" أمور بسيطة ، وسؤال واحد مهم يحتاج إجابة يا " هيلجا " ..
تعالى معى أرجوك ! "

هزت رأسها فكرة أن يتناول العشاء مع " ونتر " فى أول يوم تعود
فيه إلى " برلين " غيرت حالتها النفسية ، اكتشف ذلك ، ولكنه واصل
رجاءه إلى أن وافقت أن تصحبه فى ذلك المساء لم يكن " فلادى " سعيدا
هكذا منذ زمن بعيد ، عندما خرجا أمسك بذراعها وقبل شعرها .. بدأ
الشارع غريبا مقارنة بما كان عليه قبل ذلك بعد الظهر .. الأرضية
المبتلة جفت والسماء أصبحت صافية ، وبينما كانا يسيران نحو بوابة

" براندنبورج " رأى زحاما من الألوان ، كانت جماعات من الشباب فى حالة مرح صاخب ، وهم عائدون إلى الشرق بعد احتفال يوم بهيج ، متجاهلين صياح آلات التنبيه وهم يعبرون الميدان . كان الكبار يرتدون أفضل ثيابهم ويحاولون قدر استطاعتهم تجاهل ذلك المرح الصاخب .

تبادلا الابتسام ، كانت تلك هى " برلين " التى يحبانها ، بدأت السحب تعبر السماء ثانية ، سعيدان لأنهما قد ارتديا معاطف المطر وأسرعوا الخطى ... استقلا حافلة إلى " كروزنبيرج " ، وعندما وصلا المطعم كان المطر قد بدأ رذاذا خفيفا .. المكان مزدحم بالرواد ، مدهش أن يكون ذلك مساء يوم أحد ! كان " ونتر " يجلس على طاولة فى ركن ، اقتربا منه ، لو أنه كان مدهوشا ومفاجئا بوجود " هيلجا " فقد نجح فى إخفاء ذلك جيدا ، ثم بدأ على الفور يمارس سحره عليها ! .

" أريد أن أنبهكما لوجود رجل هنا فى المطعم ، لم يرنى حتى الآن ، يجلس فى الناحية الأخرى مع زوجته ، لو جاء وتحرش بى ، أرجو أن تظلا هادئين ، لا تحاولا التدخل ... " من هو يا " كلاوس " ؟

" شخص أحمق .. تافه .. ملعون .. زوجته زارتنى ! اربط حزام المقعد يا عزيزى ! " .

رجل مسن ، يرتدى حلة من الحرير الأخضر الباهت ، كان يقترب من الطاولة ، استحال وجه " ونتر " حجرا ..

" مساء الخير يا " كلاوس " ، مرت أربعون سنة ، ألم تسامحنى وتعف عني بعد ؟ "

لم يرد عليه " كلاوس ونتر "

" هذه هي قائمة الطعام .. هيلجا .. فلادى .. ماذا تودان ؟ هذا الإزعاج سينقضى سريعا ! "

امتلات عينا الرجل الغريب بالحزن ، لم ينتظر ، بل انصرف ببطء محنى الكتفين .

قال " فلادى " وهو يخشى الأسوأ : " كلاوس " ! لن أتكلم معك فى شئ ، ولن أبقى هنا إلا إذا قلت لنا من يكون هذا الرجل ، هل هو عميل سابق .. خارك ؟ "

" أسوأ يا " فلادى " .. أسوأ ! "

" مثل ماذا ؟ أنا مصمم أن أسمع منك " بعد أن طلبا الطعام ، وفتحت لهم زجاجة نبيذ ، روى لهما ونتر قصة علاقته بالرجل الذى كان يرتدى الحلة الحريرية الخضراء .

" اسمه " والتر " ، وهو ابن خالتي ، أمه وأمى شقيقتان ، يكبرنى بعام واحد ، ولكن هذا الوجد ما زال أكثر تماسكا منى ، تشاجرنا معا منذ أربعين عاما .. تقريبا . ! "

وبدأت القصة تتكشف بالتدريج ، كانا قد نشأ فى المنزل نفسه فى " ودينج " وأصبحا صديقين حميمين ، لم يفترقا قط إلا فى الفترة التى سافر فيها " كلاوس " إلى إيطاليا لمدة عام ليدرس تاريخ الفن ، وهناك كان يعيش فى " لوكا " ويقيم فى أحد المساكن المستأجرة وتعلم الطهى .

"وأصبحت طبابخا متعصبا ! كل شئ لابد أن يكون متقنا ، وعندما جئت إلى " برلين " كنت أطيخ لـ " والتر " ولغيره ، وكانوا مدهوشين وسعداء ، وذات شتاء ، ذهبت أنا و " والتر " للتزلج فى جبال الألب فى سويسرا . وفى أحد الأيام بقيت فى المنزل لشعورى بالإرهاق . قلت له ألا يتأخر حيث كنت أقوم فى ذلك اليوم بإعداد صلصة خاصة للباستا من ابتكارى ، وأنها سوف تفسد إن تركت على النار طويلا . عاد بعد يوم كامل .. وطلب العشاء .. فورا ! قلت له إنه لابد من خمس أو عشر دقائق .. قال : حسن ! وواصلت الطبخ . بعد ذلك رأيته يأكل قطعة شوكلاته بطريقة مستترة ... يلتهمها مثل الحيوان المفترس . وطبعاً ، عندما كانت الصلصة قد أصبحت جاهزة للباستا كان " والتر " قد فقد شهيته للأكل .

جننت يا " فلادى " ! طردته ، لم يسبق لأحد أن أهان طبيخى هكذا قبل ذلك . ومنذ ذلك اليوم لا نتكلم معا " قاطعته " هيلجا " ... " لا يمكن أن أصدق ذلك يا " هر ونتر " ... قصة من تأليفك ! "

" أهذه هى الحقيقة يا " كلوس " ؟ "

" فلادى ! أنا أحذرك .. لاتستفزنى بسبب هذا الموضوع . أنت تعرف جيداً أننى قد وضعت كتاباً عن المطبخ الإيطالى ، والآن أعد كتاباً آخر عن المطبخ فى الاتحاد السوفيتى السابق ، أنا أتعامل مع موضوع الطعام بجدية شديدة يا " هيلجا " و " والتر " كان يعرف ذلك جيداً . ! والآن خبرانى .. ماذا يحدث لكما ؟ ولماذا لا أراكما منذ أكثر من عام ؟ "

قال له " فلادى " كل شئ ، اكتشفاه أن " جيرترود " هى التى ساعدت فى قتل " لودفيك " ، وأن " ونتر " كان متورطاً فى

الموضوع ، وأنه كان يريد أن يسأله بعض الأسئلة بهذا الخصوص .

لم يبد على وجه " ونتر " أى تغير عندما سمع ذلك .

" كنت أعرف عنها ، وأنت تعرف أنها كانت تعمل لحساب " موسكو " حتى النهاية ، وليس لحسابنا . كنت أعرف ذلك ، وذات ليلة - كنا سكارى - حكى لى القصة كلها ، وكانت تبكى مثل الأطفال يا " فلادى " ! لم أكن متورطا فى تلك المسألة ، ولكن ذلك لايعنى أننى لم أرتكب جرائم أخرى وربما أسوأ . ! وأنت تعرف ذلك . كانت تحب " لودفيك " ولكنه لم يكن مهتما بها ، وكان ذلك أسلوبها فى الانتقام . وقالت لى أيضا إنها لو لم تكن حامل .. لقتلت نفسها . "

" ليتها فعلت ! أسلوب غريب للتعبير عن حبها للودفيك "

" غضب الجحيم أهون من غضب امرأة تشعر بالإهانة يا " فلادى " ! من المؤكد أنك .. "

" كلاوس .. كم استمرت علاقتكما الغرامية ؟

أعرف أنك أغويتها فى انجلترا ، فى السنة نفسها التى قتل فيها " لودفيك " ، هل استمرت العلاقة ؟ "

هز " ونتر " كتفيه ، وعلا وجهه عبوس " أنا لست والدك يا " فلادى " ! "

" من أذن ؟ "

"وهي كانت متأكدة أنه ليس أنا ، وإنما الرجل الإنجليزي ، كان عاشقا قديما قبل أن يتزوج " أولجا " ، أخبرتنى ذات يوم أنه جاء إلى فراشها فى الليل ، وأنهما استعدادا الأيام الماضية . كانت مقتنعة بأن " السير كريستوفر براون " - كما أصبح فيما بعد - هو أبوك ! "

"هل مات ؟ "

" نعم ! خدم سفيراً لدى الاتحاد السوفيتى لفترة ما ، كلانا .. أنا ، و " جيرتى " كنا نضحك على ذلك كثيرا "

" تريد أن تقول إنه .. هو " أولجا " لم يكتشفا أبدا ؟ "

" بالطبع لا ! نحن لم نفضح أمرهما ، والإنجليزى الوحيد الذى كان يعرف أنهما معنا كان " فيليبس " ، أعتقد أن " كريستوفر " و " فيليبس " التقيا فى " موسكو " فى أكثر من مناسبة " أمسكت " هيلجا " يد " فلادى " بشدة من تحت الطاولة .

صمت الكل ! كان " ونتر " يحاول أن يهدئ الموقف ..

" هل تتمنى لو أننى كنت والدك يا فلادى ؟ "

" لا ! "

كانت الاجابة سريعة وقاطعة . "اختيارى المفضل ما يزال لودفيك" ليتها كانت قد قتلت نفسها ! "

" أنت مخطئ يا " فلادى " ، مخطئ جدا ! لأن التاريخ يواصل ارتكاب الحماقات ويجب ألا تستسلم . "

" حماقات التاريخ ينفذهما بشر واعون ، أليس كذلك يا " كلاوس " ؟ "

بشر أذكاء ، مثقفون مثلك ! كنت دائما رئيس طباطخين ممتازا ... أليس كذلك ؟ لحم البشر لحم الحيوانات .. سيان عندك !

قالت " هيلجا " حذرة : " اهدأ يا " فلادى " ، رغم أنها كانت سعيدة بغضبة .

واصل " فلادى " كلامه : " بشر يدعون أنهم يؤمنون بالأفكار النبيلة ، انظر إلى أين أوصلتنا ؟ اللوح تم تنظيفه تماما ! "

" هراء ! زماننا سيجي ثانية . ليس بالطريقة نفسها بالطبع ! كلنا تعلمنا دروسا مريرة ، ولكن لم يتم محونا من الخريطة ! ألا ترى ما يحدث فى العالم ؟ "

" أراه جيدا . ! الفاشست فى حكومة إيطالية ، حيث يدير البلاد من يتحكمون فى المجال التلفزيونى .. فى موسكو ، المجرمون يديرون السياسيين !

" قش تذروه الرياح يا " فلادى " ، فى كل مكان أخسر ، الناس يعودون إلى الحظيرة ، إنهم لا يتطلعون إلى أهداف عظمى .

كل ما يرتجونه ... دولة حياة كريمة ودرجة من المساواة ، من سيحقق لهم ذلك ؟ الاشتراكيون يتخبطون فى كل مكان . رأسمالية ما بعد الشيوعية مثل المرحلة تسحق كل شئ فى طريقها .. هل هى قادرة على حل المشكلات التى فشلت الشيوعية فى حلها ؟ الأيديولوجيون الذين أصابهم الانتصار بالجنون ، يمكن أن يتصوروا أن الفقر ، أو الظمأ للعدل لم يعد مهما . فى أوروبا قد يكون الثلاثات هما اللذان يحكمان ،

ولكن على مستوى الكرة الأرضية فإن التسعة أعشار في الجانب الآخر .
الشيوعية ماتت ! ولكن شيئاً ما سينهض من رمادها ، هذا هو الوقت
الخطأ للاستسلام يا " فلادى " ، أنت فى حاجة إلى حزب .
" حزبك انهى يا " كلاوس " . عليك أن تقبل ذلك . لقد انتهى ذلك
العالم إلى الأبد ! "

ماذا أقول لك ، مُنْظَرُكُمْ الذى يتلمس طريقه مثل حيوان يدور ،
ويدور ، ويدور ، أرواح شريرة تديره على أرض قاحلة ، بالقرب من
المراعى الخضراء التى أخطأها ..

ضحك " ونتر " بصوت خافت " ميفوستوفيليس إلى فاوست " ،
حسن ! " ونتر " إلى " مايور " . متهور كعادتك دائماً يا صديقى ! فى
وقت ما ، عندما تصبح الرأسمالية كونية فعلاً ، سيحتاج الناس إلى
مؤسسات سياسية جديدة لكى تحميهم من وحشيتها ..

أنا عائد لتوى من " بكين " ، وحزبى أداؤه ليس سيئاً هناك كما
تعرف ، فى أوروبا الشرقية وموسكو نحن ننهض ثانية ، ليس لأننا كنا
جيدة ، وإنما لأن العلاج بالصدمات أكثر سوءاً .

الفضاء محدود ! ولكنه موجود بالفعل . بدأنا تنمو هنا مرة أخرى ،
بدون يد جمهورية ألمانيا الديمقراطية الميتة ! لماذا لا تنضم إلى الحزب
الاشتراكى الديمقراطى وتصبح نشطاً من جديد ؟ يجب ألا تذوى أمام
الدولة يا " فلادى " .

فانتازيا سياسية يا " كلاوس " ! هل تعتقد أننى لابد أن أقبل عرض " ساو " ؟ "

" بالطبع ! وفورا دون تفكير ! ماذا حدث لك يا " قلادى " ؟ قد يكون مفيدا أن تدير مؤسسة كبيرة للنشر على مستوى العالم ، من يعرف ؟ ربما أعطيك مذكراتى ! "

" مادمت لست فيها يا " كلاوس " ، أنظر . ! ها هو ابن خالتك ينصرف ، أرجوك صالحه .. فهو متألم بالفعل .. هيا ! إن فعلت ، فقد أفكر جديا فى الانضمام إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ! أو شئ من هذا القبيل .. !

" والتر ! "

كان صوت " ونتر " مسموعا من الجميع ، وقف ابن خالته بالقرب من الباب واستدار لينظر إليه ، هز " ونتر " رأسه اندفع " والتر " إلى طاولتهم وتعانق الرجلان .

" بالمناسبة ! هذا هو صديقى البروفيسور " قلاديمير مايور " ، وهذه زوجته " هيلجا " ... " والتر نورنبرج " .

" يسعدنى أن أكون حاضرا فى هذه المناسبة يا " هر نورنبرج " كنا مغادرين ! عودة سعيدة ! "

خرج " قلادى " و " هيلجا " بسرعة ، كان الجو صحوا مرة أخرى ، وقفا ساكنين يرقبان عناقيد النجوم فى سماء الليل ، فوق مدينتهم التى ستعاد صياغتها مجددا عاصمة للرايخ الجديد ! همس لـ " هيلجا " : بدونك .. كنت قد بدأت أشعر كائنسى ريشة فى مهب الريح ..

لم ترد ... ولكنها أمسكت ذراعه وسحبته بهدوء إلى المنزل !

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت . أحمد درويش
الوثبة والإسلام	ك. مادمو باننيكار	ت . أحمد فوزاد بليج
التراث المسروق	جورج جيمس	ت . شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت . أحمد الحضري
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت . محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيش	ت . سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت . يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت . مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت . محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
مختارات	فيسوالفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براوننيسون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
بيانة الساميين	روبرتسن سميث	ت . عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأب	جان بيلمان نويل	ت . حسن الموين
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفي عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
الشعر النسلنى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت . طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت . نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يعنى طريف الخولى / بدوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت . سيد أحمد على الناصري
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت . سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت . بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت . إبراهيم السوقي شتا
بين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط ٢)	ك. مادمو باننيكار	ت : أحمد فوزاد بليج
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ليفيد روس	ت . مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا للفرية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فوزاد بليج
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتين	ت حياة حاسم محمد
واحة سبوة وموسيقاها	مريجت شفر	ت جمال عبد الرحيم
يقد الحداثة	الى توريس	ت أنور مخض
الإغريق والحسد	مير والكوت	ت مبرة كروان
قصائد حب	ان سكسون	ت محمد عبد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر حراي	ب عطف أحمد / إبراهيم حتى / محمود ملحد
عالم ماك	مجامين مارير	ت أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكثافيو پاث	ت المهدي أحريف
بعد عدة أصناف	ألدوس هكسلي	ت مارلين تادرس
التراث المغفور	روبرت ج نينا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو بيرودا	ت محمود السيد علي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا روما	ت ماهر جويجاتي
الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد بركة وعثمانى الميود ويوسف الأنطلي
مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بينبالبستي	ت . محمد أبو العطا
العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفي فطيم وعادل بمرdash
الدراما والتعليم	أ . ف . النجتون	ت رسمي سعد الدين
المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت محسن مسيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو عرسية لوركا	ت محمود علي مكي
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو عرسية لوركا	ب محمود السيد ، ماهر البطوطي
مسرحيتان	فديريكو عرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت مصري محمد عبد الفني
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيجور سميت	مراجعة وإشراف محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت محمد خير النقاى .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	ربيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	الان ورد	ب رمسيس عوض
في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرماندو سيسوا	ت المهدي أحريف
متاشا العذون وقصص أخرى	فالتين راسيوتين	ت أشرف الصانع
العالم الإسلامي في أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت احمد فواز متولي وهويدا محمد عيسى
ثقاه وحضارة أمريكا اللاتينية	أوجيبو تشايج رودريجت	ت عبد الحميد غلاب واحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرعى	داريو فو	ت . حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت . فؤاد مجلى
بقد استجابة القارى	چين . ب . توميكنز	ت . حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والممالك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت . حسن بيومى
فى التراحم والسير الذاتية	اندريه موروا	ت . أحمد درويش
جال لاكان وإعواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت . عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الانسى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المعصم مجاهد
العولة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت . أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبىنسكى	ت . سعيد الغامى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة النموع»	الكسندر بوشكين	ت . مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت . محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت . محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت . خالد المعالى
موسوعة الالب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت . عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت . عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صابقى	ت . أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت . ماجدة العنانى
الانقلا . بالفرغ	جلال آل أحمد	ت . إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتونى جينز	ت . أحمد زابد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ترباتس	ت . محمد إبراهيم مبروك
المسرح والجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت . محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح		
الإسبانيون أمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت . نادية جمال الدين
محدثات العولة	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت . عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت . فورية العشماوى
مختارات من المسرح الإشباني	أنطونيو بويرو بايخو	ت . سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث ربيقات ووردة	قصص مختارة	ت . إيوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت . بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزار الصهيونى	نماذج ومقالات	ت . أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ليفيد روبنسون	ت . إبراهيم قنديل
مسألة العولة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت . إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت . رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت . عز الدين الكتانى الإبريسى
قبر ابن عربى يلبه آباء	عبد الوهاب المؤنب	ت . محمد بنيس
أوبرا ماهوجسى	برتولت بريشت	ت . عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت . عبد العزيز شبيب
الالب الانلسى	د . ماريا خبوسوس روبييرامتى	ت . د . أشرف على سعدور

ت	محمد عبد الله الحدادی	نخبة	صورة الغداني في الشعر الأمريكي المعاصر
ت	محمود علي مكى	مجموعة من النقاد	ثلاث دراسات عن الشعر الأنثى
ت	هاشم أحمد محمد	جون بولوك وعادل درويش	حروب المياه
ت	منى قطان	حسنة ببحوم	النساء في العالم النامي
ت	ريهام حسين إبراهيم	فرانسيس هيندسون	المرأة والجريمة
ت	إكرام يوسف	ارلين علوى ماكليود	الاحتجاج الهادئ
ت	أحمد حسان	سادى پلامت	رأية التمرد
ت	سليم مجلى	رول شوينكا	مسرحتا حصاد كونجى وسكان المستنق
ت	سمية رمضان	فرجينيا وولف	غرفة تخص المرء وحده
ت	تهاد أحمد سالم	سيفتيا نلسون	امرأة مختلفة (درية شفيق)
ت	منى إبراهيم ، وهالة كمال	ليلى أحمد	المرأة والجنوسة في الإسلام
ت	ليس النقاش	بث بارون	النهضة النسائية في مصر
ت	بإشراف/ رؤوف عباس	أميرة الأزهرى سنيل	النساء والأسرة وقوانين الطلاق
ت	نخبة من المترجمين	ليلى أبو لغد	الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط
ت	محمد الجندي ، وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية
ت	منيرة كروان	جوزيف فوجت	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
ت	أنور محمد إبراهيم	نيل الكسندر وفنابولينا	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
ت	أحمد فؤاد طبع	جون جراى	الفجر الكاذب
ت	سمحة الخولى	سبديك ثورپ ديلى	التحليل الموسيقى
ت	عبد الوهاب علوب	فولفانج إيسر	فعل القراءة
ت	بشير السباعى	صفاء فتحي	إرهاب
ت	أميرة حسن بوميرة	سوزان باسنييت	الأدب المقارن
ت	محمد أبو العطا وآخرون	ماريا دولوريس أسيس جاروته	الرواية الأسبانية المعاصرة
ت	شوقي جلال	أندريه جوندز فرانك	الشرق يصعد ثانية
ت	لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)
ت	عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون	ثقافة العولة
ت	طلعت الشايب	طارق على	الخوف من المراهبا
ت	احمد محمود	بارى ج. كيمب	تشریح حضارة
ت	ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	للختر من نقد ت. س. إليوت
ت	سحر توفيق	كينيث كونو	فلاحو الباشا
ت	كاميليا صبحى	جوزيف ماري مواربه	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
ت	وجيه سمعان عبد المسيح	إيفلينا تارونى	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
ت	أسامة إسبر	عاطف فضل	النظرية الشعرية عند إليوت وأبونيس
ت	أمل الجبورى	هربرت ميسن	حيث تلتقى الأنهار
ت	سليم عطية	مجموعة من المؤلفين	أشياء عشرة مسرحية يونانية
ت	حسن بيومى	أ. م. فورستير	الإسكندرية تاريخ ودليل
ت	عدلى السمرى	ديريك لايدار	قضايا التطير في البحث الاجتماعى

صاحبة اللوكاندة	كارلوس حولونى	ت سلامة محمد سليمان
موت أرتفيد كروث	كارلوس هويتس	ت أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت على عبد الرؤوف البمبى
خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد نورست	ت عبد الغفار مكاوى

(نحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر	أنطوان تشيخوف
الجانب الدينى للفلسفة	من المسرح الإسباني المعاصر
الولاية	تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
المدارس الجمالية الكبرى	حكايات ثعلب
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	شامبوليون (حياة من نور)
بارسيفال	الحدورية الهاربة
العلاقات بين المتنبيين والعلمانيين فى إسرائيل	الإسلام فى السودان
عدالة الهنود	العربى فى الألب الإسراتيلى
جان كوكتو على شاشة السينما	آلة الطبيعة
الأرضة	ضحايا التنمية
غرام الفراغة	المسرح الإشباني فى القرن السابع عشر
بحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة	أبيولوجى
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	تاريخ الكنيسة
التجربة الإغريقية حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	فن الرواية
العنف والنبوة	ما بعد المعلومات
حسرو وشيرين	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	المهلة الأخيرة
وضع حد	الهيولوية تصنع علماً جديداً
التليفزيون فى الحياة اليومية	مدرسة فرانكفورت نشأتها ومعزاهها

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٥٥٥ / ١٩٩٩

الترقيم الدولي (7 - 144 - 305 - 977 - I. S. B. N.)



المجلس
الأعلى
للثقافة

المشروع القومي للترجمة

Tarek Ali

Fear of mirrors

العشاق - دائما - يريدون أن يعرفوا الحقيقة ، ولكنهم - أحيانا - لا يريدون أن يقولوها ...

وقد كان سقوط الشيوعية بالنسبة لبعض الألمان الشرقيين ، أشبه بنهاية علاقة حب طويلة ... ومؤلمة ... وعندما أصبح بمقدورهم فى النهاية أن يقولوا الحقيقة ، اكتشفوا أنهم لا يريدون الاستماع ... !

"فلادى" المنشق السابق ، الذى يفقد وظيفته عندما يرفض التخلي عن أفكاره الاشتراكية فى ألمانيا الجديدة ... المتحدة ... يريد أن يشرح لابنه معنى تورط عائلته الطويل مع الحركة الشيوعية . هى قصة "لودفيج" العميل السرى البولندى الذى جند "فيلبى" ، و "جيرترود" أم "فلادى" التى لا يضارع حبها لـ "لودفيج" سوى إخلاصها للمثال الشيوعى .

ومع الانكشاف التدريجى لخطوط الرواية من خلال الفوران السياسى العشرين ، يصف "فلادى" الآمال والأحلام الكبرى التى أيقظتها الثورة البلشفية ويكتشف الحقيقة المرة !

"الخوف من المرايا" رواية الكاتب الباكستانى طارق على (٥٦ سنة) التاريخ الغربى لأوروبا الوسطى من منظور أولئك الواقفين على الضفة الأمامية لساحة الحرب الباردة ، وهى عمله الروائى الثالث بعد «افتداء» ١٩٩٠ ، شجرة الرمان» ١٩٩٢ .